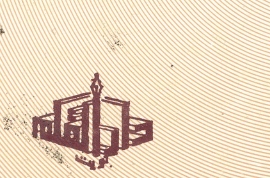


الدعوة الإسلامية في عهدها المكي

مناهجها وغاياتها

يف
ف شلبي
قطر





الدعوة الإسلامية في عهدها المكي
مناهجها وغاياتها

تأليف
الدكتور رءوف شلبي
أستاذ الدعوة بجامعة الأزهر
ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بجامعة قطر



الطبعة الثالثة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

دار القلم ـ الكويت ـ شارع السور ـ عمارة السور
ص.ب ٢٠١٤٦ ـ هاتف ٤٢٥١٦٠ ـ برقيا توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .

صدق الله العظيم

الإهــداء

إلى أرواح شهداء الدعوة الإسلامية الذين يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . .

تقديم الكتاب

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل مخلوق وخير مبعوث ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه ، ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه أن رسم لهم سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم ، وهو طريق لا استحالة فيه ولا مشقة ، لقد جربه الكثيرون ففازوا ، ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الدنيا والآخرة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُو مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يعمَلُونَ » .

هذه السعادة تتحقق للفرد باتباعه ، إذا حقق ما اشترطه الله عليه .

وتتحقق للأسرة إذا وفرت لحياتها ما اشترطه الله عليها .

وتتحقق للدولة إذا سهرت على تطبيق ما اشترطه الله على الأمة .

ولقد رسم القرآن الكريم شروط هذه السعادة فيما بينه من قوانين تتعلق بالحياة السلوكية للفرد والأسرة والجماعة ، لقد بينها الوحى بالتعبير الالٓهى ، فى دقته وروعته ، وجلاله ، وبينها الرسول الكريم فى تطبيق واضح وسلوك نقى وسنة مطهرة ، وإذن فالدعوة الإسلامية هى مناط السعادة للناس جميعا – أفراد وأسر وجماعات ودول .

لقد ظهرت الدعوة الإسلامية فى مجتمع تعج فيه الآراء الدينية ، والتقاليد البشرية ، فكانت الدعوة هى البلسم الشافى .

إنه فى الآونة التى كانت الآراء الدينية تتصارع فى جزيرة العرب قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدعوته .. وهى دعوة ربانية لم تنشأ عن تفكير انسانى شخصى ، ولكنها وحى الله المعصوم .. وهى معصومة لأنها وحى .. إنها معصومة عن التخبط والهوى فى الرأى . ومعصومة عن ضلالات الأوهام ومتاهات الخيال وانزلاق التفكير .

وأساس هذه الدعوة هو القرآن الكريم : إنه حبل الله المتين .. والنور المبين .. والشفاء النافع .. وهو عصمة لمن تمسك به .. ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ من استمسك به ولا تنقضى عجائبه .. ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ..

والدعوة الإسلامية بهذا القرآن الكريم تحمل فى طياتها قيمتها الذاتية ، وذلك سر انتشارها وسيادتها ..

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة – اذ ذاك – بنظام اقتصادى خلت منه الأنانية وبمنطق عقلى لا يوجد فيما كان من مأثور حينذاك

من الكلام الذى نسب للسيد المسيح عليه السلام . ثم هى تصحيح للفكرة الدينية جملة .

وهى كذلك تمتاز عن اليهودية بما فيها من البساطة والنضرة وتنزيه الله ورسله وأنبيائه جميعا .

أنها معصومة لأنها وحى الله وليست رأيا يجوز مناقشته أو تعديله

وهى دعوة موحدة لا مفرقة .. أنها دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » .

إنها إذن دعوة الرسل من قبل فهى موحدة تقرر أصولا فى ناحية العقيدة ، وشعائر العبادة ، ومبادىء القانون والأخلاق .

ومع أن الدعوة الإسلامية لخير الناس جميعا ، وليست دعوة لأنانية أو عصبية ، فإن العرب قابلوها بصراع متعدد الألوان غير أن الدعوة اتخذت من أجل هدايتهم أحكم الوسائل وأعظم المناهج .

ولقد كان إثبات الرسالة لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأهداف الأساسية فى هذه الرسالة .

وأن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هى إقناع الناس برسالته وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع واختلفت أساليبه . ولقد بدأ الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأسلافه بإثبات أنه رسول . وأنه متصل بالسماء ، وأن الذى يأتيه إنما هو وحى يوحى ، ولكن العرب سخروا من دعوته فتحداهم بعنف : وتحداهم متدرجا بهم . ومع أنهم أساطين البلاغة وأهل الفراسة غير أنهم أفحموا وانتهى الأمر إلى أن الذى يأتيه إنما هو وحى من عند الله .

قال تعالى : (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآن لاَ يَأْتُون بِمِثْله ولو كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

لقد لبث فيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل أربعين عاما ولم يحدثهم بنبوة ، ولم يحدثهم برسالة ، ولم يكن من مشاهير رجال الشعر ، فلم الشك فى أمره ؟ مع أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو أخبرهم أن خيلا وراء الوادى تريد أن تغير عليهم لصدقوه ، فقد قالوا له : ما عهدنا عليك كذبا .. فلم الشك فى أمره ؟ : (قُل لو شَاءَ الله ما تَلَوْتُه عَلَيْكُم ولا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَد لَبِثْتُ فِيكُم عُمْرًا من قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون) .

(قُل إِنَّمَا أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إلى ...)

إنه صلوات الله عليه وسلامه بشر ؛ وما يجول فى خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر خاص .. إنه بشر يوحى إليه ، وما يتأتى قط أن يوحى إليه إلا وقد اصطفاه الله .

(اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ ...) .

(اللهُ أَعْلَمُ حيْث يَجْعَل رِسَالَته ...) .

غير أن بعض الناس حينما يقرأ قول الله تعالى : (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) يقف عند كلمة (بشر) ، ويحاول التركيز عليها ، واستقطاب الانتباه حولها ، فيتحدث فى إسهاب عن خصائص البشرية العادية ، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعا لا يتناسب مع عجز الآية (يوحى إلى) وينسى قول الله تعالى :

(وما يَنْطِقُ عن الهوى) .

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين) .

والله سبحانه ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله عليه . مع العدالة الحاسمة . فعدل عن ذلك إلى الرأفة والرحمة .. إن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك إنما يمدح الرسول صلوات الله عليه وسلامه يبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه صلوات الله عليه وسلامه .

ولم يلغ الله جل شأنه اتجاها عاما سار فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقص كلمة أقرها صلوات الله عليه وسلامه . ولم ينف مبدأ أثبته رسوله الأمين فيما كان يسير عليه : ولقد شهد له الله بذلك فقال :

(وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِرَاطٍ مسْتَقِيم صراط الله) .

ولقد جعل الله طاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – طاعة لجلاله :

(ومَن يطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أطَاع الله) .

ومن هنا فإن من يركز على (بشر) فقط، من المستشرقين ومن لف لفهم إنما يتبع فى ذلك زعيم الجاهلين عندما قال : إنما أرى يتيم أبى طالب .

إن النظرة إلى الدعوة الإسلامية من الوسائل التى تثبت صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولقد تابع هذا الاتجاه العالم الكبير ابن خلدون فقال :

ومن علامتهم أيضا : دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة والصدق والعفاف ..

وقد استدلت خديجة على صدقه – صلى الله عليه وسلم – بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلته

وهرقل حين جاءه كتاب النبى – صلى الله عليه وسلم – يدعوه إلى الاسلام أحضر من وجده فى بلدة من قريش وفيهم أبو سفيان يسألهم عن حاله . ثم انتهى من مناقشته لأبى سفيان إلى قوله :

« إن يكن ماتقول حقًا فهو نبى وسيملك ما تحت قدمى هاتين » .

وكان فى الجو العربى نزعات تتجه نحو توحيد الله ، لقد كان هناك الحنفاء الموحدون . والحمس الذين يفتخرون بالنسب إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكان هناك غيرهم من الذين اشركوا مع الله غيره فى العبادة لا فى الخالقية فتصدت الدعوة الاسلامية إلى

هؤلاء فى استفاضة وفى تنوع من الأدلة لا لإثبات وجود الله فإن هذه القضية لم تكن فى يوم هدفًا من أهداف القرآن . . ولم تكن فى يوم من الأيام هدفًا من أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أحد أصحابه رضوان الله عليهم ، وذلك أن الإيمان بوجود الله مسألة بدهية ، ولذلك فإن الهدف الأكبر كان هو إثبات التوحيد لله جل شانه ، فيستدل القرآن بالمشاهد الصادقة (لَوْ كانَ فيهِمَا آلِهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتا) .

ويستدل بالمنطق الوجدانى !

(قُلِ الحَمْدُ لله وسَلاَمٌ عَلَىَ عِبَادِه الَّذِين اصْطَفى الله خَيْر أَمَّا يُشْرِكُون) .

(أَمَّن خَلَقَ السَّمَوات والأَرْض وأَنْزَلَ لَكُم مِّن السَّمَاء ماءً فأَنْبَتْنَا بِه حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كَانَ لَكُم أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُم قَوْمٌ يَعْدِلُون) . .

لقد كانت هذه الرسالة التى نقدم لها اليوم واحدة من الاتجاهات السلفية التى اتخذت منهاج بحثها الاعتزاز بالذاتية الإسلامية ، كأساس للدراسة فإن من أصبح وأمسى وقد رضى بالله تعالى ربًّا وبالاسلام دينا ، فقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه ..

وهذا الكتاب الذى أعده واحد من أبنائنا الذين نعتز بهم جدير بالإهتمام .. لأنه يوضح جانبا من الثقافة الإسلامية على منوال سلفى واضح .

نسأل الله له التوفيق والسداد . .

هذا وبالله التوفيق . .

عبد الحليم محمود	١٧ من رجب ١٣٩٣ هـ
شيخ الأزهر	١٦ من أغسطس ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين باحسان إلى يوم الدين وبعـــد :

فان حاجة العالم أجمع للدعوة الإسلامية كان أمراً حتمياً تمليه الظروف الحضارية والسياسية والعسكرية والدينية والاقتصادية التي كان يعيشها الإنسان الجاهلي : في أمة العرب ، أو في أمة فارس ، أو في أمة الرومان .

ذلك لأن العقيدة وهي غاية الغايات لبني آدم إذ لم يخلقوا إلا ليعرفوا ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد . . . هذه العقيدة كان قد تراكم عليها حطام الزنادقة في جميع بلدان العالم :

* فقد كان العرب في اعتقادهم قد انحرفوا عن ملة إبراهيم وتوجهوا نحو أصنام لا تضر ولا تنفع . . .

* وكان الفارسيون قد تخبطوا في اثنينية ماني بن فاتك ذلكم الحكيم الفارسي الذي ظهر في زمان « سابور بن أردشير » وقتله « بهرام بن هرمز بن سابور » .

فقد ذهب ذلك الحكيم المخرف إلى أن العالم مصنوع من النور والظلمة ثم اختلفوا بعد ذلك في العلاقة بين النور والظلمة . .

هل امتزجا بالخبط والاتفاق أو بالقصد والاختيار . . .

كما اختلفوا فى سبب هذا المزاج هل هو التشاغل ... أو شيء آخر..

ثم قالوا : إن المزاج القديم هو :

امتزاج الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة :

وأن المزاج الحديث هو :

الخير والشر ...

ولم يكن فى حلبة المحكمة سوى مانى بل كان هناك مزدك الذى ظهر أيام قباذ والد انو شروان ، ونهاية مذهبه شيوع فى النســـاء والأموال والخلاص بالانتحار .

* كما تخبط الرومانيون فى عقائدهم فالألوهية عندهم أسرة تتناسل : تعيش وتموت ، وتحب وتكره ، وتغار وتكيد ...

فالإله (جوبيتر) يغضب على إله العلم والصناعة (بروميثيوس) لأنه يعلم الإنسان كيف يستخدم النار فى الصناعة فيعطيه قوة تصارع قوة الأرباب .

كما كان (جوبيتر) يخدع زوجته (هيرة) فيرسل إليها الغمام ليحجب عنها الشمس حتى لا تراه مع عشيقاته .

كذلك كان الإله (جوبيتر شرها يحب الطعام لذلك كان يغضب على الإله (استولاب) إله الطب ، لأنه يداوى المرضى وبذلك يحجبه عن جباية الضرائب على أرواح الموتى .

* وفى الهند عجب عجاب آلهة تتوالد وتتناسل وبعضها لما يوجد فبينما الآلهة : براهما ، وفشنو ، وسيفا تتصاهر نجد لها زميلا لما يولد بعد هو الإله كلاكى KALAKI فهو إله بلا وظيفة ... بل إن وظيفته لما تحدد بعد .

وفى زيارة لى لجزيرة بينانج PINANG بماليزيا الغربية زرت معبداً لابن الإله سيفا وسألت الحارس معبد من هذا ؟ فقال لى معبد ابن الإله سيفا .. فقلت له : وأين أبوه قال لى : إنه تحت هناك أسفل الجبل .. فقلت له : ولم تركه أبوه ؟ ألم يخشى عليه صعود الجبل ؟ ألا يخشى أن تأكله الثعابين ؟ أو أن يضربه الأطفال .. ؟ ! فنظر إلى الرجل ونام ، فقلت له : هل تعلم لماذا مات ابن الإله سيفا ؟ قال : لا . قلت له : لأن الأطفال ضربوه على رأسه بعرف شجرة الرمبوتان ؟ !

هل نترك العقائد هكذا يعبث بها البشر . . آلهة تصنع من الحجارة ، وخرافات تنظم عقائد ، وفلسفة تقدس البشر ، ومصالح شخصية تجعل الأسطورة ديناً . . .

لقد كانت الرسالة الإسلامية ذات أهمية خاصة لتصحح مسار الاتجاه الدينى فى البشرية بعد أن ضلت طريقها إلى العقيدة الصحيحة والإيمان المستقيم .

وكذلك كان لابد من مجىء الدعوة الإسلامية لتضع ميزاناً كريماً للأخلاق . . .

فهل ستظل الأخلاق موجة بالمبدأ الشخصى عند السفوسطائية ؟ ذلك المبدأ الأنانى الذى يثير الفوضى فى كل اتجاه . .

أو بمبدأ المعرفة دون احترام لبقية مكونات الإنسان وظروف حياته ؟ . .

أو ميزانها الوسط وما هو المعيار فى معرفة هذا الوسط وهل الميزان فى الفضيلة المجردة واحتقار الحياة وأساليبها ؟

أو هل المعيار هو اللذة والمنفعة سواء كانت قريبة أو بعيدة خاصة أو عامة . .

هل الخليط الفلسفى المختلف فى معيار الأخلاق وميزانها هو الرصيد الذى تحتاجه البشرية لمعرفة كمال الأخلاق التى تتفق مع كرامة الإنسان ؟

وهل الإنسان قادر على أن يشرع لأخلاق زملائه من البشر؟ ومن هو ذلكم الإنسان الذى يستوعب أفق عقله كل امكانات البشر النفسية والعصبية والعقلية حتى يضع لهم ميزاناً للأخلاق ومعياراً للسلوك . . . ؟

لذلك كانت الدعوة الإسلامية حتمية لإراحة الإنسان فى مجال الأخلاق من مهاترات نظريات الفلاسفة المختلفين . وكذلك فى السلم والحرب ، وفى العلم والتعلم ، وفى الاجتماع والأسرة ، وفى الحرية والرق . . . كان لابد لليل الكئيب أن ينتهى وتأتى شمس الحقيقة لتنير للناس الطريق الصواب : فى العقيدة والأخلاق والسلوك ، والسلم والحرب ، والعلم والتعلم ، والعمل والانتاج ، والحرية والرق ، والأسرة والمجتمع ، والدولة والأفراد . .

بل ، إن الدعوة الإسلامية كان لابد وأن تأتى حتى ولو كان المجتمع الإنسانى فاضلا لتنتقل سلوك المجتمع من العادة إلى العبادة لأن الغاية من وجود العباد فى حياتهم الدنيا هى عبادة الله وحده ، وهم قد عبدوا بالفعل لكنهم عبدوا أهواءه ، واخترعوا أديانا ما أنزل الله بها من سلطان . . . فكان لابد للدعوة الإسلامية أن تأتى لهذه المهمة ويظهر ذلك جليا فى قول الله تعالى :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب .

فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير »
(١٤ — ١٥ — الشورى)

ولقد صادفت هذه الدعوة من القوى المعادية لها مثلما تصادفه اليوم .

لقد صادفت من العلمانيين أصحاب الشهوة والملذات والمنفعة الشخصية صدا بالحرب ، والإشاعة ، والصد ، والقطيعة . . . وجلب الفكر المعادى . . . كما صادفت الصليبية بقسميها : المتعصبة والعسكرية الغازية .

كذلك لم يمهل اليهود عمر الدعوة منذ سمعوا عن بعثة سيدنا محمد ﷺ فألبوا عليه الخصوم من بعيد ، ثم شرعوا أسنة الرماح وحاكوا جلابيب الغدر والخيانة وزينوا للنفاق والمنافقين مقاعد فى حصونهم .

وبنفس الأسلحة المعاصرة :

التقدمية فى لغة الشيوعيين

القومية فى لغة العلمانيين

الدهاء والمراوغة والإشاعة فى لغة المنافقين

اللقاء الروحى والسلام الاجتماعى فى لغة الماجنين

والاعتقالات ، والسجون ، والحصار الاقتصادى ، والزحف العسكرى ، والتضليل السياسى . . . كل ذلك واجهته الدعوة منذ عهدها المكى . . . لكنها استطاعت أن تتخطى الحواجز ، وأن تتغلب على الصعاب لأنها لم ترتجل العمل ارتجالا ، ولا ركنت إلى المعجزات كوسيلة ، بل اتخذت لها — كما أراد لها ربها — المناهج ، والمراحل ، والوسائل ، وساوقت بين المرحلة ، والوسيلة ، والمنهج حتى :

صنعت جماعة لا تعرف العرقية ، ولا العصبية ولا الثأر للذات ، ولا التفانى

فى مجد الأسرة ولا حب الديار من أجل ليلى بل تعرف العقيدة آصرة ، ومحل قرابة ، ووطنا لجميع المسلمين .

ثم تخطت بهذه الجماعة إلى بناء المجتمع الذى أقام أول دولة ذات أيديولوجية لا تقوم على أساس من الميراث الملكى ، ولا الغلبة العسكرية ، ولا على الجنس الواحد بل قامت بناء على رغبة من جميع بانيها ، وعلى أساس من العقيدة التى هي آصرة الولاء والإخاء واللقاء فى الله العلى العظيم .

وكان بناؤا هذه الدولة هم الأمة التى خاطبها الله جل جلاله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (الآية ١٤٣ ـ البقرة)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » . (١١٠ ـ آل عمران)

ولئن كان الله جل جلاله قد فتح على من فيوضات رحمته وعلمه فكتبت عن تصورى فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية فى عهدها المكى لأبرز المراحل، والوسائل، والمناهج التى أسسها سيدنا رسول الله ﷺ فى تبليغ الدعوة لتكون لنا أسوة ونبراسا ، فسوف أحاول إن شاء الله أن أضع تصورى عن الدعوة فى عهدها المدنى من حيث المناهج والغايات كذلك ، وكان ذلك عزمى منذ عشرة أعوام لولا أننى تركتها لعل بعض أبنائى فى قسم الدعوة أو فى كلياتها يكون لهم الحظ فى التشرف بالاضطلاع بخدمة الدعوة فى هذا الجانب . .. إلا أننى حتى هذا الحين لم أجد من كتب فيه ... فعزمت بحول الله تعالى وقدرته على الإقدام لهذه المحاولة عسى الله جل شأنه أن يهبنا الفتوح والمدد كى أكمل خدمتى للدعوة الإسلامية فى طوريها : الطور المكى الذى أقدم له بهذه المقدمة للطبعة الثالثة .

والطور المدنى الذى أتعشم وآمل فى فضل الله أن يرزقنى نعمة التوفيق فى حسن آدائه وكتابته والله من وراء القصد وهو وحده مالك الملك بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والدعاة المخلصين والتابعين باحسان إلى يوم الدين[1] .

انتهى فى الدوحة — قطر

عصر يوم الأربعاء ١٩ من رجب مضر ١٤٠٢ هـ
١٢ من مـــايو ١٩٨٢ م

دكتور
رءوف شلبي
الأستاذ المعار إلى جامعة قطر

---

(١) راجع المعلومات حول ما جاء فى هذه المقدمة فى الكتب التالية :
* الوحى فى الإسلام وأهميته فى الحضارة الإنسانية
* آلهة فى الأسواق — د / رءوف شلبي
* يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
* فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة — تحقيق دكتور سليمان دنيا

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد

فإن أحلى كلمة تقال وتصعد إلى الله مع الكلم الطيب هى كلمة الدعوة : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) . وإن أشرف وظيفة على الأرض يتشرف بها الإنسان المسلم هى وظيفة الدعوة : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . .) . .

إن كل الوظائف على وجه الأرض تصدر عن تنظيم بشرى أو قرار من سلطة الأرض إلا وظيفة الدعوة فإنها تصدر عن تفويض ربانى وتوكيل عن النبوة العاقبة الخاتمة : (العلماء ورثة الأنبياء) . .

لهذا استحقت الدعوة الإسلامية هذا الشرف المجيد واستحق المشتغلون بها تكريما خاصا وكان عليهم تجاهها واجب يثابون عليه أداء ويعاقبون عليه اهمالا .

ولما كانت مادة الدعوة الإسلامية لم تحظ من قبل بتقعيد على لموضوعاتها بحيث يدرك السامع حدود وأبواب وفصول وميادين العمل لهذه المادة كما حظى الفقة والأصول وعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ.. الخ . . .

لقد كان من الواجب الذى يثاب عليه بالأداء ويعاقب عليه بالترك والإهمال أن تبذل جهود جمة لإبراز موضوعات الدعوة الإسلامية فى إطار أكاديمى علمى حتى تكون نبراسا يستضاء به فى الأحوال والظروف والملابسات المتشابهة . .

ولقد تفضل الله جل شأنه فمنحنى من واسع فضله العون لأفتح للمشتغلين بالدعوة الإسلامية هذا الباب ولأقدم طرفا من الواجب نجاه أحلى كلمة تقال وتصعد إلى الله مع الكلم الطيب . . وأعظم وظيفة يصدر قرارها من عند الله ورسوله الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام . .

فكانت هذه الرساله منحة ونعمة وتوفيقاً من عند الله . . أعرض نواحيها الثلاث فى هذه المقدمة عرضا موجزا .

اولا : الدافع

الدافع إلى هذا البحث أمشاج من الظروف :

(ا) منها البعيدة والقريبة .

(ب) ومنها العالمية والخاصة .

١ ـ أن أخص خصائص وظيفة الإنسان على وجه الأرض هى العبودية لله .

والعبودية هى : أن تسجد جوارح الإنسان وقلبه وعقله لله وحده ، ولا يتأتى مطلقا أن تتحقق هذه العبودية إلا إذا كانت القوامة عليه من الأفق الأعلى الكريم عن طريق الوحى الأمين .

ولقد استطاعت التربية الإسلامية عن طريق هذا الوحى فى العهد النبوى المضىء ببركة النبى صلى الله عليه وسلم أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذا الدين والاعتياد على السلوك ، والأخلاق ، والعادات ، والتقاليد ، التى أنشأتها معالم المنهج القرآنى فكانت النقلة البعيدة من : (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) فى جوها الجاهلى .

إلى :

(... وَلَا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ...) .

وبهذه العبودية التى حققها الرعيل الأول أنشأ القرآن « دولة الإسلام » أعز دولة فى الوجود لم يكن لها من مآرب سوى أن تكون العبودية فوق الأرض لله وحده ، فلا تسجد الجباه ، ولا تخفق القلوب ، ولا تقشعر الأبدان ، إلا لجلال الله وعظمته وكبريائه ، وبذلك فقط تتحقق للإنسانية كلها معانى الكرامة والسعادة فى الحياة.

ثم كانت نكسة المسلمين وانزواؤهم عن المنهج القرآنى حتى وقفت البشرية اليوم على شفا جرف هار ، وذاقت مرارة ضياع الدولة الإسلامية التى كانت تصون ـ بالعبودية لله ـ كرامة الإنسان وتضمن له الأمن على ماله وعرضه وحياته كلها ..

لقد كانت مأساة إنسانية عامة يوم خسر العالم دولة الإسلام.. وإنه ليتذوق اليوم أنواعا شتى من مضاعفات هذه الخسارة .

إن نار الحرب التى تتأجج فى كل جانب من جوانب الأرض .

وإن الشقوة الاقتصادية التى أعمت عيون الإخصائيين مع الحيارى التائهين فى أزقة الجوع والحرمان ...

وإن تزعزع الأمن للفرد والأسرة والدولة ...

وإن انحراف الأخلاق التى مزجت فى الشكل والموضوع تقاسيم الرجال بالنساء ...

وإن الرعب العسكرى الذى يحيط بالكرة الأرضية كلها ...

وإن الضياع الفكرى الذى امتلأت به بطون كتب إبليسية تهوى بقيمة العقل فى مستواه الإنسانى ، إلى مستوى الأنعام بل أضل .

إن كل ذلك من المضاعفات التى جناها العالم كله نتيجة لضياع دولة الإسلام الحنيف وصدق الله العظيم : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

ولن يعود للإنسان معناه وقيمته وكرامته إلا إذا عاد إلى العبودية لله وحده ، ولن يتأتى مطلقا أن يحقق الإنسان العبودية لله وحده إلا إذا عادت القيادة إلى القرآن الكريم وحده : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) .

فالقرآن وحده هو الذى يملك توجيه الحياة إلى الصراط المستقيم والإسلام وحده هو الذى يملك إعادة بناء الانسانية ليعود للإنسان معناه وقيمته وكرامته : للمسلم ولغيره على السواء .

والسؤال الآن : هل فى حياة الدعوة الإسلامية منهج يُمكِّن من إعادة هذا البناء ؟ ؟

٢ـ لقد قامت فى هذه القاعة الكبرى بالجامع الأزهر الشريف عدة دورات دراسية عن أسلوب العمل مع الجماعة لمجموعات من شباب الأزهر الذين شِئَ لهم حسبما زعم يومها أن يكونوا رواد العمل الاجتماعى فى الوحدات المجمعة التى تتبع وزارة الشئون الاجتماعية لخدمة الريف المصرى .

وكان اساس هذه الفكرة ادعاء أن الثقافة الأزهرية أو الإسلامية خالية من أسس ومناهج العمل مع الجماعة . . وأكد المدرسون الذين اختيروا من خريجى جامعات أوربا وأمريكا ذلك الزعم . . فهل كان ذلك حقا ؟ . .

٣ـ ثم مضت أيام وتبدلت أحوال وكرّمنى الله جل شأنه فأنابنى الأزهر الشريف عنه فى تبليغ الرسالة بالقطر الحبيب أندونيسيا وكلفت بتدريس مادة الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث بكلية أصول الدين بسومطرة الجنوبية PALEMBANG فوقع فى نفسى أنه لايمكن تدريس مادة الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث إلا إذا عدنا إلى مرحلتها الأولى فى العهد النبوى ، والناس يومها فى رحاب النبى الكريم يتشرفون بالاتصال بالملإ الأعلى ، وبالوحى الذى يترى ويأخذ بأيديهم رويدا رويدا إلى العبودية لله وحده . . لاسيما أن ناسا فى أندونيسيا تعدادهم يزيد أو ينقص على أربعة ملايين من البوذيين

مازالوا يعكفون على عبادة الأصنام ومنطقهم كمنطق الذين مضوا : ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ﴿ . . . مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . . . ﴾ . .

٤ ـ وكان هناك دافع آخر هو ماتعانيه الدعوة الإسلامية من الفشل حتى تعرضت للتصفية ولم يبق لها كما يقولون من أثر بعد عين إلا الجامع الأزهر الشريف الذى تتكأكأ عليه محن وإحن . . .

فهل هذا الفشل العام الذى أصاب حقل الدعوة الإسلامية سببه خروج العاملين عن المنهج الذى حدده الله للدعوة ؟ . .

تلك هى الدوافع أو هى كلها الدافع الذى وجهنى لتحمل مسئولية شرف هذه الدراسة منذ عام ١٩٦٤ م . .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ثانيا : المنهج

والمنهج الذى التزمته بتوفيق الله عز وجل فى عرض هذه الدراسة قام على ركيزة خاصة هى : (الذاتية الإسلامية) . .

إن الذاتية الإسلامية ليست مفهوما يصور فى حدٍّ أو رسم منطقى أوفلسفى ولكنها سلوك عملى قدم له الرعيل الأول إطاره الذى يعيه العقل المسلم وتطبقه الجوارح الخاشعة . .

لقد قال سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه لأمه :

والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت واحدة واحدة ما تركت دين محمد صلى الله عليه وسلم . .

وقالت : زنيرة يوم عذبوها فكف بصرها فقالوا : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا والله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . .

والذاتية الإسلامية فى حدودها الإسلامية هى مايصفه سيدنا عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه : كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

لقد كان هناك قصد من الجماعة الإسلامية نفسها أن يكون النبع الذى تستقى منه هو القرآن الكريم وحده . . وهى يوم أن تستقى من القرآن الكريم لا تستقى للثقافة والعلم أو للنهضة الفكرية أو للحركة الدائبة فى الدراسة والبحوث والمناقشة ، ولكنها كانت تستقى منه لتحقق العبودية المطلقة لله وحده . .

وكانت الأمة الإسلامية تستقى من النبع الصافى وتتخرج عليه وتتكيف به لذاته لا لفقر عالمى فى الثقافة أو جدب فى العلوم والمعارف .

فلقد كان للعرب أسواق للأدب والحكم . .

ولقد كان لفارس والروم والهند والصين ثقافات ومعارف . .

ولكنها كلها نبع طينى لاينهض لبناء حضارة تقوم العبودية فيها لله وحده ، ويتحقق بها للإنسان معناه وقيمته وكرامته . .

ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غضب لورقة من التوراة كان يقرؤها سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له : والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعنى . .

كان يقصد عليه الصلاة والسلام بهذه الغضبة الربانية أن يظل النبع الصافى الذى تستقى منه الأمة الإسلامية ماء حياتها هو القرآن الكريم وحده . .

وإذن فالركيزة التى يجب أن يقوم عليها منهج البحث الإسلامى عامة . . وخاصة فى مجال الدعوة ورسالتى هذه : هى الذاتية الإسلامية . . تلك التى جعلت الدنيا كحلقة مغفر فى يد الرعيل الأول فأقاموا دولة العبودية لله فى أقل من ربع قرن وصار فى خلالها الرجل يسير من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . .

وحدات المنهج :

أولا — قسمت الدعوة إلى قسمين رئيسيين :

١ — دور العرض . .

٢ — دور الدفاع . .

ثم قسمت دور العرض إلى قسمين :

١ — دور العهد المكى . . وهو موضوع هذا البحث .

٢ — دور العهد المدنى . وهو بحث أسأل الله تعالى أن ييسره لى لتتم نية صالحة لخدمة الدعوة الإسلامية ..

ودور الدفاع ينقسم إلى قسمين :

١ — دفاع عن المجابهة الفكرية الثقافية .

٢ — ودفاع عن الخصومة التاريخية .

فموقع هذه الدراسة ومكان هذا البحث من هذا التقسيم هو العهد المكى فقط ، لأنه النواة الأولى التى ستترعرع بعد إن شاء الله فى العهد المدنى لتتكون منها (. . . خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلنَّاس . . .) . .

ثانياً : قسمت دراسة العهد المكى إلى :

١ — مرحلة تمهيدية تصور البيئة التى نشأت فيها الدعوة ، وكيف هيأ الله تعالى نبيه محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى هذا الجو ليكون للعالمين نذيرا ، واستتبع هذا العمل تحديد المراد من اصطلاح الدعوة الإسلامية فقدمت حديثا عن التعريف بالدعوة الإسلامية وناقشت بعض الآراء التى تعرضت لتحديد المراد من هذا الاصطلاح ليكون حادى الطريق فى دراسة العمل الإسلامى مستقبلا إنْ فى العهد المكى أو فى العهد المدنى أو فى دور مناقشة الخصوم والمجابهين للدعوة فيما بعد إنْ شاء الله .

٢ — ثم دراسة التحرك النبوى منذ بدئ نبيا بالرؤيا الصالحة لاستنباط وحدات المناهج التى قدمتها الدعوة الإسلامية منذ القرون الوسطى لتكون أسلوبا عمليا للعمل مع الجماعة ، فى مستقبل حياة الأمة الإسلامية (وَلَكُم فى رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) .

ثالثا : التزمت فى دراسة هذه المرحلة تاريخ الدعوة من مصادر رئيسية ثلاثة :

* القرآن الكريم وعلومه . .

* والسنة الإسلامية وشروحها . .

* وكتب السيرة المعتمدة وخاصة مادونه السالفون الذين تسمح حياتهم الاجتماعية بالثقة والاطمئنان إلى ما كتبوه بوعى وإخلاص .

وقد استبعدت فى عرضى لهذا الدور المكى المناقشات مع الخصوم ، كما رفضت الأخذ فى كتبهم فلهم دور سيأتى فيما بعد إن شاء الله.

رابعاً : اعتمدت فى إبراز نتائج وغايات الدعوة الإسلامية على القرآن الكريم المكى وحده لأنه منبعها الأصيل الذى قصد به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون وحده المنبع الذى تستقى منه الأمة الإسلامية ماء حياتها ، وقد أثبتت الأحداث التاريخية فيما بعد صحة وصدق ذلك فى التربية والبناء . .

خامساً : درست النظريات الحديثة بعد انتهائى من إستيعاب ما كتب عن العهد المكى فى مراجعه الأصيلة ، لأتعرف على مقدار ما اقترضه الغربيون ثم أصبحوا به يفتخرون . .

سادساً : كنت أحاول أن أختبر وحدات المنهج التى استخلصتها قبل تدوين البحث فى البيئة المماثلة للحياة الجاهلية حيث منحنى الله جل شأنه فرصة التشرف بالعمل الإسلامى فى ماليزيا فى وظيفة تتساوى مع طبيعة البحث ودراساته . .

سابعاً : مع وضوح المعلومات فى رأسى حسبما كان يرزق الله جل شأنه ، فإنى كنت أنتظر دائماً لحظات تفضله جل وعلا أن يشرح لى صدرى للكتابة . . . وكثيراً ما كنت أبدؤها بعد صلاة ركعتين لله تقربا وشكراً ودعاء . .

ثامناً : اخترت فى عرض مادة الرسالة الأسلوب الذى يتفق مع الذاتية الإسلامية ، فلم أجنح إلى صرامة الأسلوب الفلسفى المنطقى الذى يعتمد على إثبات المقدمات وإقامة الملازمات ، ولم أجنح إلى الأسلوب الطنان البراق الأديب ، ولكن حاولت أن أكون مع أسلوب الدعوة حيث تكون هى منطقية كقرآنها أو وجدانية كقرآنها ، مرغبة أو مرهبة كقرآنها . . . لقد كان الأسلوب الذى أحاول به تدوين مادة هذه الرسالة هو أسلوب الدعوة الإسلامية حسب طبيعة مواقفها : صرامة وحناناً . .

فان أكن هديت فلله وحده المنة والفضل والله يهدى من يشاء . .

وإن تكن الاخرى . فكل انسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة — صلى الله عليه وسلم — . .

ومع هذا فقد كان الإخلاص لله رائدى والخير قصدى والله من وراء القصد ، استغفر الله لى ولكم وحسبى فى ذلك : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . .

هذا وبالله التوفيق　　　　متولى يوسف شلبى

الشهير : رعوف شلبى

الباب الأول

مناهج الدعوة الإسلامية في عهدها المكي

- الفصل الأول : منهج اثبات وحدانية الله تعالى ...
- الفصل الثانى : منهج العمل مع الجماعة ...
- الفصل الثالث : مراحل الدعوة ...
- الفصل الرابع : معالم فى طريق الدعوة ...

الفصل الأول

منهج إثبات وحدانية الله تعالى

تمهيد : حول مفهوم الدعوة الاسلامية :

فى مجال الحديث عن الدعوة الاسلامية يتحتم تحديد المفهوم من هذا الاصطلاح لكثرة بريق الشعارات والاصطلاحات فى العصر الحديث ، إنْ المواجهة للاسلام وإنْ غيرها ، حتى يتميز جانب الدعوة الاسلامية عن كل ما يغايرها ، سواء كان ذلك الغير ملتقيا معها أو كان مخالفا لها . .

والدعوة الاسلامية فى التصور العادى البسيط ليست مبادىء بيئة خاصة ، وليست ظاهرة اجتماعية لظروف خاصة . .

ولا هى مثل عليا فقط لجماعة مثالية من البشر . .

ولا هى دعوة مادية لإيواء المشردين ، واشباع الجائعين ، وكساء العرايا ، وإنما هى شىء غير ذلك نعالجه فى هذه المحاولة مع بعض المشتغلين بها بحثا وعملا .

(ا) مع فضيلة الشيخ على محفوظ :

فى كتاب « هداية المرشدين » تحت عنوان « مفهوم الدعوة » قال الشيخ رحمه الله تعالى :

(إن الدعوة إلى الله حياة الأديان ، وأنه ما قام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب ، أولا ثبت مبدأ من المبادىء إلا بالدعوة . .

وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد احكامها إلا بترك الدعوة ، فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب . سواء أكان الأمر حقا أم باطلا [1] » . .

فنى كلام الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ محاولة لتوضيح بعض مفهوم الدعوة كحركة تنفيذ وتطبيق للمبادىء المنشودة مطلقا ، فهى ظلال عامة لجزء من مفهوم الدعوة باطلاقها العام ، وليس فى كلامه بيان عن حقيقة التعريف الذى يجلى مفهوم الدعوة الاسلامية كاصطلاح . . وكل ما فى كلامه توضيح اتجاه حول مفهوم الدعوة بالنسبة لمبدأ ما كحركة حياة له . .

وعلى كل حال فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ قد فتح لنا الطريق وأعطانا إشارة للتفرقة بين الدعوة كحركة بناء لمبدأ ما وبين المبدأ كفكره تحتاج إلى هذا البناء .

وإذن :

فإن مفهوم الدعوة غير مفهوم الدين ، إذ الدعوة كما يذكر النص السالف ـ « حياة الأديان » ، إنها حركة التبليغ لمبدأ ما ، حقا كان أو باطلا « والمبادىء لا يقوم صرحها إلا بالدعوة . .

فالدعوة بالنسبة للدين أو للمبدأ عملية إبراز لوجوده وتنفيذه فى الواقع الحى الملموس . .

---

(١) هداية المرشدين ص : ١٤ .

ونمضى مع الشيخ — رحمه الله تعالى : — فنجده فى موضع آخر تحت عنوان « معنى الدعوة » يقول :

« الدعوة من الدعاء إلى الشىء ، بمعنى الحث على قصده . ومنه قول الله تعالى :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْه . . .[١]) .

(واللَّهُ يَدْعُوا إِلَىَ دَارِ السَّلَامِ . . .[٢]) . .

ومثلها الدعاية ، وفى كتاب هرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » ، أى بدعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملة الكافرة . »

وفى العرف :

حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل[٣] . .

بهذا التعريف حاول فضيلة الشيخ على محفوظ — رحمه الله تعالى أن يضع مفهوما لاصطلاح الدعوة الإسلامية بأنها : الحث على الخير والهدى . . . . الخ .

فأعطانا بهذه المحاولة — فى أقل تقدير — أن عملية الدعوة ليست هى الدين نفسه بل هى إيجاد الدين كسلوك واقعى محسوس . .

وهذا هو الذى يبدو فى تصور مفهوم الدعوة الاسلامية . .

---

(١) من الآية رقم ٣٣ من سورة يوسف .
(٢) من الآية رقم ٢٥ من سورة يونس .
(٣) المرجع السالف .

(ب) مع الأستاذ محمد الراوى :

ولهذا ، فإن التعريف الذى وضعه الأستاذ محمد الراوى فى كتابه : «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية » لم يكن دقيقا لأنه خلط بين : مفهوم الدعوة ومفهوم الدين وعبارته . .

فما هذه الدعوة إذن ؟ بعد أن تمت وكملت على يد خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ يمكننا أن نقول ، إنه دين الله الذى ارتضاه للعالمين تمكينا لخلافتهم ، وتيسيرا لضرورتهم . ووفاء بحقوقهم ورعاية لشئونهم . وحماية لوحدتهم . وتكريما لإنسانيتهم وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم هى الضوابط الكاملة للسلوك الانسانى وتقرير الحقوق والواجبات[1] .

فلم يفصل الأستاذ الراوى بين الدعوة كحركة لبناء الدين عمليا ، والدين كضوابط للسلوك البشرى تنزل بها الوحى الأمين على النبى المعصوم . .

فى الدراسات التى قام بها فضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز تحديد لمفهوم الدين ملخصه بأنه :

«جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوى الإلهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها[2] » .

وهذا يغاير فى دلالته مفهوم الدعوة الإسلامية . .

---

(١) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص : ١٢

(٢) الدين ، دكتور دراز ص : ٤٤

فالتعريف الذى ذكره الأستاذ الراوى لم يميز الدعوة الإسلامية عن مفهوم الدين ، بل أنه مزجهما وجعلهما شبه مترادفين . .

ولعل العذر الذى يلتمس له : أن مفهوم الدعوة الإسلامية قد استخدم استخداما سهلا ميسرا فى الأسلوب الخطابى أو فى التعبير الحماسى . .

بالإضافة إلى أن محاولة شرح مفهوم الدعوة الإسلامية ما زالت ميدانا بكرا لما يشرف بالعمل فى روضته باحثون . .

غير أن المتصدى للعمل الفكرى فى مجال الدعوة الإسلامية قمين به أن يبدأ بتحرير المراد من هذا الاصطلاح : الدعوة الإسلامية .

تحديد المراد من محاولة التعريف

ومن الخير أن أجلى موقفى من محاولة تحديد مفهوم الدعوة الإسلامية أنه ليس مسلكا تقليديا لما هو معروف عند المشتغلين بالدراسات المنطقية المتأثرين باستخدام الجنس والفصل : إن فى حدودهم التامة أو رسومهم فى التعاريف الخاصة بأبحاثهم وعلومهم . .

ليس ذلك مسلكى ، ولن يكون أبدا ، فإنه لا يليق بذاتية الدعوة الإسلامية أن يتواضع فكر الباحث فيها – وهو تحت ظلالها تفترض من أفكار غير قرآنية أجناسا وفصولا يصنع بها للدعوة الإسلامية حدودا أو رسوما توضح مفهومها .

ذلك لأن القضية من وجهة نظرى : أن الاشتغال بالدعوة الإسلامية حتى فى جانبها الفكرى ينبغى أن يكون بعيدا عن التبعية لاتجاهات

أجنبية غريبة عن بيئة القرآن الكريم . بعيدة عن المنهج النبوى الكريم ، ناشزة عن مقياس ومقومات الروح الاسلامية السليمة . .

وإنه فى رأيى — لمن الوهن فى العقيدة أن يرجع فى أبحاث اسلامية لا سيما فى الدعوة الاسلامية — إلى كتاب أو مرجع غير دستورها الأصيل الخالد : « القرآن الكريم . والسنة المطهرة » . وما منطق اليونان الذى استعمر الفكر الاسلامى منذ تعريبه وشغف الناس به إلا فساد للفكر الاسلامى . فقد أفسد علينا كثيرا من قضايا الفقه والأصول . حتى صارت صناعة التعريف أولى من تحصيل الأحكام وتطبيقها وصارت دراية ذلك أساسا لتقويم العالم . وميزانا لكتابته فى تلك الفنون . .

وما منطق اليونان على شهرته الممتدة إلا عبث ، وانحراف عن الطريق السواء .

ان شأنه فى ذلك شأن الفلسفة العقلية التى تبحث فى الغيب ، فتهوى فى جهل سحيق . .

وأشهر من تولى كبر هذا المنطق إنما هو « أرسطو » الذى يعتبره بعض المؤرخين أكبر عقلية فلسفية ظهرت على وجه التاريخ ، وهو أيضا أشهر الذين انهار — مذهبهم فى عالم ما وراء الطبيعة ، وكان اخفاق عقله هذا فيما يختص بمعرفة الغيب من أوضح الأدلة على أن عالم الغيب أسمى من أن يتناوله العقل البشرى الخطاء[1]

(١) المنقذ من الضلال ص : ٥٨ تحقيق فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود — راجع كذلك ص : ١٤٥ وما قبلها من كتاب « التفكير الفلسفى فى الاسلام » .

والدعوة الاسلامية مصدرها ما وراء الطبيعة أنها من وحى الله المعصوم إلى نبيه الخاتم المعصوم فهى لهذا أسمى وأجل. .

وهى بهذا أرفع وأقدس من المنطق البشرى الخطاء على أن تلاميذ أرسطو لم يعجبوا بمنطق شيخهم ، يقول الأستاذ « سانت لانا » بعد أن ذكر الاعتراضات على مذهب أرسطو :

« إن ذلك حمل التلامذه من بعد موته على الاياس من الإلهيات، والتفرغ إلى علم الطبيعة وعلم الأخلاق ، اختصوا بهما فى القرن الثالث قبل الميلاد حتى لقنوا بالطبيعيين[1] » .

فكيف يرضينا نحن الشباب المسلم بله الشباب من علماء الأزهر الشريف أن نأخذ من هذا العبث أجناسا وفصولا مخترعة من العقل البشرى الناقص الخطاء لتكون تحديدا لمفهوم دعوة ربانية أساسها الوحى المعصوم ؟ . .

على أن الإمام الغزالى ـ رحمه الله تعالى ـ لم يرتض هذا المنطق من قبل كآلة للفكر الاسلامى ، فيقول :

« وربما ينظر فى المنطق أيضا من يستحسنه ويراه واضحا فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلٓهية ، فهذه الآفة أيضا متطرقة إليه[2] » . .

---

(١) المنقذ من الضلال ص : ٥٩

(٢) المنقذ من الضلال ص : ١٠٣ .

والإمام الشافعى – رضى الله تعالى عنه يرفض المنطق اليونانى كمادة ثقافية للعقلية الاسلامية ، فيقول :

« ما جهل الناس ، ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم إلى لسان أرسطاليس[1] » . . .

والترتيب الذى صنعه أرسطو بالمنطق كان منسجما مع لغة اليونان التى تحتاج فى مجال البرهان بألفاظها إلى منسق . .

أما العربية ففيها من القواعد ، وأساليب الشرط والجزاء وأدوات الترتيب والعطف – والبيان والتمييز والاخبار ما يحكم الربط بين أجزائها ، يحكم الربط فى جرس موسيقى سليم . ويحكم الربط فى التئام المعنى مؤديا غايته مثمرا نتائجه فى صورة أبهى وأدق وأحكم من مقدمات أرسطو التى قد تكون كاذبة المضمون . والتى لا تفى بذاتها – ولو كانت صادقة – بالمقاصد الدينية على حد ما ذهب إليه الإمام الغزالى :

« أنهم يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة » .

« لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل[2] » . .

فهل بعد هذا يلج داعية مسلم بابا من كتب هؤلاء القوم ، سواء فى مجال التقعيد الثقافى لفكرة الدعوة أو فى مجالها التطبيقى ؟ .

---

(١) الاسلام والعقل ص : ٣٨ وما بعدها .

(٢) المنقذ من الضلال ص : ١٠٣ .

ولا مفر إذن من الإلتزام بالمنطق الاسلامى للحفاظ على ذاتية الدعوة الاسلامية بالعود إلى مصادرها الربانية التى عصمها الله تبارك وتعالى .

ومن أوليات هذا الإلتزام التجرد من التبعية مطلقا : تجردا من التبعية فى :

* الفكر . .
* وفى المنهج .
* وفى القصد . .

هذا التجرد يجب أن يكون مخلصا وخالصا لوجه الله وفاء لدينه الحنيف وإمتثالا لشريعته الغراء .

يروى الإمام أحمد — رضى الله تعالى عنه — بإسناد صحيح عن سيدنا جابر — رضى الله تعالى عنه — ان سيدنا عمر بن الخطاب أتى النبي — صلى الله عليه وسلم — بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه : على النبي — صلى الله عليه وسلم — قال ، فغضب ، وقال :

« أتتهوكون فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه أوبباطل فتصدقونه . والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا أن يتبعنى » .

ثم يقوم النبي — صلى الله عليه وسلم — خطيبا ليحدد معالم التثقيف للفرد المسلم ومصادر تعليمه فيقول :

« يا أيها الناس : إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه : واختصر لى اختصارا وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكون ولا يغرنكم المتهوكون » .

ثم أمر — صلى الله عليه وسلم بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا .

وتتكرر الحادثة ويتكرر نصح النبى — صلى الله عليه وسلم فيتضح أن الاستقلال بالدستورية الاسلامية فى التفكير والتثقيف أمر واجب..

يروى أن جريرا : قال : « جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ما جاء به غيره »(١) .

فجعل عليه الصلاة والسلام مجرد الميل إلى وحى آخر لنبى آخر يعتبر ضلالة فى العرف الاسلامى فكيف بالجنوح إلى خارج دائرة الوحى الالهى ؟ كيف بالجنوح إلى دائرة الفكر البشرى ؟ كيف بالجنوح إلى منطق ارسطو الذى ماقدر الله حق قدره ؟ . .

وتتكرر الحادثة مرة أخرى — ثالثة — ويتكرر معها نصح النبى عليه الصلاة والسلام فتتضح شرعية وجوب الاستقلال بالدستورية

---

(١) الاسلام والايمان ص : ١٨ : ٢١ . راجع مسند الامام أحمد ج : ٣ ص : ٣٨٧ مسند جابر .

الاسلامية فى التفكير والبحث . فعن الإمام الزهرى — رضى الله عنه — «أن حفصة — رضى الله تعالى عنها — جاءت إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — بكتاب من قصص يوسف فى كشف . فجعلت تقرؤه ، والنبى — صلى الله عليه وسلم — يتلون وجهه ، ثم أعاد عليها ما سبق أن قال للآخرين ، وهو :

« والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم[1] » .

ويستقر الأمر على هذا : على أن الذاتية الاسلامية فى البحث منهج واجب .

فقد مر الصحابة يوما على جماعة من اليهود . وهم يتلون التوراة ، فتخشع المسلمون فعاتبهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتلا

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[2]) .

(ج) مع الأستاذ البهى الخولى :

ولقد أحسن بهذا المنهاج الأستاذ البهى الخولى فعرف الدعوة الاسلامية تعريفا بعيدا عن دائرة المنطق البشرى ، ومهد لذلك بقوله :

« فما هى الدعوة مجردة عن التعريف الفنى والحد الاصطلاحى » ؟

---

(١) المرجع السابق ، ورواية الفتح الكبير : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم » ج : ٣ ص : ٤٩ . راجع رواية الامام أحمد ج : ٣ ص : ٣٣٨ .

(٢) الآية رقم : ٥١ من سورة العنكبوت .

فقد أدرك ببصيرة المسلم أن الدعوة الإسلامية بتركيبها لا تنسجم ولا ينبغى أن تنسجم مع قيود المنطق واحترازاته فأطلقها من هذا العقال لأنها ربانية فى وجهتها ومنهاجها

إنها ربانية فى كل شىء يتصل بها والمنطق الأرسطى بشرى فى كل شىء .

ولهذا فقد عرفها الأستاذ البهى الخولى بتعريف خاص بعيد عن قيود المنطق فقال :

« هى نقل الأمة من محيط إلى محيط »[1] .

ثم يعلل ذلك بقوله :

« ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته[2] » .

إن الذاتية الإسلامية هى الموقف الطبيعى الذى يجب أن يمارسه وأن يلتزمه المسلم العادى بله الداعية ولعل فى الحديث الشريف :

(رضيت بالله تعالى ربا . وبالإسلام دينا . وبسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم نبيا — ورسولا)[3] .

ما يلزم المسلم باتباع هذه الذاتية ، اتباعا فى التفكير ، وفى السلوك ، وفى المشاعر . وفى البحث . ويزكى هذا الاتجاه قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ، وولده . والناس أجمعين)[4] .

---

(١) تذكرة الدعاه ص : ٣٠ الاستاذ البهى الخولى .

(٢) تذكرة الدعاه ص : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) فى رواية أبى داود : (من قال إذا أصبح ، وإذا أمسى : رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا رسولا ، إلا كان حقا على الله أن يرضيه) .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم .

على بدء نعود

ظلال على التعريف

ونعود بعد هذا إلى محاولة تعريف الدعوة الإسلامية مستخدمين الذاتية الإسلامية منهاجا .

الدعوة عملية إحياء لنظام ما لتنتقل الأمة بها من محيط إلى محيط .

والدعوة الإسلامية على هذا حركة إحياء للنظام الإلٓهى الذى أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم .

هذا النظام الإلٓهى قد اتخذ له مجرى فى الحياة الانسانية فكان له :

تاريخ يحفظ للدعوة منهاجا . .

ودعاة حملوها للناس بمنهاجها الفاضل . .

وكان لها غايات حققت بها للبشر حياة ربانية . .

فاكتمل لهذه الدعوة فى الوجود الانسانى بناء دولة قامت على أسس الإسلام فحققت عبودية الانسان لربه ونشرت العدل والرخاء والبر للبشر عامة . وصانت الأمن النفسى والاجتماعى : والسياسى ؛ وأكرمت بنى الانسان قاطبه له لا فرق بين أبيضهم وأسودهم إلا بالتقوى ورعاية حقوق الله وقد انزوى فى ظلالها كل لون للتعصب ، وأفلس الشيطان وكسدت بضاعته : وبات حظ الماجنين فيها ضعيفا .

فانتشر فيها عبير الخلق المتاضل وشاع فيها الخير والتوادد والبر والتعاطف والتراحم والايثار . فأدى الانسان وظيفته التي خلقه الله لها : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ[١]) .

وسجدت لله فيها جباه عزت بطاعة ربها . وهدى بها إلى سبيل الحق وطريق الله خلق كثير . .

هذه الدعوة فى دولتها الإسلامية الأُولى هوجمت فى صورة الدولة الإسلامية . هوجمت من عناصر التعصب : القومى ، والتعصب الدينى اليهودى . والمسيحى . والتعصب بالخشوع للفكر غير الإسلامى فتصدعت .. تصدعت الدولة الأُولى وهى فى شرخ صباها ورواء فتوتها فتلاشت بهذا التصدع ركيزة العدل وإن بقى للدعوة أُصولها انجازا لوعد الله تعالى

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[٢]) . .

ومن هنا فإن المفهوم الذى نتصوره ونراه لائقا بتاريخ الوجود الإسلامى هو :

أولا

جانب الدعوة فى مبادىء النظام الإلهى الذى بعث بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله .

وأساس هذا الجانب فى التصور هو : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ..

---

(١) الآية رقم : ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية رقم : ٩ من سورة الحجر .

ويخص هذا الجانب : احياء الإسلام ، وبعثه من أصوله الثقافية النظرية إلى سلوك عملى أخلاقى فى الحركة والعمل والتعايش الانسانى .

ومهمة هذا الجانب : عرض الدعوة كفكرة ..

وتطبيقها كسلوك .

وتحتاج هذه المهمة إلى منهاج يستخدم فى العرض . وتحتاج كذلك إلى غاية تكون مقياسا صحيحا لمجال التطبيق ومداه . .

كما تحتاج إلى داعية يتشرف بالاضطلاع بأعباء العمل فى سبيل الله .

ثانيا

جانب الدعوة فى لقائها مع الخصوم :

(أ) الخصوم التاريخيين : الذين التقوا بها فى حروب الصليب وكان من نتائجها :

١ — الاستعمار الثقافى . .

٢ — التبشير المسيحى . .

٣ — الاستشراق . .

٤ — الاستعمار العسكرى . .

٥ — الصهيونية العالمية ويهودها . .

(ب) الخصوم الفكريين : الذين يجابهون الدعوة الإسلامية بمناهج ومبادىء عقدية ضالة مثل :

١ ـ الشيوعية وأسرتها . .

٢ ـ الوجودية وأخواتها . .

٣ ـ المبادىء الوضعية بتمامها : القاديانية ، البهائية ، البابية ، النصيرية ... ألخ . .

هذان الجانبان :

جانب الدعوة فى إحياء مبادىء النظام الإلٓهى . .

وجانب الدعوة فى مواجهة الخصوم . لهما هدف . .

هذا الهدف هو :

تنفيذ الرسالة الإسلامية ، وبعث الوجود الإسلامى لتعود الدولة الأستاذة. دولة الإسلام إلى سيرتها الأولى ، تخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربها مرة أخرى. تخرجهم من الحيرة إلى الطمأنينة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الظلم فى صورة العدل ، إلى العدل فى صورة الاحسان ومن الضعف إلى القوة ومن الذلة إلى العزة ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن عبادة الانسان إلى عبادة الرحمن

إن الظلال التى ألقيت على التعريف فى هذه المحاولة تتلخص فى هذه النقاط لتوضيح المراد من اصطلاح : الدعوة الإسلامية :

(أ) الحركة التنفيذية للمبادىء الإسلامية القائمة على أساس من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

هذه الحركة تتخذ لها منهاجا ؛ وغاية ؛ وداعية .

هذا الداعية ينبغى أن يكون ربانيا يرتفع بالعمل فوق كل الآمال والآلام وهذا الدور هو :

دور البناء .

دور العرض والتطبيق .

وهو باختصار : دور المناهج والغايات .

(ب) وبعد ما تكتمل للدعوة مقوماتها فى دولتها تحتاج ثمارها هذه إلى صيانة ودفاع تجاه محاولات الخصوم والمجابهين . .

وهذا هو :

دور الدفاع والمناصرة .

وهو باختصار : دور مجابهة الخصوم . .

نتيجة المحاولة

وإذن فمفهوم الدعوة الإسلامية عندما يطلق كاصطلاح يكون تصوره : الحركة الإسلامية فى جانبيها : النظرى والتطبيقى .

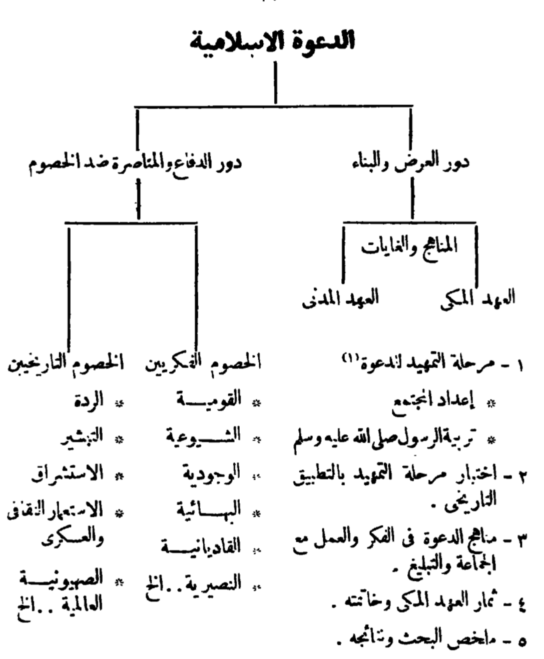
من حيث هى : حركة بناء للدولة الإسلامية .

ومن حيث هى : دفاع عن استمرار وجود الدولة الإسلامية .

وتلك رسالة جد شاقة تحتاج مع عون الله ووعده بالنصر إلى طراز خاص من الدعاة فى المستوى الفكرى والثقافى والسلوكى والأسرى ، وأقطار الحياة جميعا . من : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ »[1] .

---

(١) الآية رقم : ٨٢ من سورة الأنعام .



بناء على هذه الخطة فقد استبعدنا ما كتبه المستشرقون عن الإسلام والدعوة حتى ولو كانوا مخلصين تمشيا مع طبيعة الدراسة الذاتية الإسلامية إلى أن يحين اللقاء فى دور الدفاع لنلتقى بهم إن شاء الله .

---

(١) صدر الموضوع فى كتاب مستقل عن سلسلة البحوث الاسلامية بعنوان : بشائر النبوة الخاتمة .

منهج اثبات الوحدانية لله تعالى

(إِقْرَأْ باسْم رَبِّكَ . .) :

لقد انتهت مرحلة الاصطفاء بالرؤيا واختار الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا نبياً للعالمين جميعاً . . . . ونزل الوحى عياناً . . . وصدقة المترقبون له :لقد صدقت به بادئ بدء السيدة خديجة رضى الله عنها . لم تتوان فقد كانت تعمل لذلك منذ خمسة عشر عاماً وتقدر لهذا اليوم قدره فآمنت . وآمن من بعدها ورقة :فقد كان على علم به ؛ صفة ومكاناً واستبطاء ورقة نزول (إِقْرَأْ) وأنشد شعراً طويلا [١] ذكره أصحاب السير فتمت بذلك المؤكدات . .

إن البعثة المحمدية لم تكن على غفلة من الزمن والأحداث . وأنه لا يتأتى مطلقاً أن يقرر القرآن :(. . . ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى من بَعْدِى اسْمُه أَحْمَدُ [٢] . . .) ؛(. . وكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا [٣] . . .) . (. . . يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [٤] . . .) . . الخ

ونجد من كلام النجاشى وهرقل وبحيرا ونسطورا تأكيداً لمعرفتهم بمعالم النبى الخاتم من كتبهم على نحو ماجاء فى آيات القرآن

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير ج : ١ ص : ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) من الآية رقم : ٦ من سورة الصف .

(٣) من الآية رقم : ٨٩ من سورة البقرة .

(٤) من الآية رقم : ١٤٦ من سورة البقرة .

الكريم : أنه لا يتأتى مطلقا أن يبشر السابقون من الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويعلن ذلك المنصفون من أهل الكتاب ثم ندعى تجاهلا أو تعسفاً أو إستعلاء بالعقل :إن الرسالة الإسلامية فاجأت المجتمع الإنسانى . .

وقد كان لها عند اليهود قدر عظيم . وعند النصارى قسمات معروفة . وعند الروم علامات ، وعند الحبشة دلائل ، وفى العرب إجماع بامتياز محمد صلى الله عليه وسلم ـ خلقياً على جميع أبناء المجتمع قاطبة .

بل لقد هياه الله جل شأنه لهذه الرسالة . وانتظرها الفطريون من الحنفاء ، وأهل الذكر والمعرفة من الباحثين ، كما ثبت أن الأحبار والرهبان والملوك والعظماء كانوا يتناقلون هذه الأخبار ويبحثون عن مولد هذا الدين الحنيف . وقد عاد زيد بن عمرو بن نفيل ليلحق به فمات دونه ، وأرادها أمية لنفسه فضل لهواه : فثبت كذلك أن الاصطفاء منحة ربانية يهبها الله لمن يشاء من عباده (. . . اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ . . .)[1] ، (. . . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . .)[2] .

وقد وهبها الله لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم على تهيؤ بها دون ترقب وإن ظهرت بوادرها له فليست من رياضاته لاكتسابها بل سبقت له علامة من مانحها جل شأنه بعد أن هيأه لها فعشق أنوارها

---

(١) من الآية رقم : ٧٥ من سورة الحج .

(٢) من الآية رقم : ١٢٤ من سورة الأنعام .

فهداه اياها[1] ، قال ابن عطاءه : « ووجدك ضالا »أى محباً لمعرفتى فهداك إلى طريق محبتى وسبيل مودتى . قال صاحب الشفاء والضال هو المحب[2] .

قال فى المواهب اللدنية

« ولو علم بالبشارات الحاصلة قبل ولادته واخبار الكهنة ، وبحيرا . وغيرهم بأنه نبى آخر الزمان لكن صانه الله سبحانه عن اعتقاد ما يخالف ما عنده تعالى من أنها لاتنال بطلب[3] » ...

على أن قضية الاكتساب للنبوة وعدمه أمر حادث استدعته دراسات علم الكلام وهو نظريات العقل فى غير مجاله الطبيعى وما طلب واحد من السابقين طريق النبوة مع إدراكه لأوصاف النبى الخاتم حتى أمية بن الصلت ما كان يجتهد فى العبادة طلبا للنبوة . .

وذلك هو طريق الكسب المراد كلاميا بل اجتهد فى معرفة انطباق الأوصاف الخاصة بالنبى الخاتم على صفات نفسه فلما علم أنه ليس هو يئس وانجدل فى سريره لاينام ولايقوم طوال الليل . .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يربى لها وما كان يرجو أن يلقى إليه الكتاب إلا رحمة من ربه فقد أعده ربه فكانت له لا لغيره وكان هو لها لا لغيرها وكان قدراً مقدوراً .

---

(١) راجع الشفاء شرحى : على القارى ونسيم الرياض ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) الشفاء ج ٤ ص : ٤٨ .

(٣) المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٢٢٠ .

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى :

« والنبوة هبة الله لاتنال بالكسب لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادر على حملها (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ومحمد صلى الله عليه وسلم أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمع . أحمره وأسوده . انسه . وجنه . وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين . ولأن يختم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء . وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسموات »[1]

يقول شيخنا الامام العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود حول إعداد الأنبياء للرسالة :

« يصطفيهم فيعدهم إعداداً خاصاً قبل ميلادهم . يعدهم فى أصلاب أجدادهم وآبائهم فيتخير الله عز وجل لهم الأجداد والآباء »

يقول الإمام البوصيرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لم تزل فى ضمائر الكون تختا و لك الأمهات والآباء

ويستمر مولانا :

فى شرح هذه الحقيقة فيقول :

يعد سبحانه أوعيتهم ـ الجدات والأمهات ـ خلقاً وخلقاً ، ويعد سبحانه الرسل بعد ميلادهم ، وسطاً وبيئة :

يعدهم على عينه ولتصنع على عينى

ويصطنعهم لنفسه واصطنعتك لنفسى

---

(١) راجع مقدمة كتاب : حياة محمد لهيكل باشا .

ويقول صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك فيما رواه الإمام مسلم :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . .

لقد رسم الله ماضيهم البعيد ورسم حاضرهم الذى عاشوه طفولة فشباباً فكهولة فشيخوخة منذ الأزل[1] . .

فضاع بذلك صلف العقل الكلامى الذى اشتط فى بحث الإكتساب فى طلب النبوة ، وبقى للنبوة مكانها الربانى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ومناقشة العلاقات بين الأنبياء وربهم فى مرحلة الإعداد لهم أو الإيحاء إليهم ليست من حق العقل البشرى أيما كان ذكاؤه وعلمه لأنها مرحلة ذاتية بين مقامين دونهما مقام العقل حتى ولو كان فى سامق قمم الإتزان والفطنة . .

لقد نزل الوحى بالنبوة وكانت (إِقْرَأْ) إعلاناً واضحاً للإصطفاء ورجف فؤاده صلى الله عليه وسلم بها غبطة[2] ، فقد تم اللقاء والإقبال وارتاحت سريرته لهذ الإصطفاء وتأهب لهذا العمل الجليل وهو به جد سعيد ، لقد فتر الوحى بعد بدء إعلان النبوة ليتشوق النبى الكريم إلى لقائه بعد أن تستقر غبطته باصطفائه ، وذلك تقدير الله لحياة نبيه ثم تتابع الوحى ونزلت مواصفات العمل النبوى تزكيته

---

(١) راجع الاسلام والعقل ص : ١٠٥ ، ١٠٦ دار الكتب الحديثة .

(٢) راجع المواهب الدنية ج : ١ ص : ٢٢١ .

يـأيها المدثر قم فأنذر. وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر)[1] .

فأوجز الله فيها تزكية لحاله ، وأساساً لدعوته

(وثيابك فطهر) استمر على ماأعددناك به من الكمال النفسى المذ الذى هيأناك به للرسالة . .

(والرجز فاهجر) استمر على ما أودعناكه من السلوك السامى الذى درجت عليه من الصغر وشرحنا لك به صدرك . .

(ولاتمنن تستكثر) بلغ دين الله دون النظر إلى متاع دنيوى فقد وجدناك عائلا فأغنيناك .

(ولربك فاصبر) أساس تبليغ دعوتك هو الصبر على أذى البشر إرضاء لوجه الله ، فهل كان ذلك تبليغ مستندًا على أسس وقواعد؟

أو كان مستندًا فقط على العون الإلهى بالمعجزات ؟ . .

نعم ، إن كل حركة فى الوجود حتى طرفة العين وخلجة النفس تسيرها إرادة الله جل شأنه . .

ولكن هل كانت الدعوة الإسلامية فى مكة تعمل دون مناهج ؟ .

لقد كانت الدعوة الإسلامية فى مكة تعمل فى داخل مجتمع بشرى له تقاليده وعاداته وأنظمته وتفكيره ، فهل واجهت الدعوة الإسلامية هذا المجتمع بقوة المعجزات التى تقهر العقل فقط ؟

---

(١) الآيات رقم : ١ — ٦ من سورة المدثر .

لقد سبقت الدعوة الإسلامية جميع نظريات الإصلاح الإجتماعى فى العصر الحديث بما وضعته من مناهج لبناء مجتمع الدعوة الإسلامية.

فقد استخلصت الدعوة :

١ — مناهج لإثبات الوحدانية وللعمل مع الجماعة . .

٢ — ولفن التبليغ ومراحله . .

ومعنى هذا : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل دعوة الله ولم يبلغها للناس جزافاً ولا اتكالا على عصمته وتأييد الله له فذلك فهم العجزة وهمة القعيد المتواكل ولكنه — صلى الله عليه وسلم نقلها بالأسلوب الفطن الواعى الذى رسم للعمل الإصلاحى فى مستقبل الإنسانية كلها قواعد العمل البناء الذى يحترم ظروف جميع الناس ويداوى بالتؤدة والمودة لا بالقسوة والثورة والجبروت ، ويود استجابة من صميم القلب لتنساب جوارح الناس استسلاماً فى تنفيذ أوامر الله وتلك هى مستويات العمل الفاضل لبناء المجتمع الفاضل وذلك ما حققته الدعوة فى هذا الدور الجليل .

* * *

ويمكن باختصار أن نقول أن الجو الدينى قبل الإسلام فى الجزيرة العربية ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

(١) جو منحرف فى التوحيد ، عنده إسراف بكثرة الآلهة أو منحرف السلوك فى العبادة . .

ويشمل هذا الجو الديانة اليهودية على قلة نفوذها وضعف تأثيرها[١] والديانة المسيحية على تعقدها وغموضها وقلة خطرها وضعف جاذبيتها[٢] ثم الوثنية بأصنامها ووثنها ونصبها وهى العقيدة العامة الشاملة للشعب العربى . .

وهذا الجو فيه إيمان بالله يرى أنه إيمان واسع مبذر فى معنى إدراكه الألوهية وإيمان منحرف فى توجهه بالعبادة إلى الله . .

(ب) ثم كان هناك جو خافت لبعض الملاحدة الذين يقولون : (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ) وأولئك يمثلون المرض الخبيث وهم حثالة تافهة لا وزن لها فى نظر العلم والأخلاق[٣] . .

وقد ذكر فى الشفاء أنه على حد هذا المنطق فأولئك القوم لم يكونوا منكرين للخالق ، وعبادته . .

ولا يلزم من قول بعضهم حيث قالوا :

(وما يهلكنا إلا الدهر) ، إن الدهر خالقهم إذ لم يقل به أحد منهم ، بل أرادوا به : أن طول الزمان ودورة الدوران يقتضى أن يحيا بعضنا ويموت بعضنا فنسبوا بعض الأفعال إلى الدهر[٤] . .

---

(١) التاريخ الاسلامى العام دكتور على إبراهيم حسن ص : ١٥٧ .

(٢) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد دار القلم ط ثالثة ص : ٥٢ . ٥٣ ، راجع تاريخ الاسلام دكتور حسن إبراهيم حسن سنة ١٩٦١ ص ٥٧٤ ، نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج : ١ ص : ١ ، ٢ ، راجع الشفاء ج : ٣ ص : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، شرح نسيم الرياض .

(٣) الاسلام والايمان : ص : ٢١٤ .

(٤) شرح على القارى ج : ٣ ص : ٢٩٩ .

ويرشح لهذا أن هذا الاتجاه لم يرد تصويره فى القرآن الكريم كله إلا مرتين فى سورة المؤمنون آية رقم ٣٧ ؛ وفى سورة الجاثية[1] آية رقم ٢٤وهذا مما يقوى وجهة النظر القائلة بأن هؤلاء حثالة ليس لها قيمة فى المجتمع ، أو أنه رأى فطير لجماعة تخاف البعث لسوء الحساب ، وهم مع عدم إنكارهم الخالق ينكرون البعث . .

جاءت الدعوة الإسلامية إذن وهناك جو مسرف فى توحيد الله ضل أصحابه طريق العبادة الصحيحة . .

وهناك حفنة تافهة وحثالة متعفنة من المنحرفين عن الفطرة ... فقدمت الدعوة الإسلامية لهؤلاء تجميعاً منهجاً ليصلوا إلى الحق فى التوحيد ولينزهوا الله جل شأنه عن كل ماسواه مما يشركونه مع جلاله سبحانه وتعالى وهذا المنهج صالح للنوع الواحد بكل خطواته ، وخطوة منه صالحة لنوع واحد من البشر . . .

ذلك لأن القرآن يبنى الإنسان من جميع نواحيه النفسية والعقلية والخلقية فهو يخاطبه بكل مايؤسس فيه عوامل الخير :

يخاطبه نفسيا ووجدانيا . .

ويخاطبه عقليا وذهنيا . .

ويخاطبه عاطفياً إن بالترغيب أو بالتهديد[2] . . .

---

(١) راجع معجم الألفاظ والأعلام القرآنية للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم ج ٢ ص : ٢١٤ ط ثانية ١٩٦٩ المعجم المفهرس للمرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ص : ٢٦٤ ، ٢٧٨ .

(٢) راجع حول هذا الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية دكتور محمود حب الله ص : ٢٨٧ .

لهذا قام المنهج القرآني على أربعة مراحل ، قد تصلح كلها لنوع واحد من الناس وقد تصلح مرحلة واحدة منها لنوع وأخرى لنوع آخر .

وهذه المراحل هي :

أولا : تصوير العقيدة العربية قبل الإسلام . .

ثانياً : دعوة المعاندين إلى التجرد من المواريث الثقافية التي تبعدهم عن التفكير السليم في التوصل إلى الحقيقة . .

ثالثاً : دعوة المعاندين للتفكير بالمشاهدة في آثار قدرة الله جل شأنه وتعريفهم طريقة استخدام هذا المنهج . .

رابعاً : بعث الوجدان الفطرى بالترغيب أو بالترهيب . .

تلك هي المراحل الأربع التي رسم بها القرآن الكريم المنهج لمعاندى الدعوة الإسلامية في عهدها المكى وبيانها كالآتى :

أولا : تصوير العقيدة العربية قبل الاسلام :

يكاد يتفق الكاتبون على أن عابدى الأصنام أوروا أنهم عبدوها كوسيلة تقربهم إلى الله تعالى . .

يقول الشاطبى :

« قوله تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِم) وأشباه ذلك . إنما جرى على معتادهم في اتحاد الآلهة في الأرض وإن كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق[1] . .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحق الشاطبى إبراهيم بن موسى الغرناطى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ج : ٢ ص : ٣٥١ .

ويقول فضيلة الشيخ الخضرى :

« كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه[1] » . .

قال فى شرح الشفاء :

« والعرب على جاهليتها – أى على حالتها التى كانت عليها قبل ظهور النبوة من الجهل بأمور الشريعة وأحوال الديانة – أكثرها يعترف بالصانع ، بل جميعها كما هو ظاهر قوله تعالى : (ولَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) ولذا جاء النبى – صلى الله عليه وسلم – بكلمة التوحيد وهو أن يقولوا : لا إلَه إلا الله[2]) . .

وإذن فليست الوثنية العربية إلحادًا ولكنها طريق منحرف فى التعبد . .

يقول الله تعالى :

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكم من السَّمَاءِ والأَرْضِ ؟ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ من الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ منَ الحَىِّ ؟
وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللهُ .
فَقُلْ : أَفَلَا تَتَّقُون[3] ؟) .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ج : ١ ص : ٥٥ ط ثانية راجع كذلك الله كتب فى نشأة العقيدة الالهية ص : ١٥٩ راجع السيرة النبوية للدكتور أبوشهبة ص : ٧٢ ، ٧٣ هذا خبر العدم – الندوى ص : ٥٣ راجع كتاب الله للعقاد ص : ٣١ .

(٢) شرح على القارى على الشفاء ج : ٣ ص : ٢٩٩ .

(٣) الآية رقم : ٣١ من سورة يونس .

ويقول جل شأنه :

(قُل لِّمَن الأَرْض وَمَن فيهَا إن كُنْتُم تَعْلَمُون ؟

سَيَقُولُون : لِلّهِ .

قُلْ : أَفَلاَ تَذَكَّرُون ؟ .

قَل : مَن رَّبُّ السَّموات السَّبع وَرَبُّ العَرْش العَظِيم ؟ .

سَيَقُولُون : لِلّهِ .

قُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُون ؟ .

قُلْ : مَن بيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُو يُجيرُ ولاَ يُجَارُ عَلَيْه إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون ؟ .

سَيَقُولُون : لِلّهِ .

قلْ : فَأَنَّى تُسْحَرون[1] ؟) .

ويقول سبحانه : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ وسَخَّر الشَّمْسَ والقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ الله ؟ فَأَنَّى يُؤْفَكُون[2]) .

(ولئن سَأَلْتَهُم من نَّزَّلَ من السَّمَاء ماءً فَأَحَيا به الأَرْضَ مِنْ بعدِ موْتها ؟ لَيَقُولُنَّ الله . قُل : الْحَمْدُ لِله بل أَكثرُهُم لا يعقلُون[3])

---

(١) الآيات من رقم : ٨٤ — ٨٩ من سورة « المؤمنون » .

(٢) الآية رقم : ٦١ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية رقم : ٦٣ من سورة العنكبوت .

ويقول تعالى جده :

(ولئن سَأَلْتَهم من خَلَقَ السَّمَوات والأَرْض ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ .
قُلْ : الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهم لاَ يَعْلَمُون[1]) .

ويقول عز جلاله :

(مَا نَعْبُدُهم إلاَّ ليُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى[2] ...) .

وَلئن سَأَلْتَهُم مَن خَلَق السَّمَواتِ والأَرضَ ؟ .
لَيَقُولُنَّ : الله ، قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُون الله إنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَو أَرَادَنِىَ برَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ حَسْبِىَ اللهُ عليهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ...[3]) .

ويقول تبارك وتعالى :

(ولئن سَأَلْتَهُم من خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ)[4] .

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيقولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ[5]) ؟

هذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب فيما قبل الإسلام وتوحى بأن كان لها أصل من التوحيد ثم وقع فيها انحراف ، ولا عجب فالعرب من أبناء اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام : وقد

---

(١) الآية رقم ٢٥ من سورة لقمان .

(٢) من الآية رقم : ٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية رقم : ٣٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية رقم : ٩ من سورة الزخرف .

(٥) الآية رقم : ٨٧ من سورة الزخرف .

كانوا فعلا يزعمون أنهم على دين إبراهيم وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس من النسب ، ولم يكونوا يحفلون كثيرا بديانة مسيحية أو يهودية ، مما كان لها وجود ما فى الجزيرة العربية اعتزازا منهم بأنهم على دين ابراهيم ، ولو أنهم كانوا غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض فقد اندفعوا فى تيار العبادة عاطفيا وجرتهم التقاليد والعادات إلى هذا اللون من العبادة ، ولكنهم إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل الماء من السحاب ومحى الأرض بعد موتها يقولون الله ، هو صانع كل هذا ولكنهم ينحرفون فى الطريق إليه فيعبدون الأصنام والكواكب والملائكة ويجعلونها شركاء لله فى العبادة وإن لم يجعلوها شركاء له فى الخلق وذلك هو التناقض الذى شاء هذا المنهج أن يفضحه[1] ، وحاول أن يطهر النفوس منه لأنه ضعف وانحراف عن السبيل السواء ، قال ابن كثير فى معناها : « يحتج على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته[2] » .

يقول الدكتور سامى النشار : وهو يصور تلك المرحلة : « ولكن كان وراء كل هذا غريزة باطنية فى أولاد اسماعيل وتشوف نحو شىء فى اللا محدود ، فيما وراء الوجود .

وجاءتهم المسيحية من الشمال ومن الجنوب ومشيخة العرب من أولاد اسماعيل يهزون رءوسهم ولا يبدون حراكا .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢١ ص : ١٦ ط ثالثة بيروت .

(٢) ابن كثير ج : ٢ ص : ٤١٦ .

وأسرعت اليهودية إليهم وهى تحمل التوراة المنحرفة . فأنكروها ووقفوا ينظرون إليها بازدراء : بل ولّوا ظهورهم لجماعة منهم أعلنوا أنهم الحنفاء على ملة ابراهيم مختتنين متخذين الوحدانية دينا لهم ، ولكن مشيخة العرب نأوا فى فردوسهم العجيب وفى لياليهم الصافية فى قلب الصحراء عن كل هذا . .

كان يكفيهم أن يعبدوا الأصنام زلفى إلى الله ...

كانوا يتشوقون إلى صوت النبى الأخير رسول من أنفسهم من ولد اسماعيل يتلو عليهم آياته ويزكيهم[1] » أ هـ .

وإذن فدعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى توحيد الله ليست بدعا من الأمر فهى تطهير للفكرة التى آمنوا بها وإزالة للأوشاب والشوائب التى رانت عليها وتنزيه لله جل شأنه عما اخترعوه لأنفسهم من نظام تعبدى لا يتفق مع جلال الله وقدسيته .

فمعنا الآن قضيتان :

الأولى : نسبة العرب إلى سيدنا ابراهيم وتفاخرهم بهذا النسب .

الثانية : ادعاؤهم أنهم على دين إبراهيم[2] . .

ومن هنا فإن القرآن فى معالجته لهذه المرحلة من التفكير قد ركز على استخدام سيدنا ابراهيم عليه السلام موقف العداء من كل شىء يعبد سوى الله سبحانه وتعالى :

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار ج : ١ ص : ١٠٢ ط رابعة عام ١٩٦٦ م .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢٥ ص : ٧٣ .

وقد استفاض القرآن الكريم فى إبراز جهاد سيدنا ابراهيم الذى يدعى العرب أنه جدهم وأنهم على دينه ليبين لهم أنهم مشوشو العقيدة مسرفون فى الإيمان .

وقد قدم ذلك فى ثلاث خطوات وهى :

١ ـ مناقشة سيدنا ابراهيم للتدين فى صورة الكواكب .

٢ ـ مناقشته للتدين فى صورة الأصنام والأوثان . .

٣ ـ إعلانه التبرؤ من كل دين يخالف التوحيد الذى جاء به من عند الله ثم جعلها كلمة عاقبة من بعده لجميع أبنائه . .

وحسب ارتباطى فى هذه المرحلة بالجو المكى فإننا سنعرض موقف سيدنا ابراهيم عليه السلام من خلال الآيات والسور المكية التى يتضح فيها منهج سيدنا ابراهيم عليه السلام على نحو ما فعلناه سالفا وتلك السور هى :

السورة		
١ ـ الأنعام	وترتيبها فى النزول	٥٥
٢ ـ مريم	» » »	٤٤
٣ ـ الأنبياء	» » »	٧٣
٤ ـ الشعراء	» » »	٤٧
٥ ـ الصافات	» » » »	٥٦
٦ ـ الزخرف	» » »	٦٣

ففى سورة الأنعام مناقشة لعبدة الكواكب . .

وفى مريم والأنبياء والصافات مناقشة لعبدة الأصنام والأوثان . .

وفى الشعراء والزخرف نهاية المطاف وحسم الموقف وتقرير الحقيقة .

الخطوة الأولى : سيدنا ابراهيم وعباد الكواكب :

يقول الله تعالى :

(وكَذَلكَ نُرى ابْرَاهيم مَلَكُوتَ السَّمَوات والأَرْض وليكُونَ من المُوقنين .

فَلَمَّا جَنَّ عليه الليلُ رَأَى كَوكَباً قال : هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ لاَ أُحبُّ الآفلين . فَلَمَّا رَأَى القَمَر بَازغاً قَالَ هَذَا رَبِّى ؟ فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لَئن لَّم يَهْدنى رَبِّى لأَكُونَنَّ منَ القَوم الضَّالينَ . .

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازغَةً . قَالَ : هَذَا رَبِّى . هَذَا أَكْبر . .

فَلَمَّا أَفَلَت ، قَالَ : يَا قَوْمى إنِّى بَرىءٌ ممَّا تُشْركُونَ . إنِّى وجَّهْتُ وجْهىَ للَّذى فَطَرَ السَّمَوات وَالأَرْضَ حَنيفاً ومَا أَنَا من المشْركين[1]) .

انه نموذج لاهتداء الفطرة الانسانية حين تقرأ فى صفحة من صفحات الكون المفتوح ، وتتعقل آيات الله الكونية بالعين اليقظة ، وبالقلب الواعى وبالحس المبصر وبالوجدان المنير فإذا بالمشاهدةالمكررة المألوفة تبدو جديدة كأنما لم يألفها الحس ، تنطق الفطرة هنا على لسان جد الأنبياء الذى يدعى العرب وجيرانهم النسبة إليه فى النسب والدين ، تنطق بالتوحيد لله الأحد .

فها هو ذا وقد كشف الله لبصيرته أسرار الكون الكامنة وأظهر له الدلائل الموجبة للهدى والإيمان ، يمثل الفطرة السليمة فأنكر الباطل وخلص إلى الحق . .

---

(١) الآيات رقم : ٧٥ — ٧٩ من سورة الأنعام .

وما كانت هذه أول مرة يرى فيها ابراهم كوكبا ولا كانت أول مرة يعرف فيها ابراهم أن قومه يعبدون الكواكب ولكن الأسرار المكنونة فى تلك الليلة قد أراها الله له فنطق الكوكب بما لم ينطق به من قبل فأوحى إلى خاطره أن يكشف عورة هذا الباطل لعل قومه يهتدون ، فقال :

هذا ربى : فالكوكب فى ارتفاعه واشعاعات نوره أقرب — فى عين الساذج — لأن يكون ربا ، فلما أفل — وتلك صفة مرتبطة بالعدم — لم يعد ذلك الكوكب فى مشاعر الحس إلّها فقال : لا أحب الآفلين . إنه يغيب عن هذه الخلائق فمن ذا الذى يرعاها ويدبر أمرها إذا كان ذلك هو الرب وهو يغيب ؟ لا ، إنه ليس هو ، فالرب لا يغيب ، ذلك منطق الفطرة البدهى الذى استشعره فى وجدانه الصادق سيدنا ابراهيم دون أن يثير قضية منطقية أو فرضا جدليا ، إنما هو منطق الوجدان الصادق والفطرة السليمة فى يسر ويقين قالها : لا أحب الآفلين . فالفطرة تعرف ربها وتحبه وتعرف أن ربها لا يغيب .

فلما رأى القمر ، وهو نوع من التجربة يتكرر ينسكب نوره فى الوجود وينفرد وحده فى السماء بأنه مصدر النور للأرض فى الظلام ولكن ظاهرة الأفول تلحقه فيعلنها ابراهيم عليه السلام لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين .

لقد انتقلت مشاعره من كراهية الآفلين إلى طلب العون من ربه الذى لا يراه فى القمر ولا فى سابقه من الكوكب الآفل . .

إنه فى حاجة إلى عون من ربه الحق الذى يجده فطرته ويدركه بوجدانه ووعيه

فلما رأى الشمس بازغة وهى أكبر من القمر قال : هذا ربى هذا أكبر ، فلما لحقها عنصر العدم وأفلت تبرأ من كل كوكب وقال : (يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها حرارة وشعاعا يراها سيدنا ابراهيم بفطرته هذه المرة ويرقب تحركها فوجدها تغيب فيعلنها :

(إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

لقد تم الاتصال الطبيعى بين الفطرة الصادقة الخالصة والإله الحق وغمر نور الحقيقة قلب سيدنا ابراهيم حتى فاض على العقل والوعى والمشاعر فوجد ربه فى إدراكه ووعيه كما هو فى فطرته . الذى فطر السموات والأرض ، ليس هو الكوكب اللامع ، ولا القمر الساطع ولا الشمس الوهاجة إنما هو الله الذى خلق السموات والأرض وعندئذ فقد حقت الفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فتبرأ مما يعبدون وتوجه إلى الدين الحنيف الذى لا ينحرف أبدا إلى شرك فأعلنها فى يقين جازم . (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ للذى فَطَرَ السَّمٰوات والأرض حنيفاً

وما أنَا من المُشْرِكِين) ، فلا تردد ولا حيرة فما أحسته المشاعر وأدركته الفطرة هو الذى ينجلى للعقل مطابقا للحقيقة التى استقرت فى الضمير[1] ..

يقول ابن كثير :

«والحق أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظرا لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام..

وبين فى هذا المقام خطأهم وخلالهم فى عبادة الهياكل وهى الكواكب السيارة السبعة ..

فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه « الزهرة » لا تصلح للإلّهية فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا بل هى جرم من الاجرام خلقها الله منيرة لماله فى ذلك من الحكم العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال ؛ ومثل هذه لا تصلح للإلّهية ..

ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين فى النجم ..

ثم انتقل إلى الشمس كذلك : فلما انتفت الإلّهية عن هذه الاجرام الثلاثة التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار . وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، قال ياقومى إنى برىء مما تشركون . أنا برىء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهة فكيدونى بها جميعا ثم لا تنظرون

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٧ ص : ٢٨٧ : ٢٩٢ ط ثالثة بيروت .

إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » ، إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه[1] . .

وسيان كان سيدنا ابراهيم فى هذا الموقف ناظرا أو مناظرا وهو الرأى الذى ارتضاه ابن كثير فإن الحجة على العرب قائمة لأن جدهم ابراهيم قد تبرأ من عبادة ما سوى الله الذى توجه إليه بكل أقطاره . .

فلئن كان ناظرًا فقد توجه بالفطرة السليمة من قبل الرسالة إلى الله الحق وذلك أكثر إلزاماً للقوم وأفحم لهم بالطريق الأولى . .

لأنهم ينتسبون إلى رجل رفض الكواكب والأصنام بفطرته التى فطره الله عليها قبل أن يكون رسولا . .

ولئن كان مناظراً فقد أفحم قومه وحدد معالم عقيدته التى جعلها فى عقبه دينا لأبنائه ، حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ، فهم ينتسبون إلى نبي التوحيد فأية حجة بعد لمن ينتسب إلى هذا النبى الموحد إن بالنسبة أو بالنسب ثم يدعى أن الكواكب أو ما يشابهها ملة له أو دين[2] . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج : ٢ ص : ١٥١ ، راجع القرآن العظيم لفضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون ص : ٤٩ .

(٢) من مراجع هذا البحث تفسير روح المعانى لشهاب الدين السيد محمود الألوسى ج : ٧ ص : ١٧٣ تفسير الطبرى ج : ٧ ص : ٢٤٢ طبعة ثانية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م الحلبى .

الخطوة الثانية : سيدنا ابراهيم وعباد الأصنام :

(ياأَبَتِ لِم تَعْبُدُ مالأيسمعُ ولا يبصر ولا يُغْنى عَنْك شَيئًا . ؟ ياأبتِ إِنِّى قد جَاءَنى منَ العلْم مالَم يأْتك فاتَّبعْنى أَهْدكَ صرَاطًا سَويًّا .

يَا أبتِ لا تَعْبد الشَّيْطَان إنَّ الشَّيْطَان كان للرَّحْمن عصيًّا . يا أبتِ إِنى أخَافُ أنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّن الرَّحْمن فَتَكُون للشَّيْطَان وليا .

قال أرَاغبٌ أنْتَ عن آلهَتى يَا إبْرَاهيمُ لئن لَّم تَنْتَهِ لأَرْجَمَنَّك واهْجُرْنى مَليًّا . قال : سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغفرُ لَكَ رَبِّى إنَّه كَانَ بِى حَفِيًّا .

وأعتزلكمْ وما تَدْعُون من دُون الله وأَدْعُو رَبِى عَسَى ألاَّ أكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيًّا[1] ...) .

بهذا اللطف فى الحديث والأدب الجم فى الخطاب يتوجه سيدنا إبراهيم إلى أبيه الذى يحاول أن ينقذه من الضلالة ويهديه إلى الخير الذى هدى إليه وعلمه الله إياه[2] .

وبألفاظ المحبة والنداء الرخى : ياأبت يسأل فى حنان الإبن البار لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟ فالأصل فى عبادة الإنسان أن يتوجه بها إلى من هو أعلم وأقوى وأعظم من الإنسان . فكيف تتوجه بالعبادة إلى صنم أصم أبكم أخرس قعيد لا ينفع ولا يضر فهو فى مرتبة أدنى من الحيوان . .

(١) الآيات من رقم : ٤٢ — ٤٨ من سورة مريم .

(٢) راجع تفسير الألوسى ج :١٦ ص : ٨٨ .

ثم يعزز هذه الدعوة المؤدبة بأنه لا يقول هذا من عندياته إنما هو العلم الذى جاءه من عند الله فهداه وهو وإن كان إبناً ، ولكن المدد الالهى وهبه من الفقه والمعونة والمددماجعله يفقة ويعرف الحق ، فهو ينصح أقرب الناس إليه ، ولا غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده مادام الولد قد جاءه من العلم مالم يأت الوالد[1] . .

وبهذا : كشف سيدنا ابراهيم لأبيه عن حالتين :

الأولى : تفاهة الأصنام وحقارتها عقليا وواقعياً . .

الثانية : المصدر الذى يتلقى منه الدعوة ويعتمد عليه فى التبليغ ، فينتقل إلى الغاية من الدعوة .

إن الطريق الذى يسير فيه والده هو طريق الشيطان وإبراهيم يريد أن يهديه طريق الرحمن .

ولكن اللطف اللطيف فى هذه الدعوة لم يصل إلى قلب المشرك العاتى فجابهها بالإستكبار والتهديد (لئن لمّ تَنْتَه لأَرْجُمَنَّك واهْجُرْنِى مَلِيًّا) . .

جهالة قاسية فى مقابل قول مؤدب مهذب رقيق حليم ولكن الداعية لم يغضب ولم يرد أن يفقد بره مع أبيه فرد عليه (سلام عليك) فلا مراء ولا جدل ولا أذى ولا رد منى على التهديد ولكن سأتوجه إلى ربى بالدعاء لعله يهديك[2] . .

---

(١) راجع عبارة الآلوسى ج : ١٦ ص : ٨٩ : ٩١ روح المعانى .

(٢) راجع ظلال القرآن ج : ١٦ ص : ٤٣ ، ٤٤ راجع تفسير الآلوسى ج : ١٦ ص ٨٨ : ٩١ .

وبذلك تتحدد خطوات الداعية فى التعامل مع الناس دائما ، أن يتقدم الدعوة بقلب صادق واثق . وأسلوب رفيع مهذب . وأن لا يجابه التحديات بعنف أو بمثيل لها ، و أن يتخذ موقفاً ذاتياً حازماً ، (وأعتزلكم وماتدعون من دون الله) ليستمر على طريقته التى يدعو الناس إليها .

يقول ابن كثير حول هذا الموقف :

واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته وقد كان صديقا نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام . .

فقال : (ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَالاَيَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولايُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا) لاينفعك ولا يدفع عنك ضررا :(ياأبت إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ العِلْمِ مالَمْ يَأْتِكَ) وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على مالم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك (فاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) طريقاً مستقيما[1] . .

واستمر سيدنا إبراهيم وفياً يستغفر لأبيه فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه . .

لقد تبرأ سيدنا إبراهيم من أبيه ومن قومه : (وإذ قَالَ إبراهيمُ لأَبيه آزَرَ أَتَتَّخذُ أَصْنَامًا آلِهةً ؟ إِنِّى أَرَاكَ وقومَكَ فِى ضلاَلٍ مُّبِينٍ[2])..

---

(١) ابن كثير ج : ٣ ص : ١٢٣ راجع الآلوسى ج : ١٦ ص : ٨٩ .

(٢) الآية رقم : ٧٤ من سورة الأنعام .

هكذا يقولها إبراهيم لأبيه وهو الموصوف فى القرآن الكريم (إن إبراهيم لأواه حليم) سمح لين رضى الخلق ولكن، الأمر هنا أمر حزم وتمييز بين الحق والباطل فهى العقيدة التى تعلو وتسمو فوق روابط الأبوة والبنوة وفوق مشاعر السماحة واللين والحلم، وإبراهيم قد أراده الله أن يكون هو القدوة للمسلمين، لمن بعده جميعا يأتسون به ويأتسون بموقفه فأعلنها : (إِنِّى أَراكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ) . .

وتطوف بنا آيات سورة الأنبياء حول المعركة الصاخبة التى دارت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وقومه وهويحاجهم بالحسنى والقول الواضح ليهديهم السبيل السواء يقول الله تعالى :

(ولقد آتَيْنَا إِبْرَاهِيم رُشْدَه من قَبْل وكُنَّا به عَالمين .

إذ قَالَ لأَبيه وقَوْمه : ماهَذه التَّمَاثيلُ الَّتي أَنْتُم لَهَا عَاكفُون .

قَالُوا : وجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين .

قَالَ : لَقَد كُنْتُم أَنتُم وآبَاؤُكُم فِى ضَلاَلٍ مُّبين .

قالوا : أجئتَنَا بالْحَقِّ ؟ أَمْ أَنْتَ من اللَّاعبين ؟

قال : بل ربُّكُم ربُّ السَّمَوات والأَرض الذى فَطَرَهُن وأَنَا عَلى ذَلكُم مِّن الشَّاهدين . وتالله لأَكيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أن تُولُّوا مدبرين .

فَجَعَلَهُم جُذَاذًا الا كبيرا لَّهم لَعَلَّهُم إِلَيْه يرْجِعُون .

قَالُوا : مَن فَعَلَ هَذَا بآلِهَتنَا إنه لَمنَ الظَّالمين .

قال : (بَل رَبُّكُم ربُّ السَّموَاتِ والأَرض الَّذِى فَطَرَهُنَّ وأَنَا عَلى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدين) .

فهو واثق وثوق الذى يشهد على واقع لاشك فيه أبدا أن الله الحق هو رب الناس ورب السموات ورب الأرض فالأمر من الوضوح والثبات والاستقرار فى نفسه عليه السلام بلغ حدّ : أنه يشهد على دلك وهو واثق متأكد ، فان كل ما فى الكون ينطق بوحدانية الخالق الأعظم المدبر ، وأن كل ما فى الكيان الانسانى ليهتف به أحد أحد فرد صمد لاشريك له ولا ولد . .

فقابل سيدنا إبراهيم شك التائهين فى متاهات الشرك بيقين الصادقين المتثبتين من وحدانية الله الفرد الصمد وهو على ذلك من الشاهدين .

وعند ما تصل الأمور إلى هذا الحد فلابد من موقف ايجابى تجاه هذا الباطل المتمرد فعزم على أن يكيد لهم وهنا تجئ آيات سورة الصافات لتشرح الحالة النفسية لسيدنا إبراهيم التى جعلته يتخذ هذا الموقف الايجابى من قومه ومن الأصنام :

(فنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ فَقَالَ إنِّى سَقيم . .

فتولوا عنه مدبرين . فَرَاغَ إلىَ آلِهَتِهِم فَقَالَ : (ألاَتَأْكُلُون ؟ مالَكُمْ لاَ تَنْطِقُون ؟ فَرَاغَ عَلَيْهِمَ ضَرباً باليَمِين[1]) .

---

(١) الآيات من رقم : ٨٨ — ٩٣ من سورة الصافات .

كان للقوم عيد يخرجون فيه يومها إلى الحدائق والبساتين بعد أن يضعوا بواكير الثمار بين يدى أصنامهم لتباركها وبعد أن يتنزهوا يعودون إلى الأصنام ليأخذوا طعامهم المبارك[1] . .

فلما كان ذلك اليوم وكان سيدنا إبراهيم قد يئس من استجابتهم للحق الأبلج وأيقن من انحراف فطرتهم وأن اصلاحها صار عسيرا اعتزم أمرا . .

فلما دعوه يوم عيدهم إلى الخروج معهم قلب نظره إلى السماء وقال لهم إنى سقيم لاطاقة لى بالخروج معكم إلى المتنزهات فالذى يخرج اليها انما هو طالب اللذة والمتعة خالى القلب ، وقلبى لم يكن فى راحة من أمركم ولا يستروح مشاركة الراحة معكم . .

(إنى سقيم) تصوير لمدى مابذله معهم من الجهد ليخرجهم من الظلمات إلى النور فأبوا . .

(إنى سقيم) انه مخلص صادق فى مواجهة قوم بلداء الحس كاذبى الوجدان .

وذهب سيدنا إبراهيم إلى الأصنام والثمار الجنية أمامهم طيبة شهية كما هى لم يأكلوا منها شيئا فقال لهم متهكما مستهزئا :
(ألا تأكلون ؟) . .

---

(١) الوثنيون هنا فى ماليزيا وخاصة الذين هم من أصل سيلان ما زالوا ماكثين على هذه الضلالة بنفس هذا الأسلوب الجاهلى القديم الرجعى .

ويستمر سيدنا إبراهيم فى تهكمه وهو ممتلئ بالغيظ مالكم لاتنطقون؟

ولم تجبه الآلهه الكاذبة فراغ عليهم ضربا وتكسيرا يشفى نفسه من السقم والهم والضيق[1] ، لقد جعلهم سيدنا إبراهيم جذاذا الا كبيرالهم كما تتلو علينا آيات سورة الأنبياء .

لقد تحولت الآلهة المعبودة فى يوم العيد إلى قطع صغيرة من الحجارة والخشب وتحول المعبد المقدس إلى مخزن لأكوام من الحجارة والأخشاب المهشمة .

وترك سيدنا إبراهيم الصنم الأكبر دون تكسير لعلهم إليه يرجعون يرجعون إلى الآله الأكبر يسألونه أحد سؤالين أوهما معا

١ — هل أنت الذى ثرت على الآلهة الصغيرة ؟

٢ — فان لم تكن أنت فلماذا وأنت الآله الأكبر لم تتحرك لتدافع عن قدامة الآلهة ؟ انك أيها الأكبر مذنب فى كلتا الحالتين

ومجرد الرجوع إلى الصنم الأكبر تبطل فكرة ألوهيتهم لأن العابد يحاكم المعبود والأدنى يحاكم الأعلى وإذن فقد فسدت قضية التقديس المزعومة للأصنام .

(فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) . .

لعلهم يراجعون القضية من أساسها بعد أن تهشمت الأصنام فيعودون إلى صوابهم ورشدهم ويدركون سخف وتهافت وتفاهة عبادتهم للأصنام .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢٣ ص : ٥٩ ، ٦٠ .

(١) راجع الآلوسى ج : ١٧ ص : ٥٧ ، ٥٨ .

قالوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُم يُقالُ لَه : إبْرَاهِيم .

قَالُوا : فَأْتُوا بِهِ على أَعْيُنِ النَّاس لَعَلَّهُم يَشْهَدُون .

قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإبْرَاهِيم ؟

قَالَ : بل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا ؟ فَاسْأَلُوهم إن كَانُوا يَنْطِقُون ؟ .

فرجعوا إلى أنفُسهم فَقَالُوا : إنكم أنتم الظالمون .

ثم نُكِسُوا على رُءوسهم : لقدعَلِمْتَ مَا هؤلاء ينطقون ؟ .

قَالَ : أَفَتَعبُدُون من دُون الله مالايَنْفَعُكُم شيْئاً ولا يَضُرُّكُم .

أُفٍّ لَّكُم ولِمَا تَعْبُدُونَ من دُون الله أَفَلاَ تَعْقِلُون ؟ .

قَالُوا : حرِّقوه وانْصُرُوا آلهَتَكُم إن كُنْتُم فَاعلين ؟ .

قُلْنَا : يانَارُ كُونى بَرْدًا وَسَلاَماً عَلَى إبرَاهيم .

وأرادوا به كَيْداً فَجَعَلْنَاهم الأَخسرين[1]) .

لقد هدى الله سيدنا إبراهيم إلى التوحيد وعلم جل شأنه أنه أهل لحمل الأمانة وتوصيل الرسالة ودلت على ذلك[2] مقالته لأبيه وقومه : (ماهَذِه التَّمَاثيلُ الَّتى أَنْتُم لَهَا عَاكِفُون) فسماها تماثيل ولم يصفها بما يدعون لها من وصف الألوهية . .

واستنكر عكوفهم على عبادتها عكوفا وجدانيا قلبيا وهى سخرية بقلوبهم التى تتحرك بحب حجر قعيد أصم ولكنهم كانوا أغبياء لم يعللوا هذا العكوف وتلك المحبة بمنطلق موزون أو علة كريمة بل قالوا : (وجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٥١ — ٧٠ من سورة الأنبياء .

(٢) ابن كثير ج : ٣ ص : ١٨٢ .

وهو جواب ينطق بالبلادة وتحجر العقل وعمى القلب وقوقعة نفوسهم فى قوالب ميتة من التقاليد : لقد حكموا على أنفسهم بالسجن ورفضوا حرية الايمان وانطلاق العقل من عقال التقاليد والموروثات المتحجرة وازاء هذا كان الرد الصارم . قال : (لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم فِى ضَلَالٍ مُبِينٌ) . . .

ان عبادة الآباء لاتكسب هذه التماثيل قيمة ولا تخلع عليها قدامة هى غير مستحقة لها فى الأصل ولا فى الفكر ولا فى الواقع المشهود : والقيم أيها القوم لاتنبع من تقاليد الآباء الأقدمين وانما تصدر عن تقويم طليق موزون يحترم العقل وتوافق عليه الفطرة التى فطر الله الناس عليها : وكأنما أحس وجدانهم المتبلد بشىء من نور الحقيقة زعزع الفساد الذى انطوت عليه صدورهم فاتجهوا إلى سيدنا إبراهيم . .

قالوا : (أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ؟ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِين) .

وهو سؤال ينبئ عن عدم اطمئنان وتعطل فى الفكر وتبلد فى الروح بسبب الوهم الذى تراكم على قلوبهم من تعظيم التقاليد فهم لايدرون : أحق هو ماقاله إبراهيم أم لعب ؟ ، وذلك هو التيه الذى يعيش فيه كل من لايدين بالتوحيد الخالص الناصع ويقبله العقل المستقيم المستنير ، ولقد كان إبراهيم كامل العقل والاستنارة فرد عليهم :

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا كبيرا لهم ، وكان ينبغى أن يرجعوا إلى الصنم الأكبر يسألوه ، كيف تحطمت هذه الآلهة وأنت لاتزال هكذا ؟ أأنت الذى فعلت ؟ أم غيرك ؟ ولماذا لم تدافع عن حماك وقد سيدك واخواتك الصغار من الآلهة ؟ .

كان ينبغى أن يسألوا (الكبير) هذا السؤال ويحاسبوه ويحاكموه لفعلته هذه ، ولكن الخرافات التى آمنوا بها قد عطلت عقولهم عن التفكير وسدت التقاليد عليهم منافذ الفكر كله ، وأفسدت المواريث القديمة عن الآباء طريق التأويل والتدبر فاذا بهم يتوجهون بالسؤال إلى مجهول من فعل هذا بآلهتنا ، ولأن الكفر مصدر الظلم فقد حكموا عليه بأنه (لمن الظالمين) .

وكان المجتمع كله هكذا غبيا معطل الحس فاسد العقل أعمى البصيرة وتذكر من تذكرايعاد سيدنا إبراهيم للأصنام فقالوا : (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرهمُ يُقَالُ لَهُ إبراهيم) وهو أسلوب متساوق مع تفاهة متلفظيه فإبراهيم رفيع الشأن عالى المنزلة . .

قالوا : (فأْتُوا به عَلى أعيُنِ النَّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُون) . .

لقد أرادوا التشهير به واعلان فعلته على رؤس الاشهاد ، وهكذا كان المجتمع كله فى جانب مع الأصنام المهشمة وكان إبراهيم وحده فى جانب مع الله الحق . .

وسألوه (أأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بآلِهَتنَا ياإبْرَاهيم ؟) . .

وهو سؤال الغبى العاجز المتعطل فهل الهشيم المتحطم مازال يحمل اسم الآلهة ؟ وهل يسأل بشر مثلهم أنه حطم آلهة عدة ؟ . .

وهل يسأل بشر مثلهم أنه تمكن من تحطيم هذه الآلهة فى حضرة الآله الكبير ؟ ويجيب سيدنا إبراهيم عليه السلام متهكما :

(بل فعله كَبِيرُهُم هَذَا فَاسْأَلُوهم انْ كَانُوا يَنْطِقُون) . .

وهى اجابة تتفق مع مستوى عقولهم لاكذب فيها ولاافتراء وانما هى اجابة متهكم يوجههم إلى العبث فى وصف أكوام الحجارة والخشب بالآلهة : ويريد أن ينبههم إلى أن هذه التماثيل لاتدرى من حطمها أهو أنا أم هو هذا الصنم الكبير الذى مازال باقيا ؟ . .

وأنتم كذلك مثل هذه الأصنام لاتدرون هل أنا الذى حطمتها أم كبيرهم ، فاذا كان الآله هو مصدر المعرفة والحق فاسألوهم هم لاتسألونى أنا .

وكأنما ومضة نور قد سطعت فى غياهب ظلمات قلوبهم فتدبروا جواب سيدنا إبراهيم ، .

فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : (إنَكم أنتُم الظَّالمون) . لماذا تحكمون بالظلم على الفاعل قبل أن تتأكدوا منه ومن فعلته ؟ ولماذا تظلمون إبراهيم[1] .

ولكن الظلام الدامس يذيب هذه الومضة فى غياهبه المتراكمة فينتكسون .

---

(١) راجع الآلوسى ج : ١٧ ص : ٦١ .

(ثم نُكِسُوا على رُءُوسِهِم لَقَدْ علَمْتَ ماهَؤُلاء ينطقون) ؟ وإذن فما معنى هذاياقوم ؟ هل تكون الأصنام آلهة ؟ يضيق إبراهيم بهم ذرعا ويجيب فى عنف :

(أَفَتَعبُدُونَ مِن دُونِ الله مالا ينفَعُكُم شيئاً ولا يضُركم ؟ .

أُف لكم ، ولما تَعْبُدُوَن من دُونِ الله ؟ أفلا تعقلون ؟) .

تلك الأصنام ميتة يابسة صلبة خرساء لاتملك لكم شيئا من نفع ولا من ضرر وقدرأيتموها مهشمة لاتملك لنفسها نفعا ولاضرا ، ولا تملك أن تقول عندكم كلمة من فعل هذا بها ؟ فلماذا ؟ تعبدونها من دون الله أليس لكم عقل تفكرون به ؟ .

أُف لكم انها أنة الداعية وقد ضاق صدره . وبخع نفسه على قومه حسرات من أجل أن يهديهم إلى الصراط المستقيم [1] .

وتلزمهم الحجة ويعجزون عن الرد . فلا يملكون إلا الأسلوب الغوغائى . .

قالوا : (حَرِّقُوه وانْصُرُوا آلِهَتَكُم إن كُنْتُم فَاعِلِين) فما أحقرها من آلهة تعجز عن دفع الضرر عن نفسها وينتصر لها المتحجرون قلبا الأغبياء عقلا من الضالين من بنى البشر . .

وتتجمع قوى الضلالة وتتحمس جماهير الكفر قالوا : (حَرِّقُوه) . .

---

(١) راجع الآلوسى ج : ١٧ ص : ٦٢ .

ولكن كلمة أخرى قد قيلت من الله العلى العظيم : (يا نار كُونى بَرْداً وسَلاماً عَلَى إبراهيم[1]) .

وكانت : (فَأَرَادُوا به كَيْداً فَجَعَلْنَاهُم الأَسْفَلين[2]) .

(وأَرَادُوا به كَيْداً فَجَعَلْنَاهُم الأَخْسَرين[3]) .

وإذا فيستقر فى ذهن السامعين لهذه الدعوة حقيقتان :

الأولى : تهافت وتفاهة وعبث عقيدة الأصنام . .

الثانية : أن السبب الكامل لاينتج بنفسه مهما كان عظيما . فقد ألقى إبراهيم فى النار وهى على عظمها لم تكن له إلا بردا وسلاما .

فليترقب المخاصمون فى مكة إذن تكسيراً لأصنامهم كما تكسرت الأصنام قديما بيمين جدهم إبراهيم وليعلموا ضعف مكرهم تجاه الدعوة وان كان مكرهم لتزول منه الجبال[4] ؟ . .

الخطوة الثالثة : (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) :

وإذن فقد تحدد الموقف :

(لقد كُنتُم أَنتُم وآبَاؤُكُم فى ضَلَال مُبين) . .

(ربُّكُم ربُّ السَّمَوَاتِ والأَرض الَّذى فَطَرَهُنَّ وأَنَا عَلى ذَلِكُم مِّن الشَّاهدين) .

---

(١) راجع ظلال القرآن ج : ١٧ ص : ٣٧ ومابعدها : ج : ٢٢ ص : ٥٩ وما بعدها .

(٢) الآية رقم : ٩٨ من سورة الصافات .

(٣) الآية رقم : ٧٠ من سورة الأنبياء .

(٤) من مراجع هذا البحث التفكير الفلسفى فى الاسلام لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص : ٧٨ ، ٨٠ القرآن العظيم لفضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون ص : ٦٤ ، ٦٥

وهذه الشهادة تأخذ مجرى مستفيضا من سيدنا إبراهيم فى توحيده لله تعالى وجعل هذا التوحيد من ورائه تركة لأبنائه من بعده . .

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء :

(واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إبْرَاهِيمَ . إذْ قَالَ لأَبِيه وقَوْمِهِ مَاتَعْبُدُون) ؟ .

قالوا : نَعْبُدُ أَصْنَاماً فنَظَلُّ لَهاَ عَاكفِينَ . .

قال : هل يَسْمَعُونَكم إذ تَدْعُونَ . أويَنْفَعُونَكُم أويَضُرُّون ؟ .

قالوا : بَلْ وَجَدْنا آبَاءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

قال : أفَرأَيْتُمَ مَا كُنتمُ تَعبدُون . أنتم وآباؤُكُم الأَقْدمُون ؟ فَإِنَّهُمَ عَدُوٌّ لِى إلاَّ رَبَّ العَالَمِين . الذى خَلَقَنِى فُهُوَ يَهدِين . والَّذى هُوَ يُطْعِمُنِى ويَسْقِين ، وإذا مَرِضتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . والذى يُمِيتُنِى . ثُمَّ يُحْيِينِ . والَّذِى أَطْمَعُ أن يَغْفِر لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّين[1]) . .

إن كفار مكة يزعمون أنهم على دين أبيهم إبراهيم وأنهم من زرعه والقرآن هنا يتلو عليهم نبأ جدهم الذى استنكر عبادة الأوثان من أبيه وقومه . .

لقد خالف إبراهيم أباه وقومه فى عبادتهم الأصنام وخالفهم فى شركهم ، وأنكر عليهم ماكانوا عليه من الضلال . .

---

(١) الآيات من رقم : ٦٩ — ٨٢ .

وناقشهم بالحسنى ليوقظ قلوبهم الغافلة ويستجيش أفئدتهم المتبلدة .

(هل يَسْمَعُونَكم إذ تَدْعُون ؟) . .

(أَويَنْفَعُونَكم ، أَو يَضُرُّون ؟) . .

فأقل مايتوفر فى الاله الذى يعبد أن يكون سميعا أوله سمع على أقل تقدير يكون على مستوى من الحياة مثل الذى يعبد فهل تسمع أصنامكم ؟ . .

ويعترفون بأن أصنامهم صماء ويتعللون بأنهم وجدوا آباءهم كذالك يعبدون .

يقول الآلوسى :

فكأنهم قالوا : لايسمعون ولا ينفعوننا ولايضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم[1] .

فهم إذا لايملكون حجة وجوابهم مخجل ، قالوا : (بل وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلك يَفْعَلُون) فهو الاشراك فى كل زمن فى مكة أو فيما قبلها لايملكون جوابا حريا بالاحترام ولا يخجلون من كشف عورة عقولهم وتعفنها بارتباطها بما فعل الأولون المنحرفون على غير هدى أو بصيرة . وأمام هذا التحجر العقلى والخيبة النفسية التى لايرجى اصلاحها لم يسع سيدنا إبراهيم إلا أن يعلن فى حزم :

قال : (أفرأيتم ماتَعْبُدُون . أَنْتُم وآبَاؤُكم الأَقْدَمُون فَإِنَّهم عدو لى إلاَّ ربَّ العالمين) .

---

(١) تفسير روح المعانى ج : ١٩ ص : ٨٥ . .

فلا مجاملة فى العقيدة ولاضعف أمام المجتمع المنحرف .

وهكذا يعلم القرآن الانسانية فى هذا الفجر السحيق أن الآصرة الباقية المحترمة هى آصرة العقيدة وأن القيمة الأولى فى موازين العلاقات الانسانية هى قيمة الايمان . .

فأعلن إبراهيم استنكاره لما يفعله أبوه وقومه بل وما يفعله آباؤهم الأقدمون . أن كل شرك هو عدو لابراهيم ويجاهر عليه السلام بهذه العداوة لآلهتهم وعقيدتهم هم وآباؤهم الأقدمون . .

(إلا رب العالمين) فقد كان فى الآباء الأقدمين بعض آمن بالله فاستثنى لذلك احتياطا حتى لاينسحب الحكم على كل ماعبد الأولون المؤمنون الموحدون ثم هو تحديد للربوبية التى تعهد أنها خاصة برب العالمين (الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى والذى قَدَّرَ فَهَدَى والذى أَخْرَجَ المَرْعَى) ، ويأخذ سيدنا إبراهيم فى وصف هذا الرب الذى يدبر الأمر كله وهو موئل كل حجة وإليه المرجع والمصير فى كل شىء . .

(الَّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِين) : هو أعلم بى وبتكوينى ومشاعرى وحالى ومآلى فهو إذن الذى يهبنى الهداية إلى الدين القويم وإلى المنهاج الذى ينبغى أن أسير عليه ليس الآباء الأقدمون هم الذين يهبوننا طريقة التدين أو الصراط السواء

(والَّذى هُو يُطْعِمُنِى ويَسْقِين) : فهو الكفيل الحانى الرءوف الودود البر الرحيم يهب وسائل الحياة كلها

(وإذا مَرِضت فَهُو يَشْفِين) . إذا لحقنى مرض فانما الشفاء من عنده هو وذلك نموذج لاعلان مفهوم الاعتقاد ، فقد نسب إلى الله

تعالى كل شئ هو فى مقام الأنعام والأفضال : (يطعمنى ويسقين ويشفين)

وتأدب مع ربه فنسب المرض إلى نفسه . (وإذا مرضت) ذلك هو أمر إبراهيم جد العرب الذى يفتخرون بالنسب إليه ويدعون زورا أنهم على ملته

(والذى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِين) . فالله الحق هو الذى يملك الموت والحياة وهذا أصل من أصول العقيدة وهو الايمان بالبعث

كذلك عرف إبراهيم ربه حق المعرفة وما كان يطمع إلا فى :

(والَّذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِر لى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّين)

انه الشعور بالربوبية وادراك جلالتها وسلطانها وأية خطيئة لابراهيم ؟

ولكنه لايبرئ نفسه لأنه فى مقام دون مقام الربوبية وإن كان نبيا معصوما

انه للأدب والحياء الذى تحلى به إبراهيم وهو شعور التقوى وشعور التحرج وشعور التقدير لنعمة الله تعالى وادراك أن عمل العبد ضئيل جدا إذا قوبل بانعام الله وأفضاله (وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتُحْصُوهَا) .

وهكذا يجمع سيدنا إبراهيم عناصر العقيدة الصحيحة :

توحيد الله رب العالمين . .

الاقرار بتصريفه لشئون البشر . .

البعث والحساب بعد الموت[1] .

فضل الله وتقصير العبد مهما كان أوابا . .

وتلك هى محط النزاع بين المكيين ورسول الله محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام . .

قال ابن كثير فى تفسيرها :

هذا اخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام امام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على أمته ليقتدوابه فى الأخلاص والتوكيل وعبادة الله وحده لاشريك له والتبرئ من الشرك وأهله[2] ، وجعلها سيدنا إبراهيم كلمة باقية فى عقبه :

(وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وقَومَه : إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُون . إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِين وجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُون[3]) . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٩ ص : ٩١ — ٩٣ .

(٢) ابن كثير ج : ٣ ص : ٢٣٧ راجع روح المعانى للألوسى ج : ١٩ ص : ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) الآيات من رقم : ٢٦ — ٢٨ من سورة الزخرف .

تقول قريش : المعاندة للتوحيد الذى جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — إنها من ذرية إبراهيم وفى خطبة أبى طالب : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضى معد[1] . .

فهذه النسبة حق . .

وتدعى قريش أنها على ملة إبراهيم وهذا ماليس بحق فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة لالبس فيها ولا غموض ومن أجلها هجر أباه وقومه وأعلن عدوانه لكل شرك ووصى بنيه من بعده أن يقولوا لااله إلا الله صافية بريئة من شبه الشرك . .

وإذن فدعوة التوحيد التى ينكرها المجتمع المكى هى دعوة أبيهم إبراهيم[2] .

فلئن كانوا مستمسكين بما كان يعبده آباؤهم فها هو ذا أبوهم إبراهيم الذى يفتخرون بالنسب إليه إنه نبى موحد خالص فى التوحيد وقد جعل التوحيد من بعده تركة لأبنائه .

يقول الآلوسى :

(والكلام تمهيد لما أهلُ مكة فيه من العناد والحسد والإباء عن تدبر الآيات وانهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى أن يقلدوا آباهم الافضل الأعلم الذين هم يفتخرون بالانتماء إليه وهو إبراهيم عليه السلام[3] ،

---

(١) المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٢٠١ ط أولى عام ١٣٢٥ هـ .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٥ ص : ٧٣ ، ٧٤ ، تفسير ابن كثير ج : ٤ ص ١٢٦ .

(٣) راجع روح المعانى ج : ٢٥ ص : ٧٠ .

منهم يرجعون ، إلى (لا إله إلا الله) فيلتزموا بها كما التزم بها أبوهم إبراهيم وبعث بها اليهم محمد الأمين :

وبذلك وضحت عقيدة إبراهيم ولزمت الحجة للمعاندين وكان ذلك سبيل القرآن فى معالجة هذه القضية لأنها سوف تكون المنهاج الدائم مع اليهود فى مستقبل الدعوة إذ هم يدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، وهم كذلك ينتمون إلى أصل إبراهيم فاذا ماثبت فى مكة أن أصول عقيدة إبراهيم هى التوحيد الخالص كان ذلك حجة على الآخرين مستقبلا ممن يدعون انهم من ذرية سيدنا إبراهيم ثم لايسلمون .

فقد كان إبراهيم حنيفا مسلما وماكان من المشركين فهو منهاج يقرر فى مكة ليكون فى المدينة أمرا ثابتا لايحتاج إلى مناقشة أو تدليل .

ثانيا : دعوة المعـاندين الى التجرد من المواريث الثقافية التى تبعدهم عن التفكير السليم فى التوصل الى الحقيقة :

رد العرب أيديهم فى أفواههم ورفضوا دعوة التوحيد متعللين بأنهم وجدوا آباءهم على أمة وانهم على آثارهم مهتدون وقد ناقش القرآن الكريم فى العهد المكى هذه القضية ، وعلى طريقة المنهج القرآنى فى معالجة القضايا فقد تصدى إليها واستوى مناقشا من الجذر الأساسى . .

فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اخترعوا هذه التعلة ، (وجَدْنَا آباءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُون) بل هى تعلة رددها الذين استحبوا العمى على الهدى من قبل :

لقد قالها قوم نوح :

(فَقَالَ المَلأُ الَّذِين كَفَرُوا من قَوْمه مَاهَذا الاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُم يرُيد أن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم ولَوْ شَاء الله لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَاسَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الأَوَّلين [١]) .

فقد رفض قوم نوح الايمان بنبوته لأنه لم يأتِهم خبر من أسلافهم أن النبوة تكون لواحد من البشر . .

وهكذا يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب فلا يهتدى الناس لما بين أيديهم من الحق الواضح لأنهم مازالوا متشبثين بركام الماضى وأوهامه . .

ومن المؤسف أن القرآن يدعوهم إلى التحرر من هذا السجن ويعلمهم ألا يحيلوا أعذارهم على آبائهم وأجدادهم بل أن القرآن لينعى على هؤلاء أن أعفوا أنفسهم من مؤنة التفكير والعقل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها ولا شفاء للصدور [٢] .

ويا ليت هؤلاء يدركون أنهم جامدون متحجرون إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون أو بالسحر . . الخ .

ولما أصر هود على معالجتهم بكل وسيلة أيأسوه وقالوا له :

(سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِين) وتعللوا لهذه السخافة [٣] :

(إن هَذَا إلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِين) .

---

(١) الآية رقم : ٢٤ من سورة « المؤمنون » .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٨ ص : ٢٥ ، التفكير فريضة للمرحوم العقاد ص : ٢٦ التفكير الفلسفى فى الاسلام ص : ٥٤ (٣) راجع ابن كثير ج : ٣ ص : ٣٤٢

وإذن فمثل هؤلاء الجامدين لا يستحقون الحياة ولا العيش فجاءهم نصيبهم :

(فَأَهلَكنَاهُم إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَانَ أكثَرُهُم مؤمِنِين) .

لقد انتهى أمرهم فى كلمتين : (فكذبوه فأهلكناهم) وطوى قوم عاد الجبارون وطويت مصانعهم وطوى معهم ما كانوا فيه من نعيم وما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون[1] .

وقالها من بعدهم قوم إبراهيم .

(إذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ) .

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين[2]) .

فلم يكن لهم جواب ولا حجة سوى أنها صنيع آبائهم صنعة الضلال والغى ، ويتكرر السؤال :

(هَلْ يَسْمَعُونَكُم إذ تَدْعُون) .

(أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّون[3]) .

فلم يكن لهم جواب غير :

(بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[4]).

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٩ ص ١٠٤ .

(٢) الآيتان رقم : ٥٢ ، ٥٣ من سور الأنبياء .

(٣) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة الشعراء .

(٤) الآية رقم : ٧٢ — ٧٤ من سورة الشعراء .

لم تكن لديهم حجة غير أن يكشفوا عن التحجر الذى يصيب المقلدين بلا وعى ولا تفكير[١] .

إن الإسلام يرفض أن يستخدم الإنسان التعلة بالتبعية لما كان عليه الآباء فى مقابل احترام العقل الذى وهبه الله ليكرم الإنسان به نفسه . .

وليقوم به الأشياء بقيمها الحقيقة والإيمان بالله هو أسمى الغايات التى يسعى إليها المرء وهم يعترفون بوجود الله إذا ما سئلوا لكن تحجبهم عن حقيقة الإيمان به سلطة العادات وجبرية التقاليد ، وفى مقابل هذا يأمر الإسلام الفرد أن يستقل بمستواه العقلى عن الاستبداد الاجتماعى الموروث فى التقاليد والعادات ؛ فليس الإنسان تركة تورث وإنما هو إرادة تعمل ولن تبلغ إرادة الإنسان به مستوى التكريم إلا إذا آمنت بالله إيماناً خالصاً من شوائب العادات . والتقاليد وجبرية مواريث الآباء والأجداد .

لقد قالوا لسيدنا إبراهيم :

(وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِين) .

نفس المرض الاجتماعى والتعلة الفاسدة التى تعلل بها من قبل قوم نوح وهود ومنذ الزمن السحيق وهذه العلة مرفوضة لأنها قيد وهمى وكابوس خرافى على العقل الممنوح من الله للإنسان ليفكر به ويستقبل به ما يوحيه الله إلى الأنبياء من أجل هدايته . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج ١٩ ص ٩١ .

وعندما تصل المسألة إلى العرب المعاصرين لبدء الوحى فان القرآن يحاول أن يخلع هذه العادة من جذورها الغائرة فى أعماق النفس فيلومهم على ما كانوا يفعلونه قديما من حقوق ابتدعوها على مشركى العرب الذين يفدون لحج بيت الله . وأقاموا هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زاعمين أنها تركة من عند آبائهم حللها إليهم الله[1] ، عندئذ يكذبهم الله ويلغى هذه التبعية الباطلة كما جاء فى سورة الأعراف :

(وَإِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قَلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُر بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[2]) .

وتمضى الآيات المكية تحطم هذا البيت العنكبوتى الذى طمس البصر . وضلل العقل وألغاه فتنفى آيات سورة لقمان تعلقهم بمسلك آبائهم :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم : اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ .

قَالُوا : بَل نَتَّبِع مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطان يَدْعُوهم إِلَى عَذَاب السَّعِير[3]) .

إن هذا الموقف استجابة لدعوة إبليسية شيطانية مصيرها العذاب فهل هم سائرون فى الطريق وراء آبائهم حتى جهنم ؟ إنها لمسة مخيفة

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٥٧ .

(٢) الآية رقم : ٢٨ من سورة الأعراف .

(٣) الآية رقم : ٢١ من سورة لقمان .

مزعجة موقظة منبهة تعيد الرشد إلى فاقد الوعي ، ولكن لمن ألقى السمع وهو شهيد [١]

وتطيل آيات الزخرف مع القوم مناقشة هذا التحجر البليد :

بل قالوا : (. . إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ [٢]) .

قال ابن كثير فى تفسيرها :

ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة . .

ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقتهم إليها أشباههم ونظائرهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم [٣] .

فالقرآن فى سورة الزخرف يربط مقالتهم بالمقالات السابقة من الأمم التى أهلكها الله بسبب هذا التحجر المتبلد :

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون [٤]) .

فيجلى طبيعة المعارضين عن الهدى إنها طبيعة واحدة تستخدم أسلوبا واحدا ليس هناك حجة لأنهم سدوا منافذ العقل . وألغوا وظيفة

---

(١) راجع حول هذا فى ظلال القرآن ج ٢١ ص ٧٩ .

(٢) من الآية رقم : ٢٢ من سورة الزخرف .

(٣) ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦ .

(٤) الآية رقم : ٢٣ من سورة الزخرف .

الفكر ، وارتبطوا فى حبال بالية واهية قائمة حتى ولو جاءهم بما هو أهدى :

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ[1]) .

فهى عقول طمس عليها وقلوب سدت منافذها .

والقرآن يحاول أن يكشف عنها الغطاء ويقطع حبال التبعية الإبليسية فيعقب على مواقف السالفين دائماً بعقاب صارخ صارم :

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[2]) .

(مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) . .

إنها مقالة الذين يريدون علوا فى الأرض وفسادا ولا يحبون الخير والهدى للناس لقد قالها المتعجرفون من آل فرعون وأذنابه إلى سيدنا موسى :

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الأَرْضِ وما نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ[3]) . .

ولهذا فإن القرآن يجاهد فى هذه المرحلة ليخلع معاندو الدعوة أغشية العمى وأثمال التقاليد وصدأ المواريث الثقافية التى حماوها أثقالا ثقالا من الآباء والأجداد الذين لا يعقلون ، وتلك خطوة رئيسية

---

(١) الآية رقم : ٢٤ من سورة الزخرف .

(٢) الآية رقم : ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية رقم : ٧٨ من سورة يونس .

يحاولها القرآن بعد أن أوضح لهم مِلَّة جدهم إبراهيم الذى يدعون النسبة إليه فى النسب والتدين ، حتى إذا ما انتهى دور التخلية وتجرد المعاندون من الهوى الموروث وتخلصوا من جبرية العادات وتحرروا من عبودية التقاليد صح لهم أن يرجعوا إلى أنفسهم ويشاهدوا دلائل التوحيد والتنزيه .

ولذلك يأخذ القرآن الكريم فى تصوير عواقب هذه التبعية لكل الذين يتعللون بما وجدوا عليه آباءهم :

(ثُمَّ إِنَّ لَهُم عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّن حَمِيم . ثُم إِنَّ مَرْجِعَهم لَإِلَى الْجَحِيمِ . إِنهُم أَلْفَوْا آبَاءهُم ضَالِّينَ . فَهُم عَلَى آثَارِهِم يُهْرَعُون . ولقد ضَلَّ قَبْلَهُم أَكْثَرَ الأَوَّلِين[1])

إنهم أصحاب عراقة فى الضلالة ؛ ضلالة التقليد والطاعة العمياء بلا دليل ولا تفكير ولا روية .

فذلك مآبهم مزيج من حميم وغساق يشربونه مع الزقوم جزاء اتباعهم لما وجدوا عليه آباءهم من الضلالة دون تفكير أو برهان ، فهم على آثار آبائهم يهرولون وهم سفهاء ملعونون[2] .

يقول شيخنا فضيلة الإمام الدكتور عبد الحليم محمود : ولكن العرب قابلوها بصراع فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل هدايتهم أحكم الوسائل .

---

(١) الآيات من رقم : ٦٧ — ٧١ من سورة الصافات .

(٢) راجع ابن كثير : ج : ٤ ص : ١١ فى ظلال القرآن ج : ٢٣ ص : ٥٧ .

نبهتهم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإلف ، وأن تكون العادة أو العرف مقاساً للحق . فليس من المنطق إذا قيل لهم : (اتبعُوا ما أنزل الله) أن يقولوا : بل نَتّبع ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا)

لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون . . .

وليس من المنطق أن يقولوا : (إنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ) . . .

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقدير المسئولية الفردية ليجتث بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة أو على البيئة أو على الآباء والرؤساء . .

(ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

وأن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى)[1] . .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يره[2]) . .

ومن ثم فقد أثار القرآن الكريم شعورهم نحو الإحساس بهذه المسئولية فإن فردية التبعة ذات أثر حاسم فى الشعور الأخلاقى وفى السلوك العملى : فشعور كل فرد بأنه مجزى بعلمه لا يؤاخذ بكسب غيره ولا يستطيع هو أن يتخلص من كسبه : لهو عامل قوى فى يقظة

---

(١) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ من سورة النجم .

(٢) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . . راجع التفكير الفلسفى فى الاسلام ص : ٥٢ .

قلبه وعقله وَوُجْدانه ومحاسبة نفسه وفى دفعه للتخلى عن كل أمل خادع فى أن ينفعه شيءٌ غير ما عملت يداه .

والآيات القرآنية تصور هذه الحقيقة من جانبين :

جانب أن : (كل نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) . .

وجانب أن الإنسان لا يتحمل وزر الآخرين فلا قلق ولا خوف ولا يأس ما دام قد أدى واجبه بقدر ما يملك وما يستطيع . .

إن تعبيرات القرآن الكريم وهى تحاول أن تنقذ العرب المعاندين للدعوة تصور المشهد كأنهم قافلة كل من فيها يحمل أثقال نفسه ويمضى فى طريقه وحده : واحدا واحدا يسعون حتى الوقفة الحازمة أمام الوزان وهى وقفة فيها جهد وتعب وهمٌ وثقل وانشغال عن الأهل والأقارب ولا يملك لقريبه عونا فالكل قد شغله حاله وأعيته أثقاله[1] . ويقول الله تعالى : (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلو كَانَ ذَا قُرْبَى[2]) .

ويبرز القرآن الكريم هذه المسئولية فى إطار الناموس الكونى والقوانين المستقرة الدائمة (وَكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ . وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) . .

---

(١) راجع ظلال القرآن ج : ٢٢ ص ١٢٤ .

(٢) من الآية رقم : ١٨ من سورة فاطر .

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ...)[1] . .

فكل إنسان قرين ما عمل لا يفارقه ولا يملك التخلص منه ولا يستطيع كتمانه فهو منشور مكشوف ولا يقدر على تجاهله فهو فى عنقه وكفى بنفسه فى ذلك اليوم شهيدا على سلوكه .

انها المسئولية الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها وليس فى مقدور أحد أن يخفف حمل أحد (...وما أَلَتْناهُم مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَىْءٍ كل امرىء بما كَسَبَ رَهِينٌ)[2] ...

(بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىَ نَفْسِهِ بَصِيرَة . ولَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه[3]) . .

ولقد كان ذلك قضاء مبرما وقانونا ثابتا ودينا شرعه الله فى صحف ابراهيم الذى وفى .

(أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وأن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى[4])

لقد وفى ابراهيم جد العرب المعاندين بكل التزاماته مع ربه ، حتى استحق هذا الوصف المطلق ومن جزئيات ما وفى به وبلغه ، (ألا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) . فلا تحمل نفس حمل غيرها لا تخفيفا ولا تثقيلا فلا تطوع بل ولا تملك نفس هذا التطوع . .

---

(١) الآيات من رقم : ١٣ — ١٥ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية رقم : ٢١ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة القيمة .
(٤) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة النجم .

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ) .

فالله غنى عن العباد لا يزيد ملكه بإيمانهم ولا ينقص منه شىء لكفرهم .

(إن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنٌّى عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ وإن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم) .

يحبه لكم ويعجبه منكم ويجزيكم عليه . وكل مجزى بعمله :

(ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وفى النهاية إليه المرجع والمآبُ :

(... ثُمَّ إلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[1]) . .

هذه هى العاقبة وهذا هو مفرق الطريق ولكل أن يَختار عن بينة وتدبر وتفكير ؛ فهل كان لديهم علم أو استعملوا — ولو مرة — التدبر والتفكر ؟ . .

(إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا من سُلْطَان إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ومَا تَهْوَى الأَنْفُس وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِن رَبِّهِمْ الهُدَى ...[2]) .

---

(١) من الآية رقم : ٧ من سورة الزمر .

(٢) الآية رقم : ٢٣ من سورة النجم .

قال ابن كثير :

«ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ...[1] » . .

وإذن فهم خلو من المعرفة وهم براء من التفكر والتدبر . .

وفى الالتفاتة من المخاطب إلى الغائب (سميتموها) (إن يتبعون إلا الظن) منتهى الاستخفاف بعقولهم فكأن حضورهم لا كحضور فقد ألغوا عقولهم ونكسوا على رؤسهم فأنى يكون لهم احترام أو تقدير؟ وقد جاءهم من ربهم الهدى ، وتستمر سورة النجم فى كشف سلوكهم العقلى ومستواهم التفكيرى :

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون بالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ . وإنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيْئًا[2]) .

ليس لهم علم صحيح بهذه الدعاوى التى أطلقوها من خيالهم بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع .

والظن أكذب الحديث لا يقوم أبدا مقام الحق ولا يجدى عنه شيئا .

---

(١) ابن كثير : ج : ٤ ص : ٢٥٤ .

(٢) الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ من سورة النجم .

فأَوْلى لَهم :

أن يخلعوا هذه المواريث :

التبعية للآباء ..

الخضوع للعادات والتقاليد . .

اتباع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئًا . .

أَوْلَى لهم ، وقد جاءهم من ربهم الهدى : وألا تزر وازرة وزر أُخرى .

أَن ينظروا فى ملكوت السموات والأَرض وما خلق الله من شيء وأَن عسى أَن يكون قد اقترب أَجلهم فبأَى حديث بعد الله وآياته يؤْمنون ؟ . .

أولى لهم أن يفكرو ..ويتدبروا . ..

ثالثا : دعوة المعاندين للتفكير بالمشاهدة فى آثار قدرة الله جل شأنه وتعريفهم طريقة استخدام هذا المنهج :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السمَوٰاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله ...)[1] .

(ولئن سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماء ماءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْد مَوْتِهَا ليقولُن الله ...)[2] .

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السمَوٰات والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله ...)[3] .

---

(١) من الآية رقم : ٦١ من سورة العنكبوت .

(٢) من الآية رقم : ٦٣ من سورة العنكبوت .

(٣) من الآية رقم : ٢٥ من سورة لقمان .

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ[١] ...).

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون[٢] ...)

أن معرفتهم بالله الخالق البارئ المصور موجودة ولكنهم يعبدون الأصنام : لقد عبدوها على حسب ما ادعوه :

(... مَا نَعْبُدُهُم إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى[٣] ...).

وهي علة واهية تستند إلى خنوعهم لجبرية التقاليد وعشقهم تبعية الآباء .

(إِنَّهُم أَلْفَوْا آبَاءَهُم ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُون[٤]) .

وقد اعترفوا بذلك صراحة :

(... قَالُوا : وجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنا[٥] ...) .

(قَالُو : أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْه آبَاءَنا[٦] ...) .

(قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ[٧]) .

---

(١) الآية رقم : ٩ من سورة الزخرف .

(٢) الآية رقم : ٨٧ من سورة الزخرف .

(٣) من الآية رقم : ٣ من سورة الزمر .

(٤) من الآية رقم : ٢٨ من سورة الأعراف .

(٥) من الآية رقم ٢٨ من سورة الأعراف .

(٦) من الآية رقم : ٧٨ من سورة يونس

(٧) الآية رقم : ٥٣ من سورة يونس .

(... قَالُوا : بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ[1]) . .

(... قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ...[2]) . .

(... بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ[3]) . .

(... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ[4]) .

وكذلك مبلغ الظن. وقد عاب القرآن هذا المنطق الأعوج الذى يستند إلى الظن .

(... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[5]) . .

(... إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ[6])

(وما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا . إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا[7])

(... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[8]) . .

(... ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ[9]).

---

(١) الآية رقم : ٧٤ من سورة يونس .
(٢) من الآية رقم : ٢١ من سورة لقمان .
(٣) الآية رقم : ٢٢ من سورة الزخرف .
(٤) من الآية رقم : ٢٣ من سورة الزخرف .
(٥) من الآية رقم : ١١٦ من سورة الأنعام .
(٦) من الآية رقم : ١٤٨ من سورة يونس .
(٧) من الآية رقم : ٣٦ من سورة يونس .
(٨) من الآية رقم : ٦٦ من سورة يونس .
(٩) من الآية رقم : ٢٧ من سورة ص .

(... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ [1]) . .

(وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيْئاً [2]) . .

فهم مسرفون فى إيمانهم بالله ، مشرشون فى فهم العبودية لجلاله فأشركوا مع جلاله الجن والملائكة والكواكب والأوثان والأصنام والنُّصُبْ . .

ولقد كان فى البيئة قبل البعثة رهبان وأحبار ومثقفون يبشرون بالنبوة الخاتمة . .

لقد آمن ورقة والنجاشى وكلاهما تعلم المسيحية وتبحر فيها . .

وآمن بحيرا ونسطورا وهما من رجال الدين المتخصصين . .

وآمن عبدالله بن سلام وهو من كبار علماء اليهود . .

وآمن خلق من البشر الذين عاشوا فترة التوعية والتمهيد للدعوة دون أن يقيم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهم دليلا ولا طلبوا منه برهانا . .

فالجو الإيمانى بالله موجود ولكنه مشوش فى إدراكه وتنزيهه لله جل جلاله . .

وإذن فالقرآن عندما يواجه هؤلاء القوم يواجههم على مقتضى حالهم ودعاويهم وأفكارهم ، إنه يواجه موجة إسراف فى الإيمان بآلهة

---

(١) من الآية رقم : ٢٣ من سورة النجم .

(٢) الآية رقم : ٢٨ من سورة النجم .

ويواجه موجة تبذير فى العبودية لله ، وذلك يتطلب رد هؤلاء المسرفين إلى الاعتدال فى التوحيد والتنزيه فيصحح لهم العقيدة ويحدد لهم أسلوب العبادة انه إلّه واحد[١] ، خلق فسوى وقدر فهدى ، فالق الاصباح جعل الليل سكنا والنهار مبصرا وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا للعباد . .

فحق العباد تجاهه أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا من الأَرْضِ . أَمْ لَهُم شِرْكٌ فى السَّمَوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قبل هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّن عِلْم إن كُنْتُم صَادِقِين[٢]) . .

وهم لا ينكرون هذا أبدا ولكنهم يخلطون ، والقرآن يحاول أن يهذب فكرتهم تجاه الله الحق الموجود وذلك ما حاولته آيات السور المكية وقررته على مدى ثلاثة عشر عاما مدة العهد المكى للدعوة الإسلامية فأثبتت وحدانية الله جل شأنه وسلطانه الكامل وصفاته الحسنى .

إن القرآن لم يحاول أن يثبت وجود الله لأن وجود الله حق فى ذاته والمنطقة العربية فى أم القرى ومن حولها لا تعانى من أجل هذه القضية جهداً ، فالله موجود عقيدة يؤمن بها كل من فى الجزيرة العربية من أصحاب الديانات اليهودية والمسيحية والوثنية . .

ولكن التوحيد كان هو المعركة الأساسية لإزالة الشرك وتعليم العباد كيف يعبدون الله الواحد الفرد الصمد الذى لا شريك له ولا ولد .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج ٧ ص ٣٢٦ .

(٢) الآية رقم : ٤ من سورة الأحقاف .

ولا أقصد بهذا إعلان فكرة جديدة تعارض الاتجاهات الفلسفية التى أنفقت كثيرا من الجهد والعرق والاطلاع والتدوين والطباعة والنشر فى التنافس على الأولوية فى القدرة على إثبات وجود الله فليس فى ذلك شرف لمسلم ولا لباحث ، لأن سير الدراسات هذه يملى علينا : حقيقة واضحة : أن المجتمع فى أم القرى وما يجاورها لم يكن ملحدا بل كان مشركا والاشراك فى مفهومه العادى إسناد الألوهية إلى أكثر من واحد واعتقاد أن الله له شريك . والاشراك كان فى العبادةلا فى الخلق ولهذا توجه القرآن الكريم لتنقية الإيمان بالله من شوائب هذا الشرك ويتضح هذا جليا فى أسلوب الدعوة أثناء العهد المكى . .

فالرسول — صلى الله عليه وسلم — طوال العهد المكى كله لم يستخدم أسلوبا واحدا يثبت به وجود الله ولم يثبت عنه مرة واحدة أنه سئل أو أجاب على سؤال يتعلق بوجود الله . .

وما سأل واحد من الصحابة أو من غيرهم فى هذا العهد عن وجودالله.

لقد انتهى العهد المكى وليس ثمة سؤال أو جواب عن وجود الله .

بل كان مثله العهد المدنى ، وقد جاءت وفود اليهود والنصارى إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولم يثبت تاريخيا ولا علميا أن وجود الله كان مدار حديث بينهما ، وما تطوع رسول الله — صلى الله عليه وسلم نفسه بالتحدث عن إثبات وجود الله حتى نودى إلى الرفيق الأعلى . .

لقد مضت حياة الرسول كلها فى العهدين :

المكى والمدنى بكاملها ولم يثبت مرة واحدة أن تحدث الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن وجود الله لا بطريق الإجابة على سؤال ، ولا بطريق التطوع والتبليغ . .

والقضية فى حد ذاتها لو عرضت لكانت مثار دهشة المجتمع نفسه لأن الإيمان بالله موجود إلى حد الإسراف فيه والتبذير حتى صارت الآلهة أقنانا فلأية علة تثار أدلة وجود الله ؟ .

والقرآن نفسه لم يتخذ إلى ذلك سبيلا بل كل ما فيه من الآيات والدلائل إنما تتوجه إلى إثبات التوحيد وإلغاء الاسراف والكثرة فى الإيمان وإذا تأملنا هذه الآيات نجد أنها جاءت لإ ثبات صفات الله الموجود . .

(وعِنْدَه مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَافِى الْبَرِّ والْبَحْرِ ومَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إلَّا فى كِتَابٍ مُّبِين[1]) .

(هُوَ الَّذِى أَنزَلَ من السَّمَاءِ مَاءً لكُم مِّنه شَرَابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فيه تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُم به الزَّرْعَ والزيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومن كُلِّ الثَّمَراتِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لقَوْمٍ يَتَفكَّرُون) .

وسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومُ مُسخراتٌ بأمْرِهِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لقَوم يَعْقِلُونَ .

---

(١) الآية رقم : ٥٩ من سورة الأنعام .

وَمَا ذَرَأَ لَكُم فى الأَرض مُخْتَلِفاً أَلوانُه إِنَّ فى ذَلكَ لآيَةً لقَوْمٍ يَذَّكَّرُون .

وهُو الَّذِى سَخَّرَ البحرَ لتَأْكُلُوا منه لحما طريًّا وتستخرجُوا منه حلية تلبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ مواخِرَ فِيه ولِتَبْتَغُوا من فضْلهِ ولَعَلَّكُم تَشْكُرُون .

وأَلقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُم وأَنْهَاراً وسبُلاً لَعَلَّكُم تَهْتَدُون .

وعلاَمَاتٍ وبالنَّجْم هُمْ يَهْتَدُون .

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون ..

وإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُور رَّحيم .

واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ومَا تُعْلِنُون .

والَّذِينَ يَدْعُون من دُونِ الله لاَ يَخْلُقون شَيْئاً وهُم يُخْلَقُون) .

فالآيات هنا تنزه الله جل شأنه عن الشريك وتضفى على العقل الانسانى هيمنة الله الأحد وتهدهد على عقول البشر بنعمائه وآلائه وتقرر أنه وحده جل جلاله المنفرد بتدبير هذه الآلاء وأن الذين تدعون من دون الله عجزة لا يخلقون شيئاً بل هم مخلقون خاضعون لسلطانه وجلاله ..

---

(١) الآيات من رقم : ١٠ — ٢٠ من سورة النحل .

ونستأنس هنا لتأكيد ما وصلت إليه هذه الدراسات فى عدم وجود محاولة من القرآن نحو إثبات وجود الله برأى فضيلة مولانا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود ، يقول :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وجه الإسلام الأذهان فى عنف وفى قوة إلى التوحيد لا إلى إثبات الوجود ، لقد وجه الأذهان إلى أن الله لا يحتاج فى إثباته وفى وجوده إلى دليل وصور — على العكس — هو الدليل على غيره ، فغيره ثابت به ، والعالم ثابت به ، والسموات والأرض والعرش والكرسى ، كل ذلك موجود بوجوده ثابت بثباته ، والوجود بأكمله محتاج فى كل لحظة إليه فضلا عن احتياجه إليه فى نشأته الأولى ووجوده الأصلى ..

أما فى القرآن مما تخيله بعض الناس استدلالا على وجود الله فليس إلا بيانا لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ومن ذلك مثلا :

(وفى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتجاورات وجنَّات من أعنابٍ وزرع ونَخِيل صِنْوانٌ وغير صِنْوَان يُسْقَى بماءٍ واحدٍ وَنُفَضِّلُ بعضَها على بَعْضٍ فى الأكل إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يعقلون) . .

ان ذلك وكثيرا غيره إنما يذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ، ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم . .

وما من شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله . .

وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقى فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون

متفقا مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ولكن ذلك لن يكون قط تصويرا لهدف من أهداف القرآن الكريم . .

فالقرآن الكريم لا يضع قط وجود الله موضع الشك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه . .

ومن القصص التى تروى على أنحاء شتى وبأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم ، ما يحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتابا ضخما فى إثبات وجود الله فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله هذا الضخم ، ومر بهم بعض الصالحين فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف فسأل .

ومتى غاب الله حتى يكون فى حاجة إلى إثبات ؟ .

فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة وتركهم الرجل الصالح وهو يردد :

قل : الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ...[1] ..

هذه شهادة عالم متخصص عاش الفلسفة حياتها بالطول والعرض والعمق والغاية انتهى إلى : أن القرآن لا يستشير الانسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم الوحى إلى الانسان باعتباره حكما فى أى مبدأ من مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها ، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط . .

---

(١) الاسلام والايمان : ٢٠٨ ، ٢١٢ .

ذلك أن الوحى نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ونزل يبلغ أن هذه الرسالة صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه ، ولا قضية تحتمل الصدق والكذب ، وليس فيها جملة زائدة ولا كلمة ليست فى موضعها ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا ، إنها الحق الخالص من اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها فقد انحرف ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم ونوره اللألاء . .

وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، أنظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب فى بصركم أو فى بصيرتكم ، إذا رأيتم غير ذلك فإن الفساد فى عقولكم وفى تفكيركم . . .

إذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم وأن قلوبكم ران عليها الاثم فضلت وأن عقولكم قد صدئت فأصبحت لا ترى الحق حقا ولا الخير خيراً وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً ، والشر خيرا وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم [1] ... ألخ .

تلك نظرة متخصص فى الدراسات الفلسفية زهاء ثلث قرن تقريبا نستأنس بها فى نفى ما أنفق فيه المخلصون من المنافحين عن الإسلام

---

(١) الاسلام والعقل : ١٤ ، ١٥

عمرا طويلا فى إثبات وجود الله ، تلك القضية التى لم تواجهها الدعوة الإسلامية عند بدئها . .

لقد بدأت الدعوة الإسلامية بالأمر الإلهى ، (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) وهذه الآية الكريمة التى بدأ بها الله سبحانه وتعالى الوحى ليس فيها شىء اسمه الاستدلال على وجود الله ، وهى بعيدة كل البعد عن جو الاستدلال على وجود الله . .

ومسألة الاستدلال على وجود الله والتى كانت تنتظر فى مبدأ الوحى — فرضا — والتى لم يكن مبدأ الوحى فيها (العالم حادث) (وكل حادث لا بد له من محدث) ، لم يكن هذا أول الوحى ، أو هو آية فى الوحى أو آية فى القرآن . .

مسألة وجود الله سبحانه وتعالى إنما هى ثقافة انحراف ابتدعها الملاحدة وتشبثوا بها ، ان الفطرة تعترف تلقائيا بوجود الله . .

ومن الملاحظ عبر التاريخ أن الأنبياء جميعا كانوا يأتون لبيان الاعتقاد فى وجود الله إذا أمكن هذا التعبير — بمعنى أن آدم عليه السلام ، أتى بالتوحيد ثم انحرفت الانسانية من بعده . .

إلى أى شىء انحرفت ؟ . .

لم تنحرف إلى انكار الله . .

ولكنها انحرفت إلى التعدد . .

وأتى نوح عليه السلام بالتوحيد ، ثم انحرفت الانسانية إلى التعدد أيضا . .

وطهر الله الانسانية تطهيرا كاملا فى عهد سيدنا نوح عليه السلام وبقى من بقى على التوحيد الخالص ، ثم انحرفت الانسانية فيما بعد إلى التعدد . .

وإذن فانحراف البشرية دائما إلى التعدد لا إلى الانكار : والانكار لم ينشأ إلا فى العصور الحديثة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ...) .

وأنت إذا تصفحت الأناجيل على ما هى عليه من التحريف والتبديل لا تجد فيها مطلقا ما يشير إلى مشكلة اسمها ، مشكلة إثبات وجود الله . .

وإذا تصفحت التوراة على ما هى عليه من التبديل والتغيير لا تجد فيها مشكلة ، اسمها مشكلة إثبات وجود الله .

وإذا تصفحت القرآن الكريم أيضا لن تجد فيه ذلك . .

إنما يتحدث القرآن الكريم عن صفات الله : عن هيمنته عن علمه بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، عن علمه بكل ورقة تسقط ، عن علمه بالسر وما هو أخفى من السر ، عن إرادته الشاملة عن قدرته التامة : ولكن ذلك ليس حديثا عن إثبات وجود الله[1] . .

فالقرآن الكريم لم يضع وجود الله موضع الاحتمال والفرض . .

---

(١) الاسلام دعوة إلى العلم من محاضرة لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود فى كلية الهندسة بأسيوط إبريل سنة ١٩٧٠

والاستدلالات بالآيات الكونية وغيرها لا يقصد بها نفى طرف فى قضية لها طرفان ليثبت الطرف الآخر ، وإنما القصد من هذه الاستدلالات توجيه المدارك العقلية والمشاعر الوجدانية إلى جلال سلطانه وعظمة تدبيره [1] ..

إن أمر وجود الله لا يحتاج إلى دليل ، إنه أظهر من كل شىء وأوضح من كل أمر ، وكما قال بعض الصالحين :

ومتى غاب حتى يكون فى حاجة إلى إثبات وكما قال العارف بالله العلامة الثقة أبو الحسن الشاذلى :

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصولة إليه فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟ أولها من الوضوح ما ليس له ؟ حتى تكون هى المظهرة له ؟ .

يقول الألوسى : فلا تثبتوا لأنفسكم وجودا مع وجوده لأنه الذى أظهر تعيناتكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكوراً [2] ..

إن مجرد البدء فى إثبات وجود الله هو بدء فى الاعتراف بمشروعية نكاره أو إحتمال ذلك وهو غير متصور فى بيئة كان فيها من أسلم شعره وكفر قلبه ، وكان فيها من سيبعث يوم القيامة أمة وحده ، وكان فيها من يقول : (الله أحد) ..

---

(١) القرآن العظيم لفضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون ص : ١٤ .

(٢) الألوسى ج : ٤ ص : ٢٠٩ .

لهذا فإنا سنجنب هذه الدراسة الإملاءات التى غصت بها كتب الفلاسفة من علماء الاسلام احتراما منا لمجرى البحث فى جوه القرآنى واستيثاقا بأن وجود الله أقوى من كل دليل وأكمل من كل مستويات الفكر الانسانى كلها[١] . .

وسأستعين بالله فى تحسس الحركة الفكرية التى دعى إليها القرآن الكريم معاندى — الدعوة بعد أن .

وضح لهم ملة ابراهيم حنيفاً مسلما إن كانوا حقا صادقين فى الانتساب إليه . .

وشدهم من نواصيهم ليخلعوا ثياب التقاليد ويحررهم من ربقة الاستبداد الصنمى . .

ثم قدم إليهم آيات فى الكون الفسيح عساهم يتهيئون لمرحلة جديدة فى علاقاتهم مع الدعوة ينعمون النظر فى ملكوت الله ونعمه وآلائه خلقا وتنسيقا وتدبيرا أو ترابطا وعناية وقصدا .

فيشاهدون فى أثار قدرة الله وحدانيته فى الذات والصفات المنفردة

---

(١) استفاض الأستاذ المرحوم العقاد فى شرح هذه الأدلة راجع كتابه : الفلسفة القرآنية ١٣٤ وما بعدها ط دار الهلال ، وكتابه : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص : ٣٤ ، ٤٢ وكتابه التفكير فريضة اسلامية ص : ٦ ، ٣٣ ، وكتابه : الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية ص ١٥٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، وراجع كتاب : قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لفضيلة الشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس ص : ٢٧٩ ، ٢٩٨ .

بتدبير هذا الملكوت ويستنبطون بعقولهم ما شاءوا من معانى الأدلة :

* دليل الخلق والإيجاد[1] Cosmological Argument .

* أو دليل الإبداع[2] Teleological Argument

* أو دليل الكمال والسمو[3] Ontological Argument

فإن فكرة الألوهية فى الاسلام هى الفكرة الصحيحة التى بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلٓهية وتضمنت تصحيحا دقيقا لتفكير العقول البشرية على اختلاف مستوياتها وعصورها وقررت بالثقة والطمأنينة ما يجب لله جل شأنه من الكمال والإيمان بوحدانيته وجلال سلطانه وليس من السهل ولا من الممكن أن تخضع الآيات القرآنية لهذا التقسيم الذى نقلناه عن العلماء[4] فإن القرآن لا ينزل على هوى البشر :

(وَلَوْ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السمَوَات والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ)

ولكننا ذكرناه تمشيا مع هذا الاتجاه لكى يرى أصحابه أن أدلة القرآن أصدق فى دلالاتها من محاولات البشر : (وَمَنْ أَصْدَق مِنَ اللهِ حَدِيثًا) . .

---

(١) القاموس العصرى ص : ١٦٧ .

(٢) ص : ٧٢٥ المصدر السالف .

(٣) ص : ٤٩٦ ، ص ٥٢ ، راجع الفلسفة القرآنية للأستاذ المرحوم العقاد ص : ١٣٤ الاسلام والايمان لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص : ١٨٥ والتفكير الفلسفى الاسلام ص : ٦٤ ، ٧١ .

(٤) راجع الفلسفة القرآنية للعقاد ص : ١٣٤ : الاسلام والايمن ص : ١٨٥ التفكير الفلسفى فى الاسلام ص : ٦٤ ، ٧١ .

ادلة التوحيد والتنزيه

اولا : وحدانية الذات :

(ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ...[1])

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[2] . .

(. . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ[3]) . .

(قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مع اللهِ ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

---

(١) من الآية رقم : ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية رقم : ١١ من سورة الشورى .

أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُه ، ومن يَرْزُقُكُم مِّن السَّمَاء والأَرض أَإِلَه مَّع الله ؟ قُلْ هَاتُوا بُرهانَكُم إن كُنتُمْ صَادقين . قُل لَّا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمَوات وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ الله وما يَشْعُرُون أَيَّانَ يُبْعَثُون (١)).

هذه جولة واسعة فى صفحة الكون وفى أفطار النفس الإنسانية لايملك المعاندون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد ليس الكثرة التى يدعونها من دون الله . .

ويعرض القرآن الكريم هذه المشاهدات فى إيقاعات تملك على العقل مناحى فكره وتلزمه بالحجة ، فهو يسأل فى تلاحق لايدع له مجالا للشك . .

من خلق السموات والأرض . .

من أنزل من السماء ماء فأنبت به هذه الحدائق ذات البهجة .

من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ .

من يجيب المضطر إذا دعاه ؟ .

من يكشف السوء ؟ .

من يجعل البشر خلفاء فى هذه الأرض ؟ .

من يهدى الإنسان فى ظلمات البر والبحر ؟ .

من يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمة الله ؟ .

---

(١) الآيات من رقم : ٥٩ — ٦٥ من سورة النمل .

من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ . .

ثم يرزقكم من السماء والأرض ؟ . .

وفى كل مرة يسأل القرآن يقرعهم باستفهام يحوى جميع معانى الاستفهام فهو تقريع للمعاندين ، وهو تقرير الموقنين ؛ وهو إرشاد للطالبين (أإله مع الله) . .

وبحكم عقيدتهم لايملكون جواباً يردون به أن هناك مع الله آلها يفعل هذا ، وإذن فلماذا تكثر الأرباب من دون الله ؟ . .

إن السموات والأرض حقيقة قائمة لا يملك المعاندون إنكارها ولا إدعاء مشاركة الأصنام والكواكب والجن والملائكة ومايشركونها فى العبادة فى خلقها : فالبداهة تصرخ فى وجه هذا الإدعاء وترده وترفضه ، بل ما كان واحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه كما يدعى التافهون فى العصر الحديث : وإذن فخلق السموات والأرض على هذا النحو فيه القصد والإبداع وفيه كذلك التدبير ويظهر فيه التناسق المطلق الذى لايمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة : وهو تناسق ملجىء بذاته والتفكر فيه إلى الاقرار بوجود الخالق الواحد تتضح وحدانيته فى آثاره فان هذا التصميم والتناسق والتدبير لهذا الكون لا تعدد فى طبيعته ولا تعدد فى إتجاهه ولا تعدد فى مصدره فلا بد وأن يكون صادراً عن إرادة واحدة غير متعددة : إرادة قاصدة لايفوتها القصد فى الكبير ولا فى الصغير . .

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك يستحيل على المعاندين أن ينكروها ولايمكن لهم تعليلها بغير الاقرار والاذعان بخالق مدبر وفق

الناموس الطبيعي الذى خلقه وقدره جل جلاله لنزول المطر بهذا القدر الذى توجد به الحياة ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، والالتفات هنا إلى المتكلم دون إيراد الضمير لنفى شبهة عودة الضمير إذا ذكر على غير الخالق الاعظم الفرد الصمد الواحد الاحد . .

وتدبر آثار الابداع الإلهى فى الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع هذا الجمال العجيب فأمواج من الألوان تتداخل فى خطوط متشابكة متناسقة ، ووريقات تنظم متكاثفة مرتبة منمقة تتقاصر دونها عبقرية الفن حديثاً وقديما فضلا عن سر تعدد الالوان فى الزهرة وفى الورقة الواحدة ونمو الحياة فى الشجر والجذور والاغصان (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا) فما يزال سر الحياة فى النبات بل وفى الانسان مستغلقا على المتخصصين فما يملك واحد منهم أن يقرر : كيف جاءت هذه الحياة إلى الزهرة أو الحشرة أو الحيوان أو الإنسان فهل مع الخالق الأعظم آله ؟ أإله مع الله ؟ وإذن فلم يعدلون ويسوون فى العبادة بين الخالق الأعظم ، وما يزعمون من إشراك ؟ .

والأرض التى جعلها الله قراراً للحياة اوتغير وضعها من الشمس أو من القمر أو تغير شكلها أو حجمها أو دورانها أو محورها أو تغيرت عناصر الجو فيها . .

لما كانت الأرض صالحة للحياة والأنهار والرواسى فيها عوامل النماء والحياة وعوامل الإستقرار والثبات [١] . .

---

(١) راجع العلم يدعو للايمان لأنيف كريس موريسون ترجمة محمود صالح الفلكى ١٩٥٤ م النهضة ص : ٥٣ ، ٥٥ ، راجع قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن لفضيلة الشيخ نديم الجسر ص : ٣١٥ ، ٣٢٣ ط ثالثة راجع كذلك : أعجاز القرآن والاكتشافات الحديثة للمهندس عبد الرحمن شاهين ص : ١٠ .

والفاصل بين مياه البحرين من الكثافة أو البرزخ الحاجز بين البحرين ، فقد جعل الله ماء النهر أخف كثافة من ماء البحر فيظل مجرى كل منهما منفصلا مميزاً عن الآخر لو التقيا لا يمتزجان ولا يبغيان ، فمن فعل هذا كله ؟ أإله مع الله ؟ ، أنهم قوم لايعلمون ، ومصدر الإيمان هو العلم وإدراك النواميس الإلهية ومنها هذا الوحى أساسه العلم فالمعاندون منكرون لهذا الوحى لأنهم لايعلمون كما أنهم لايعلمون شيئاً عن حقيقة الكون ، ثم تتجه الآيات إلى لمسة وهمسة فى الوجدان والمشاعر . .

من يجيب المضطر ؟

فى لحظات الكربة والضيق لا يجد البشر لهم ملجأً إلا الله يدعونه فيكشف عنهم السوء عندما يشتد الكرب ، وتضعف القوى وتتخاذل الهمم ، وتتهاوى المؤزرات ولا يجد الفرد الإنسانى له قوة ولا لخلاصه سبيلا ، فيتجه إلى الله رب الكون كله فيصرف عنه السوء .

إن لحظة الكرب توقظ الفطرة فتلجأ تلقائياً إلى بارئها فتجده براً رحيما ، وتلك حقيقة كائنة فى الفطرة الإنسانية يسوقها القرآن الكريم للمعاندين فى مجال حقائق الكون كله لعلهم يستبصرون أإله مع الله ؟ كلا .

وتمضى اللمسة القرآنية تستحث المشاعر نحو استخلاف الجنس البشرى لهذه الأرض يخلف بعضهم بعضا ان هذه الخلافة تذكرهم بقصتين :

(أ) الطوفان الذى طهر الله به الأرض من الكفرة عبدة الأوثان ، والأصنام فى عهد نوح .

والمعاندون على هذه الصفة وأسباب اهلاكهم قائمة ومماثلة . .

(ب) التناسل وهو من منح الله وعطاياه لوشاء لجعل المعاندين عقماً . .

إن نواميس الإجتماع والاستخلاف مرتبطة بالتناسق الفذ الذى أوجده الله فى هذا الكون . .

والله هو الذى قدر للموت والحياة واستخلف جيلا بعد جيل ولو لم يحدث هذا الإستخلاف لأبطأ سير الحياة وتعطل عمل العقل والتفكير لأن تجدد الأجيال هو الذى يسمح بالمحاولات والتجارب وتجدد أنماط الحياة دون تصادم بين طريقة التفكير للسالفين وطريقة التفكير للحاضرين فلو عاش الكل لتضخم التصادم وكثرت الاعتراضات وإزدحمت الحياة بالشلل وتوقف الركب عن السير . .

لعلها حقيقة موجودة يلمسها الفكر ولكنكم قليلا ماتذكرون ؟ .

وهم يسلكون فجاج الأرض ، برا وبحراً ويضربون فى الأرض بتجارتهم ليلا ونهاراً براً وبحراً ، فمن يهديهم فى ظلمات البر والبحر ؟

من أودع فى كيانهم القوى المدركة للتعرف على سبل الهداية ؟ . .

من سخر لهم النجوم ليهتدوا بها وجعلها علامات ؟ . .

من وصل فطرتهم وقدرتهم وطاقتهم بفطرة هذا الكون . . .

من هداهم هذا العقل وتلك الحواس التى تدرك وتعى وتفهم وتستنبط وتنتفع بما سخره الله فى هذا الكون من آلاء . .

أإله مع الله ؟ كلا ، تعالى الله عما يشركون . .

وتلك الرياح مهما قيل فى أسباب تكوينها فلكياً وجغرافياً يبقى تسييرها إلى أماكنها التى قدرت لها حاملة الرزق مبشرة بأسبابه تتجلى رحمة من رحمات الله .

فمن الذى فطرها وسبب لها أسبابها . .

أإله مع الله ؟ ، كلا تعالى الله عما يشركون . .

وهذه الحقيقة حقيقة الخلق واقع ملموس يشهدون به إذا سئلوا فلا يملكون إنكاراً ولا يقدرون على تعليل له غير وجود إله واحد لأن أثار صنعته ملجئة للاقرار بوحدانيته .

من الذى يبدأ الخلق ثم يعيده . .

أإله مع الله ؟ كلا .

والرزق فى السماء وفى الأرض هو أثار تابعة لمالك الخلق بدءا وإعادة : ورزق الناس من الأرض يتمثل فى صور منها :

انفلاق الحب والنوى . .

وصب الماء من المزن صبا . .

واستخراج كنوز البحر والبر .

وقوانين طبيعية و كيماوية أودعها الله الواحد القهار فى هذه البسيطة فمن الذى ذللها وهيأها أإله مع الله ؟ كلا . .

ورزق الناس من السماء يتمثل فى صور منها :

الضوء والحرارة . .

والمطر . .

والمد والجزر فى البحار . .

والهواء والرياح . .

من الذى سخرها وأهداها ؟ . . .

أإله مع الله ؟ كلا . .

انهم ليعجزون عن إقامة برهان وهو عجز مستمر منذ طرح هذا السؤال فى البيئة الأولى لمولد الدعوة حتى إلى يوم القيامة وفى كل عصر وزمن فإن الفطرة السليمة تنطق « خَلَقَهُنَّ العَزِيزِ العَلِيم » . .

إنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له ولا ولد وهكذا يجلو القرآن الكريم فطرة الإنسان لتصفو صفحة العقل من ترهات التقاليد والعادات وتتخلص خلايا المخ من مواريث الآباء والاجداد وهنا يظهر للمنهاج القرآنى الذى استخدم فى هذه المرحلة . .

إنه كشف حقائق الكون وحقائق النفس حتى لكأنها تبدو إطارا واحداً يأخذ بالقلوب ويوقظ الفطرة ويجلو العقل ويستجيش الوجدانات ويبرز مركوز الحقائق فى المشاعر التى تغشيها الغفلة

ويحجبها الجمود وتطمسها موروثات الآباء والاجداد ، حتى تظهر الحقيقة حية ثابتة فى تصميم هذا الكون وفى أغوار النفس واضحة قوية لايملك لمعاند معها مراء ولا جدالا فتنطق وقد صفيت من الركام المتكب (خلقهن العزيز العليم [١]) .

وهكذا تبرز طريقة القرآن فى منهاج التفكير متسقة مع الفطرة الإنسانية مغايرة لمقولات المناطقة الفاسدة فلا تستطيع أن تجعل آية دالة على الخلق دون القصد ولا آية دالة على القصد دون العناية ولا آية دالة على العناية دون التدبير للرحمة والرأفة بالعباد ، وأن مجرد إثبات الخلق إلى الله يكفى فى إثبات القصد والترابط والعناية والتدبير

(وَما خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعبِين [٢]) .

(وَمَا خَلَقنَا السَّمَوَات والأَرضَ وَمَابَيْنَهُمَا لاَعبِين [٣]) .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكمْ سَبْع طَرَائقَ وَماكُنَّا عَن الخَلْقِ غَافلين [٤]) .

فكل آية فى كتاب الله جل شأنه سيقت لاثبات الوحدانية فى الذات هى دليل كونى ودليل انى ، ودليل استعلائى . .

وتلك صفة ممتازة للأسلوب القرآنى بالإضافة إلى أنه يتوجه إلى :

١ ـ العقل يوقظه عن طريق استجاشة الفطرة .

---

(١) راجع حول هذا فى ظلال القرآن ج : ٢٠ ص : ٨ — ١٧ ط ثالثة بيروت .

(٢) الآية رقم : ١٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية رقم : ٣٨ من سورة الدخان .

(٤) الآية رقم : ١٧ من سورة « المؤمنون » .

٢ — وإلى الوجدان يستحثه لينتفض العقل من ثباته .

ويهيج المشاعر بحقائق الكون وحقائق النفس ويضعها جميعاً أمام مشاهدات الحس والوجدان .

(لَوْ كَانَ فيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [1]) .

ذلك رد على سؤال سابق :

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يَنْشُرُونَ) .

وهو سؤال استنكار وتهكم لأنهم يعرفون أن آلهة الأرض اتخذت زلفى ، ولكن تسميتها آلهة وهى عاجزة عن الفعل بالمشاهدة والواقع هو مايريد القرآن أن يلفت أنظارهم إليه .

إن الوصف بالألوهية مرتبط بالفعل وانتظام الكون لا يصدر إلا عن إرادة واحدة والإرادة الواحدة لا تصدر إلا عن إله واحد .

والكون قائم على ناموس واحد وترتبط جميع أجزاء الكون بهذا الناموس الواحد ، وهو من صنع إرادة واحدة لآله واحد فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات إذاً تعددت النواميس تبعاً لتعدد الإرادات والإرادة هى مظهر الذات والناموس مظهر الإرادة النافذة فإذا ما تعددت النواميس التى تنسق الجهاز الكونى تتصادم وتختلف وتضطرب الموجودات فيفسد العالم على فرض وجوده ، وذلك شعور يحس به الفرد إذا تعددت إرادته البشرية نحو فعل شئ معين .

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة الأنبياء .

وتحس به الأسرة إذا ازدوجت فيها الإرادة للأنظمة ، وتحس به الدولة إذا تعددت فيها الرياسة ، وذلك الإحساس فى الواقع البشرى إحساس فطرى فمابال هذا الكون عاليا وسافلا وقد أودع من القوانين ماتربط بين أجزائه قوة واحدة صاتها إرادة نافذة واحدة ، هى إرادة إله واحد ، أتستقر أمور هذا الكون لو تعددت الإرادات النافذة لتعدد الآلهة .

أيعيش الفرد متصفاً بالإتزان عند الناس إذا عرف عنه التردد لتعدد إرادته نحو : هل يفعل أولا يفعل ؟ .

أتسعد الأسرة إذا ازدوجت فيها إرادة التنظيم ؟ .

وإذن فكيف يكون العالم علويه وسفليه إذا تعددت الإرادات بتعدد الآلهة ؟ (فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

إن الفطرة السليمة البريئة من أمراض للواريث الإجتماعية لتشهد شهادة فطرية بوحدة الناموس للوجود كله ، ووحدة الارادة النافذة التى أوجدته ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنسق المنظم المرتب الذى لا يطرأ عليه خلل مادام فى رعاية الله [١] .

(إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [٢] .

وإذن يأتى التكليف الطبيعى للبشرية عامة .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٧ ص : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الآية رقم : ٤١ من سورة فاطر .

(وقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَينِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُون . وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُون [١]) .

هنا يأمر الله أنه لا ينبغى أن يعبد إلّه سواه لأنه وحده مالك كل شىء وخالق كل شىء ورب كل شىء والتعبير هنا متجه إلى التقرير ولهذا أتى بالوصف (اثنين) لنفى التعدد مطلقا وإتاحة الفرصة للعقل ليفهم مفاد القصر فى قوله تعالى : « إنما هو إلّه واحد) ويتبع قصر الوحدانية على الذات بقصر آخر لازم للأول وهو قصر الرهبة عليه وحده جل جلاله دون واسطة أو شبيه أو نظير [٢] .

إنما هو إله واحد وإنما هو كذلك مالك واحد ، وله ما فى السموات والأرض ، ولا دين منذ الأزل إلا دينه ، وله الدين واصباً لازماً مستمرا ، وهو منعم واحد .

(وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ . وإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ [٣]) .

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير [٤]) .

---

(١) الآيتان رقم : ٥١ ، ٥٢ من سورة النحل .

(٢) راجع ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٢ ، راجع فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ٧٠ — ٧١ .

(٣) الآية رقم ١٧ : من سورة الأنعام .

(٤) من الآية رقم : ١١ من سورة الشورى .

ثانيا : وحدانية الصفات :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِين [1]) .

(لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [2]) .

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون [3]) .

(الرَّحْمَن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وإِن تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّه يَعْلَم السِّرَّ وَأَخْفَى اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [4]) .

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُم الْخِيرَةُ سُبْحَانَ اللهَ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [5]) .

(لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وإِلَيهِ تُرْجَعُون [6])

(غافِرِ الذَّنب وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْل لاَ إِلَه إِلاَّ هو إِلَيْهِ الْمَصِيرُ [7]) .

---

(١) الآية رقم : ٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ٤٠ من سورة النحل .

(٤) الآيات من رقم : ٥ — ٨ من سورة طه .

(٥) الآية رقم : ٦٨ من سورة القصص .

(٦) من الآية رقم : ٨٨ من سورة القصص .

(٧) الآية رقم : ٣ من سورة غافر .

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ . وَاللهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير [١]) .

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وربِّ الأَرض رَبِّ الْعَالَمِين . وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٢]) .

العلم :

الذى يتتبع آثار علم الله فى إرجاء الكون الفسيح ينطلق خياله من وراء هذا النص القصير مرتادا آفاق المعلوم والمجهول متخطياً عالم الغيب وعالم الشهود وراء هذا الكون المشهود ، وأنه فى هذا التتبع ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة فى الماضى والحاضر والمستقبل ومفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو ويجول وهو يرتاد بعقله وفؤاده وخواطره فى مجاهل البر وغيابات البحر المكشوفة كلها لعلم الله الواسع المحيط بكل أبعادها وخفاياها وأسرارها ، ويتتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض فلا يكاد يحصيها عدا ولا يعرف زمن سقوطها وعلاته وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك ويلاحظ المتجول كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض أنها لا تغيب عن عين الله طرفة عين : ويرقب كل رطب وكل يابس فى عرض هذا الكون وفى طوله يجده لا يستطيع أن يند عنه شئ عن علم الله المحيط .

---

(١) الآيتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة غافر .

(٢) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الجاثية .

إنها جولة تدير الرءوس وتذهل العقول . جولة فى آماد من الزمن وفى آفاق من المكان ، وفى أغوار من المناظر المنظورة والمحجوبة ، المعلومة والمجهولة ، إنها جولة بعيدة مترامية موغلة ترسم دقائق هذا الكون فى جمل قصيرة يعيا عنها الفكر البشرى ، ذلك أنه إذا أراد أن يتحدث عن مثل هذا العلم الشامل المحيط فإنه لا يستطيع أن يصور هذا الارتياد فى مجموع هذه الآفاق فإن مطارح الفكر البشرى وانطلاقاته فى هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود مرتبطة بقدرته البسيطة ومعارفه القليلة القلة فإنه ينتزع تصوراته من اهتماماته وهو عادة لا يهتم بإحصاء الورق الساقط من الشجر فى كل أنحاء العالم وجهات الأرض ، فتأتى الإشارة هنا إلى أن علم الله شامل ومحيط ومحص لكل شىء حتى الورقة التى تسقط من غصنها . . . الخ . .

إن هذا المشهد والمشاهد التى بعده . الحب المخبوء فى أغوار الأرض والرطب واليابس فى ارجاء البسيطة لا تلحظه البشرية ولا تلم به ولكن هذا المشهد بكلياته وجزئياته منكشف تماماً بجملته وأسراره لعلم الله وحده فهو جل جلاله المشرف على كل شىء المحيط بكل شىء . . .

الحافظ على كل شىء الذى تتعلق مشيئته وقدرته بكل شىء الصغير مثل الكبير والحقير مثل الجليل . والمخبوء مثل الظاهر والبعيد مثل القريب ، والمزاولون لهذا الإحساس من بنى البشر يدركون جيدا أن مثل هذا المشهد لا يخطر على القلب البشرى فتدرك أن مصدر هذا الكتاب من عند علام الغيوب الذى وسع علمه كل شىء [1] .

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٧ ص : ٢٤٦ ، ٢٥٠ راجع الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى م ٣١٠ هـ ط ثانيه ١٣٧٣ هـ ج : ٧ ص : ١١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

والعين الخائنة تجتهد دائماً فى إخفاء خيانتها ولكنها لا تخفى على الله . والسر المستور تخفيه الصدور ولكنه مكشوف لعلم الله ، حتى السر الذى لا تدركه العقول مما سيخفيه المرء مستقبلا ولا يدركه فى يومه مكشوف لعلم الله إنه يعلم السر وأخفى .

أن الله له مالك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى : لله ما فى الوجود كله وإذن ، فيعلم السر وأخفى ، جزء من هذا الذى له ويملكه فى السموات وفى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وبين المستور فى كل هذا والمستور فى الصدر انسجام يتسق فى الفكر يصرر مفهوم العلم لله جل شأنه أنه لا يدع شاردة ولا واردة إلا أحصاها[1] .

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فى الأَرضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ من السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وهو الرَّحِيمُ الْغَفُور[2]) .

(. . . عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فى السَّمَوات ولاَ فى الأَرضِ ولا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ ولا أَكبرُ إلاَّ فى كِتَابٍ مُّبِين[3]) . .

قال ابن كثير : « أى يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض والحب والبذور والكامن فيها : ويعلم ما يخرج منها من ذلك عدده وكيفيته وصفاته أى الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شىء[4]) .

---

(١) فى ظلال القرآن ج : ١٦ ص : ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) الآية رقم : ٢ من سورة سبأ .

(٣) من الآية رقم : ٣ من سورة سبأ .

(٤) ابن كثير ج : ٣ ص : ٥٢٥ .

فكم من شئ فى اللحظة الواحدة يلج فى الأرض ويخرج منها وكم من شئ فى اللحظة الواحدة ينزل من السماء ويعرج فيها . . ؟ . .

لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض أنه وصف أعلى من مستوى تفكير البشر فأنى لهم أن يتحدثوا عن شمول العلم وإحاطته ودقته بمثل ما صورته هذه الآيات وأنها لتدل بألفاظها وأبعادها البعيدة فى آفاق الكون والنفس أن الذى يصف نفسه ويصف علمه بما يعلم من الأوصاف التى لا تخطر للبشر على بال[1] واحد فى كل شئ فهل ما يعبدون من دون الله لهم شئ من هذا ؟ كلا . . . إنه :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) . .

لا تدركه الأبصار

لم يوهب الإنسان قدرة على إدراك ذات الله ذلك لأن الحادث الفانى بتركيبه يعجز عن أن يرى الأزلى الأبدى . ووظيفة الإنسان على الأرض هى عمارتها باسم الله وتلك الوظيفة قد أعين عليها الإنسان ووهب مستلزماتها ورؤية الله لا تدخل فى هذه المستلزمات ويستمر هذا الدليل فى كل عصر باقياً قوياً مقنعاً ففى العصر الحديث يكثر الحديث عن الذرة وعن الكهرباء والبرتون والنيوترون ولكن واحدا منهم لم ير ذرة ولا كهربا . . . الخ . فالجهاز المكبر الذى يضبط هذه الكائنات ليراها المتحدثون جميعاً لم يوجد بعد ومع هذا فهى مسلمة لهم مع أن الذرة حادثة والكهرب حادث وهى قوانين مودعة فى الكون كل ما يفعله الإنسان أن يكتشفها فقط ومع وجودها فهم

---

(١) ظلال القرآن ج : ٢٢ ص : ٦٠ .

لا يرونها ويثقون فى وجودها عن طريق آثارها : فالله لا تدركه الأبصار وتدركه البصيرة فى آثاره ونعمائه ومخلوقاته : (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ من رَّبِّكُم فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنفْسه ومن عَمِىَ فَعَلَيْهَا وما أَنَا عَلَيْكم بحَفيظ[1]) . . .

كن فيكون :

كل أمر يريده جل شأنه لا يحتاج فى إيجاده إلى زمن ولا مكان ولا مادة إنه يوجد فى لمح البصر أو أقرب ، إن كل أمر يريده الله تعالى عظم عظمة السموات والأرض أو صغر صغر الذرة فإنما يقول له كن فيكون ومدة كينونته هى كمدة زمن التلفظ بالنون والفاء مدغمتين على طريقة تجويد آيات القرآن الكريم .

(إنمَا أَمْرُه إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون[2]) . .

فهل لما يشركونه بالله فى العبادة له شئ من هذا ؟ .

(قُل ادْعُو الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِه فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عنكُم وَلاَ تَحْويلاَ[3]) . .

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ[4]). . .

---

(١) الآية رقم : ١٠٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٨٢ من سورة يس .

(٣) الآية رقم : ٥٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية رقم : ١٧ من سورة النحل .

يخلق ما يشاء ويختار :

أن الله جل شأنه يخلق ما يشاء وليس في الكون كله من يملك أو يقدر أن يقترح على الله شيئاً ، ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئاً ، ولا أن يعدل أو يبدل فيه شيئاً . .

إنه وحده جل شأنه يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والتكاليف والمقامات وليس لأحد الخيرة لا في شأن نفسه ولا في شأن غيره ومرد الأمر كله إلى الله .

(لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون [١]) . .

فهل ما يشركه المشركون مع جلال الله في العبادة له شيء من هذا ؟

(. . فادعُوهُم فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكم إن كُنْتُم صَادِقِين [٢]) . .

(إنَّ وليِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَاب وَلِيَّ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرُكُم وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُون [٣]) . .

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ :

هذا الكون على اتساعه وانفراج ما بين أبعاده ما نعلم منه وما لا نعلمه ما نراه وما لا نراه : كل هذا الكون كله : كله : كله ، هالك زائل ذاهب المال والجاه والسلطان والقوة والحياة والمتاع الأرض

---

(١) الآية رقم : ٢٣ من سورة الأنبياء .

(٢) من الآية رقم : ١٩٤ من سورة الأعراف .

(٣) الآيتان : ١٩٦ - ١٩٧ من سورة الأعراف .

ومن عليها و لسموات ومن فيها وما بينهما مما لا يعلمه إلا الله هالك زائل ويدخل فى ذلك ما يعبدونه من دون الله :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلال والإِكْرَام[١])..

ويبقى وجه ربك وله الحكم يقضى بما يشاء ويحكم كما يشاء ، ولا يشركه فى حكمه أحد ولا يرد قضاءه أحد ولا يقف لأمره أمر . (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَه من شَىْءٍ فى السَّمَوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً[٢]) . .

غافر الذنب :

يعرف الله عباده بصفاته ذات الأثر الموجود فى حياتهم ووجودهم . وتلمس آيات القرآن الكريم مشاعر القوم وقلوبهم فيثير الرجاء فيهم أو الخوف والخشية ، ويشعرون بأنهم فى قبضة رب عزيز لا يغلب ويصرف الأمور بإرادته هو . ولا معقب لحكمه وهو رب عليم يدبر الأمر عن خبرة وعلم محيط . محيط بارجاء الكون كله .

وهو مع هذا غافر الذنب وقابل التوب بر رحيم يعفو عن كثير ويفتح باب التوبة بلا حجاب .

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ[٣])..

---

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) الآية رقم : ٤٤ من سورة فاطر .

(٣) من الآية رقم : ٤٤ من سورة فاطر .

ومع عفوه وبره وحلمه فهو شديد العقاب يدمر المتكبرين ويعاقب المارقين الذين لا يعودون ولا يستغفرون إنه ذو الطول يعطى بغير حساب . .

فهل لما يشركون من هذه الصفات شئ ؟ .

إنهم لا يعرفون عن آلهتهم وصفاً مضبوطاً ولايتبينون ماذا يسخطها وماذا يرضيها فيعيشون معها فى قلق ، فهم لا يدرون موضع سخطها ولا موضع رضاها . إن كل ما يقدمونه من الضحايا والذبائح والرقى والتمائم يدفع إليه وهم وتخمين لعلها ترضى ! ! .

وجاء الإسلام واضحاً ناصعاً يصل الناس بخالقهم الواحد يعرفهم صفاته ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ؛ وكيف يرجون منه الرحمة ويخشون عذابه ويسألونه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة [1] .

(أَمْ لَهُم آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْر أَنفُسِهِم وَ هُم منا يُصْحَبُونَ [2]) . .

وله الكبرياء فى السموات والأرض :

إنه صوت التحميد والتمجيد ينطلق معلناً ربوبية الله وحده فى هذا الوجود سمائه وأرضه ، إنسه وجنه ، طيره ووحشه ، علويه وسفليه ، نباته وجماده وسائر ما فيه ومن فيه فكلهم فى رعاية رب

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٤ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) الآية رقم : ٤٣ من سورة الأنبياء .

واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير وله الكبرياء كذلك الكبرياء المطلقة فى هذا الوجود حيث يتصاغر الكل وينحنى الجميع ويستسلم كل متمرد :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وهم لاَ يَسْتَكْبِرُونَ [١]) . .

ومع الكبرياء والربوبية فلله القدرة القادرة والحكمة المدبرة ، وهو العزيز الحكيم ، والحمد لله رب العالمين [٢] .

ثالثا : وحدانية التدبير وتصريف الملك :

(أ) التدبير :

(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ [٣]) .

(واللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُم مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلاَّ فِى كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسير [٤]) .

(لِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرضِ يَخلُق ما يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور . أَوْ يُزَوِّجُهُم ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ويَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدير [٥]) .

---

(١) الآية رقم : ٤٩ من سورة النحل .
(٢) راجع فى ظلال القرآن ج ١٥ ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) الآية رقم : ٦ من سورة هود .
(٤) الآية رقم : ١١ من سورة فاطر .
(٥) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

(يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِ الأَرْضَ بعدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُون .

ومِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُم من تُرَابٍ ثُم إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تنتشرون . .

ومِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مودةً ورحمةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرون .

ومِنْ آياته خَلْقُ السَّمواتِ والأَرضِ وَاخْتِلافِ أَلْسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكم إِنَّ فِى ذَلِكَ لآياتٍ لِلعَالَمِينَ . .

وَمِنْ آياتِهِ مَنَامُكُم بالَّلَيْلِ والنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآياتٍ لقَوم يَسمَعُون .

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُم الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ويُنزِّلُ مِن السَّمَاءِ ماءً فَيُحْيِى بِهِ الأَرضَ بعدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوم يَعْقِلُون .

ومِن آياتِه أَن تَقُوم السَّماءُ والأَرضُ بأَمْره ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّن الأَرضِ إِذا أَنتم تَخرُجُون . وَلَهُ مَن — فى السَّمواتِ والأَرضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ .

وَهُو الَّذى يَبْدأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعيدُه وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فى السَّمَوَاتِ والأَرضِ وَهُو العَزِيزُ الحَكِيم [1]) .

تلك محاولة يعالج بها القرآن الكريم الاتجاه الفكرى عند المعاندين وهى محاولة تتوجه إلى تخليص العبد من هموم ليست فى قدرته ولا فى استطاعته أن يفعل فيها شيئاً مهما تعاون البشر طرا أو انفردوا آحادا ..

---

(١) الآيات من رقم : ١٩ — ٢٧ من سورة الروم .

إن الذى يشغل المرء ويفسد عليه قلبه هو انشغاله بما ليس فى استطاعته والقرآن فى هذه النماذج من الآيات المكية يوضح للعقل منهاج تفكير منظم . .

إنه ـ أى القرآن الكريم سيقدم له تحديدا لارتباط الإنسان بهذا الكون الذى يعيش فيه وخضوع الكون كله لله رب العالمين . .

والارتباط أو العلاقة بوجود الإنسان فى هذا الكون مجالها :

الرزق

والعمر . .

والأولاد . .

وقد ضمن الله له الثلاثة وليس فى مقدور أحد من البشر أن يغير بالزيادة أو النقص . . منها شيئا ما . .

والرزق والعمر والأولاد دائرات فى فلك الكون ؛ والكون كله ساجد مسخر بإرادة الله جل شأنه ، فهل لمن يشركونهم فى عبادة الله من أصنام وجن وملائكة شئ فى هذا التدبير الإلهى ؟ . .

الرزق :

أودع الله الأرض التى يعيش عليها كل من يدب إلا مكانات قادرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات الهائلة الجمة جميعا ، وأودع الله فى هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع فى الأرض بأية صورة من صور الإنتاج قديما أو حديثا حتى أن بعض

المخلوقات يسر له أن يتناول رزقه دما مهضوما : وهذا الرزق الممنوح من عطايا الله حق مؤكد مقسم عليه تفضلا من جلاله وكبريائه :

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَاتُوعَدُون) .

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مثْلَ مَا أَنَّكُم تَنْطِقُون[١]) .

وهى لفتة عجيبة ترد بصر الانسان ونفسه وعقله إلى مصدر الرزق الأعلى إلى السماء إلى الله ليتطلع الفرد إلى ما قسم له عند ربه فلا يسلم نفسه إلى أسباب الرزق العادية فى الأرض فتحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذى أنشأ له جنات معروشات وغير معروشات فى الأرض وبذلك ينفك القيد الحديدى الذى تغلغلت فيه تلافيف الفكر وتنطلق إلى خالق الأسباب ويدرك الانسان السليم فى عقله ووجدانه أن ما يدعونه من دون الله لا يقدرون على شئ ، فهم صم بكم عمى لا يرجعون[٢] . .

والقوم مع جحودهم لم يستطيعوا انكار هذه الحقيقة :

(قُلْ : من يَرْزُقُكُم مِنْ السَّمَاءِ والأَرْضِ . .

أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ .

وَمن يُخْرِجُ الحَىَّ مِن المَيِّت ، ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ

---

(١) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٧ ص : ١٩ ، الاسلام والايمان ص : ٢٢٦ .

وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ . .

فَسَيَقُولُونَ اللهُ .

فَقُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ [١]) . .

العمر :

تتردد كثيرا فى القرآن الكريم الإشارة إلى النشأة الأولى من التراب والنشأة الثانية من النطفة ويتردد كذلك الإشارة إلى مراحل كل منهما وكلاهما عنصر لا حياة فيه تتساوق مع حياة الانسان . .

فالتراب عنصر ميت برأى العين . .

والنطفة عنصر هامد مبتذل فى العرف العادى . .

وإن كانت فيه حياة حسب الأبحاث الطبية الحديثة فهى حياة الميكروب الضعيفة العاجزة أن تغيرت درجة حرارة الجو الذى تعيش فيه ماتت [٢] . .

وعلى كل كيف تلبست الحياة بالعنصر الأول وتلبست الحياة بالعنصر الثانى أما العنصر الأول فهو سر مغلق على البشر وهى حقيقة مشهودة قائمة لا مفر من الاعتراف بها والاقرار بدلالتها على قدرة المحيى القدير . .

---

(١) الآية رقم : ٣١ من سورة يونس .

(٢) علم الأجنة فى القرآن للدكتور عفيفى محمود ، الموسم الثقافى الثانى للأزهر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م .

أما العنصر الثانى فهو نقلة بعيدة كيف انتقلت خلية مثل الميكروب حجما وحياة إلى خلقة كاملة سوية ثم تشكلت ذكرا أو أنثى حسب ما أودع فى النطفة الامشاج من خصائص أودعها الحكيم الخبير ، هذه النقلة من النطفة على ضعفها إلى النوعين المتمايزين بعيدة المدى فى إحداث رجة عنيفة فى التفكير فأين الخلية الواحدة من ذلك الكائن المعقد التراكيب الدقيق التأليف الكثير الأجهزة المتعدد الوظائف ؛ المختلف فى العقل والمزاج واللون والطول والعرض والعواطف . .

أين الخلية الضعيفة التافهة من ذلك الانسان الذى كرمه ربه ونعمه ... ؟ . .

وأين الذين يشركونهم مع الله فى العبادة من هذا التدبير الإلهى ..؟ .

ومع هذا فما تحمل من أنثى مطلقا بشرا أو حيوانا ... إلخ . ولا تضع كذلك إلا بعلمه وعلم الله بكل حمل وكل وضع فى هذا الكون المترامى الأطراف شامل ومحيط . .

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ...) .

وكيف تصل عبقرية البشر إلى إدراك جميع الأحياء فى هذا الكون من شجر وطير وحيوان وانسان فى البر والبحر أو فى الهواء على اختلاف أجسامها وأشكالها وأنواعها وأجناسها وديارها وأزمنتها : ليتابع من عمر أو نقص من عمره . . ؟

ان كل فرد من أفراد هذا الحشد لا يعلمه إلا الله خالقه ومدبر أمره ، وان ذلك العلم المحيط بكل ما فى الوجود لا يكلف جهدا عسيرا (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير [1]) .

وعمر كل ما فى الوجود إذا جاء أجله لا يؤخر ساعة ولا يستقدم ساعة . .

(... لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُم فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون [2]) . .

ولا يملك أحد غير الله جل جلاله أن يقدم أو يؤخر (... إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون [3]) . .

فأين ما يعبدونه من دون الله وهذا التدبير البديع المحكم الفسيح؟

الأولاد :

الأولاد أو الذرية مظهر من مظاهر العطاء والحرمان وعلامة من علامات المنح والمنع فمن الذى يهب الذرية ؟ . .

انها رزق من عند الله وهى زينة الحياة الدنيا وجعلها الله قرينة لنفس الانسانية فمن الذى يرزق الناس الأولاد ؟ . .

لقد افتتحت الآية بأن لله ملك السموات والأرض وهو افتتاح منبه للعقول لإدراك كل جزئية تأتى فيما بعد فى محيط هذه الملكية

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٢ ص : ١١٤ : ١١٦ راجع نفس كيف بدأت الحياة من كتاب العلم يدعو للايمان ص : ١٠١ .

(٢) من الآية رقم : ٤٩ من سورة يونس .

(٣) من الآية رقم : ٤ من سورة نوح .

الإلهية . وذكر (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) ترشيح للإيحاء النفسى للمطلوب من الافتتاحية بالملكية المطلقة لله تعالى ثم رتب على ذلك تقسيم الرزق منوعا ، وجعل الحرمان مقابلا له لتكتمل يقظة بتفقه الواقع الملموس .

يهب لمن يشاء إناثا وقد كانوا يكرهونها فكيف ينسبون مثلها إلى الله ؟ . .

وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . .

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا . .

وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا . .

وكل هذا خاضع للسلطان الإلهى ، مرتبط بمشيئة الله وحده لا يتدخل فى ذلك أحد سواه [1] . .

فأين ما يشركونه مع الله سبحانه من هذا العطاء المحمود ؟ أوالمنع الذى لا معطى له من بعده . .

(مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) . .

(ب) وحدانية التصرف فى الملك :

(وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ والأَرضِ ومَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِم إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٥ ص : ٥٢ ، ٥٣ .

وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ .

وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِى البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أَو يُوبِقهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ويَعْفُ عَنْ كَثِير .

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ [1]) .

آية السموات والأرض والغيث حقيقة قاطعة فى دلالتها على منشىء مدبر واللمسات فى هذه الآيات وفى آيات سورة الروم تحمل الانسان بكل أقطاره لينتقل من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان بالله لأنه أينما حل فهو فى كنف الله جل شأنه . .

ينزل الغيث من بعدما قنطوا لقد غاب عنهم الغيث ولا غوث لهم بعد انقطاع المطر ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول وأدركهم اليأس ولو دعوا آلهتهم ما سمعوا لهم ولو سمعوا ما استجابوا فلا قدرة ولا إرادة ولا حركة ألبته ، وفى لحظات إدراك اليأس ينزل الله الغيث وينشر رحمته فتحيا الأرض وتنفرج الأسارير وتنفتح القلوب وينبض الأمل ويفيض الرجاء ذلك أن الله هو الولى الحميد المتكفل بولاية خلقه المستحق الحمد بذاته . .

---

(١) الآيات من رقم : ٢٨ — ٣٥ من سورة الشورى .

والسفن الجوارى فى البحر كالجبال آية حاضرة مشهودة أنها آية تقوم على آيات كلها من صنع الله وتدبيره دون جدال . .

فمن الذى أنشأ البحر ؟ من من البشر أو من آلهتهم ؟ . .

ومن الذى أودعه خصائص الكثافة والعمق والسعة وعلّم الماء يجرى ويحمل السفن الضخام ؟ . .

من من البشر أو من آلهتهم ؟ . .

والسفن ذاتها ، من هدى الانسان إلى صنعها ؟ وخلق له مواد بنائها ؟ وعلمه كيفية تركيبها ؟ ثم من الذى حباها نعمة الطفو ومنحها القوة على التحرك ؟

(أن فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) . .

والصبر والشكر هما قوام النفس الصادقة فى السراء والضراء والتحلى بهما من دلائل الإيمان وعلاماته [1] . .

يخرج الحى من الميت : انها عملية دائبة لا تتوقف هنيهة من ليل أو نهار ، وفى كل مكان فى الأرض أو فى الفضاء أو فى أعماق البحار فى كل لحظة يتم هذا التحول يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة . .

أو يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى حطام أو هشيم يخرج من خلاله حبة جديدة ساكنة تتهيأ بها حياة فى المستقبل بالانبات . .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ : ٢٥ ص : ٣٦ : ٣٩ .

ويوجد غاز ينطلق فى الجو فتتغذى به التربة ويتم به الأخصاب .

وتدب الحياة فى جنين طير أو حيوان أو انسان أنها دورة دائمة رهيبة عجيبة لو تأملها الحس الواعى والقلب البصير ؟ .

فمن المدبر ومن بيده ملكوت السموات والأرض ؟ . .

أما هم إذا سئلوا أجابوا خلقهن الله ؟ . .

والزوجية مشاعر مشتركة وصلة فطرية بين الجنسين من بنى البشر فمن الذى أودع فى النفوس هذه العواطف والمشاعر المشتركة وجعل فيها سكنا ومودة وراحة للقلب والعقل والجسم والمشاعر وربط استقرار الحياة والعيش بها ؟ . .

واختلاف الألسنة فى البشر مع اتحاد مطالبهم ووحدة الغاية من اللسان وهو التعبير عن الحاجة وإدراكها آية بينة وهو اختلاف مرتبط بخلق السموات والأرض فاختلاف الأجواء على سطح الأرض فلكيا ، واختلاف المناخ له علاقة باختلاف الألسنة والألوان حتى ولو اتحدت النشأة والأصل فى بنى الانسان فمن الذى دبر هذا ؟.

والنوم بالليل والسعى بالنهار آية تجمع بين ظاهرتين تفضل الله بهما على عباده وقد خلقهم جل شأنه متناسقين النوم فى الليل والعمل فى النهار فجعل العمل حاجة تلبيها أضواء النهار وجعل النوم حاجة تلبيها ظلمات الليل ، والبشر مثلهم فى هذا مثل جميع الأحياء على كوكب الأرض . .

ان كل حى فى الكون الأرضى يجد ما يلبى حاجته ويسمح له بالحياة . عمل بالنهار ليبتغى الحى من فضل الله : وراحته وسكينته بالليل لينام ويهدأ ليزاول بكرة نشاطه من جديد . فمن الذى يسمع لهذه الآيات ؟ . . .

والبرق مصدر خوف وطمع وهما شعوران فطريان يتعاوران على النفس البشرية أمام تلك الظاهرة . .

والعربى فى صحرائه الشاسعة أحوج ما يكون إلى قطرة الماء ؟ والبرق علامة الغيث فى السحاب ولكنه كذلك علامة الصاعقة التى دمرت قوم عاد . .

فنى البرق الخوف والرجاء يوقظان الشعور والتعقل ليدركوا من المدبر لهذا الملكوت الجليل .

والسموات والأرض تقومان فى انتظام ملهم مقدر الحركات آية من آيات التدبير والتصريف الإلهى : فمن يملك أن يدعى أنه هو أو سواه مطلقا يفعل هذا التدبير والتصريف فى قيام السموات والأرض؟

إن السموات والأرض تقومان بأمره ملبيتان طائعتان ساجدتان لأوامر الله جل شأنه دون انحراف أو اضطراب أو تلكؤ . .

وكل من الكون : فى السموات أو فى الأرض قانت إن طوعا أو كرها ، انهم جميعا محكومون بسنن الله فى كونه حتى ولو كانوا عصاة مثل معاندى الدعوة فى مكة المكرمة فإنما عقولهم تعصى وقلوبهم تكفر ولكنهم مع هذا العصيان والكفر محكومون بالناموس الإلهى

الذى تجرى به السموات والأرض ان الله هو الفعال لما يريد وهم خلق من خلقه يتصرف فيهم وفق ما يريد تصرفه وتدبيره وهم لايملكون إلا الخضوع والقنوت . .

وله المثل الأعلى فى السموات والأرض فهو سبحانه المنفرد بالتدبير والتصرف فى الملك ومنفرد بصفاته الحسنى لايشاركه فيها أحد وليس كمثله شىء وهو العزيز الحكيم القاهر المدبر بالحكمة والتقدير الرحيم [1] . .

رابعا : بعث الوجدان الفطرى :

وبعد هذه الاستفاضة الواسعة الفسيحة فى أرجاء الكون وأعماق النفس وإبراز صفات الله بشتى أنواع الأدلة المحسوسة بالعين والمشاهدة بالبصيرة ، والمدركة بالمشاعر :

أدلة الخلق . . .

وأدلة الترابط والقصد . .

وأدلة العناية والتدبير . .

التى توصل العقل السليم إلى الإيمان بوحدانية الخالق وكمال صفاته الحسنى التى لا يشاركه فيها أحد واستحقاقه وحده جل شأنه العبادة من البشر بعد هذه الاستفاضة يعرج القرآن الكريم بالقوم معاندى الدعوة على نوع خاص من الأدلة هى بعث المشاعر والعواطف

يهدهد على عواطفهم تارة بكل ملطف ومنبه يمس شغاف قلوبهم باليد الرحيمة الرفيقة الودودة المنعمة لعلهم يستيقظون . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢١ ص : ٣٤ — ٤٠ .

فلما لم يستجيبوا لنداء المودة والإحسان يجذبهم من نواصيهم جذبا مروعا ويشهدهم عاقبة المكذبين من قبل ويصور لهم الضنك والضيق يوم للحشر وأهوال يوم القيامة تلك اللحظات التى لا يملكون فيها شيئا ولو أنفقوا ما فى الأرض جميعا ما تقبل منهم ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . .

وكثيرا ما تتغير النفوس بالقسر وقليلا ما تلين بالمعروف فزاوج القرآن بينهما : فالعبد يقرع بالعصى والحر تكفيه المقالة : ولقد كانت غاية القرآن الكريم فى هذه المحاولة هى اطلاع المعاندين على الحق من كل زاوية وبكل وسيلة حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكفى بالله حسيبا وكفى بالله شهيدا . .

والقرآن فى هذه الجولة من التدليل على وحدانية الله وصفاته الحسنى يقدم لنا نموذجين :

الأول : اقناع الوجدان بالترغيب أو بالترهيب . .

الثانى : اقناع الوجدان بالتجارب التاريخية لسالفين من **الأمم الكافرة .**

النموذج الأول : من آلاء الله ؟ . .

قال تعالى :

(وهوَ الذى أَنْشَأَ جَنَّات مَعْروشَات وغيرَ مَعْرُوشَات والنَّخلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُه والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشابِه كُلُوا من ثَمَره إذَا أثْمَر وآتُوا حَقَّه يَوْمَ حَصَاده ولا تُسْرفوا إنه لا يُحبُّ المُسْرِفين .

وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وفرشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّه لَكُم عَدُوٌّ مُبِين .

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَينِ ومِنَ المَعْزِ اثْنَيْن قُل آلذَّكَرَينِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه أَرحَام الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين .

وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ قُل آلذَّكَرَينِ حَرَّم أَمِ الأُنْثَيَيْن أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَم كُنْتُم شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُم اللهُ بِهَذَا ؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسِ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمين[1]) .

كان التدين الجاهلى قد عمد إلى بعض الزروع والأنعام فعزلها وقصرها على الآلهة وادعوا أن الله الخالق هو الذى حرم ذلك ، فتأتى الآيات هنا لتصحح فكرتين ؛ .

الأولى : أن خالق هذه الجنات بنوعيها هو الله وحده :

الجنات المعروشات التى ذللها الله للانسان فنظمها وعرشها وتعهدها بالعرائش والحوائط . .

والغابات البريات التى نمت بقدرة الله دون تدخل من الانسان وهى تحمل من الخيرات والجمال والفن ما لا تقدر عليه رعاية البشر فى جناتهم المعروشات ؛ وتلك واحدة من عالمية الدعوة . .

---

(١) الآيات من رقم : ١٤١ — ١٤٤ من سورة الأنعام .

إذ تصف نوعا خاصا من الغابات لم يعهده العرب ولم يروه وهو هنا فى جنوب شرقى آسيا فى أندونيسيا والهند الصينية و غنبين وما ليزيا آيات بينات على قدرة الصانع وجلال سلطانه . .

والقرآن يسوق هذه الجنات بنوعيها لإقامة الدليل على وحدانية الله الذى خلق وأظهر تلك الجنات دون شريك له بأى وجه من وجوه[1] وهو دليل يحسه الفرد بمشاعره ووجدانه ويشعر به فى نعم الله وهى تحيط به بما هيأه له من الذكاء والقدرة على العمل وبما سخره له من الشجر والأرض والماء والسحاب ليصنع له (جنات معروشات) .

وما أحاطه به من جنات برية يعجز بقدرته البشرية عن غرسها وسقيها ورعايتها وسبحان الله العظيم فالذى يلاحظ الناس هنا فى جنوب شرقى آسيا وهى فى ظلال الغابات التى يتساقط عليهم من ثمراتها ، عليهم مسحة الكسل والركون إلى الدعة فالمطر ينزله الله من السماء والأرض تنبت ثماراً أشجارها بإذن الله ولا مدخلية للفرد هنا بجهد عظيم أو عادى يذكر . .

فى حين أن أهل الجنات المعروشات قد حباهم الله من القوة والمناخ ما يسعفهم على التحرك والعمل والزرع والسقى والرعاية فقد علم الله أنهم لن يحصلوا على ثمار جنة معروشة إلا بكد وعرق وجهد فذلل لهم الجو بالمناخ المنتظم ووهبهم القوة على العمل والسعى . .

---

(١) راجع روح المعانى ج : ٨ ص : ٣٧ تفسير الطبرى ج : ٨ ص [illegible] ط ثانية .

إن المنهج القرآني هنا يكشف من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ليتخذ منه برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالتسلط والتصرف والحاكمية والعبادة لجلاله وحده فإن الخالق الرازق الكافل هو وحده الحقيق بأن تكون له الربوبية والسلطان والعبادة .

الثانية : أن سلطة التشريع خاصة بالله وحده . .

وهنا يحشد السياق فى هذه الآيات مشاهد الزرع والثمار . .

والأنعام وما فيها من نعم الله ليرد على عنجهية الجاهليين الذين يدعون أن الله حرم هذا وتلك هى الفكرة الثانية التى يريد القرآن أن يصححها فى مجال العقيدة فيبرهن على أن الحاكمية والتحليل والتحريم ليس خاضعا لهوى الكهنة والسدنة والرؤساء ، وإنما هو خاضع لسلطان الله جل شأنه على لسان نبيه الخاتم . .

وهنا يكشف السياق عن السخف الذى لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه فيستخرج مكامن الأوهام الجاهلية فيلقى ضوءا على ما أودعه الله فى الأنعام من آلاء ونعم ليخجل الجاهليون من عقليتهم لو كانوا منصفين [1] . .

(ثَمَانِيَةَ أزواجٍ مِّنَ الضَّأنِ اثنين ...) الآيات . .

فهذه الأنعام التى يدور حولها الجدل نعمة الله إليكم وقد خلقها على سننه الكونية ليبقى لكم من نسلها نعم وأفضال ربانية تعيشون بها . من خلقها ومن حرثها ؟ . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٨ ص : ٧٢ ، ٧٣ .

والجو الصحراوى حيث ينعدم التحرك الاقتصادى يلقى ظلالا واسعة على فهم هذه النعم حيث يجرى الواحد منهم خلف ناقته باحثا لها عن مرعى فيدرك معنى السؤال نبئونى بعلم ؟ . .

هذه الشئون لا يكفى فيها الظن ولا التخمين فمن أين جاءكم هذا التحريم ؟ . .

هل شهدتم وصية من الله لكم خاصة بهذا التحريم ؟ فيرتد الوجدان الصادق والعقل المدرك إلى صواب فى العقيدة والعبادة ؟ .

لقد ردهم القرآن بهذه الآيات إلى المصدر الحقيقى للحرث والأنعام التى يتنعمون بها ليعبدوه جل شأنه وذلك لصلاح حالهم ودينهم فالله غنى عن العباد عبدوا أو جحدوا . .

ومع هذا البيان يبدو عرض نعم الله على عباده أخاذا بالنفوس مسيطرا على الوجدان تنفعل له الأسارير رغبا أو رهبا . .

ومع هذا الحنان والرفق تأتى حملة السياط التى تلدغ الوجدان بايقاعاتها ورنينها وأدواتها الهائلة ، السموات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار ؟ . .

يقول الله تعالى :

(اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وأَنْزَلَ من السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ به من الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُم وسَخَّرَ لكُم الفُلْكَ لتَجْرِى فى البَحْرِ بِأَمْرِه وَسَخَّرَ لَكُم الأَنْهَار .

وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائبَيْنِ وسَخَّرَ لَكُم اللَّيْلَ والنَّهَار . وآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوه وإن تِعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا إنَّ الانْسَان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [١]) . .

هنا لا تعرض قضية التوحيد عرضا فلسفيا ميتا فيزيقيا جافا ميتا إنما تعرضها الآيات فى المجال الحركى المؤثر الموحى بالواقعية المشاهدة فى الكون ولمسات الفطرة وبديهيات الإدراك مع جمال العرض واتساق النظم البديع . .

كل هذه الأكوان : السموات والأرض والماء الذى ينزله الله من السماء والثمرات التى ينبتها الله والفلك التى سخرها الله فى البحر وسخر البحر ليحملها وسخر الأنهار تأكلون منها لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . .

والشمس والقمر والليل والنهار وكل نعم الله التى لا تحصى كل هذا سخر للإنسان ؟ فكل هذا الكون الهائل سخر لهذا المخلوق الصغير . .

وبعد ذلك أيجعلون لله أندادا ؟ .

الخلقية العربية التى تعرف احترام الجميل وذكر المعروف تنكر هذه الآلاء التى منحها الله بلا حساب ؟ وتقابلها بالجحود والنكران ؟ .

الانسان كمخلوق لله يعجز عن إدارة شئون حياته ما لم تدركه رحمة الله وفضله ويحس هذا فى كيانه وظروف معيشته أيقابل نعم الله بالكفر والإشراك ؟ . .

---

(١) الآيات من رقم : ٣٢ — ٣٤ من سورة إبراهيم .

هنا يستيقظ عقل خاص فيتطلع إلى الكون حوله فيراه مسخرا له:
إما بقدرته المباشرة حيث ذلل الله لها الأرض ، أو بالنواميس التى أودعها الله فى الكون وتكفلت بسد حاجات البشر ثم يتدبر فيراه فى رحمة الله مغموسا . .

لا يستطيع الخروج منها إلا إلى الموت وهنا يرتجف فؤاده ويخشع ويسجد لله شاكرا مسلما حنيفا أن كان من العاقلين [1] . .

وهكذا يقلب القرآن قلوب البشر بين رغبة ورهبة كأنما يهدهد تارة ويوخز أخرى ليستثير فيهم آصرة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ليؤمنوا بالله وحده ويعظموه فيردهم إلى مثل صغير من حياتهم تعجز عنه قواهم ويعجز عنه تصورهم وهو مثل يقع فى كل لحظة من ليل أو نهار :

(واللهُ أَخْرَجَكُم من بُطُونِ أُمَّهاتِكُم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ) .

كل عالم وباحث ومفكر وفيلسوف وأديب وطبيب وصانع ماهر يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً صغيراً أو كبيراً أو أدنى من ذلك فما اكتسبه من خبرات أو علم أو فن بعد ذلك فإنما هو هبة من نعم الله التى ينعم بها على البشر بالقدر الذى أراده لهم وخلقهم له وركب فيهم من المدارك والقدرات والذكاء وجعل لهم بهذا القدر كفاية

(1) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٣ ص : ٦٦ ، ١٦٩ .

الحياة على هذه الأرض لعلهم يدركون قيمة هذه النعمة فيعبدون الله وحده ولا يشركون به أحدا :

(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مَعرِضُون)[1] .

فينبههم القرآن الكريم بلطفه اللطيف وكأنه يربت على عقولهم وعواطفهم ، بل كأنه يفتح لهم جفون أعينهم ويمسك بأيديهم إلى الدلائل فيقول لهم فى استفهام شامل لكل المعانى :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىَ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون[2])

وهو مشهد مكرر مألوف ، ولكن القرآن هنا ينبههم إلى عجيبة من آثار القدرة الإلهية التى لا يتدبرونها . .

فمن الذى يمسك الطير فى جو السماء ؟ . .

إنها النواميس الإلهية التى أودعها الله فطرة الطير وفطرة الكون : إنها نعمة الله التى وهبها للطير أن يطير وللجو أن يناسب طيرانه . .

فالقلب المدرك لهذه العجيبة المكرورة يوميا يراها فى كل يوم آية على وحدانية الخالق المتصرف فى هذا الملكوت المنعم على خلائقه كلها بجنيل النعم . .

---

(١) الآية رقم : ١٠٥ من سورة يوسف .
(٢) الآية رقم : ٧٩ من سورة النحل .

وهنا يهتز القلب وتقشعر جلود الذين يخشون ربهم . .

ويتسلل القرآن إلى المشاعر الإنسانية فى كل مستوياتها فينقل الوجدان إلى إدراك أسرار الخلق وآثار نعم الله ومظاهر آلائه على الناس فى البيوت ، وسيان أصحاب الصحراء القاحلة أو أصحاب الغابات المتكاثفة فإنهم يحسون بقيمة البيوت حيث هى المأوى من الحر والبرد والمطر والرياح فتخطوا الآيات إلى النفوس من باب البيت والسكن نتريهم أى آيات الله ينكرون ؟ :

(واللهُ جَعَلَ لَكُم من بُيُوتِكُم سَكَنَاً وَجَعَلَ لَكُم مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوم ظَعْنِكُم وَيَوْمَ إقامَتِكُم ومن أَصْوافِهَا وأَوبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثاً ومَتاعاً إلى حِين . .

واللهَ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَال أَكْنَاناً ، وجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُم الحَرَّ وَسَرَابيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُم كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تُسْلِمُون [1]) . .

الطمأنينة فى البيوت نعمة يعرفها الآن المشردون من أوطانهم فى الشرق الإسلامى خاصة ، اللاجئون من أبناء فلسطين الحبيبة وأبناء باكستان الشرقية كما يعرف هذه النعمة المشردون فى فتنام وكمبوجا ، والعربى القديم يدركها والرجل المعاصر فى الغابات اليوم يدركها ؛ والمسافرون عندما تحل بهم آلام السفر يدركونها كذلك هى نعمة يحس بها الإنسان فى أى عصر وفى أى مكان ؛ ولكن مفهوم الحاجة إلى السكن

---

(١) الآيتان : ٨٠ ، ٨١ من سورة النحل .

الذى يستجيش به القرآن أسارير البشر هى الحاجة إلى الراحة والاطمئنان والأمن والسلام والحاجة إلى حرمة البيت والحفاظ على أسراره وتلك قد ضمنها الله بالشرع وبالحياء الخلقى الذى أودعه فى نفس الإنسان . .

وتستمر الآيات فى تصوير منح الله للانسان فى نعمة البيت حيث مهدله فى الجبال بيوتا وعلمه وسخر له جلود الأنعام ليتخذ منها بيوتا فى الظعن وفى الإقامة وفى ثنايا هذه النعمة : ذكرهم بأن الأنعام لها فائدة أخرى ، تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين فتتناسق فى الفؤاد نعمتا السكن والأثاث والثياب وكلها من حاجات الإنسان الضرورية له فى الحياة . .

إنها نعم تأخذ بوجدان الإنسان إلى الشعور بنعمة الطمأنينة والراحة والشعور بها يؤدى إلى الشعور بالاستسلام والراحة والركون إلى خالقها والمنعم بها وفاء وشكرا واعترافا بالجميل (كَذَٰلِكَ يتِمُّ نِعْمَتَه عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تُسْلِمون) . .

ولكن الإلف والعادة منعتهم من الاسلام ومنعتهم كذلك من اليقظة فيكرر القرآن لهم النداء والدعوة ويسألهم :

(قُلْ : أَرَأَيْتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُم اللَّيل سَرْمَدًا إلَىٰ يَوْم الْقيامةِ من إلَٰه غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُم بضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعون ؟ . .

قُلْ : أَرَأَيتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُم النَّهَارَ سَرْمَدًا إلَىٰ يَوْم القيامَةَ مَنْ إلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يأْتِيكُمْ بلَيْل تَسْكُنُون فِيهِ . أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ . .

وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُم تَشْكُرون)[1] . .

الناس يشتاقون بالطبع إلى مشرق الصبح حين يطول بهم ليل الشتاء ويحنون إلى ضياء الشمس بالحاجة عند ما تتوارى عنهم فترات وراء مزن السحاب .

فكيف لو فقدوا الضياء فكان الليل عليهم سرمدا إلى يوم القيامة؟ أما العلم الحديث فيجيب :

أن الشمس هي مصدر كل حياة وحرارتها تبلغ ١٢٫٠٠٠ فارنهايت مسطحا وموقع الكرة الأرضية فى بعد عنها يكفى لأن تمدنا هذه الحرارة بالدفء الكافى ومسافة الأرض من الشمس ثابتة بشكل عجيب ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل ٥٠ درجة فى سنة واحدة فإن كل نبت يموت والإنسان يموت حرقا أو تجمدا والكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣ درجة فلو تغيرت هذه الزاوية لحدثت أضرار عدة منها :

١ ـ يكون القطبان فى حالة غسق دائم . .

٢ ـ يصير البخار المنبعث من المحيطات مكدسا فى الشمال والجنوب فقط صانعا قارات من الجليد ، وقد يترك صحراء بين خط الاستواء والثلج .

٣ ـ تغطى قاعات المحيط بطبقات من الملح لتكون مصبا لمنبع أنهار من صحراء خط الاستواء فتحدث ملاحات من الملح . .

---

(١) الآيات من رقم : ٧١ — ٧٣ من سورة القصص .

٤ – ويؤثر ذلك فى ثقل الكتلة على القطبين فيؤدى إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه . .

٥ – ويقل المطر فى كافة أرجاء العالم [١] . .

والناس بالطبع كذلك يحنون إلى الليل حين يطول النهار فى فصل الصيف ، ويجدون فى ظلام الليل وسكونه راحة وسباتا ، وكل ما فى الكون من حى يحتاج إلى هذه الراحة وذلك السبات فكيف بالناس لو كان النهار عليهم سرمدا إلى يوم القيامة ؟ يجيب العلم :

(أ) لو زادت سرعة دوران الأرض حول نفسها أوقلت لأصبح طول النهار ١٢٠ – عشرين ساعة ومائة ساعة فاحترق الزرع واختل ميزان العمل فى النهار والراحة والنوم فى الليل [٢] .

إن رحمة الله جعلت الليل سكنا والنهار معاشا وجعل ذلك قانونا مسنونا لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . .

لقد هدهد القرآن على مشاعرهم وآنس قلوبهم وأيقظ فطرتهم وحشد لهم رصيدا من العلم واليقين لعلهم يهتدون . .

(ب) من نعم الله :

قُلْ : مَن يُنَجِّيكُم من ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين .

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص : ٥٣ ، ٥٤ كريس موريسون ، راجع كتاب قصة الايمان لفضيلة الشيخ نديم الجسر ص : ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) قصة الايمان ص : ٣٢٠ ، العلم يدعو للإيمان ص : ٥٣ .

قُلِ : اللهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُم تُشْرِكُونَ . .

قُلْ : هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُم أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُم أَو يَلْبِسَكُم شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْض انظر كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ[1]) .

هنا نرى القرآن الكريم يحاكم المعاندين إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية وتلجأ إليها فى ساعة الشدة والحرج والضيق ويرسم لهم فى مشهد قصير سريع مشاعرهم أمام رؤية الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائض فلا يتوجهون ساعتها إلى صنم ولا إلى كوكب ولا ملك وإنما يتوجهون إلى الله الذى تعرفه فطرتهم الها خالقا بيده الأمر وإليه المصير وهو على كل شىء قدير . .

إن تصور الخطر وتذكر الهول يردان النفوس الجامحة ويرققان القلوب الفظة ويذكر أن النفس عند لحظة الضعف بالانابة إلى الله واللجوء إلى سلطانه .

وهى تجربة يعرفها كل من وقع فى ضيق ومرات ضيق الانسان كثيرة ومتعددة فى ظلمات البر والبحر ، وعندها تتعرى للإنسان حقيقة آلهته التى يعبدها من دون الله ويجدها خلوا من كل حول ولا يرى لنفسه نجاة إلا بالتضرع إلى الله الحق دون شريك معه ولكنهم بعد هذا يشركون[2] . .

---

(١) الآيات من رقم : ٦٣ — ٦٥ من سورة الأنعام .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٧ ص : ٢٦٦ .

بعد ماشاهدوا هذه النعم الجليلة وخلاصهم من الكرب والضيق يعودون إلى نكسة الشرك والضلال فلا يوفون بالعهد ولا يحترمون ماكان منهم من إقرار[1] :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ . . . .) الآية .

قد يقدر الوهم للجاهليين أن يدفعوا عنهم العذاب إذاجاءهم من اليمين أومن الشمال فصورت لهم الآية الكريمة أن عذاب الله إذاجاء لادافع له انه عذاب غامر من فوق ومن تحت كل فوق سواء ساروا يمينا أوشمالا ، و كل تحت سواء هربوا يمينا أو شمالا فهو عذاب غامر للفوقية والتحتية بكل جهاتها فلا مقاومة ولادفاع ولات حين مناص . .

النموذج الثانى : من احداث التاريخ :

وقد عرفت البشرية فى فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً فَقَالَ : يَاقَوْم اعْبُدُوا الله وارجُوا الْيَوْم الآخِرَ ولاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْض مُفْسِدِين .

فكذبُوه فَأَخَذَتْهُم الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِم جَاثمِينَ .

وعاداً وثَمُودَا وقد تَبَيَّنَ لكُم مِّنَ مَسَاكِنِهم وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيل وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين .

(١) روح المعانى ج : ٧ ص : ١٧٨ ، ١٧٩ .

وقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ولَقَدْ جَاءَهُم مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَما كَانُوا سَابِقِين) .

فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِه : فَمِنْهُم من أرسلنا عليه حَاصِباً ، ومنهم من أَخَذَتْه الصَّيْحَةُ ومنهم منْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ ، وَمِنْهم من أَغْرَقْنَا ، وماكَانَ الله لِيَظْلِمَهُم ولكن كَانُوا أَنْفُسَهَم يَظْلِمون[1]) . .

هى وحدة الدعوة ووحدة الطريق والغاية وباختصار يصور القرآن تكذيبهم للرسل ثم أخذهم بالهلاك والتدمير على سنة الله فى أخذ المكذبين . .

لقد أخذوا برجفة زلزلت عليهم بلادهم إثر صيحة مدوية أسقطت قلوبهم فى أكعابهم ، لقد جاءتهم الصيحة من فوق وجاءهم الزلزال والرجفة من تحت فما كان لهم من ناصرين ، وكذلك أخذ ربك القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . .

لقد أخذ عادا حاصب وهى ريح صرصر عاتية وتطايرت معه حصباء الأرض فقتلتهم فكانوا كأعجاز نخل خاوية . .

وثمود أخذتهم صيحة فأهلكوا بالطاغية . .

وقارون خسف به وبداره الأرض . . .

وفرعون وهامان غرقا فى اليم هما وجنودهما . .

---

(١) الآيات من رقم : ٣٦ — ٤٠ من سورة العنكبوت .

تلك هى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدى القرون فما أغنى عنهم ماكانوا يشركون ، فالى أين تذهبون أيها المعاندون ؟ :

(مَثَلُ الَّذِين اتَّخَذُوا من دون اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوت اتَّخَذَتْ بيْتاً وإن أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوت لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون[1]) .

إنه تصوير دقيق وعجيب لحقيقة القوى فى هذا الوجود التى يسىء كثير من الناس تقديرهم لها وتختل فى أيديهم موازينها فلا يعرفون إلى أين يذهبون أو إلى أين يتجهون وعند الحيرة والاضطراب تخدعهم قوة السلطان أو الحكم أو التقاليد والعادات فيحسبونها هى القوى التى تعمل فى هذه الأرض فيتوجهون إليها جهلا . .

قد تخدعهم سلطة الحكم أو المال أو العلم إن فى يد الفرد أو فى يد الجماعة فيضلون وذلك هو الداء الذى يجعل الناس فى جاهلية سوداء وينسون الاتجاه إلى الله الحق فليس هناك سواء من يحمى وينفع أو يضر ، يميت ويحيى ، إن كل ماعداه مما يشركون به كحشرة العنكبوت وكل مالديهم من قوة فهى قوى خيط العنكبوت[2] ، وسوف يعلمون .

ويكشف القرآن الكريم عن فطرة الانسان وقد غسلتها المحن فلجأت إلى الله وعن وحدة الموقف من المعاندين دائما وعن سنة الله فى محق هؤلاء الجبارين المشركين :

فإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاه نعمةً منَّا قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُه عَلَى عِلْمٍ بل هى فتْنَةٌ ولكنَّ أَكْثَرهُم لَا يَعْلَمُون . .

---

(١) الآية رقم : ٤١ من سورة العنكبوت .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢٠ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم فَمَا أَغْنَى عَنْهُم ماكَانُوا يَكْسِبُون .

فأَصَابَهُم سَيِّئَاتُ مَاكَسَبُوا والَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُم سَيِّئَاتُ مَاكَسَبُوا ومَاهُم بِمُعْجِزِين[1]) .

إنه نموذج مكرر للانسان فى كل عصر إذا فسدت فطرته وضلت واتبع شيطانه واغتر بدنياه هنا يأتى الضر ليغسل الفطرة من ركام الهوى والشهوة وينقيها من العوامل الوراثية المصطنعة التى تحجبها عن الحق الكامن فى خلاياها . .

إن القرآن يكشف عن سر الابتلاء بالنعم فهى امتحان ليميز الله خبيث النفوس من طيبها ، وينبههم إلى الخطر ويحذرهم من الفتنة حتى لاتكون للناس حجة ولاعذر بعد هذا البيان . .

ويعرض القرآن هذه المقالة فى جوها العام كفلسفة للمشركين دائما فى كل عصر قد قالها الذين من قبلهم هى هى الكلمة : (إنما أوتيته على علم) قالها قارون ويقولها كل قارون فى المستقبل ولكن النهاية التى يحذر منها القرآن هى « فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون » .

لقد اختلت موازينهم وفسدت معايير الحياة التى يتعايشون عليها فضلوا طريق الحق فأخذهم العذاب من حيث لايشعرون[2] . .

ويكشف القرآن فى آيات أخرى عن طبيعة هذا الانسان إذا مسه الضر وأحاطته المصائب فيلجأ إلى ربه ويتعرف عليه :

---

(١) الآيتان رقم : ٤٩ ، ٥٠ من سورة الزمر .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٤ ص : ٣٨ ، ٣٩ .

(هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُم فِى البَرِّ وَالبَحْرِ حتَّى إِذَا كُنتُم فى الفُلْك وجَرَيْن بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَة وفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وجَاءَهُم المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ . وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِم دَعَوا اللهَ مُخلصين لَهُ الدِّين ، لئن أَنْجَيْتَنَا من هَذه لَنَكُونَنَّ مِن الشَّاكِرِين .

فَلَمَّا أَنجَاهُم إِذَا هُم يَبْغُونَ فِى الأَرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ . يأَيها النَّاس : إِنَّمَا بَغْيُكمْ عَلَى أَنفُسكُمْ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثم إِلينا مرجعُكُم فننبئكم بما كُنتُم تَعْمَلُون [١]) . .

لايذكر الإنسان ربه إلا فى ساعة العسرة والحرج ولايثوب إلى فطرته إلا فى ساعة الكرب وقد كشف البلاء عن بصيرته وعرت المحن فطرته فإذا أمن نسى وطغى إلا من رحم ربك . .

لقد فعلها قوم فرعون مع موسى :

(ولَمَّا وقَعَ عَلَيْهِم الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بما عَهد عندكَ لئن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمنَنَّ لَكَ ولَنُرْسلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيل . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُم الرجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغوه إِذَا هُم يَنْكُثُون [٢]).

فعاقبهم الله :

(فَانْتَقَمْنَا مِنهُم فَأَغْرَقْنَاهُم فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانوا عَنْهَا غَافلِين [٣]) . .

---

(١) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآيتان : ١٣٤ ، ١٣٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآية رقم : ١٣٦ من سورة الأعراف .

وكذلك فعلت قريش :

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[1] . .) .

قال ابن مسعود فيها : لما أبطأت قريش عن الاسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلايرون إلا الدخان ، ودعو الله جل شأنه وتعرفوا عليه وابتهلوا إليه ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، قال ابن مسعود فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم[2] . .

وهكذا يدمدم عليهم القرآن الكريم ويقسو ويرهب ويتوعد لعل فى هذا الأسلوب رادعة لغاو بعد أن ألان القول ، وأطال فى الأدلة ولوّن الخطاب .

لقد ذكر لهم القرآن الكريم أنواعا من نعم الله تشعر بها النفس وتحتاج إليها أعضاء الجسم . .

وعرض عليهم مقالات للعاندين ونبههم إلى وحدة المصير وكشف لهم قوى النفس وطول الإنسان وسلطان الله وكيف أخذ بالسنين والنقص فى الأموال والأولاد وخسف الأرض ، ودمر بالصيحة والزلازل أقواما قالوا مقالة قريش فما أغنت عنهم آلهتهم من دونه من شىء وارتدوا على أدبارهم خاسرين . .

---

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الدخان .

(٢) ابن كثير ج : ٤ ص : ١٣٨ راجع تثبيت دلائل النبوة ج : ١ ص ٨٢ .

هكذا يجيش القرآن الكريم أنواع الأدلة . .

أدلة تهدى العقل المستنير .

أدلة تجذب البصيرة المعافاة من أمراض التقليد

أدلة تطهر النفس الخبيثة وترجعها إلى حظيرة الفطرة والايمان حتى لاتكون للناس حجة ولا تكون بعد البيان معذرة فاذا ماجحد الناس وضلوا وأصروا على هذه الضلالة وعادوا الدعوة وخاصموها كان لها بعد ذلك مندوحة فى منهج جديد . .

طريقة استخدام المنهج

دلل القرآن الكريم على دين إبراهيم كعقيدة عاقبة بعد سيدنا إبراهيم جد العرب فكشف لهم بذلك عن طبيعة الدين الذى يدعّون النسبة إليه ويفتخرون بالنسب إلى صاحبه . .

ثم كشف عن بصائرهم غطاء الغفلة بما يتبعونه من سنة الآباء والأجداد ، وعاب عليهم التقليد واتباع الظن :

(فان الظَّنَ لا يُغْنِى مِن الحَقِّ شَيْئا) . .

ونصب لهم أدلة التوحيد فى عدة نماذج .

ولم يترك القرآن الكريم الجانب العاطفى الوجدانى فحشد له نماذج من نعم الله ونقمه تاريخ إهلاك المشركين من الضالين السالفين . .

تلك الخطوات كلها مجتمعة أو بعضها تعالج قضية التوحيد والتنزيه وتخاطب المستويات الانسانية كلها ، فى الشخص الراحد أو فى الجماعة الواحدة فالناس معادن :

معدن تكفيه الكلمة الطيبة وتكفيه المعاريض . .

ومعدن مقيد بأمجاد الآباء مفتخر بالنسب حريص على استمرار فقه أبيه ، .

ومعدن يحب الترف العقلى يناقش أويجادل أو يحاجج . .

ومعدن عاطفى وجدانى قد يلين جانبه بالموعظة الحسنة أو تخضع كبرياؤه للتجربة القاسية . .

وقد يكون الفرد الواحد هو صاحب نفوس تحتاج إلى هذا الحظ من الأدلة فقدمها القرآن الكريم سهلة ميسرة . .

ولكن القرآن الكريم لايترك الناس على جهالة لايعرفون كيف يستخدمون هذا المنهج . . .

لم يتجاهل القرآن طبيعة الانسان ، فقد خلق الانسان ضعيفا يحتاج إلى معونة ، ومع هذا فقد كان أكثر شيء جدلا . .

والقرآن يقدم مع المنهج الفكرى طريقة استعماله وكيفية الانتفاع به . .

دعاهم إلى البحث فى حقائق التاريخ والكشف عن الضربات القاصمة التى كانت جزاء المارقين من السابقين الذين يمرون عليهم مصبحين ومسين ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والدراسة فى تاريخ الأمم الماضية المجاورة .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم . .)[1] . .

(أَوَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قوةً وأَثَارُوا الأَرْضَ وعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

(١) الآية رقم : ١٠٩ من سورة يوسف .

عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُم رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم ولكِن كَانُوا أَنْفُسَهم يَظْلِمُون[1]) . .

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم وكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قوةً وماكَانَ اللهُ لِيُعْجِزَه من شَيْءٍ فِي السَّمَواتِ ولا فِي الأَرْضِ إنَّه كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا[2]) . .

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُم الله بِذُنُوبِهِم ومَاكَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ)[3] .

(أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ الَّذِين مِن قَبْلِهِم كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم وأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأرضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُون)[4] . .

إن القرآن هنا يسألهم لينشطهم للسير فى الأرض بعين مفتوحة ، وحس متوفر وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ماكان فى الأرض قبلهم من آثار وما تعرضوا له من تدمير لأنهم أشركوا بالله ولم يقدروا قدره .

وبعد أن يسأل لينشط يأمر ويكلف بالنظر :

(قُلْ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ المُكَذِّبِينَ)[5]

---

(١) الآية رقم : ٩ من سورة الروم .

(٢) الآية رقم : ٤٤ من سورة فاطر .

(٣) الآية رقم : ٢١ من سورة غافر .

(٤) الآية رقم : ٨٢ من سورة غافر .

(٥) الآية رقم : ١١ من سورة الأنعام .

(قل : انظُروا ماذَا فى السَّموات والأَرضِ وما تُغْنِى الايَات والنُّذُرُ عَن قَوْم لَّا يُؤْمِنُون[١]) . .

(فَسِيُروا فِى الأَرضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ[٢]) . .

(قُلْ : سِيُروا فِى الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِين[٣]).

(قُلْ : سِيُروا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِير[٤]) . .

(قُلْ : سِيُروا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقَبَةُ الَّذِينَ من من قَبْلُ كَانَ أَكْثَرهُمُ مُشْرِكين[٥]) . .

كان العرب يسيرون فى الارض وينتقلون فى أرجائها ، رحلة الشتاء والصيف ولكنه كان سيرا متعلقاً بالعيش ، بالمرعى بالصيد بالتجارة ، ولما عارضوا الدعوة لم يفكروا جديا فى حرية بعيدة عن الجاهلية والعمى فنبههم القرآن الكريم إلى تعدين أهداف السير .

لقد سألهم أن يسيروا للتدبر والاعتبار ثم أمرهم أن يبحثوا فى آثار الأمم الماضية التى تخل قريبا من دارهم حتى يعرفوا سنن الله وقد تحققت كقانون سر مدى يجربه الله دائما على كل للعاندين . .

---

(١) الآية رقم : ١٠١ من سورة يونس .

(٢) الآية رقم : ٣٦ من سورة النحل .

(٣) الآية رقم : ٦٩ من سورة النحل .

(٤) الآية رقم : ٢٠ من سورة العنكبوت .

(٥) الآية رقم : ٤٢ من سورة الروم .

أن الحوادث شاخصة فى الآثار فليسيروا اليها لينظروا جبروت السالفين تأثيرا وأثارا و كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . .

وهذه نقلة جديدة فى حياة الفكر العربى بل الانسانى كله ، التوصل إلى الحقيقة عن طريق دراسة وتحليل حوادث التاريخ وأنه الطريق الوحيد الذى يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية الهابط إلى قمة الهداية السامقة [١] . .

ثانيا : ولكن كيف ينظرون ؟ :

إن التفكير وسط الازدحام على الأغلب فيه تشويش على الخاطر وتعويق للفهم وتخليط فى الكلام [٢] ، والتفكير مع الجماعة مقيد متهم فقد يكون فى الجماعة منحرف يخشاه الفرد وقد تكون الجماعة متخلفة عن الفرد فتتهمه بعيب ، كيف إذن يتم النظر ؟ !

(قل : إنّما أعِظُكم بِوَاحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا لِله مَثْنَى وفُرَادَى ، ثم تَتَفَكَّرُوا مَابصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إن هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بيْنَ يَدَى عَذَاب شديد [٣]) . .

فهى أولا تجريد من الهوى والرأى الشخصى والتبعية لاهواء الآباء والأجداد انها تحرر من كل قيد على النفس والعقل وتبرئة من المصلحة الخاصة ، فهى قوة بعيدة عن ملابسات الأرض ، بعيدة

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٧ ص : ١٤٢ .

(٢) روح المعانى ج : ٢٢ ص : ١٠٤ .

(٣) الآية رقم : ٤٦ من سورة سبأ .

هواتف الحاجة ودوافع الأنانية تلك التى تشتجر فى القلب فتنئيه عن رحاب الله . .

إنها قومة بعيدة عن التأثر بالتيارات البيئية والمؤثرات المشحونة بها الجماعة البشرية . .

إنها دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط لامع الأقيسة والقضايا والدعاوى التى تروج فى وسط المجتمعات ، ولا هى عبارات مطاطة تبعد العقل أو القلب أو الوجدان عن مواجهة الحقيقة فى بساطتها وقربها ووضوحها ، دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافى البرئ من آفات التعصب ، السليم من أمراض المجتمع ، دعوة بعيدة عن الضجيج والخلط واللبس والتشدق والاضطراب والغبش الذى يحجب الفطرة ويحجب صفاء الحقيقة ؛ إنها وقفة أو قومة واحدة إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق . .

إنها : أن تقوموا لله ، لا لغرض ، ولا لهوى ، ولا لمصلحة ، ولا لقبيلة ، ولا لقومية ، ولا لمال ، ولا لجاه ، ولا لملك ؛ لالشئ من مثل الأرض ، وإنما هى قومة خالصة متجردة لوجه الله . .

ثم يفكروا ويتدبروا بعيدا عن المؤثر الخارجى فليعيشوا أثناء التدبر فى مواجهة خالصة مع الحقيقة القائمة . .

تدبر خاص فى جو خاص يضمن للتفكير سلامته وتجرده ويكفل للمفكر حريته أن تقوموا لله مثنى وفرادى .

مثنى[1] :

ليراجع الصديق صديقه فى اخلاص وأمانة ويأخذ معه ويعطى فى غيرما تأثر بعقلية الجماهير الفوضوية الغوغائية التى تهرع وراء الانفعال الطارئ الخاطئ ولا تستعد لتسمع حجة ولا تقبل أن تبدأ لتتصرف بالتى هى أحسن . .

وفرادى :

مع النفس وحدها فى مقابلة ذاتية يحاسب المرء نفسه يمحص الحقائق فى عمق وهدوء ، يقلب القضايا ، يسترجع التاريخ . يقارن التصرفات . .

مابصاحبكم من جنة : فما عرف عنه إلا العقل الراجح والرزانة الوقورة والتدبير الموزون لقد كان قبل بعثته الأمين على الأسرار والودائع ، وكان أشرف الناس خلقا وأجودهم سخاء وأنبلهم سلوكا . .

لقد كان فوق القمة من الأخلاق والسلوك والمروءة والشجاعة ولم يعرف عنه غير ذلك البتة . .

وما يقوله الآن بعد البعثة ليس شيئا يدعو إلى التظنن برشده وعقله ، إن هو إلا قول رسول كريم . .

---

(١) توصلت أخيراً الدراسات الاجتماعية فى جامعة أيووا إلى أن ديناميكية الجماعة الثنائية التى أطلقوا عليها اصطلاح : بماعة الطنين تفوق فى إمكانياتها الطرق الأخرى لأنها عملية بالنسبة لأهداف الجماعة وديموقراطيتها واشتراك الأفراد فى المناقشة المطلوبة ، راجع ص ١٩٩ القيادة وديناميكية الجماعات ، ترجمة الدكتور العريان وشهاب ، وبهذا يكون القرآن قد قدم أصلح أنواع الجماعات الانسانية من قبل البحث الاجتماعى الحديث كوسيلة لتطبيق المنهج .

إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، إنه هاتف يحذر من حريق يكاد يعم قبيلتهم ، القبيلة كلها ، وهو لمس على شغاف القلوب لعلها تلين[1] . .

هكذا تتحدد فى سهولة ويسر طريقة استخدام المنهج :

١ ـ أن يقوموا لله قومة صادقة . .

٢ ـ أن يتجردوا فى هذه القومة من كل مؤثر خارجى أوأنانى . .

٣ ـ أن يتكاشف الصديقان باخلاص . .

٤ ـ أو أن يحاسب الفرد نفسه ويكاشف سريرته . .

فسوف يسمعون جميعا النداء الحق الأمين (أنا ربكم فاعبدون) .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٢ ص ٩١ راجع ابن كثير ج : ٣ ص : ٥٤٣ ، راجع تفسير الطبرى ج ٢٢ ص : ١٠٤ ، ١٠٥ ط ثانية .

الفصل الثانى

منهج العمل مع الجماعة

الدعوة الأسلامية حركة بناء لمجتمع يحقق الخلافة عن الله فى عمارة هذه الأرض بواسطة جهود الانسان المؤمن الذى يسلم وجهه لله وهو محسن ، حركة بناء هى عمل مع الجماعة الانسانية . والعمل مع الجماعة الانسانية فى العصر الحديث أخذ شوطا بعيدا فى الدراسة والتوصيف والتخطيط والاعداد . .

والمنهج الاسلامى الذى قدمته الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى للعمل مع الجماعة هو المنهج الرائد للمعارف الاجتماعية كلها وهو الأصل الذى تدين له جميع الدراسات الاجتماعية المعاصرة فيما يتعلق بالصلة بين الرائد صاحب الدعوة والفكرة والجماعة التى يريد أن ينقل إليها دعوته أو فكرته . .

لقد تناولت الدراسات الحديثة فى توصيف منهج العمل مع الجماعة مجموعة من المبادئ أو الخطوات التى يلتزم بها الرائد الاجتماعى ، وهى بأفرادها أو بمجموعها لقطات من العمل الاسلامى فى العهد المكى . .

لقد تحدث الكاتبون فى الدراسات الاجتماعية عن : ثقة الداعية بنفسه ، وتحديد أهدافه ، وحسن عرضه للمبادئ التى يدعو إليها ، وإيجاد استقطاب حول دعوته والتعرف على المجتمع وتنظيم قيادة

محلية[١] . . . الخ ، ومجىء هذه الدراسات مؤخرا يفرض عليها صفة التلمذة للمنهج الاسلامى من جانب ، وصفة القرض من جانب آخر ، وقد شهد بهذا المنطق بصفة عامة كاتبان من الغرب . .

إن منهج العمل مع الجماعة الذى قدمته الدعوة الاسلامية فى مكة المكرمة هو وحده المنهج الأول الذى احترم عقل الانسان وكرامة الجماعة وقدم خطواته مع الصدق والحق بعيدا عن بريق الدعايات الكاذبة والبيانات المضللة والتمثيليات التى يتقمصها رواد العمل الاجتماعى فى العصر الحديث ، وقلب معايير الحقيقة وخداع الرأى العام بما لديهم من قدرة اعلامية تخدع الأذن ، وتزكم الحس وتشوش على الفكر وتجمد الذكاء[٢] . .

والمنهج الذى قدمته الدعوة الاسلامية فى العهد المكى للعمل مع الجماعة قدمته وطبقته وهو المنهج الوحيد الذى أنتج انتاجا دائما خالدا ، هذا المنهج يقوم على ثمانى قواعد :

القاعدة الأولى : ثقة الداعية . .

القاعدة الثانية : تحديد الهدف . .

القاعدة الثالثة : التعرف على المجتمع . .

---

(١) راجع : مبادئ تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص : ٨٧ — ٩٦ الخدمة الاجتماعية والمجتمع دكتور أحمد كمال أحمد ، عدلى سليمان ص : ١٧٢ ، ١٨٣ — فن خدمة الجماعة دكتور محمد شمس الدين أحمد ط ثالثة ص ١٣١ — ١٥٥ الخدمة الاجتماعية محمد كامل البطريق ص ٩٢ — ٩٧ .

(٢) ليس من هدفى عمل مقارنة ما أورد على مايثيره الخصوم للدعوة فى العصر الحاضر وأنا بسبيل عرض الدعوة الاسلامية على طبيعتها فى عهدها المكى ، فان للخصوم مرحلة ستأتى بعد إن شاء الله .

القاعدة الرابعة : تربية قيادات تعمل معه . .

القاعدة الخامسة : عرض الدعوة عرضا واضحا . .

القاعدة السادسة : إحداث استقطاب كامل حول الدعوة . .

القاعدة السابعة : السلوك المطابق للدعوة . .

القاعدة الثامنة : الصبر والتحمل حتى تظهر حقيقة الهدف من الدعوة .

أولا : ثقة الداعية :

الحديث عن : ثقة الداعية هنا ، يشتمل على عنصرين :

العنصر الأول : ثقة الداعية فى نفسه . .

العنصر الثانى : ثقة المجتمع فى الداعية . .

أما فيما يتعلق بثقة الداعية فى نفسه ، فقد عبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم أصدق تعبير :

(والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله . أو أهلك فيه ، ماتركته[1]) .

إن الجو الذى قيلت فيه هذه الجملة المنهجية جو الكثرة العاتية التى تهجم بكلكلها على النبى صلى الله عليه وسلم فلو كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لاتساوى فى وزنها الاجتماعى ثقل المجتمع

---

(١) سيرة ابن هشام ج : ١ ص : ٢٦٦ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٦٤ الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٣ .

للمتكأكىء عليه بالخيل والرجال والرأى والحفيظة لما أمكن أن يضع هذا المعيار الخالد الذى يصور المستوى السامق فى عزة النفس والثقة بالله وبالإسلام وبما يدعو إليه مما ينبغى أن يتسلح به الداعية . .

لقد كانت ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه كداعية أسلم وجهه لله وهو محسن تفوق قدرة البشر حتى ولو تقدموا علميا أو تكنولوجيا واستطاعوا أن يخلعوا قرص الشمس من فلكها وينتزعوا القمر من هالته وحاولوا أن يقنعوه فيما بعد لو صح لهم أن يضعوا هذه الشمس المخلوعة من فلكها فى يمينه ، وهذا القمر المنتزع من هالته فى يساره ، ماقبل وماوثق وما رضى ولاستمر على دعوته لأنها أحق مما وصلوا إليه لو كانوا يقدرون . .

والرسول صلى الله عليه وسلم بهذا يحدد مستوى الثقة بالنفس للداعية الإسلامى الذى يضطلع بأعباء العمل للدعوة الاسلامية ، وفى نفس الوقت يشاء الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا المستوى من الثقة بالنفس خاصا بالداعية الاسلامى ، لأنه مستند فى ثقته بالنفس إلى الايمان بالله العلى الكبير (. . . ولله العزةُ ولِرَسُولِه ولِلْمُؤْمِنين ولكن المُنَافِقِين لايَعْلَمُون[1]) .

لقد كانت ثقة الأنبياء ولم تكن ثقة الزعماء أن ثقة الأنبياء رحمة وحنان وثقة الزعماء قسوة وطغيان . .

---

(١) من الآية رقم : ٨ من سورة « المنافقون » .

ولله در المناجى :

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال :

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارا) ، ولو دعوت علينا لهلكنا من عند آخرنا فقد وطىء ظهرك ، وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا ، وقلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون[1] . .

إنها ثقة الذى نعتته السماء :

(وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[2]) .

(. . بالمؤمنين رءُوفٌ رَحِيمٌ[3]) .

(وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعَالَمِين[4]) .

وأما ثقة المجتمع بالداعية فقد أجمع الناس طرافى مكة المكرمة على أن يفردوه وحده بلقب الأمين وعادة المجتمع الجاهلى فارغة من الألقاب خالية من تقاليد النياشين ، لقد كانت الفروسية وأمارة الشعر تنتزع انتزاعا من ساحات الوغى وأسواق القريض ومعارض الفكر . .

---

(١) الشفاء شرح على القارى ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) الآية رقم ٤ من سورة القلم .

(٣) من الآية رقم : ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) الآية رقم : ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ولكن الأمانة لم يكن لها سوق ولا معرض ولا ساحة . .

غير أن ثقة المجتمع فى أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ألزمت المجتمع أن يحمى هذه الشخصية الفريدة فيه فأجمعوا على أن يلقبوه (بالأمين) . .

يقول ابن هشام :

وكانت قريش تسمى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل أن ينزل عليه الوحى الأمين [١] وعبارة زاد المعاد تضفى على أبعاد هذه الأمانة أنوارا تبرز قسماتها :

وأما الأمين : فهو أحق العالمين بهذا الاسم فهو أمين الله على وحيه ودينه وهو أمين من فى السماء وأمين من فى الأرض ولهذا كانوا يسمونه قبل النبوة بالأمين [٢] . .

ولم يكن إسما أولقبا خانيا من وضعه على محك الأحداث والتجارب فقد اختبرت قريش نفسها فى مقدار ماتكنه لهذا الاسم من التقدير والثقة فلما استحكم الخلاف بينهم عند ماتم بناء الكعبة ووصل الأمر إلى قاب قوسين أو أدنى من الحرب الضروس التى تهلك النسل والحرث وتخرب الديار وتدمر البلاد ارتضوا أول داخل عليهم ليكون حكما بينهم . .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) زاد المعاد ج : ١ص : ٢٣ ، راجع الشفاء، شرح نسيم الرياض ج : ١ ص: ١٧٩

انهم ماكانوا يفكرون فى شخصية الداخل بقدر ماحملهم النزاع على أن ينتهوا من هذا النزاع الذى شحن الجو بدخان الحرب ، ولوكان غير محمد صلى الله عليه وسلم لاندلعت الفتنة من جديد وربما قامت الحرب ، ولكنها كلمة قالوها وشاء الله أن تكون عليهم حجة إلى يوم القيامة فلما دخل محمد صلى الله عليه وسلم قالوا :

هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد[1] .

هذا الأمين قد رضينا بما قضى بيننا[2] .

هذا الأمين قد رضينا به[3] .

هذا الأمين رضينا ، هذا محمد[4] .

هذا الأمين رضينا هذا محمد[5] .

هذا الأمين وقد رضينا بما قضى بيننا[6] .

هذا الأمين قد رضينا به فحكموه[7] .

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ١٩٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ١ ص : ١٢٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج : ٢ ص : ٤٥ .

(٤) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٢٨٠ .

(٥) الحلبية ج : ١ ص : ١٧٢ .

(٦) دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٣٣٤ .

(٧) أخبار مكة للأزرقى تحقيق الأستاذ رشدى الصالح ج : ١ ص : ١٦٤ مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة ط ثانية ١٣٨٥ .

لقد ابتدأوا بالاشارة إليه باللقب الذى منحوه أياه ثم أعقبوه باسمه الشريف الكريم ثم ارتضوا أى شىء يحكم به بينهم ، فقد عرفوه عادلا منصفا لايدارى ولايمارى فأسلموا له القياد والقيادة ، فقالوا : أتاكم الأمين فقالوا له : فوضعه فى ثوب ، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه ؛ فوضعه هو صلى الله عليه وسلم ، وأشهدوا التاريخ على أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم[1] قبل البعثة هو الأمين عليهم فى مدلهمات الأمور . .

ويسجل الشعر العربى هذه الحادثة بانفعالاتها وتوجساتها والخوف من سوء عاقبتها فيقول هبيرة بن أبى وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمد[2]

---

(١) من حديث رواه أحمد والحاكم وصححه راجع الفتح الربانى ج : ٢٠ ص : ٢٠٠ .

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام تحقيق شلبى ، السقا الابيارى ج : ١ ص : ١٩٧ حاشيه .

وبيت القصيد فى هذا الرضا .

أولا : أن أبا أمية بن المغيرة هو الذى اقترح التحكيم لأول داخل ، وهو يومئذ أسن قريش كلها .

وقبول رجل مثل هذا له وزنه الاجتماعى والتاريخى . .

ثانيًا : أن المتخاصمين لم يشذ منهم واحد فى قبول التحكيم . .

ثالثًا : انهم لم يناقشوا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تحديد طرف الثوب لكل وكيل قبيلة .

رابعًا : أنه هو وحده الذى رفع الحجر من الثوب أو من ثوبه ووضعه بيده المباركة الشريفة الطاهرة .

صحيح وقع نزاع من رجل شاء أن يعاون الرسول صلى الله عليه وسلم بحجر يشد به الركن عندما نحاه العباس وقدم هو الحجر ، ولكنه نزاع بعد الرضا بالتحكيم وتنفيذه وهو نزاع لم يثر شبهة ماحول إجماع الناس على قبولهم حكم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم . .

ثم هو نزاع من رجل ابليسى ، أو هو ابليس تشبه برجل كما ذهب إلى ذلك ابن[١] سعد فى الطبقات والأزرقى[٢] فى أخبار مكة . .

لقد كانت صيحة أخرس وفعلة شيطان وكانت خرقاء جوفاء لم تحمل فى أعقابها أثرا ، واستقرت الثقة الكاملة من المجتمع فى محمد صلى الله عليه وسلم : هذا الأمين قد رضينا به .

---

(١) راجع الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ١٤٦ .

(٢) أخبار مكة للأزرقى ج : ١ ص : ١٦٤ .

ويضع الناس أنفسهم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرة أخرى فى بدء الدعوة – على محك الثقة تجاهه لما ناداهم . .

يابنى فهر : يابنى عدى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقا[1] . .

لقد أراد أن يتفق معهم على شرط يكون عليهم حجة قبل أن يبلغهم رسالة الله وقد علموا أنه نبى مرسل وأنه ليكلم من السماء فوضع فرضا من الفروض ، لو أنه أخبرهم خبرا خطيرا يهدد مستقبل حياتهم أكانوا مصدقين ؟ فأجابوه : نعم ، وأجابوها مع دليل يقويها ويؤكدها أجابوه بتاريخه المعروف المشهور الواضح الثابت المستقر عندهم (ماجربنا عليك إلا صدقا) . .

وتستمر هذه الثقة حتى مع وجود النزاع الحاد والخصومة المستحكمة التى بدأوا بها واستمرأوها . .

لقد قال لهم النضر بن الحارث يوما ، وهو من أشد المتحمسين لعداء الدعوة وله دور إيجابى فى معاندة آيات الوحى الصادق ، قال لهم : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ماهو بساحر[2] . . الخ .

---

(١) فتح البارى ، ج : ١٠ ص : ١١٩ باب : وانذر عشيرتك الأقربين . راجع القرآن والنبى ، لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص : ١٨٣ وما بعدها ط . دار الكتب الحديثة .

(٢) ابن هشام ، ج : ١ ص : ٢٢٩ – ٣٠٠ .

ولقد قالها أبو سفيان لهرقل : حين سأله :

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال :

فقال له : لا . .

قال : فهل يغدر ؟ .

فقال له : لا[1] . .

لقد وقفوا منه موقف الخصم الفاجر وقلبوا له جميع الاتهامات إلا الكذب والغدر . لقد شهدوا له بالأمانة والصدق ، وتأكدوا من سمو أخلاقه وحتى مع نذالتهم هم فى خصومتهم معه كانوا يتركون ودائعهم عنده بعد أن آذوا أصحابه وحبسوه ثلاثة أعوام فى شعب بنى هاشم وأرادوا قتله ، وكانت مع كل هذه المواقف المتغطرسة فى لجاجة الباطل من جانبهم كانوا يتأكدون أنه الأمين الصادق وكانت ودائعهم عنده ، وخلف عليا رضى الله عنه فى فراشه ليلة الهجرة ليرد ودائعهم اليهم . .

يقول ابن هشام .

« أما على فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم[2] » . .

---

(١) راجع فتح البارى ج : ١ ص : ٣٨ .

(٢) ابن هشام ج : ١ ص . ٤٨٥ راجع الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوى ص : ٧٢ .

وما تنتهى ثقتهم فيه أبدا حتى مع الحروب التى أثاروها على الدعوة بعد الهجرة فما زالوا فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنه صادق وأنه أمين وأنه على الحق ففى الشفاء القاضى عياض . .

إن الأخنس بن شريق لقى أبا جهل يوم بدر فقال : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس هَهُنَا غيرى وغيرك ، فقال له : والله إن محمداً لصادق وماكذب محمد قط (١) .

فيقسم ويؤكد ويثبت الصدق بطريقين : الإيجاب والسلب معا ثم يؤكد ذلك بالتأكيد الأخير « قط » .

لقد كانت ثقة المجتمع فى الداعية مبنية على وضوح فى سلوكه ومعرفة تامة بأخلاقه ومعاملة مستمرة تظهر فى كل يوم جليل خلقه ، ونفيس صدقه ، وعظيم وفائه ، ورفيع محبته للناس جميعا . .

ولقد كانت ثقة الداعية بنفسه قائمة على ثقته بربه ، وثقته بالحق الذى يدعو إليه وثقته بنصر الله .

وتلك هى التى تعوز جميع قادة العمل الاجتماعى فى العصر الحديث وتلك التى امتازت بها نظم العمل مع الجماعة فى نهج الدعوة الاسلامية منذ ذلك الفجر البعيد .

---

(١) الشفاء شرح على القارى ج : ١ ص : ١٨١ الدرر ص : ٩٢ .

(٢) راجع اكتساب ثقة الأهالى فى كتاب مبادئ تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص : ٩١ مع ملاحظة أنه ليس فى قصدى ربط مقارنة بين عمل البشر ووحى السماء .

ثانيا : تحديد الهدف :

لقد جمعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مؤتمر عائلى خاص وأعطاهم من الأمان والراحة ما أمنهم ثم قال لهم : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ثم قال :

إن الرائد لايكذب أهله ، والله الذى لاإله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا[1] . .

فهو نبى لهم وللناس عامة . .

يدعو إلى توحيد الله . .

والايمان بالبعث والحشر والحساب والجنة والنار . .

وهو فى سبيل هذا لا يسألهم أجرا وقد حدد لهم هذا بوضوح :

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولاالملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىَّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والاخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمرالله حتى يحكم الله بينى وبينكم[2] » .

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج : ٢ ص : ٦١ .

(٢) ابن هشام ، ج : ١ ص : ٢٩٦ .

لقد عرضوا عليه فعلا الدنيا بحذافيرها . .

لقد عرضوا عليه الملك . .

وعرضوا عليه المال . .

وعرضوا عليه الرياسة والشرف[1] .

فرفضها كلها . .

لقد رفضها رفضا قويا ؛ لأنها ليست واحدة من أهداف الدعوة . .

لقد رفضها بأسلوبه النبوى الأخاذ ورفضها بما أوحى إليه من عند ربه :

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً[2]) . .

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُم من أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[3]) . .

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ومَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ[4]) .

(قُلْ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى ومن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِد لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ[5]) .

(١) راجع شرح المواهب للإمام الزرقانى ج : ١ ص : ٢٥٧ – السيرة الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٠ راجع الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٣ .

(٢) الآية رقم : ٥٧ من سورة الفرقان .

(٣) الآية رقم : ٤٧ من سورة سبأ .

(٤) الآية رقم : ٨٦ من سورة ص .

(٥) الآية رقم : ٢٣ من سورة الشورى .

يقول الطبرى فى معنى بعض هذه الآيات :

ما اتبع إلا وحى الله الذى يوحيه إلى وتنزيله الذى ينزله على فى كل ما أقول لكم وأدعوكم إليه[١] . .

إنى لم أسألكم على ذلك جعلا فتتهمونى وتظنوا أنى إنما دعوتكم اتباعى لمال آخذه منكم[٢] . .

يقول البغوى :

لا أسألكم أجرا فتتهمونى ، ومعنى قوله « فهو لكم » أى لا أسألكم شيئا كقول القائل مالى من هذا ، فقد وهبته لك يريد ليس لى فيه شىء[٣] . .

إنما الذى يريده هو اهتداء الانسان إلى ربه وتقربه إلى الله الحق ، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا . . هذا وحده هو أجره : يرضى قلبه الطاهر ويستريح وجدانه النبيل أن يرى أهله والناس عامة قد اهتدوا إلى صراط الله العزيز الحميد . .

وينفى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك مرة أخرى فى إطار منهج الدعوة العام الذى سلكه موكب الأنبياء من قبل . .

---

(١) بتصرف الطبرى ج : ٧ ص : ١٩٩ .

(٢) الطبرى ج : ٢٢ ص : ١٠٥ .

(٣) معالم التنزيل لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى ج : ٥ ص : ١٩٥ ط ثانية م حلبى .

فيردد لقريش وللدنيا كلها من بعد ماقاله اخوانه الأنبياء :

(وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) .

لقد قالها نوح . .

وقالها هود . .

وقالها صالح .

وقالها لوط . .

وقالها شعيب . .

وهو نص واحد لا يتغير ولا يتبدل :

(وما أَسْأَلُكُم عَليه من أَجْرٍ إن أَجْرِى إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالمَين[1]) .

لقد طمأنهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه لايريد شيئاً من حطام الدنيا فما له فيها من مأرب وما يطلب منهم أجرا جزاء دعوتهم وهدايتهم إلى الله ، إنما هو يطلب أجرا من رب الناس الذى كلفه دعوة الناس إلى الصراط المستقيم . .

ذلك هو طريق الأنبياء جميعاً وهو تنبيه يبدو أنه كان ضرورياً للدعوة الصحيحة حتى تتميز عما عهده الناس من الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العبادة .. وهو توضيح لطبيعة الدعوة وبيان للشرف النبيل الذى يصطلح به الداعية المنتسب إليها[2] .

(١) (١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) من سورة الشعراء .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ١٩ ص : ٩٩ ، ١٠٠ .

وينفى الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أن تكون الدعوة مصدر تمويل وارتزاق ، لقد ضمن الله سبحانه وتعالى الرزق لكل مخلوق :

(ومَا من دَابَّةٍ فى الأَرض إلاَّ عَلى الله رزقُهَا ويَعْلَم مُسْتَقَرَّهَا ومُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَاب مُبين[1]) . .

فالدعوة الإسلامية ليست هدفاً . . يرتزق الناس بها .

(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُم عنْدى خَزَائنُ الله ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُولُ لَكُم إنِّى مَلَكٌ إنْ إتَّبعُ إلا مَايُوحَى إلَىَّ : قُلْ هَلْ يَسْتَوى الأَعْمَى والبَصِيرُ أَفَلاَتتَفَكَّرُون[2]) . .

فنفى : أن هاتيك الخزائن مفوضة إليه يتصرف فيها كيفما شاء استقلالا أو استدعاء .

ونفى : أنه لايقول بعلم الغيب فذلك من خواص الألوهية .

ونفى أنه يدعى الملكية[3] . .

لقد نفى ذلك مع وضوحه تبرياً عن كل باطل يشوش على هدف الدعوة التى تقصد إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه . .

وعرضوا عليه أن يكف عن سب آلهتهم ثم يقتسموا معه العبادة سنة وسنة ، لآلهتهم سنة وللذى يدعو إليه سنة أخرى[4] . .

---

(١) الآية رقم : ٦ من سورة هود .

(٢) الآية رقم : ٥٠ من سورة الأنعام . .

(٣) روح المعانى ج ٧ ص ١٥٥ .

(٤) فتح البارى ج : ١٠ ص : ٣٦٤ أسباب النزول للواحدى ص : ٥٠٥ راجع ابن هشام ج : ١ ص : ٣٦٢ .

ولكنه رفض :

ورفض بجزم يحيط بالذات والزمن معا :

(قل : يَأَيُّها الكَافِرُن .

لاَ أَعْبُدُ مانعبدون .

ولا أَنتُم عَابدُونَ ما أَعْبُد .

ولا أَنَا عَابدٌ مَّا عَبدتُّم .

ولا أَنتُم عَابدُون مَاأَعْبُد .

لَكُم دينُكُمْ ولىَ دِين[1]) . . .

فهو لايعبد مايعبدونه لما هو عليه من النبوة وهم لايعبدون ربه الذى يدعو إليه لأنهم وقت الخطاب كافرون ، فانتفى فى زمن الخطاب معهم التقاء فى العبادة الصحيحة التى يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم . .

وبرهن على أن هذا النفى ليس تعصبًا منه وذلك للصفة القائمة فى كل طرف : فهو متصف بالنبوة فلا يمكن أن يكون عابدًا لآلهتهم . .

وهم متصفون بعبادة باطل منذ الجاهلية فلا لقاء . وإذن فلكل دينه[2] . .

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) تثبيت دلائل النبوة ج : ١ ص : ٤٠ المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة له رأى فى تفسير هذه الآيات ملخصه أنها رد على ماعرضوه على النبى صلى الله عليه وسلم أعبد أربابنا أسبوعا نعبد ربك شهراً ، اعبد ربنا شهراً نعبد ربك سنة ، فرفض كل . . واحدة بآية . . . الخ راجع ص : ٥٠ ، ٥٢ من كتاب خلق ودين ط أولى ١٣٧٣ ﻫ راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٠ .

وهو فيصل التفرقة بين هدف الدعوة الصحيحة وكل دعوة ضالة تريد أن تخدع المخلصين ببريق الألفاظ ومعسول السموم . .

ثم تلى عليهم الهدف من آيات الله البينات . .

توحيد الله :

(قُلْ : أىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُل : اللهُ شهيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا القُرآنُ لأُنْذِرَكُم به ومن بَلَغَ أَئِنَّكُم لَتَشْهَدُون أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى ؟ قُل : لاَ أَشْهَدُ قُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ . وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [1]) . .

(قُلْ : إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دون الله . قُل : لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُم قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ومَا أَنَا منَ المُهْتَدِين [2]) . .

(وهُوَ الَّذى خَلَقَ السَّموات والأَرْض بالحَق ويومَ يَقُولُ كُن فَيَكُون قَوْلُه الحَقُّ ولَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّور عَالمُ الغَيْب والشَّهَادَة وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ [3]) .

(ذَلكُم اللهُ ربُّكم لاَ إِلَه إِلاَّ هُو خَالق كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوه وهُو علَى كُل شَىْءٍ وَكيلٌ . لاَ تُدْرِكُهُ الأَبصارُ وهُو يُدرِكُ الأَبْصَارَ وهُو اللَّطِيفُ الخَبِيرُ [4]) .

(قُلْ : إِنَّ صَلاَتى وَنُسُكى وَمَحْيَاىَ ومَمَاتى لِله رَبِّ العَالَمين لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذَلكَ أُمِرتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلمين [5]) . .

---

(١) الآية رقم : ١٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٥٦ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ١٣ من سورة الأنعام .

(٤) الآيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢ من سورة الأنعام .

(إنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوات والأَرْض فى ستَّة أيام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْش يدبِّرُ الأَمْرَ مَا من شَفيع إلاَّ من بَعْد إذْنه ذَلكُم اللهُ ربُّكُم فاعْبُدُوه أفَلاَ تَذَكَّرُون).

(إليه مرجعُكُم جَميعاً وعْدَ الله حَقاً إنَّه يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه لِيَجْزِىَ الَّذين آمَنُوا وعَملُوا الصَّالحَات بالقِسْط والَّذينَ كَفَرُوا لَهُم شَرَابٌ مِّن حَميم وعَذَابٌ أَليمٌ بمَا كَانُوا يَكْفرُون).

هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضيَاءً والقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَه مَنَازلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلَّا بالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَعْلَمُونَ[1] .

(أَلَا إنَّ للهِ مَا فى السَّموات والأَرض ، أَلاَ إنَّ وعْدَ الله حَقٌّ ولكنَّ أكثَرَهُم لاَ يَعْلَمُون .

هُو يُحْيى ويُميتُ وإِلَيْه تُرْجَعُون .

يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعظَةٌ مِّن رَّبِّكُم وشفَاءٌ لِّمَا فى الصُّدُور وهُدًى ورَحْمَةٌ للمُؤْمنين[2]) .

ولتبعثن كما تستيقظون :

(ومن آيَاته أنَّكَ تَرَى الأَرْض خَاشعةً فَإذَا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَتْ إنَّ الَّذى أَحْيَاهَا لَمُحى المَوْتَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَديرٍ[3]) . .

---

(١) الآيات من : ٣ — ٥ من سورة يونس .

(٢) الآيات من رقم : ٥٥ — ٥٧ من سورة يونس .

(٣) الآية رقم : ٣٦ من سورة فصلت .

(قُلِ اللهُ يُحْيِيكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يَجْمَعُكُم إلَى يوْم القِيامة لاَ رَيْبَ فيه ولَكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون[1]) . .

ولتحاسبن بما تعملون :

(فَأَما مَن ثَقُلَت مَوازِينُهُ

فهوَ فى عيشَةٍ رَّاضية .

وَأَما مَنْ خَفت مَوَازِينُه

فَأُمُّهُ هَاويةٌ

ومَا أَدْرَاكَ مَا هيَة

نَارٌ حَامية[2]) . .

وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا :

(يَوْمَ يَأْت لاَ تُكَلَمُ نَفْسٌ إلا بإذنه فَمِنْهُم شَقىٌ وسَعيدٌ .

فَأَمَّا الذينَ شَقُوا فَفى النَّار لَهُم فيهَا زَفيرٌ وشَهيقٌ .

خَالدينَ فيهَا مَا دَامَت السَّموَاتُ والأَرْض إلاَّ مَا شَاء ربُّكَ إنَّ رَبُّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُريد .

وأَمَّا الَّذينَ سُعدُوا فَفى الجَنَّة خَالدينَ فيهَا مَادَامَت السَّموَاتُ والأَرْض إلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذ[3]) . .

---

(١) الآية رقم : ٢٦ من سورة الجاثية .

(٢) الآيات من رقم : ٦ — ١١ من سورة القارعة .

(٣) الآيات من رقم : ١٠٦ — ١٠٨ من سورة هود .

لقد حدد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدف الدعوة بوضوح تام ونفى كل شبهة وجابه كل محاولة تريد الانحراف بهدف الدعوة وذلك التحديد للهدف والوضوح فيه هو ما يعوز جميع أنماط العمل الاجتماعى فى العصر الحديث . .

وشتان ما بين هدف يتوجه إلى الله وهدف يريد أن يصيب دنيا أو امرأة ينكحها :

(إن الرائد لا يكذب أهله) .

والله ما كذب أهله ولا كذب أحدا من الناس بل كان لهم رحمة وهدى للعالمين .

ثالثا : التعرف على طبيعة المجتمع :

التعرف على المجتمع : عاداته وتقاليده وأنماط الثقافة فيه جزء من وظيفة الاخصائى الاجتماعى الذى يؤهل للعمل مع الجماعة فى حقل الخدمة الاجتماعية .

ووسيلة التعرف على المجتمع هى الدراسة كما شرحها الكاتبون فى فن خدمة الجماعة : ولكن التعرف الذى يحتاج إليه علم فن خدمة الجماعة[1] هو تعرف سطحى ويحتاج إلى زمن ، ثم هو تعر على المجتمع من جانب الخادم الاجتماعى أو الاخصائى الاجماعى وهنا تبرز

---

(١) راجع مبادئ تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص ٩٤ ، الخدمة الاجتماعية محمد كامل البطريق ص ١١١ – ١١٢ ط ثانية ١٩٦٢ م الانجلو ، دراسات فى تنظيم المجتمع دكتور سيد أبوبكر حسانين ص ٨٧ ط أولى ١٩٦٩ ، فن خدمة الجماعة دكتور محمد شمس الدين أحمد ص ٥٠ – ٥١ ط ثانية ١٩٦٣ .

علمية المنهج الإسلامى فى العمل مع الجماعة بصورة أجل وأسمى وأشمل وأوسع لأنها تأخذ فى مفهوم التعرف على المجتمع التبادل المعرفى بين طبيعة المجتمع وطبيعة الداعية .

لقد تعرف النبى – صلى الله عليه وسلم – على طبيعة المجتمع بأسلوب الممارسة والاشتراك وهو نمط أقوى فى إدراك حقائق الأمور من الدراسات المستعجلة التى يحاول اتقانها الاخصائيون فى العصر الحديث .

لقد عاش النبى – صلى الله عليه وسلم – مع المجتمع الذى سينقل إليه الدعوة عيشة المستوعب لثقافة البيئة دون أن يغامس حياة المجتمع فى اتجاهاتها التى تؤثر مستقبلا عليه فهو لم يغفل عنها ولم ينغمس فيها بل عاش حياة المجتمع الفاضلة فكان راعيا للغنم عند أمه حليمة .

وكان راعيا للغنم عند قريش على قراريط [(١)] .

وكان تاجرا معهم فى السوق [(٢)] .

وكان قاضيا لهم فى مدلهمات الأمور عند وضع الحجر الأسود [(٣)] ، واشترك معهم فى حلف الفضول [(٤)] .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ – الحلبية ج ١ ص ١٤٩ – وراجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٢٥ – البيهقى ج ١ ص ٣٣٦ دلائل النبوة .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٨٧ ـ الحلبية ج ١ ص ١٥٧ ـ الطبقطات الكبرى لا بن سعد ج ١ ص ١٢٩-١٣٠ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ١٩٧ ـ الحلبية ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن هشام ج ١ ص ١٣٣ ـ الحلبية ج ١ ص ١٥٣ ـ الطبقات الكبرى لا بن سعد ج ١ ص ١٢٨ السيرة لا بن كثير ج ١ ص ٢٥٧ .

لقد عاش معهم الحياة الاجتماعية فى مستواها العفيف .

وعاش معهم الحياة السياسية فى مستواها العادل الواضح .

وعاش معهم الحياة الاقتصادية فى مستواها الأمين الحلال .

ومع هذا فما سجد لصنم قط ، ولا حلف باللات والعزى ، ولا احتفل بعيد لهم ولا شرب لهم خمرا ولا طعم لهم ذبيحة ذبحوها على النصب [1] .

لقد عصمه الله جل شأنه منذ اختاره لهداية البشر رسولا مبشرا ونذيرًا .

لقد كانت لديه ممارسة كاملة بالجانب الرفيع من ثقافة المجتمع وكانت عنده حصانة فطرية لا يقدر معها على الانجذاب إلى ثقافة لا تتفق مع سويته التى خلق بها ليكون للعالمين نذيرا .

فهو لم يندمج كليا فيغامس حياة المجتمع كلها .

ولم ينعزل عنها فيجهلها كلها .

لقد كان موجودا فى أوساطها لا فى وسطها فهو فى المجتمع يشترك مع فضليات الأخلاق وعظام الأمور وهو فى المجتمع يرى وينأى عن شرور البشر .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٥ الشيخ محمد الخضرى ط ثامنة ١٣٨٢ هـ ابن هشام ج ١ ص ١٨٣ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٥٥ الدلائل للبيهقى ج ١ ص ٣١٣ - ٣١٥ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ راجع الخصائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٦ ، ٢٢٧ - ٢٤٦ الشفا شرحى نسيم الرياض وعلى القارى ج ٣ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

لقد كان إيجابيا مع الحياة الفاضلة .

وكان سلبيا بالطبع مع الحياة التى لاتتفق مع طبيعته، فقد عصمه الله من كل سوء : لقد كان منفتحا على المجتمع كله بذاته وطهارته وكان هو كذلك معروفاً للمجتمع ، لقد كان معروفا منذ اللحظة الأولى التى ولد فيها.

وكان معروفا فى فترة رضاعه .

وكان معروفا فى فترة حضانته مع أمه .

وكان معروفا فى فترة حضانته مع جده وعمه .

لقد كان معروفا وهو طفل .

وكان معروفا وهو غلام .

وكان معروفا وهو شاب

معروفا بالأمانة والخلق الرفيع وكان محل الإكرام والتقدير والتبجيل من كل أطراف المجتمع .

ولم يحظ نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يحظ قط زعيم من الزعماء فى الغابر والحاضر والمستقبل بانكشاف تام لحياته الفاضلة ، وتعرف كامل على شخصيته الكبيرة الفذة إلا محمد — صلى الله عليه وسلم — .

لقد قال فيه أبوه من الرضاع وهو لا يزال طفلا صغيرا

والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة [1] .

---

(١) الحلبية ج ١ ص ١٠٧ المواهب ج ١ ص ١٢٤ ابن هشام ج ١ ص ١٦٣ ، دلائل بيهقى ج ١ ص ١٠٩ .

وقالت فيه أمه حليمة :

لما دخلت به — صلى الله عليه وسلم — إلى منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك وألقيت محبته — صلى الله عليه وسلم واعتقاد بركته فى قلوب الناس [(١)] . .

وقالت أمه آمنة

والله ما للشيطان عليه سبيل وإن لابنى لشأنا [(٢)] .

وقال فيه رجال من نصارى الحبشة :

إن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرفه [(٣)]

وقال فيه جده عبدالمطلب :

يابركة لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبى هذه الأمة [(٤)] .

وقال عمه أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام وجهه فمال اليتامى عصمة الأرامل [(٥)]

---

(١) المواهب ج ١ ص ١٤٥ الحلبية ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ الحلبية ج ١ ص ١١٣ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ ، الحلبية ج ١ ص ١١٤ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٣٢ .

(٤) الحلبية ج ١ ص ١٣١ ، الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٨ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

(٥) المواهب ج ١ ص ١٩٣ ، وفيها شعر طويل ، الحلبية ج ١ ص ١٣٨ ، دلائل البيهقى ج ١ ص ٢٢٣ ، الخصائص ج ١ ص ٢١٤ ، ٢١١ .

وقال بحيرى :

فإنه كائن لابن أخيك هذا . . شأن عظيم نجده فى كتبنا . . ورويناه عن آبائنا ، وأعلم أنى . قد أديت لك النصيحة ...[١] .

وقالت خديجة رضى الله عنها :

يابن عم : أنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وحسن حديثك[٢] .

وقال له ورقة .

... وائن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه[٣] .

وقد كان الخصوم معه أشهد الناس بكماله وسموه ورفعته وطهارته يقول أبو جهل والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط[٤] .

وقال النضر بن الحارث :

قد كان محمد فيكم غلاما أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة[٥] .

---

(١) الحلبية ج ١ ص ١٤٢ ، ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٨٩ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٦٣ .

(٣) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٥٤ .

(٤) أسباب النزول للواحدى ص ٢١١ .

(٥) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ .

وقال له عتبة :

يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السعة فى العشيرة والمكان فى النسب [١]

ويقول الوليد بن المغيرة :

إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة [٢] .

لقد كان معروفا لأبناء مجتمعه القريب وكان معروفا لأبناء مجتمع دعوته البعيد فقال فيه النجاشى :

أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى [٣] .

وقال فيه كسرى :

فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه [٤] .

والقرآن الكريم يضع هذا الانفتاح بكلتا شطريه فى موضع الاستدلال على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى :

(قُلْ لَّو شَاءَ اللهُ ما تَلَوْتُه عَلَيْكُم ولاَ أَدْرَاكُم به فَقد لبثْتُ فيكُم عُمرًا من قَبْله أَفَلاَ تَعْقلُون [٥]) .

(لبثت) فوجودى مشهود كله لكم . .

(فيكم) وأنتم مشهردون لى . .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ . (٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) الحلبية ج ١ ص ٣٧٧ الخصائص ج ١ ص ٢٨٠ .

(٤) فتح البارى ج ١ ص ٤٠ — ٤١ .

(٥) الآية رقم : ١٦ من سورة يونس .

والحياة مكشوفة بيننا وأنتم تعرفون عنى كل شىء حتى كيف تزوجت وكيف سافرت وكيف عاشرتكم .

وأنتم مكشوفون لى عادة وسلوكا وأخلاقا .

ولهذا نفى القرآن عنهم فى هذا الاستفهام التأنيبى للزلزل ... نفى عنهم التعقل فإن حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — معلومة لهم لا تحتاج فى إدراك نبوته إلى علم فأمانته وصدقه وسطته ونسبة مشهورة معروفة معلومة وهى كلها تؤهل مع تاريخه المجيد لأن يكون للعالمين رسولا . ..

ولكنهم لا يعقلون ما يعلمون .

يقول الأستاذ الندوى :

وحياة محمد — صلى الله عليه وسلم — من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو فى حياته لم يحتجب عن عيون قومه .

إن جميع شئون وأطوار حياته من ولادته ورضاعه وطفولته إلى أن صار يافعا وشابا ، كل ذلك ظاهر أمره . معلومة تفاصيله ، وقد علم التاريخ عن هذا النبى — صلى الله عليه وسلم — باشتغاله فى التجارة وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه فى صداقته وفى وفائه للناس قبل النبوة .

واتصلوا به حين اتخذوه أمينا وأقاموا حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود فى موضعه من الكعبة ثم وقفوا على أمره حين حبب

الله إليه الخلوة فاعتزلهم فى غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحى من رب العالمين ، وحين بدأ أمر الإسلام يظهر للوجود أخذ يدعو الناس إليه ويبلغ ما أنزل عليه [١] .

فليست هناك لحظة من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا لحظة من حياة المجتمع الجاهلى غابت عن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ولا غاب عن المجتمع فكان التعرف على المجتمع شاملا بالممارسة التى تعوز فن خدمة العمل مع الجماعة فى العصر الحديث .

وبات ذلك المنهج نظريا وتطبيقيا خالصا بالأسبقية التاريخية والعملية ملكا للدعوة الإسلامية تبز به جميع أنماط العمل مع الجماعات .

رابعا : تربية قيادة :

دار الأرقم بن الأرقم . .

اختيار القيادة :

الجهر بالمبادىء فجأة عملية فطيرة مراهقة لا يوصى بها المشتغلون فى حقل الخدمة الاجتماعية .

وإعداد القيادة داخل المجتمع قبل إعلان المبادىء جزء من منهج العمل مع الجماعة توصى به وتؤكده الدراسات الاجتماعية التى نيط بها وظيفة التغيير الاجتماعى المرغوب فيه [٢] .

---

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ط ثانية ص ٦٤ .

(٢) دراسات فى تنظيم المجتمع ص ١٥٥ ، الخدمة الاجتماعية والمجتمع ص ١٧٩ .

وهذا المبدأ قد أسسته من قبل الدعوة الإسلامية فى « دار الأرقم بن الأرقم » حيث اختار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأشخاص الذين توسم فيهم الاستجابة للدعوة [١] ، ثم تعهدهم بعيدا عن المجتمع وثقافته بالتربية والاعداد .

وأول من اختارهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألصق الناس به من آل بيته وأصدقائه فآمنت خديجة رضى الله عنها وزيد بن ثابت مولاه وعلى بن أبى طالب وصديقه الحميم أبو بكر وورقة بن نوفل [٢] .

ثم راح رسول ـ صلى الله عليه وسلم ينتخب الأخيار للصابيح ويدعوهم إلى الإسلام يعاونه فى ذالك سيدنا أبو بكر رضى الله عنه فقد تعرف على وظيفته بفطرته فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه [٣] .

واتخذت هذه المرحلة دوراً سرياً حتى تكتمل التربية للقيادة بعيدا عن جاذبية للمجتمع التى تضغط دائما على المبادىء فى مهدها لتموت ، ولذا فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخير الأشخاص أولا ، ثم ينئيهم عن الضغط الاجتماعى حتى تسربت مبادىء الإسلام إلى المجتمع كالنور يقهر الظلام رويدا رويدا .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٢٧ ، سيرة الرسول عزة دروزة ج ١ ص ١٧٨ ، وراجع من حضارة الإسلام ج ١ ص ١٩ .

(٢) فقة السيرة لفضيلة الشيخ محمد الغزالى ص٩٧–٩٨ الحلبية ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ص ٣٠٦ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٥٩ ، المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٥٩ .

يقول فى ذلك ابن هشام :

ثم دخل الناس فى الإسلام ارسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، ثم أن الله عز وجل أمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يصدع بما جاء به[1] .

وتأتى هذه القضية واضحة فى قصة إسلام سيدنا على رضى الله الله عنه — روى البيهقى :

ثم أن على بن أبى طالب رضى الله عنه جاء بعد ذلك فوجدهما يصليان فقال على :

ما هذا يامحمد ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : دين الله اصطفى لنفسه وبعث به رسله فادعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وتكفر باللات والعزى .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب وكره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له :

ياعلى إذا لم تسلم فاكتم ... فمكث على تلك الليلة حتى جاءه فقال : ما عرضت على يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزة وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم فمكث على يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم على إسلامه ولم يظهره[2] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٤١٤ ابن كثير ج ١ ص ٤٢٨ .

واستمر على هكذا مستخفيا يصلى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فى شعاب مكة بعيدا عن أعين الناس حتى عثر عليهما أبو طالب يوما وهما يصليان فقال أبو طالب لعلى :أى بنى : ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال : ياأبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، قال ابن هشام فزعموا أنه قال له : إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه[1] .

مستوى تربية القيادة :

وكانت تربية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا الرعيل على المستوى الرفيع سيكولوجيا ووجدانيا ويقدر ما أتيح له عليه السلام ماليا واقتصاديا .

لقد أخذ الداعية الأول صلى الله عليه وسلم ـ على نفسه مسئولية إعداد قيادة يصل بها الفكر إلى أرفع مستويات العقيدة وضوحا وشمولا ؛ كما أخذ على نفسه مسئولية حمايتها من الجو الذى تتعرض له إن عنَّ لواحد منها فى هذه المرحلة شىء من ذلك .

أما المستوى الوجدانى الذى وصلت إليه التربية فإن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وهو شاب فى التاسعة عشر من عمره يمثله ، وقد كرهت أمه دخوله فى الإسلام ، وكان بها بارا رفيقا مهذبا ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ الحلبية ج ١ ص ٣٠٦ الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٥٨ تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣١٤ .

فهددته « لا تأكل ولا تشرب حتى يكفر ويرتد وإلا ماتت فعير بها فيقول لها :

تعلمين والله ياأمه ، لو كان لك مائة نفس تخرج نفسانفسا ماتركت دين هذا النبي صلى الله عليه وسلم فكلي إن شئت أو لا تأكلي ، فأكلت[1] .

لقد كانت روحانية سعد أكبر من تقاليد للجتمع وروحانية للعانى القديمة للأسرة ، لقد تزيا قلبه بثوب قشيب من الإيمان فخلع رداء العادات الأسرية وبات كلام أمه :

لا أقرب طعاما ولا شرابا حتى أموت وتعيرك العرب بقتلك قاتل أمك . . سفسطة لا معنى لها ، وبات كذلك رأى للجتمع فى مفهوم آصرة القرابة فارغا من معنى الحق ما لم يقم على أساس العقيدة والإيمان .

ولقد بلغت الحماسة الدينية بسعد هذا أن كان أول من أراق دما فى الإسلام ففى تاريخ الطبرى :

فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه فكان أول دم أهريق فى الإسلام[2] .

---

(١) الحلية ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ ، أسباب النزول للواحدى ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، تفسير روح المعانى ج ١٩ ص ١٣٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣١٨ ، الحلية ج ١ ص ٣١٩ .

لقد ارتفعت قيم العقيدة فى صدور الرجال إلى درجة تفوق وتعلو وتسمو فوق كل المعانى الاجتماعية التى درج عليها القوم .

دخل حصين على النبى — صلى الله عليه وسلم — كواسطة من قبل قريش ليحدث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى شأن الدعوة وكان ولده عمران — رضى الله عنه — أحد تلاميذ مدرسة الأرقم بن الأرقم ضمن كتيبة الدعوة التى يربيها النبى — صلى الله عليه وسلم — فما وقف لوالده ولا أحس باحترام فى نفسه لرجل كافر قطعت العقيدة أواصر الود بينهما حتى ولو كان ذلكم الرجل هو أبو .

ويعرض الرسول — صلى الله عليه وسلم — الإسلام على حصين فيسلم فيقوم إليه ولده عمران فيقبل رأسه ويديه ورجليه ويبكى النبى — صلى الله عليه وسلم — من صنع عمران : وقال : دخل والد « حصين » وهو كافر فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته . فلما أسلم وفىّ حقه .وقد دخل من ذالك فى نفس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأفة وإشفاقا [١]

وهكذا تعلو الصلة فى الله فوق كل المعايير الاجتماعية والأسرية : وتبقى الرابطة الأساسية هى الرابطة فى الله وهى العروة الوثقى مهما كان هناك انعطاف وتعاطف وجدانى بين الولد وأبيه وأمه فإن العقيدة أعلا وأسما ووشيجة الإيمان أقوى وآصل... تقوى بالإيمان ويقطعها الكفر وتسقط الطاعة وتعلو

(١) الحلية ، ج ١ ص ٣١٨ حياة الصحابة ، ج ١ ص ٥٥ .

وشيجة الإيمان بالمسلم فوق كل الأواصر وتنفذ جميع وسائل الكفر التى تجاهد بسلطة الأبوة والأمومة ليرتد المسلم عن دينه :

(وإن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ به علْمٌ فلا تُطعْهُما ، وصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبِع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون[1])

(وإن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون[2]) .

لقد بات ذلك واضحا فى شعور سعد وعمران وكل تلاميذ مدرسة الأرقم بن الأرقم .

وكان ذلك هو مستوى تربية القيادة وجدانيا تلك التى قبلت عن رغبة تحمل أعباء الرسالة ولو كان ثمن ذلك الأهل والوطن والأقربين .

وكان إعداد القيادة فكريا شاملا لمستوى الرسالة والدعوة لقد كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يبلغهم الوحى ، وكانوا بالسليقة والفطرة أقدر الناس على تفهم أسلوب القرآن وكانت صدورهم أكرم وعاء طاهر نقى صاف يعى ويحفظ ما جاء به الوحى الأمين وكانت عقولهم وقرائحهم نقية صافية واسعة الفهم عميقة الإدراك يظهر ذلك

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة لقمان .

(٢) من الآية رقم : ٨ من سورة العنكبوت .

جليا فى المناقشة التى دارت بين النجاشى وسيدنا جعفر بن أبى طالب – رضى الله عنه – وكان موضوعها :

ما هو هذا الدين ؟

وما هو الرأى فى عيسى؟

لقد شرح له جعفر بن أبى طالب حقيقة هذا الدين كما تعلمه فى مرحلة تربية القيادة بمدرسة الأرقم بن الأرقم ، لقد قال للنجاشى :

بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا لتوحيد الله وأنْ لا نشرك به شيئا ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام ؛ فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحل لنا فتعدى علينا قومنا فعذبونا[1] . . إلخ ، فيذكر جعفر للنجاشى :

النظرية والتطبيق معا ..

ثم يقرأ على النجاشى القرآن فيبكى هو وأساقفته ثمّ يقول مقالته التاريخية :

« إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة » .

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٨٠ الروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٦ .

ثم حدد له بآيات القرآن رأى الإسلام والمسلمين فى عيسى أنه :

هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فيستدر هذا الشرح الواضح أريحية النجاشى فيقولها واضحة صريحة :

« ما عدا عيسى ما قلت هذا العود[1] » .

وقد يصاب الاتباع فى هذه المرحلة بضيق اقتصادى حتى يعوزهم ما يسد الرمق ، ويذهب حر الظمإ فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتكفل فى هذه المرحلة من إعداد القيادة بالانفاق على من تدور عليه دائرة العوز ، يقول البيهقى .

وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا أسلم الرجل والرجلان ممن لاشىء لهما ضمهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الرجل الذى فى يده السعة فينالا من فضلة طعامه[2] .

يشهد لذلك أن خالد بن سعيد لما أسلم انتهره أبوه وغضب عليه وحلف ليمنعه القوت ، فانصرف خالد إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه[3] .

وقد قال خالد لأبويه :

إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٨١ الروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٢) دلائل البيهقى ج ٢ ص ٤ راجع مقالة عمر بن الخطاب فى الحلبية ج ١ ص٣٦٦ : ٣٦٧ .

(٣) الحلبية ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ دلائل النبوة البيهقى ج ١ ص ٤٢٤ .

وتلك قاعدة أساسية فى تربية الدعاة أن يعزفوا عن الحياة وزينتها ويرغبوا إلى الله وماعنده، وهو أيضا مستوى مفروض فى تربية الداعية توصل إليه تلاميذ المدرسة الأولى للدعوة فى دار الأرقم بن الأرقم .

ولقد سأل النبى -صلى الله عليه وسلم- أبا ذر وقد جاء من بعيد يستطلع أمر الإسلام دون أن يسأل أحدا من كفار قريش وبات ما شاء الله له أن يبيته فى مكة فلما قدم على النبى - صلى الله عليه وسلم قال له : فمن كان يطعمك ؟ قال ما كان من طعام إلا ماء زمزم[١] .

وهو سؤال يكشف عن منهج خاص فى إعداد القيادة وهو : رعاية الجانب الاقتصادى بالقدر الذى يكفل لهم الحياة الانسانية ويبلغهم القدرة على أعباء العمل والجهاد .

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم- فى المرحلة الأولى من تَلَقِّيه الرسالة يجهز قيادة تحمل معه مسئولية نشر الدعوة حتى لا تجابه الدعوة بادىء بدء بالإعراض من كل أفراد المجتمع، واتخذت تربية هذه القيادة جوا سريا .

اختار فيهم الأفراد الصالحين للإعداد .

وأبعدهم عن الضغط الاجتماعى حتى تصفو نفوسهم وقرائحهم وتنجلى صدورهم وأفئدتهم بالقرآن والمشاهدة النبوية .

وعرض لهم الدعوة فى شمول فسيح فيما يتعلق بالعقيدة والإيمان .

---

(١) الحلية ج ١ ص ٣١٥ .

ووصل بهم إلى الدرجة الطبيعية أن اختاروا الله ورسوله على جميع القيم والمعايير والأوامر فى المجتمع الجاهلى . .

وهيأ لهم القدر المالى الذى يسعفهم على العيش لِيُنْجِيهُمْ عن ضغط المعاندين وأذى الكافرين . .

وفى هذا الجو من العرض تبدو هنا ظاهرة واضحة هى : أن الدعوة لم تكن سرية كما ذكر ذلك جلة الكاتبين فى التاريخ والسيرة .

فقد كانت مكة كلها على علم بأن محمدا يكلم من السماء .

وقد نقل أبو سفيان إلى أمية بن الصلت خبر نبوة محمد بعد أن رجع إلى مكة وأخبرته هند بأمر النبوة .

وكان « ورقة » يستعجل نبوة محمد بشعر مستفيض .

وزيد بن عمرو ، وبحيرا ونسطورا وميسرة وخالد بن سعيد وجمع غفير من الناس يعلمون أن نبوة خاتمة ستظهر .

قال فى الخصائص :

قال العباس : خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيهم أبو سفيان بن حرب فورد كتاب من حنظلة بن أبى سفيان فيه أن محمدا أقام بالأبطح فقال : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله ففشا ذلك فى مجالس اليمن فجاءنا حبر من اليهود فقال بلغت أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ماقال ؟ قال العباس :

فقلت نعم : قال أنشدك هل كانت لابن أخيك صبوة وسفهةُ ؟ قلت : لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان وإن كان اسمه عند قريش (الأمين) .

قال : فهل كتب بيده ؟ . قال العباس فظننت أنه خير له أن يكتب فأردت أن أقول : نعم فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ويرد على ، قلت لا يكتب ، فوثب الحبر وترك رداءه وقال : ذبحت يهود[1] .

قال فى الوفا :

عن ابن عفيف الكندى عن أبيه عن جده قال : كنت امرأ تاجرا فقدمت للحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، قال : فوالله إنى لعنده بمنى إذا رجل خرج من خباء قريب منه ينظر إلى الشمس فلما رآها قام يصلى ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذى خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلى ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلى . .

قال : فقلت للعباس : ياعباس ماهذا ؟

قال : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قلت : من هذه المرأة ؟

قال : امرأته خديجة بنت خويلد .

فقلت: من هذا الفتى ؟

قال : على بن أبى طالب ابن عمه

قلت : فما هذا الذى يصنع ؟

---

(١) الخصائص ١ ص ٢٤٦ .

قال : يصلى فهو يزعم أنه نبى ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم أنه تفتح له كنوز كسرى وقيصر .

وكان عفيف — وهو ابن عم الأشعث بن قيس — يقول — وأسلم بعد ذلك فحسن اسلامه — لو أن الله رزقنى الإسلام يومئذ فأكون ثانيا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه [١] .

بل إن صاحب السيرة الحلبية يجعل دخول دار الأرقم بن الأرقم نتيجة أو إثر حادث التقاتل الذى وقع بين للمسلمين ونفر من المشركين الذين عابوا على المسلمين صلاتهم وشج فيها سيدنا سعدبن أبى وقاص رجلا وأراق دمه فيقول :

نضرب سعد بن أبى وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجه فهو أول دم أريق فى الإسلام ، ثم دخل — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه مستخفين فى دار الأرقم بن الأرقم بعد هذه الواقعة فإن جماعة أسلموا قبل دخوله — صلى الله عليه وسلم — دار الأرقم [٢] .

قال ابن كثير :

ثبت فى صحيح البخارى من حديث همام بن الحارث عن عمار بن ياسر .

قال : رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومامعه الا خمسة أعبد وامرأتان وأبوبكر .

---

(١) الوفا ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ السيرة ، لا بن كثير ، ج ١ ص ٤٢٩ .

(٢) الحلبية ، ج ١ ص ٣١٩ .

وروى الامام أحمد وابن ماجه من حديث عاصم بن أبي النجود عن زر عن ابن مسعود قال : أول من أظهر الاسلام سبعة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأمه سمية وبلال والمقداد[1] .

ولقد ثبت أن أناسا كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستخف منهم عمرو بن عبسة السلمى .

قال فيه ابن كثير

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول مابعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف فقلت : ما أنت ؟ قال : أنا نبى ، فقلت : وما النبى ؟ قال : رسول الله ، قلت : الله أرسلك ؟ قال نعم ، قلت بما أرسلك ؟ .

قال : بأن تعبد الله وحده لاشريك له وتكسر الأصنام وتوصل الأرحام ، قال : قلت : نعم ما أرسلك به ، فمن تبعك على هذا ؟ ، قال : حر وعبد : يعنى أبابكر وبلال ، قال : فكان عمرو يقول : لقد رأيتنى وأنا ربع الاسلام[2] .

وهذا واضح فى أن الدعوة نفسها كانت معروفة للناس ولكن الذى وصف بالسرية فى هذه المرحلة هو العمل لها وهو الذى نسميه مرحلة اعداد القيادة كجزء من منهج العمل مع الجماعة .

وهذا واضح فى النصوص التى ساقها العلماء

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٣٦ .

(٢) ابن كثير ج ١ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

قال صاحب الوفا [1] :

عن الزهرى قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام سرا وجهرا فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكرين لما يقول فكان إذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه : أن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء .

فالنص فيه تصوير لعمل الدعوة بمرحلتين : سرا وجهرا ، أما الدعوة نفسها فمعروفة للناس ولم يقفوا منها موقف العداء إلا عند ما اتسعت رقعتها وشكلت خطرا على المواريث الثقافية التى يؤلهها البشر .

قال فى الوفا تكملة النص السالف :

فكان كذلك حتى عاب آلهتهم التى كانوا يعبدونها وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر فشاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

والدليل الواضح على أنه لاسرية فى الدعوة بل فى العمل من أجلها ، أن الدعوة حتى بعد أن صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بها مازالت تعمل فى جو الحذر والاستخفاء

قال ابن كثير :

فأسلم عمر يوم الخميس فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل البيت تكبيرة سمعت بأعلى مكة .

---

(١) الوفا ج ١ ص ١٨١ .

فقام عمر فقال : يارسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق ؟

ويظهر دينهم وهم على الباطل ؟ قال ياعمر : إنا قليل قد رأيت مالقينا[١] .

وكان اسلام عمر على ماهو معروف فى السنة السابعة من البعثة ، وهذا يبرهن على أن الدعوة الاسلامية كانت معروفة واضحة ولكن العمل لها هو الذى كان سرا ، وذلك منهج معروف فى قواعد العمل مع الجماعة فى العصر الحديث ، وذلك ماتحتاجه الدعوة فى الظروف المعاصرة[٢] .

وإذن فليس من الجيد علميا أن يقال : سرية الدعوة فان الحق الذى سجله التاريخ هو وضوح الدعوةواشتهارها وسرية العمل لها اعدادا للقيادة وتربية لهم ليحملوا مع الداعية وظيفة العمل عند الصدع بها عامة والجهر بها للناس كافة .

خامسا العرض الواضح :

نجاح أية دعوة واستمرارها يتوقف على مقدار عرضها عرضا واضحا صادقا يضمن لها الوضوح والثقة دائما فى المستقبل[٣] .

وواضح فى العصر الحديث أن أهداف الدعوات لايفصح عنه ويستخدم الزعماء شعارات براقة يخفون وراءها الهدف الأسود حتى

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٤١ .

(٢) راجع سيرة الرسول ج ١ ص ١٦٢ عزة دروزة / الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٥٨ .

(٣) من حضارة الإسلام للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل ج ١ ص ١٣ / ١٥ .

إذا ماأتيح لهم إعلانه بأسلوب القهر أو السيطرة وإلغاء العقل والإرادة والكرامة فانهم لايألون جهدا فى ذلك ويفسرون نداءاتهم الأولى بعذب من الحديث المخادع الكاذب وبذلك لاتلبث أن تنفض الناس والجماهير من حولهم كما هى طبيعة الزبد يذهب جفاء وتبقى الحسرة والغيظ والكمد والحيرة والآلام والضيق والعسر للناس من بعد .

ولذلك فان الدعوة الاسلامية حرصت وهى تقعد منهج العمل مع الجماعة على أن يكون الهدف من الدعوة واضحا ولذلك اتخذ عرض الدعوة زمنا فسيحا زهاء ثلاثة عشر عاما على ما رواه العلماء[1] واتخذت لذلك أسلوبا واضحا جليا مثالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم .

ووضوح العرض هنا يراد منه :

وضوح الهدف . .

ووضوح الدليل . .

أما وضوح الهدف فقد استفاض النص المعصوم : أنَّ القرآن الكريم ، أو الأثر النبوى الشريف فى تحديد المراد من الدعوة الاسلامية .

لقد كان تحديد الهدف بارز المعالم ، فصيح المنطق قوى الأسلوب .

وكان مع ذلك جديا لاهزل فيه ، وكانت جديته صريحة يغرب معها كل لون من التجاهل أو التناسى أو التعامى أو التغافل أو التثاقل

---

(١) ابن كثير ج ١ ص ٣٨٩ الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٢٥ راجع مسلم كتاب الفضائل ج ٤ ص ١٨٢٥ راجع فتح البارى ج ٨ ص ١٦٤ باب مبعث النبى صلى الله عليه وسلم اجع التاج الجامع للأصول ج ٣ ص ٢٥٦ المحبر ص ١٠ .

إلى هوى النفس ووسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس . .

لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى استفاضه طويلة يحكيها ابن هشام :

مابى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم[1] .

وتلا عليهم القرآن الكريم تلاوة مرتلة وحدد لهم الدعوة ، قل :

(إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) .

قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وكَذَّبْتُم بِهِ مَاعِنْدِى مَاتَسْتَعْجِلُونَ به إن الحُكْمُ إلاَّ لِلهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصلين .

قل لَّو أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُون به لَقُضىَ الأَمْرُ بيْنى وَبينكم واللهُ أَعْلَمُ بالظَّالمين[2])

(قلْ إِنَّنى هَدَانى رَبِّى إِلَى صرَاط مسْتَقيم دِينًا قيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهيم حَنيفًا ومَا كَانَ من المُشْر كين .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٥٧ الحلبية ج ١ ص ٣٤٠ .

(٢) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الأنعام .

قُلْ إِنَّ صلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ العَالَمِين . لاَ شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمين . قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وهُو ربُّ كُلِّ شَىْءٍ ولاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ولاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ [1]) .

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ولا تَتَّبِعُوا من دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُون [2]) .

إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرضَ فِى سِتَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْش يُدَبِّر الأَمرَ مَا مِن شَفِيع إِلاَّ مِن بَعْد إِذْنه ذَلِكُم اللهُ ربُّكُم فَاعْبُدُوه أَفَلا تَذَكَّرُون [3]) . .

ولقد نقى هذا الهدف من كل شائبة حتى صار قانوناً سرمدياً إذا حادت عنه الدعوة ضل القائمون عليها طريق الرشاد .

لقد نقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدف الدعوة من عرض الحياة الدنيا قل أو عظم ، قل :

(مَا أَسْأَلُكُم عَلَيْه من أَجْر ومَا أنا منَ المُتَكَلِّفين [4]) .

كما نفى أن تتخذ الدعوة مصدر للإثراء والتجارة .

---

(١) الآيات من رقم : ١٦١ — ١٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٣ من سورة الأعراف .

(٣) الآية رقم : ٣ من سورة يونس .

(٤) راجع تحديد الهدف المرحلة الثانية من هذا الفصل الثانى ، وراجع الشفاء شرح على القارى نسيم الرياض فصل أو فصاحة اللسان وبلاغة القول ج ١ ص ٣٨٥ وما بعدها .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

لقد قال لهم فى قوة وصرامة :

ترون هذه الشمس ؟

قالوا : نعم . .

قال : فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة [١]

وأما وضوح الدليل فهو قائم على وضوح اللفظ وشمول الدليل على عناصر الإقناع ، وهى : قبول العقل لها ، إحساس الوجدان بصدقها ، تصويرها لحقائق مسلمة ،

واللفظ القرآنى والنبوى قد اشتملا على هذه الركائز .

أما عن اللفظ النبوى فقد أحاطه الله بالعصمة : « وما ينطق عن الهوى »

وأما اللفظ القرآنى فقد استفاض القرآن نفسه فى ألفاظه وآياته بذلك :

(وَهَذا كتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذى بَيْنَ يَدَيْهِ ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَهَا والَّذِين يُؤْمِنُونَ بالآخرَة يُؤْمِنُونَ به وهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُون [٢]) .

(. . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَدُن حَكِيم خَبِيرٌ [٣]) .

(. . . تلكَ آيَاتُ الكتَاب المُبين .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٦٣

(٢) الآية رقم : ٩٢ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية رقم : ١١ من سورة هود .

إنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُون[1]) . .

(ولَقَد نَعْلَم أَنَّهُم يَقُولُون : إنَّمَا يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُون إلَيْه أَعْجَمِىٌّ ، وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِين[2]) . .

(ونُنَزِّلُ من القُرْآن مَا هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمنين[3] . .) . .

(وقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا[4]) .

(الحَمْدُ لله الَّذى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِه الكِتَابَ ولَمْ يَجْعَل لَّه عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَديدًا مِّن لَّدنه و يُبَشِّرَ المؤْمنينَ الَّذين يَعْمَلُونَ الصَّالحَات أَنَّ لَهُم أَجْرًا حَسَنًا[5]) ..

(وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وصَرَّفْنَا فيه منَ الوَعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون أَوْ يُحْدثُ لَهُم ذِكْرًا[6]) . .

(وهذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُم لَهُ مُنْكِرُون[7]) . .

(قد كَانَتْ آيَاتى تُتْلَى عَلَيْكُم فَكُنْتُم عَلى أَعْقَابِكُم تَنْكِصُون .

مُسْتَكبرين به سَامرًا تَهْجُرُون . .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ ؟ أَمْ جَاءَهُم مَالَمْ يَأْت آباءهُم الأَوَّلين . .

---

(١) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة يوسف .

(٢) الآية رقم : ١٠٣ من سورة النحل .

(٣) من الآية رقم : ٨٢ من سورة الإسراء .

(٤) الآية رقم : ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٥) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة الكهف .

(٦) الآية رقم : ١١٣ من سورة طه .

(٧) الآية رقم : ٩ من سورة الأنبياء .

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُم لَهُ منكِرُونَ .

أَم يَقُولُون به جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بالْحَقِّ وأَكْثَرُهُم للْحَقِّ كَارِهُون[١])..

تِلْكَ آيَاتُ الكِتَاب المُبِين[٢]) ..

نَزَل به الرُّوحُ الأمين .

عَلَى قَلْبِك لتَكُون من المُنْذرِين .

بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين .

وإنه لَفِي زُبُر الأَوَّلين .

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُم آيَةٌ أَنْ يَعْلَمهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيل .

ولو نَزَّلْنَاه عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِين .

فَقَرَأَهُ علَيْهِم مَاكَانُوا به مُؤمنين[٣]) . .

(طس تلكَ آياتُ القُرآن وكتَابٍ مُبِين . هُدًى وبُشْرى للْمُؤْمنين[٤]

(وإنه لَهُدًى ورَحْمَةٌ للْمؤمنين[٥]) . .

(تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبين نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لقَوْمٍ يُؤْمنُون[٦]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٦٦ — ٧٠ من سورة « المؤمنون » .

(٢) الآية رقم : ٢ من سورة الشعراء .

(٣) الآيات من رقم : ١٩٣ — ١٩٩ من سورة الشعراء .

(٤) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة النمل .

(٥) الآية رقم : ٧٧ من سورة النمل .

(٦) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة القصص .

(أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إنَّ فى ذَلك لرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوم يُؤْمنُون[1]) . .

(تِلْكَ آيَاتُ الكِتَاب الحَكِيم . هُدًى ورَحْمَةً للمُحْسنين[2]) ..

(تَنْزِيلُ الكِتَابِ لارَيْبَ فِيهِ من رَبِّ العَالَمِين[3]) .

(وما عَلَّمنَاه الشِّعْر وما يَنْبَغى لَه إنْ هُو إلاَّ ذِكْرٌ وقرآن مبين[4]).

(كتَابٌ أَنْزَلْنَاه إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وليَتَذَكَّرَ أولُوا الألْبَاب[5]) . .

(تَنْزِيلُ الكِتَاب من الله العزيزِ الحَكِيم . إنَّا أَنزَلْنَا إليكَ الكِتَاب بالْحَقِّ فَاعْبُدِ الله مُخلصًا لَّه الدِّين[6]) ..

الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَديثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْه جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُم ثُم تَلِينُ جُلُودُهُم وقُلوبُهم إلَى ذِكْرِ الله ذلكَ هُدَى الله يَهْدِى بِهِ مَنْ يشَاءُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ من هَادٍ[7]) ..

(تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ العَليم) .

---

(١) الآية رقم : ٦ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة لقمان .
(٣) الآية رقم : ٢ من سورة السجدة .
(٤) الآية رقم : ٦٩ من سورة يس .
(٥) الآية رقم : ٢٩ من سورة ص .
(٦) الآيتان رقم : ١ ، ٢ من سورة الزمر .
(٧) الآية رقم : ٢٣ من سورة الزمر .
(٨) الآية رقم : ٢ من سورة غافر .

(تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[١]) . ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[٢]) .

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[٣]) ..

(حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ[٤]) .

(حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ[٥]) .

(حم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[٦]) ...

(تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ[٧]) .

---

(١) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

(٣) الآية رقم : ٥٢ من سورة الشورى .

(٤) الآيات من رقم : ٢ — ٤ من سورة الزخرف .

(٥) الآيات من رقم : ١ — ٣ من سورة الدخان .

(٦) الآيتان : ١ ، ٢ من سورتي الجاثية والأحقاف .

(٧) الآية رقم : ٦ من سورة الجاثية .

(وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ [1]) :

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ [2]) . .

(قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [3]) .

ولقد شهد القوم بهذا :

لقد قال فيه عتبة بن ربيعة :

قد سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . .

وقال فيه الوليد بن المغيرة :

والله إن لقوله حلاوة وإن أصله لعذق . وإن فرعه لجناة . .

إن عليه لطلاوة وإن له لنوراً وإنه يعلو ومايعلى عليه . .

---

(١) الآية رقم : ١٢ من سورة الأحقاف .

(٢) الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ من سورة الأحقاف .

(٣) اول سورة ق .

والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق فى أسفله وإنه ليحطم ماتحته وإنه ليعلو وما يعلى عليه [١] . .

تقول الروايات : أن عتبة بن ربيعة أمسك بفم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناشده الرحم أن يكف عن القراءة عندما وصل قوله تعالى :

(أَنذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُود [٢]) .

وقال لقومه : قد علمتم أنه لايكذب أبدا فخفت نزول العذاب عليكم فأطيعونى واعتزلوه [٣]

وصدق الله العلى العظيم .

(قَدْ نَعْلَم إنَّه لَيَحْزُنُكَ الَّذى يَقُولُون فإنَّهُم لاَيُكَذِّبُونَكَ ولكن الظَّالمين بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُون [٤]) . .

قال فى الشفاء :

فانهم لايكذبونك ، لاينسبونك إلى الكذب ولا يتهمونك به ولاينكرون أمانتك وديانتك .

قال على كرم الله وجهه : قال أبوجهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لانكذبك فى الصدق والأمانة ولكن نكذب بما جئت به من القرآن [٥]

---

(١) الوفاء ج ١ ص ٢٠٣ ، راجع السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٩٩ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ .

(٢) ص ٤٤٦ المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٥٠ ، راجع الحلبية ج ١ ص ٣٣٩ .

(٣) المواهب ج ١ ص ٢٥٨ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٥٠٣ ، الحلبية ج ١ ص ٣٤٠ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٤) الآية رقم : ٣٣ من سورة الأنعام .

(٥) الشفاء ج ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

قال ابن كثير فى تفسيرها :

لايتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدودهم[1] .

وأما شمول الدليل على عناصر الاقناع فقد عرضنا نماذج لها فى الفصل الأول من هذا الباب شملت . . :

أدلة التوحيد والتنزيه . .

ووحدانية الصفات . .

ووحدانية التدبير . .

ووحدانية التصرف فى الملك . .

كما شملت بعث الوجدان الفطرى لادراك وحدانية الله جل جلاله ... الخ .

وهى كلها أدلة للخلق والقصد والابداع والتدبير . .

وهى كلها دون تحذلق أو تشدق تشمل كل أنواع الأدلة :

العقلية . .

والوجدانية

والفطرية الأولى . .

إن اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحَىَّ مِن المَيِّت ومُخْرِجُ الميِّتَ من الْحَىِّ ذلكُم اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون .

(١) راجع تفسير بن كثير ج ١ ص ١٢٩ .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1]) .

إن هذا السياق يشبه فى تدافعه وايقاعاته على العقل والحس مجرى النهر وهو يتدافع بالأمواج المتلاحقة لاتنفر واحدة منها حتى تـأتيها لاحقة تدفعها من الخلف وتتشابك معها فى مجراها المتصل .

وهى كلها فى تدافعها وتشابكها تسمو فوق حد الروعة الباهرة وتـأخذ على النفس كل أقطارها وتغلق على النفس كل دروب الهرب وهى تهزها بالروعة الباهرة والحيوية الدافعة وتقول للانسان : هذا

---

(١) الآيات من رقم : ٩٥ — ١٠٣ من سورة الأنعام .

هو ربك الذى خلق فسوى وقدر فهدى فيشاهد السامع كأنما الآى تنبثق عن مدلولاتها فى التماع لآلاء مشرق تتجلى للحواس والقلب والعقل فى بهاء أخاذ يبلغ آفاق الروعة .

واللفظ القرآنى فى آيه قوى الدلالة على كل ماتزخربه الحقيقة الأصيلة فى عقيدة الاسلام .

ها هوذا المرء يقف أمام الخارقة للمعجزة التى تقع فى كل لحظة من الليل ومن النهار ، إنها خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذه المواد الهامدة .

(فالق الحب والنوى) لاندرى كيف ينبثق ولا ندرى من أين جاءت اللهم إلا إنها من عند الله وانبثقت بقدرته .

وها هو ذا المرء يقف أمام دورة الفلك العجيب الدائبة السرمدية الدقيقة . . فالق الاصباح وجعل الليل سكنا . . .

ويقف كذلك أمام نشأة الحياة فى النبات ويشاهد من التدفق النورانى للآيات مشاهد الأمطار الهاطلة والزروع النامية وأثماره اليانعة وتحشد له الحياة حشدا ليتأمل ويشاهد ليحى الحس المتحفز والقلب المتفتح .

وكأنما الوجود يرى لأول مرة حيا شابا مزهرا معطرا متحركا تدب أوصاله الحركة ينطق بذاته عن وحدة خالقه دالا بآياته على انفراده جل شأنه بالربوبية والملك والتدبير . . .

حتى ليبدو للعاقل – والسياق يواجه بهذه الآيات جماعة المشركين– أن الشرك غريب على الفطرة ، غريب على فطرة الوجود وغريب على فطرة الانسان فينطق القلب السليم ويشهد الحس الواعى وتنشد العواطف الكريمة إلى تلك الحقيقة : (ذلكم الله رَبُّكُم لاَ إِلَه إِلاَّ هُو خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ فَاعْبُدُوه وهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ وَكِيل [١])

ومع هذا فقد قدم القرآن الكريم عرض الدعوة فى أسلوب عبقرى التسلسل فى مجموعة السور المكية التى سجلت حياة الدعوة الاسلامية فى ظلال البيت العتيق .

فى سورة الأنعام عالج القرآن قضية العقيدة على أنها القضية الكبرى ، والقضية الأساسية فهى القاعدة الرئيسية للعبودية الصحيحة لله رب العالمين .

وعالج مع قضية العقيدة قضية الطعام : فالطعام يغذى القلب بالدم والقلب محل الاعتقاد فاذا ماطهر مما ذبح على الأصنام والأوثان والنصب فقد خلص القلب لنور الحقيقة أما إذا تغذى القلب بلحوم النصب والأصنام فقد قسى وأظلم وقد سمعت فضيلة مولانا الدكتور عبدالحليم محمود أثناء زيارته للكلية الاسلامية بما ليزيا أستاذا زائرا ، أن أكل لحم الخنزير مفسد للأخلاق يجعل العرض والشرف أمرا هينا .

ولهذا عالجت سورة الأنعام قضية الطعام لأنه ذا صلة بالاعتقاد صحة وفسادا .

---

(١) من التصرف فى ظلال القرآن ج ٧ ص ٣٠٨ - ٣١١ راجع حول هذا من حضارة الإسلام ج ١ ص ١٦ - ١٧

وتـأتى سورة الأعراف: فتعالج موضوع العقيدة بطريق آخر، انها تعرض العقيدة فى مجال التاريخ البشرى، مجال رحلة البشر كلها من آدم وقصته، مع المدى المتطاول تسير السورة مع موكب الايمان من لدن آدم إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، تعرض هذا الموكب وهو يحمل «لا إلَه إلا الله» ويمضى بها على مدار التاريخ مواجها بها البشرية جيلابعد جيل، ويرسم سياق السورة فى تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب ومامعه من الهدى؟ وكيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟.

وكيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب ارصادها ومضى فى طريقه إلى الله.

وكيف كانت عاقبة المكذبين، وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة[1]؟.

وسورة الفرقان: فيها أدلة الرسالة وضحد لافتراءات الكافرين.

وسورة الشعراء:

فيها اثبات للرسالة بطريق آخر، انها تثبت الرسالة بالجوار والتسلسل والقرابة.

وسورة النمل:

اثبات للوحى كفضل من عند الله يمنحه لمن يشاء كما منح داود وسليمان ملكا ونبوة.

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٠٤.

وسورة القصص :

تحديد لمدى ما يملكه البشر بالمال والسلطان أن جاءه محق الله وغضبه .

وسورة العنكبوت :

تعرض حاصل نتائج الدعوة التي بلغها الأنبياء وعاقبة المكذبين .

وسورة الروم :

تدريب للعواطف على تخير صداقة الجانب الالهي وفيها محاصرة للفرد بعديد من الأدلة على صدق؛ رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وسورة لقمان :

رد على المواجهة الثقافية وتعليم للبشر وتحديد لقدرتهم بالنسبة لسلطان الله وجلاله .

وسورة سبأ :

حصر الحمد لله وحده ودعوة الكافرين للتفكير للنظم ، ليصلوا إلى الحق الذي يجحدونه ظلما وعلوا . .

وسورة فاطر :

بيان كامل عن السلطان الالهي ، وأن الناس جميعا فقراء إلى الله .

وسورة يس :

مثل عملي للطائعين بالفطرة ، وأن لم يأتهم دليل ولا أقيمت لهم حجة ، ومثل كذلك للمعاندين الجاحدين دين الله للهوى والبغي . .

وسورة الصافات :

تصفية وجلاء لحقيقة الدين من العبث البشري

وسورة ص :

مقارنة بين أحوال المؤمنين الطائعين وأحوال الكافرين الذين ردوا الحق انحرافا وعشاوغيا.

وسورة الزمر :

تحديد لموقف المسلم وبيان لطبيعة سلوكه ومداه

وسورة غافر :

النموذج العملى لهذا للوقف الذى حددته من قبل سورة الزمر .

وسورة فصلت :

إثبات للرسالة فى اطار السلطان الالهى . .

وسورة الشورى :

توضيح لحقيقة الدين ووحدته وهيمنة الرسالة المحمدية على كل ماسبقها من رسالات . .

وسورة الزخرف :

بيان لهيمنة الكتاب الكريم الخاتم على كل الكتب السماوية الأولى ومعالجة لعديد من قضايا التدين التى ابتدعها البشر انحرافا وجذافا . .

وسورة الدخان

قرع للمشاعر وهز عنيف للقلوب ، وجذب للبشر من نواصيهم ليدخلوا فى دين الله الحنيف . .

وسورة الجاثية :

هجوم على القلب ، وضرب فى الأحاسيس والمشاعر ليستيقظ ضمير الانسان وتسلم فطرته حتى يعود إلى رحاب ربه حيث الأمان والراحة.

وسورة الأحقاف :

تقريع وتأنيب للمعاندين المتجافين مع الفطرة والطبع المتزن الذى أحست به الجن فأسلموا لما سمعوا كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم دون أن يطالبوا النبى صلى الله عليه وسلم بدليل أو برهان . .

لقد فهمت الجن معانى القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الايمان . .

(ياقَوْمَنا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرلَكُم مِّن ذنوبِكُمويُجِرْكم مِن عَذَابٍ أَلِيم . ومن لاَّيُجِب دَاعِيَ اللهِ فَلَيْس بِمُعْجِزٍ فى الأَرضِ ولَيْسَ لَهُ مِن دُونِه أَوْلِيَاءُ أولئكَ فِي ضَلاَلٍ[1] مُّبين) .

لقد عرضت الدعوة الاسلامية عرضا واضحا تفردت به على طول الزمن.

لقد فهمها الجن قبل البشر ولسانها هو لسان القرآن ، عربى مبين. .

ولقد أحاط اللفظ القرآنى بجميع جلال المعانى فى جاذبية انسيابية حلوة تستجيب لها العاطفة النيرة ، وينشد اليها القلب الصادق ، ويتلذذ حلاوتها الوجدان السليم . .

لقد عرض اللفظ القرآنى الدعوة مستوعبا لكل أجزاء الموضوع متخذا كل زاوية من زوايا الفكر والوجدان والتاريخ فى جملة ماساقه ، حتى لاتكون للناس حجة بعد هذا التوضيح الواضح . .

---

(١) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الأحقاف .

وليس هناك أدنى شك فى أن عرض الدعوة الاسلامية امتاز وحده بالوضوح الدائم على طول الزمن الممتد ، وأن غيرها من الدعوات لم ينل هذا الحظ لعجز البشر عن توضيح هدفه وفساد صنعة التعبير التى تصدر عن الانسان فشتان مابين وحى معصوم هو كلام الله المجيد ..

وانشاء مرذول هو كلام البشر الوضيع . .

سادسا : ايجاد استقطاب حول الدعوة :

من عوامل منهج التغيير الاجتماعى ايجاد استقطاب من البيئة حول الدعوة أو المبادىء . .

والدراسات الاجتماعية تركز اهتماما بالغا فى منهج العمل مع الجماعة على حدوث تغيير فى البيئة ، ينشد به الناس حول المبادىء المرغوب فى تنفيذها ، كعنصر أساسى من عناصر النجاح المطلوب . .

والاستقطاب أنواع فقد يكون جزئيا ، وقد يكون كليا حسب مقدار الداعية وثقله الاجتماعى والفكرى . .

ولا تعرف الحياة الانسانية والفكرية على السواء داعية قط أحدث استقطابا كاملا حوله وحول دعوته غير سيدنا محمد - صلى الله عليه سلم - فلقد أنشد نحوه ونحو دعوته أجيال من العلماء والمفكرين منذ نشأ فى جوار البيت العتيق حتى أذن له بالجوار فى الرفيق الأعلى . .

لقد استقطب محمد - صلى الله عليه وسلم - حوله الفكر الانسانى كله سواء المسلمون الصادقون أو المسلمون المتهوكون أو الكافرون المنصفون أو الكافرون المتعصبون . .

لقد ألف فى سيرته ومبادئه خلق كثير . .

لقد ألف فيه كاتبو اللسان العربى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الانجليزى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الفرنسى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الأندونيسى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الماليزى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الفارسى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الصينى واليابانى . .

وألف فيه كاتبو اللسان الأوردى . . . الخ .

ولقد بلغت هذه المؤلفات فى كل لغة حدود المئات حتى صار فى كل مكتبة ومعهد وجامعة ودولة وجنس ولغة كتاب عن الاسلام وعن نبيه الكريم . .

فصار أمر الاسلام واضحا كل الوضوح ليس فيه سر مكتوم ، ولا أحاجى يغمض تفسيرها فى أيدى الناس على اختلاف ألسنتهم وجنسياتهم تاريخه ، ودعوته ومبادؤها وسلوكه ومنهاجه وهم يعلمون من أمر محمد — صلى الله عليه وسلم — كل صغيرة وكبيرة منذ ولادته ورضاعه وشبابه حتى بعثته .

وأن قبره المعطر الكريم لأثبت فى سنده التاريخى من كل تواريخ العظماء وجميع أصحاب الدعوات . .

فماذا يعرفه الناس عن ذرادشت وكو فشيوس ؟

وماذا يعرفه التاريخ عن سولون وسقراط ؟ .

وماذا يعرفه التاريخ عن موسى وعيسى ؟ .

أما قبر محمد — صلى الله عليه وسلم — فهو منزله الذى كان يعيش فيه ، وتلقى فيه الوحى ، وخرج منه للجهاد الخالص فى سبيل الله ، وهو المشكاة التى شع نورها على الدنيا بأسرها . .

ولا يزال المسلمون ينشدون إلى الروضة الشريفة وهم على ثقة أن هنا كان يجلس النبى — صلى الله عليه وسلم — وكان يستقبل الوفود ، ويدرب الجيش على السلاح ويلقى مواعظه وتوجيهاته فتنشد قلوبهم الطيبة مع الذكريات العظيمة وهم يؤمنون أن هنا كان النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — معلم البشر أجمعين[1] . .

ومنذ القدم والرسول صلى الله عليه وسلم قد رسم للعمل مع الجماعة منهج الاستقطاب كعامل مثير مغير للبيئة إلى الاتجاه الأفضل المرغوب فيه . .

لقد قلقلت الدعوة الاسلامية كل الثقافات الموروثة فى البيئة العربية لتحل محلها تصورا جديدا فى العقيدة والأخلاق والمعاملات . . . وقد أنشد المجتمع تلقائيا إلى هذا الاستقطاب الذى أحاط بالمنطقة كلها منذ فجر الارهاصات بالنبوة .

---

(١) راجع حول هذه المعانى : الرسالة المحمدية للأستاذ سليمان الندوى ، ص : ٥٩ — ٦٣

يروى ابن هشام : أن الوليد بن المغيرة إجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يامعشر قريش انه قد حضر هذا الموسم وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحداولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضًا

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال : بل أنتم فقولوا اسمع ؟ قالوا : نقول كاهن ؟ قال : لا والله ماهوبكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه ، قالوا : نقول : مجنون ؟ قال : ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا : فنقول شاعر ؟ قال : ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : نقول : ساحر ؟ قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه)وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك[1] .

---

(١) ابن هشام : ج ١ ص : ٢٧٠ - ٢٧١ دلا ئل النبوة ج : ١ ص : ٦٤٧ : ٤٤٨ الوفاء ج ١ ص ٣٠٢

أن معنى هذا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أحدث استقطابا حول الدعوة وصل إلى أطراف البيئة إذ خشيت جماعة الكافرين فى مكة من انجذاب الحجاج – القادمين من الخارج الذين سمعوا عن الاسلام إلى الدخول فيه فألهب ذلك قلوب قريش خوفا وهلعا وحيرهم فى التعرف على رأى يتفقون عليه ليكون وسيلة اعلام مضادة يشككون بها فى دعوة الاسلام .

وما تحير الوليد بن المغيرة على علو منزلته وشرفه فى القوم إلا لمعرفته بالحق الذى جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – ولكنه العمى الذى يختم به الشيطان على القلوب والصدور . . . ومع أنه قد نفى السحر أولا لكنه لم يجد له مخرجا من استخدامه إفكا وتعنتا ضد الدعوة الاسلامية .

ومع هذا فان الأحداث التى وقعت فيما بعد تبرهن على فشل المواجهة التى شنها الكافرون وأن الاستقطاب الذى أحدثته الدعوة الاسلامية حول مبادئها قد أثمر . .

ففى الخصائص الكبرى : أن الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث : أنه قدم مكة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقالوا له : انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا فرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك مادخل علينا فلا تكلمه ولا تسمعن منه . . .

قال : فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغنى شئ من قوله : فغدوت إلى المسجد فاذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريبا منه فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله فسمعت كلاما حسنا فقلت فى نفسى : انى لرجل لبيب شاعر مايخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل مايقول :

فان كان الذى يأتى به حسنا قبلت وإن كان قبيحا تركت فمكثت حتى انصرف إلى بيته فتبعته فقلت : إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا فاعرض على أمرك فعرض على الاسلام وتلا القرآن فلا والله ماسمعت قولا قط أحسن منه ولا امرأ أعدل منه فأسلمت[1] ..

لقد اختار القوم كلمة السحر كدعاية مشوهة ، ولكن الاستقطاب الذى نشرته الدعوة كان له جاذبية أقوى ، فأنشد الطفيل على الرغم مما قالوه عنده وانجذب إلى معرفة الحق الذى جاء به سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — فلما سمع وهو رجل لبيب شاعر لايغيب عنه تمييز الحق من الباطل أسلم وكان اسلامه خيرا عميما على الاسلام . .

---

(١) الخصائص ج : ١ ص : ٢٣٦ ، الحلية ج : ١ ص : ٤٠٣ ، الوفا ج : ص : ٢٠٤ ، ٢٠٥ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٧٢ ، ٧٣ .

والنضر بن الحارث اللبيب المتفيهق وهو من أشد الأعداء للاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام تزلزله جاذبية الاستقطاب فيقول فى حيرة وغيظ وكمد :

يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمرما أتيتم له بحيلة بعد ، فقد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ماهو بساحر لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن لا والله ماهو بكاهن لقد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر والله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون لا والله ماهو بمجنون لقدرأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولاتخليطه ، يامعشر قريش فانظروا فى شأنكم فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[1] . .

هكذا كان عمق الاستقطاب فى النفوس تصديقا وجدانيا داخليا متفقا عليه من جميع الكافرين . .

إنه ليس مجنونا ولا كاهنا ولاشاعرا ولا ساحرا . . . ولكنهم مع هذا الانجذاب الوجدانى يكابرون ويجادلون بالباطل . . . ولكن القافلة تسير غير آبهة بمعوق .

قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة وكان يرقى من الرياح فسمع سفهاء الناس يقولون : إن محمدا مجنون فقال : آتى هذا الرجل

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص : ٤٤٨ ، ٤٤٩ الشفاء ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١ .

لعل الله أن يشفيه على يدى . . قال فلقيت محمدا فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح وأن الله يشفى على يدى من يشاء فهلم ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله . . فقال ضماد : أعدهن على ؟ فأعاد هن فقال : والله لقدسمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشرك فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ولقد بلغن قاموس البحر فهلم يدك أبايعك على الاسلام فبايعه[1] . .

لقد فشلت أسلحة الدعاية وخابت مساعى المتهوكين وما زالت القافلة تسير غير أبهة بمعوق . .

ففى السيرة لابن هشام : أن عشرين رجلا أو قريب من ذلك من النصارى قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بمكة حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه رجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة . .

فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم — عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم — إلى الله عز وجل وتلا عليهم

(١) الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٣٤ ، حياة الصحابة : ج ١ ص : ٥٣ ، الوفا ج : ١ ص : ٢٠٠ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٣ ، الحلبية ج : ١ : ٣٨٤ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٤٠ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ٢ ص : ١٠ ، ١١ .

القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا : فقالوا لهم : سلام عليكم [١] لانجاهلكم . .

لقد خرج أبو جهل وجماعته على حدود الأدب فى مجابهة هذا الوفد الكريم الذى جاء مستجيبا لنداء الله وانجذب بالروحانية التى استقطب بها نبى الدعوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيئات الدعوة فى مكة وخارجها .

ولئن كانت أطراف الجزيرة من بعيد قد أنشدت فى وثاق حبيب إلى الدعوة فإن القوم فى داخل مكة قد أنشدوا إليها كذلك غير أنهم يحملون صدور أصدئة وقلوبا مظلمة وعقولا متحجرة ، وآذانا صماء وعيونا عمياء ، وأفئدة خاوية . .

فقد روى ابن هشام :

أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لايعلم

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٣٩١ ، ٣٩٢ الحلبية ج : ١ ص : ٣٨٤ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٤٠ .

بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . ..

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى وصل أبا سفيان فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ .

فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذى حلفت به كذلك ...

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى

رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .. قال : فقام عنه الأخنس وتركه[1] :

ينطق النص بمقدار العمق الذى أحدثه الاستقطاب حول الدعوة الإسلامية حتى أنشد إليها ثلاثة من كبار القوم ومن فحول الكفر دون إرادة ولا وعي ودون موعد ولا اتفاق فلما كشفهم الصباح مرات ثلاث تعاهدوا وحلفوا على الكفر والضلالة . .

ومفهوم هذا النص أنه ليس فى الوجود الفكرى والإصلاح الاجتماعى رجل قط غير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ استطاع أن يحدث استقطابا لا شعوريا حول الدعوة والداعية إلى درجة شد الخصوم من عناقيد أفكارهم بالليل ليباتوا ثلاث ليال سويا يستمعون فيها القرآن حتى أحسوا بلذة روحانية ملكت عليهم مشاعرهم فعاودوا الكرة مرات ثلاث حتى عاودهم ماران على قلوبهم من قبل فأغمضوا أعينهم عن نور الحقيقة وأغلقوا قلوبهم عن دخول الإيمان ..

ولقد أكسبت هذه المعارضة الدعوة الإسلامية انتشارا فى البلاد والقبائل التى كانت تفد للحج كل عام . .

يقول ابن هشام :

تفرقوا ... فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا للوسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره ، وجعلوا يقولون

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٣١٥ ، ٣١٦ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٥ ، ٢٨٦ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٦ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٥٢ ، ٤٥٣

ذلك فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها[١] . .

وفى الخصائص عن مسلم عن أبى ذر قال : أنطلق أخى أنيس إلى مكة ثم أتانى فقال : لقيت رجلا بمكة يزعم أن الله أرسله ، قلت ما يقول الناس؟ : يقولون : إنه لشاعر وساحر وكاهن ، وكان أنيس أحد الشعراء فقال : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وصفت قوله على أقراء الشعراء فوالله ما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ووالله أنه لصادق وأنهم لكاذبون[٢] . .

فساعدت قريش بهذه المعارضة على توسيع رقعة الاستقطاب ، والناس فطريا مجبولون على حب الاستطلاع ، وكل قاطن فى بيته بعيد عن الجاذبية القرشية فهو طليق التفكير من ضغط العادات وجاذبية التقاليد فسوف يفكر بأسلوب سليم نقى من غوغائية الجهالة الجاهلة التى يعيش فيها أبو جهل والوليد وعتبة والنضر وأبو سفيان والأخنس بن شريق . .

لقد آمن ضماد من ازد شنوءة ومثيله فى الصحة النفسية والسلامة العقلية الطفيل بن عمرو من أول مرة يستمعون فيها إلى آى الذكر الحكيم وقد جاءوا من بعيد كما آمن معهم وفد نجران الذى قال لأبى جهل وهو يسفه عليهم ، سلام عليكم . .

---

(١) بتصرف ابن هشام ج : ١ ص : ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) الخصائص ج : ١ص : ٢٨٧ ، وراجع الشفا ج : ٢ ص : ٤٩٨ راجع مسلم ج : ٤ ص : ١٩٢٠ تخريج المرحوم الأستاذ عبد الباقى .

ولم يؤمن النضر بن الحارث ولا أبو جهل ولا الوليد وقد اتفقوا على أن الذى يقوله محمد ليس مثل كلام البشر وأنه لايكذب قط أبدا ... فقد حاولوا أن يخلعوا أنفسهم من استقطاب الإيمان الذى حاصرهم وجدانيا فأغلقوا دونه القلوب والأسماع ، ولكنهم فتحوا بهذا الموقف العنيد آفاقا فسيحة ونشروا بهذا الجحود والمكابرة والمواجهة استقطابا شاملا فى أنحاء البيئة من قريب ومن بعيد ، يقول ابن هشام :

« فلما انتشر أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى العرب وبلغ البلدان ذكر بالمدينة ولم يكن حىّ من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم – حين ذكر وقبل أن يذكر من هذا الحى من الأوس والخزرج وذلك كلما كانوا يسمعون من أحبار اليهود وكانوا حلفاءهم ومعهم فى بلادهم ، فلما وقع ذكره بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف . .

قال أبو قيس بن الأسلت أخو بنى واقف وكان يحب قريشا قصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريش فيها عن الحرب ويذكر فضلهم وأخلاقهم ويأمرهم بالكف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم[1] .

هكذا أثار الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بيئة الدعوة باستقطاب شامل كامل ساعدت فى اتساع رقعة الجبهة المعارضة (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ) وتلك واحدة من امتيازات الدعوة الإسلامية يوم أن تكون خالصة لوجه الله يأتيها نصره من حيث لا نعلم .

---

(١) بتصرف ابن هشام ج : ١ ص : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

وما أحوج الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث إلى هذا المستوى من العمل ينجذب إليها الناس كافة إذ يسمعون عنها سلوكا مطبقا ووجود أعيانا فيه الخلاص والطمأنينة والأنس والسعادة تعلو فيه أسماء الله الحسنى وتخضع فيه النفوس كلها لجلال الله العظيم .

سابعا : السلوك المطابق للمبادىء :

أفرغت يا أبا الوليد ؟ . .

بهذا الأدب الجم واستعمال الكنية فى مخاطبة عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس ، وبنداء رخى هادىء يتحدث الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى عتبة مجيبا عليه بعد أن تحدث طويلا وأفرط فى الحديث وذكر كلاما يثير الحليم ويهيج العفيف ويغضب الحر .. لقد تحدث عتبة بكلام بذىء غير موقر ، لقد عرض فيما عرض على النبى — صلى الله عليه وسلم — .

« أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا وأخذا .

وإن كان إنمابك من الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا[1] » .

هذا عرض رجل جاهل لا يعرف أقدار الناس ولا منازل الرجال فقد عرفت قريش محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى شبابه أعف الرجال

---

(١) الروض الأنف ج : ٣ ص : ١٤٩ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٣ الوفا بأحوال المصطفى ج : ١ ص : ٢٠١ .

نفسا وأطهرهم قلبا وأنقاهم خاطرا وما هفا هفوة صغيرة فقد عصمه الله وكان هو الأمين وحاه دون سائر شباب قريش وشيوخها أجمعين .

لقد كان أرضاهم وهو صغير فماذا حدث لعقولهم بعد أن جاءهم بالروح الأمين ؟ . .

مقالة شنعاء وقحة بذيئة جافية جامدة عمياء قالها عتبة بن ربيعة ويستحق فى مقابلها ردا مساويا لها جفوة وقسوة وإيلاما ولكن الداعية الأول — صلى الله عليه وسلم — يقدم فى رده برهانا على أنه : لا يخالفهم إلى ماينهاهم عنه . .

لقد أبرز النبى — صلى الله عليه وسلم — مبادىء الدعوة فى رده : أفرغت يا أبا الوليد . . فى هدوء هادىء واتزان رزين وصفح كريم وعفو صادق . .

يقولها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معلنا بها أن مبدأ العمل مع الجماعة فى نظر الدعوة هو مطابقة سلوك الداعية إلى المبادىء الإسلامية . . . فتلا عليه القرآن حتى وصل إلى قوله تعالى :

(فَأَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود) .

فأمسك عتبة بفم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خوفا من نزولها فإنه يعلم أن محمدا لصادق وأنه ما كذب أبدا فبات ذلك فى التاريخ شهادة عليه وأنه ساعة أن عرض ما عرضه على النبى — صلى الله عليه وسلم — كان غير كريم السجية ، وغير صادق فى مسعاه ... وأن رد النبى — صلى الله عليه وسلم بات فى سجلات التاريخ

شهادة رائعة الدلالة على أن الإسلام ما يرجو للبشرية إلا خيرا يحقق لها السعادة والأمن والتكريم [1].

ولم يكن ذلك الحلم مرة واحدة لقد كان منهجا في أسلوب العمل للدعوة ، لقد ذهب رسول الله — صلى الله عليه وسلم —إلى الطائف يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وهي دعوة صريحة في احترام الانسان نفسه وتوقيره لذاته أن يتوجه بالعبادة إلى الله الحق الذي يملك السموات والأرض ، وترفع الانسان عن الانحطاط الذي يزاوله بالسجود إلى حجر أو خشب صنعه بيده ، ثم هو لايملك لنفسه قطميرا من خير أو شر : وهي دعوة تتفق مع العقل العادي الذي يفكر تفكيرا عاديا مستقيما ، وكذلك هي دعوة إلى الحق فيما كان عليه الاباء الاطهار سالفا قبل الانحراف الذي جره عمرو بن لحي [2] ولكن القوم آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة شنيعة قاسية لاتتفق مع الواجبات الأخلاقية لضيف أو قريب أو عابر سبيل . ..

لقد سلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه وهم يضحكون . . .

السلوك العادي هنا أن تنفجر النفس غيظا وحنقا وأن يود الانسان أن لو كان معه قوة السماء والأرض لينتصر لنفسه من هذه الأهزوءة

(١) راجع القصة في : السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٥ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٤ ، ٥٠٥ المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٢٥٦ السيرة الحلبية ج : ١ص : ٢٣٩ الوفا ج : ١ ص : ٢٠١ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ١١ .

التى فعلها قوم ثقيف ، وتأتى قوة السماء بجنودها وتستأذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أن تطبق الأخشبين على قوم ثقيف وهذه القوة إذ تأتى إنما تأتى فى لحظة حرارة النفس والموقف مازال ملتهبا ، وتأتى وهى تقص عليه الوقائع التى حدثت كأنما تعلل مجيئها بإقامة العدل . .

إن الله قد سمع قول قومك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . .

ويقول ملك الجبال للنبى — صلى الله عليه وسلم — :

أنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] . . . .

ولكن الإسلام دعوة لصلاح الناس والنبى — صلى الله عليه وسلم — رحمة للعالمين ، فهل تبقى المبادئ الإسلامية نظرية فقط ؟ ! هنا يأتى دور التطبيق فيقول النبى — صلى الله عليه وسلم :

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئا[2] . ويصفح رسول الله الصفح الجميل ويدعو دعاة

---

(١) هما جبلان : تارة يضافان لمكة وتارة يضافان لمنى فقال أخشبا مكة وأخشبا منى وهما أبو قبيس وقعيقعان (بالتصغير) ويسميان أيضا الجبجبان راجع الشفاء شرح نسيم الرياض ج : ٢ ص : ٨٢ .

(٢) الشفا ج : ٢ ص : ٨٢ ، الدرر ص : ٦٧ ، ٦٨ ، الحلبية ج ا : ١ ص : ٣٩٥ ٣٩٦ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٥٢ ، المواهب اللدنية ج ا : ١ص : ٢٩٨ ، الخصائص الكبرى ج : ١ص : ٤٥٢ ، مسلم ج : ٣ ص : ١٤٥٠ ، ١٤٥١ .

مديا رخيا أخاذا بالنفس والمشاعر والوجدان يعلم الداعية فى كل زمن كيف يكظم غيظه ، ويعفو عن قومه ويدعو ربه :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذبنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[1] . .

وحق للملك الجبال أن يقول للنبى — صلى الله عليه وسلم — : أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم[2] . .

وصدق صاحب الهمزية :

جهلت قومه عليه فأغضى
وأخو الحلم دأبه الأغضاء
وسع العالمين علما وحلما
فهو بحر لم تعيه الأعياء

ولم يكن ذلك فى مكة فقط وهى موضوع الحديث والدراسة ، بل إن هذا المنهج استمر مع الدعوة فى كل ظروفها يخلصها لله ويجعل

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٠ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٥ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٩٦ .

كل حركة فيها ابتغاء وجه الله ويبرهن فى كل مصيبة يأتى بها الأعداء أن الدعوة ما تقصد إلا تكريمهم وتوقيرهم واعزازهم واحترامهم ، ففى الشفاء :

روى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لما كسرت رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا : لودعوت الله عليهم ؟ . .

فقال عليه الصلاة والسلام :

إنى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة : اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون[1] .

إنهم حقا لا يعلمون طريق الحق فمازالوا فى غواية النفس ، ولا يعرفون قدر النبى — صلى الله عليه وسلم — فما زالوا فى حجاب من الجاهلية الأولى ولا يعرفون حقيقة الإسلام فقد طمسوا قلوبهم بثقافة الأجداد ، وجعلوا على سمعهم ختما وران على قلوبهم ما كان به يأفكون . .

لقد كان السلوك المطابق هو منهج العمل مع الجماعة الذى كان يوصى به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القيادة التى تحمل معه فى حقل الدعوة الإسلامية مسئولية العمل ؛ لما أسلم الطفيل بن عمرو اللوسى وعاد إليه قومه يدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه فأنف الطفيل منهم ذلك الابطاء فهو رجل وجيه فى قومه وأنه للبيت ذكى مشهور بالألمعية

(١) الشفا ج : ١ ص : ١٤ .

والفطنة والرجاحة وما كان يظن أن قومه يلبثون مليا إذا دعاهم إلى الإسلام حتى يجيبوا داعى الله . . فلما أبطأوا عليه جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة فقال له : يارسول الله ؟ إنه قد غلبنى على دوس الزنا فادع الله عليهم ؟ . .

لقد ضاقت نفس الداعية ونفد صبره وكره من قومه الاستمرار فى الضلالة والانحراف ولكنه هو ذاتيا واثق من دعوته ومبادئه فاستعان برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعوا الله عليهم ليهلكهم . . . ؟ . .

ولكنه منطق لايتفق مع عالمية الإسلام واستمراره إلى يوم القيامة فليس بعد الإسلام دين آخر حتى يهلك هؤلاء ثم يأتى قوم آخرون ولهم نبى آخر كما فعل بأشياع الكافرين فى الغابر

إنه دين خاتم ورسالة سرمدية إلى يوم القيامة ومنهج يربى ويسوس ويبنى لخير الإنسانية كلها .

ولهذا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(اللهم أهد دوسا) .

ثم قال للطفيل

ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم [1]

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ٢ص : ٧٤ ، الحلبية ج : ١ ص : ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، الروض الأنف ج : ٣ ص : ٣٧٨ ، الروض الأنف ج : ٣ ص ٣١٧ ، الوفا ج : ١ ص : ٢٠٦ .

لقد كان الخلق الفاضل والمؤانسة والوداد والصفح هى أسلوب العمل مع معاندى الدعوة حتى تبرز معالم الإسلام وحقائقه وأفضاله ولهذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائما ودودا ، رءوفاً . صفوحاً وكان لا ينادى الواحد من أعداء الدعوة إلا بالكنية المؤدبة والإسم اللطيف .

فنى الخصائص الكبرى ، عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفنارسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى جهل : يا أبا الحكم : هل إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله . . .

إن سلطة محمد فى قومه معروفه ومكانته مشهورة ومركزه وحده فريد فى القوم ، وأبو جهل واحد من كبار أعداء الله ورسالته ، ولكن أسلوب التعامل هنا هو أن يظهر الداعية أخلاقيات الدعوة عمليا فيناديه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ياأبا الحكم[1] إن اسمه المشهور به : عمرو بن هشام بن المغيرة ابن أخ الوليد بن المغيرة[2] من أسرة تعادى الله ورسوله وجماعة المسلمين ولكن الداعية الأول صلى الله عليه وسلم يبسط إليه القول فى لين وسماحة ومودة كسلوك عملى لمحاسن الإسلام ، وتطبيق وجودى لأخلاقياته حتى يظهر للخصم أن المعركة ليست أنانية وإنما هى لخير الخصم نفسه أن يثوب إلى الله الذى خلقه وأنعم عليه بعديد الآلاء . .

---

(١) الخصائص الكبرى ج : ١ص : ٢٨٦ .

(٢) الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٠ تعليق .

ولذا فما كانت تحمل نفس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ألما لواحد من المجابهين للدعوة العتاة القساة فى تصرفاتهم نحو المسلمين الأول ، فلقد كان يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحد الرجلين اللذين أطنبا فى السخرية بالإسلام والمسلمين ، فى الدلائل للبيهقى :

اللهم أعز الإسلام بأحَب هذين الرجلين إليك[1] . .

قال فى الخصائص رواية عن الطبرانى : عن أنس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعاعشية الخميس فقال ·

اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام . فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم[2] . .

ولقد كان عقبة بن أبى معيط من كبار المستهزئين بالإسلام وبالمسلمين وكان كثير الأذى لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال فيه — صلى الله عليه وسلم :

كنت بين شر جارين أبى لهب وعتبة بن أبى معيط إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى . . .

ومع هذا فان صاحب الحلبية يروى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يكثر من مجالسة عقبة بن أبى معيط[3] ؛ ليدعوه إلى الإسلام . . .

---

(١) الدلائل للبيهقى ج : ٢ ص : ٣٠ ، راجع الطبقات الكبرى لا بن سعد ج : ٣ ص : ٢٦٧ .

(٢) الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٣٣ ، راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣٦٧ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٧٢ .

(٣) الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٣ .

لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المستوى الرفيع تحمل أعباء الرسالة ، وكان عمله الكريم نبراسا لمنهجية العمل مع الجماعة فى المستقبل ، وقد أثبت القرآن الكريم ذلك بقول الله تعالى :

فاسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ ومن تَابَ مَعكَ ولاَ تَطْغَوْا إِنَّه بِمَا تَعْمَلون بَصِير[1]) . .

(خُذ العَفْو وأْمُر بالْعُرْف وأَعْرِض عَن الجَاهلين[2]) . .

(فَلِذَٰلكَ فَادْعُ واسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ ولاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم وقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ من كتَابٍ وأُمِرْتُ لِأَعْدلَ بَيْنَكُم اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُم لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُم لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُم اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وإليْه المَصير[3]) .

ولقد وصفه الله جل شأنه بقوله :

(وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم[4]) . .

قال ابن كثير فى تفسيرها : عن قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : كان خلقه القرآن[5] . .

---

(١) الآية رقم : ١١٢ من سورة هود .

(٢) الآية رقم : ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٣) الآية رقم : ١٥ من سورة الشورى .

(٤) الآية رقم : ٤ من سورة القلم .

(٥) تفسير ابن كثير ج : ٤ ص : ٤٠٣ ، راجع الطبقات الكبرى لا بن سعد ج : ١ ص : ٣٦٤ .

يقول شيخنا العارف بالله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود : وحقيقة الأمر أن رسول الله كان فى كل مايأتيه وكل مايدعيه قرآناً مطبقاً ، ومن هنا كان قوله سبحانه وتعالى فى بيان ذلك فى شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(... إن أَتَّبِعُ إلاَّ مَايُوحَى إلَىَّ ... [1]) . .

(وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ [2]) . .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ولَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَاجَاءَكَ من العِلْم مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ ولاَ وَاقٍ [3]) . .

(.. فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ومن تَابَ مَعَكَ ...) . .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس ، أتى إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سبعون ألف درهم فوضعها ، كما يروى هارون بن رباب على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فمارد سائلا حتى فرغ منها [4] . .

لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثالا وأسوة لتطبيق مبادئ الدعوة سلوكيا حتى كانت حقيقة نفسه الشريفة من حقيقة الرسالة وكانت عظمة نفسه الزكية من عظمة هذه الرسالة . .

---

(١) من الآية رقم : ١٥ من سورة يونس .

(٢) الآية رقم : ١٨ من سورة الجاثية .

(٣) الآية رقم : ٣٧ موسورة الرعد .

(٤) الإسلام والعقل ص : ١٢٤ ، ١٢٥ .

إن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية أبعد من كل مدى يملكه مجهر مكبر بشرى وقصارى ما يملكه راصد لعظمة محمد – صلى الله عليه وسلم – التى يراها ولا يقدر على تحديدها أنه كان لهذه الرسالة نبيا فلولاه ما كانت لغيره ولو كانت ما كانت إلا له . .

إن محمدا – صلى الله عليه وسلم – وحده هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة إنه وحده هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى المجانس لنفحة الله فى كيانه هو ، هو الذى أعد خاصة لهذه الرسالة الكونية العالمية حتى لتتمثل فى شخصيته الحية ، إنه وحده أهل لهذا المقام الرفيع (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالته) ولهذا فقد كان خلقه القرآن ، وكان وصفه العظيم (وإِنَّكَ لَعَلى خُلُق عَظِيم) وليس غير محمد – صلى الله عليه وسلم – يطيق هذا الثناء من جلال الله وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولا تأرجحت شخصيته تحت وقعها الجليل ، لقد كان هو ذاتيا دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل ، وتلك هى السوية البشرية للأنبياء ، وكان هو وحده الأسوة الحسنة التى يتأسى بها الدعاة فى كل عصر وحين . .

ولقد شهد فى العصر الحديث بهذه الأسوة وتطبيق مبادئ الدعوة رجل من الأذكياء المنصفين من متمذهبى البراهمة سئل : بماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنى أجد فى رسول الإسلام خلالا مختلفة وأخلاقاً جمة وخصالا كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم الإنسان واحد فى آن واحد ، فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء ، وهو مع ذلك متواضع فى نفسه يرى أنه لايملك من الأمر شيئاً وأن الأمر كله بيد ربه . .

ونراه فى غنى عظيم تأتيه الإبل موقرة بالخزائن إلى عاصمته ويبقى مع ذلك محتاجاً ولا توقد فى بيته نار لطعام الأيام الطوال وكثيراً مايطوى على الجوع .

ونراه قائداً عظيما يقود الجند القليل العَدد الضعيف العُدد فيقاتل بهم ألوفاً من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة وتجده محبا للسلام مؤثراً للصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجأش هادئ ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه .

ونشاهده بطلا شجاعاً يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رءوف متعفف عن سفك قطرة دم .

وتراه مشغولا بجزيرة العرب كلها بينما هو لايفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ويهتم بأمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا فهو فى الدنيا وليس فيها لأن قلبه لايتعلق إلا بالله وبما يرضى الله[1] . .

لقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسبق الناس إلى عمل مايأمر به ، يقول الشيخ الندوى :

ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحى إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به[2] . .

(١) الرسالة المحمدية ص : ٨٧ .

(٢) الرسالة المحمدية ص : ١٠٨ .

ولقد حدد بذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قاعدة من قواعد منهج العمل مع الجماعة وهى اتحاد السلوك مع المبادئ التى يدعو إليها . . . ولهذا استحق هذا المنهج صبراً طويلا على مشقة التبليغ وعداوة المكابرين . .

ثامنا : الصبر وتحمل المشاق :

(واتَّبع مَايُوحى إليْكَ واصْبر حَتَّى يَحْكُم الله وهُوَ خَيْرُ الحَاكمين [1])

(تلْكَ من أَنبَاء الغَيْب نُوحيهَا إليْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ ولاَ قَوْمُكَ من قَبل هَذَا فاصْبر إنَّ العاقبةَ للْمُتَّقِين [2]) . .

(واصْبر فَإنَّ الله لاَيُضيعُ أَجْر المُحْسنين [3]) . .

(واصْبر وما صبْرُكَ إلاَّ بالله ولاَ تَحْزَنْ علَيْهم ولاَ تَك فى ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُون [3]) .

(واصْبر نَفْسكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ والعَشيِّ يُريدُونَ وجْهَهُ [4]) . .

(. . . فاعْبُدْه واصْطَبر لعبَادَته . . . [5]) . .

(فاصبر عَلى مَايقُولُونَ وسَبِّح بحَمد رَبِّكَ قَبلَ طُلُوع الشَّمس وقَبلَ غُرُوبهَا وَمن آنَاء الَّليل فَسَبِّح وأَطْرَافَ النَّهَار لَعَلَّكَ تَرضَى [6]) .

---

(١) الآية رقم : ١٠٩ موسورة يونس .
(٢) الآية رقم : ٤٩ من سورة هود .
(٣) الآية رقم : ١٢٧ من سورة النحل .
(٤) من الآية رقم : ٢٨ من سورة الكهف .
(٥) من الآية رقم : ٦٥ من سورة مريم .
(٦) الآية رقم : ١٣٠ من سورة طه .

(فاصبر إنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ ولاَ يَستَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لاَ يُوقنُونَ[١]) . .

(اصبر عَلى مَايَقُولُونَ واذْكُر عَبدَنَا دَاودَ ذَا الأيد إنَّهُ أَوَّابٌ[٢])

(فاصْبرْ إنَّ وعدَ اللهِ حَقٌّ واستَغْفر لذَنْبكَ وَسَبِّح بحَمد رَبِّكَ بالعَشيِّ والإبكَار[٣]) . .

(فاصْبر إنَّ وَعدَ الله حَقٌّ فَإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذى نَعدُهُم أَونَتَوفَّيَنَّكَ فَإلَينَا يُرجَعُون[٤]) . .

(فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزم منَ الرُّسُل ...[٥]) . .

(فاصبر عَلى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّح بحَمد رَبِّكَ قَبلَ طُلُوع الشَّمس وقَبلَ الغُرُوب[٦]) . .

(واصبر لحُكْم رَبِّكَ فَإنَّكَ بأَعيُننَا ...[٧]) . .

(فاصبر لحُكْم رَبِّكَ ولاَ تَكُنْ كَصَاحب الحُوت إذْ نَادَى وهُوَ مَكْظوم[٨]) . .

(فاصبر صَبرًا جَميلاً[٩]) . .

---

(١) الآية رقم : ٦٠ من سورة الروم .

(٢) الآية رقم : ١٧ من سورة ص .

(٣) الآية رقم : ٥٥ من سورة غافر .

(٤) الآية رقم : ٧٧ من سورة غافر .

(٥) من الآية رقم : ٣٥ من سورة الأحقاف .

(٦) الآية رقم : ٣٩ من سورة ق .

(٧) الآية رقم : ٤٨ من سورة الطور .

(٨) الآية رقم : ٤٨ من سورة القلم .

(٩) الآية رقم : ٥ من سورة المعارج .

(واصْبر عَلى مَايقولون واهْجُرْهُم هَجْرًا جَميلاً[1]) . .

(ولِرَبِّكَ فَاصْبر[2]) . .

(فاصْبر لحُكمِ ربِّكَ ولاَ تُطعْ مِنْهم آثما أَوْكَفُورًا[3]) . .

من أساسيات العمل مع الجماعة أن تُبرز الأهداف التى يدعى إليها فى جو طبيعى ، بعد أن يتحلى بها الدعاة سلوكا عمليا . .

وقد التزمت القيادة فى ظلال العمل المكى بالسلوك المطابق للمبادئ الإسلامية ، تنقية للدعوة فى صورتها العملية من أدنى شائبة تحسب عليها ، ذلك بأن الفرد المسلم هو مرآة الإسلام . .

ولهذا فان الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى قد تجنبت صداماً مسلحاً حتى تعطى فرصة كاملة لإبراز معالم الدعوة وحقيقة الإسلام ، ولذلك التزمت بالصبر الإيجابى الذى يزاول العمل فى إخلاص مع التحمل لشدائد الأمور . .

ولو سمح القرآن الكريم للجماعة الإسلامية بالدفاع عن النفس فى هذه المرحلة ، لما أمكن للدعوة أن تُرى للناس على طول الحياة أنها دعوة لخير الإنسانية ، ولكانت مشادات فى محيط الأسرة بين الولد ووالده والعبد وسيده والمرأة وزوجها ، ولصح للكافرين يومها أن يقولوا إن محمدا — صلى الله عليه وسلم — يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه . .

---

(١) الآية رقم : ١٠ من سورة المزمل .

(٢) الآية رقم : ٧ من سورة المدثر .

(٣) الآية رقم : ٢٤ من سورة الإنسان .

وليس ذلك هو الهدف ولا هو المنهج كذلك ، ولذلك أكد القرآن فى هذا العهد المكى ضرورة التحلى بالصبر كمنهج ؛ وهو صبر إيجابى يزاول أعمال الدعوة مع التحمل لأذى الكافرين . .

ماذا يكون ياترى لووقعت المعارك فى كل بيت ؟ أيكون هذا هو الإسلام ؟ أيكون ذلك هو الهدف الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

لقد قيلت دون حرب أو مقتلة أو معركة أن محمدا يفرق بين المرء وزوجه .

لقد قيلت مع الأمر بالكف عن القتال ؛ لقد قيلت مع الأمر بالتزام الصبر فماذا يقال ياترى لو أن القرآن الكريم أذن بالقتال فى هذا العهد ؟ هنا تبرز حكمة التذرع بالصبر كواحدة من أساسيات العمل مع الجماعة وهذا هو الداء الذى تعانيه الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث .

إنه لابد من مرحلة طويلة يبرز فيها بالسلوك العملى ، أن دعوة الإسلام دعوة لخير الإنسان ولكرامته وعزته واحترامه ، ولن تبرز هذه المعالم ، إلا إذا صفى الدعاة أنفسهم من كل شبهة تعوق هذه المعالم عن الظهور ، ولهذا يتكرر الأمر بالصبر فى السور المكية على النحو الذى ذكرنا له نماذج ، ليعلم المشتغلون بالدعوة الإسلامية أن من منهج العمل مع الجماعة لتبليغ الدعوة (الصبر الطويل) الذى يمكّن الغير من التعرف على امتيازات الإسلام . .

وقد جعل الله ابتلاء الدعاة فى كل عصر تدريباً تربويا ليخلصهم إلى طاعته وينقيهم من كل شبهة ويمحصهم من كل آفة . .

(أَلَم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنَّا وهُم لايُفْتَنُون ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمنَّ الكَاذِبين)

توجد هذه المظاهرة كقانون إلهى :

(سُنَّةَ الله فى الَّذِين خَلَوْا منْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلا) .

وهى اختبار واختيار يصفى الله به العاملين والمبلغين رسالاته ، ولقد كان من معالم هذا الطريق

أن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله جل شأنه وهو عمر يتيم فى حياة الدعوة ، لم يتكرر بعد — والله أعلم — ولكن قومه وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لبث عمرا مديدا لم يحدده القرآن الكريم ، وكانت نتيجة جهاده : فآمن له لوط فقط ، وترك قومه وتبرأ منهم وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) . .

وسيدنا موسى عليه السلام ترهق حياته أعصاب المتتبع لها ، فهو يولد فى جو يشيع فيه فرعون الرعب والإرهاب والذعر ، وتقوم حكومته بإعدام أطفال بنى إسرائيل ويولد موسى فى هذا الجو القاسى

الرهيب ويرمى فى البحر فى تابوت من الخشب ويلقبه اليم إلى ساحل فرعون العاتى القاسى المتجبر الذى أصدر أوامر الإعدام على الأطفال الرضع ، وإذن فكيف ينجو موسى . .

ويلقى الله العلى العظيم فى قلب آسيا رقة ورأفة بموسى فتقول لهم : (لاتَقْتُلُوه عَسَى أن يَنْفَعَنا) وهى إشارة بعيدة إنها هى المتحدثة هى القائلة :(عَسَى أن يَنْفَعَنَا) فالمنفعة لها لصنفها لمؤمنات مثلها

ويعاف موسى الأثداء كلها ....وكانت أخته تقصه ثم تدخل القصر وتقول لهم : (هل أَدُلُّكُم على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَه لكُم وهُم لَهُ ناصَحُون) . .

ويعود موسى إلى أمه كما وعد الله جل شأنه . :

كيف كانت أخت موسى تقصه ؟ . .

وكيف استطاعت أن تصل إلى مستوى المشورة والتناصح للقصر الفرعونى ؟ . .

وكيف لا يشك فى موسى وقد عاد إلى بيت من بيوت بنى إسرائيل ؟ . .

ذلك كله أمر الله وجلاله وقدرته يقدمها القرآن فى العصر المكى نموذجاً لمضايق العمل الإسلامى وكيف ينقيها الله من عتو الجاهلين . .

ثم يشب موسى ويدعو إلى الإصلاح . . . وتضطره الظروف إلى الهجرة وفى الطريق لاتتركه الأحداث هادئا فيرى على ماء مدين

امرأتين تذودان والناس فى شح لم يرحموا ضعفهما ولا قلة حيلتهما ، وهو رجل عابر سبيل فتأخذه الشفقة والرحمة امتثالا لمبادئه العليا فيسقى لهما ويبرز هنا كذلك سؤال : كيف استطاع موسى أن يمنع الناس عن الماء وهم جمع فى بلادهم وهو رجل غريب ؟ وكيف انصاع الناس له ؟ . . . ذلك أمر الله وقدره ، يلحظ فيه الداعية كيف ييسر الله للمخلصين كل سبيل يسهل إلى الخير ويحقق النفع للناس . .

وفى مدين يمكث عشر حجج يرجع بعدها مع أهله فتأتيه الرسالة بطريق الخطاب المباشر دون قدرة على الرؤية ويتحمل قولا ثقيلا : (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى) . .

ويبدأ موسى بتنفيذ أمر ربه وتكون طريقة الخلاص من فرعون جد شاقة فيؤمر من عند ربه : (فأَسر بعِبَادى لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُون) ..
وحتى بعد الخلاص أثناء السير قال له أصحابه : (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) من شدة الهلع والخوف . .

حتى إذا مانجوا قالوا : (يامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ) .

فتمر دعوة موسى عليه السلام فى تسلسل من الصعوبات والامتحانات والابتلاءات ذلك لأن طبيعة الدعوة دائماً تحتاج إلى صبر فى عرضها وصبر على مجابهة خصومها ولهذا رفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستنصر بالدعاء على كفار مكه أن يبيدهم الله بهلاك من عنده نظير مافعلوه فى جماعة المسلمين ، ففى البخارى . . حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا بيان وإسماعيل قالا : سمعنا قيساً

يقول : سمعت خباباً يقول : أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت مايخاف إلا الله ، زاد بيان والذئب على غنمه[1] . .

وفى رواية زاد : ولكنكم تستعجلون[2] . .

لقد كانت المدرسة النبوية تربى القيادة على أمثل مستوى يجردها من كل هوى وشائبة لتخلص الطوايا والنفوس لله رب العالمين ، وكانت هذه التربية تتمشى مع التوجيه القرآنى : (فاصْبِر كَمَا صَبَر أولُوا العَزْم مِنَ الرُّسُل ولاَ تَسْتَعْجِل لَّهُم ...) . . .

فكانت توجيه القلوب والحواس إلى رضوان الله وإلى الصبر والتحمل حتى يأذن الله بما يشاء لهذه الطليعة الأولى فى حياتها الدنيا وفى حياتها الأخرى على السواء . .

كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يرى عماراً وأمه وأباه رضى الله عنهم يعذبون أشد العذاب فى مكة فما كان يزيد على أن يقول لهم : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . .

---

(١) البخارى فتح البارى ج : ٨ : ص : ١٦٥ ، ١٦٦ ، المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٢٦٦ ، دلائل البيهقى .

(٢) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٦ ، الفتح الربانى ج : ٢٠ ص : ٢٢٢ ، راجع فتح البارى ج : ٧ ص : ٤٣١ ، ٤٣٢ .

وفى رواية : صبراً آل ياسر . . . اللهم اغفر لآل ياسر . . .[1] .

إن العمل للدعوة الإسلامية يرتبط بمنهج الصبر وقانون التحمل للمشاق ذلك بأن الصبر جهاد والجهاد فريضة والصبر واحد من ألوان هذا الجهاد . .

إن جهاد النفس على وساوس الشيطان نوع من الجهاد . .

والجهاد بالصبر على المكاره فى مواجهة أعداء الإسلام نوع من الجهاد والتغلب على شهوة الحياة الدنيا العاتية نوع من الجهاد . . .

والدعوة الإسلامية فى دور العرض تحتاج إلى نوع خاص من الجهاد هو جهاد الصبر لتمحص المسلم وتجرده من كل شهوة وهوى . وتتأكد من صلاحيته للعمل الإسلامى ، بعيداً عن كل لون ثقافى يتأثر به ، مثل :

الثأر ، والعصبية للجنس والوطن أو حب الدنيا وإيثار الراحة . .

إن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد لقوم معينين وسط ظروف معينة هى ظروف المجتمع العربى الجاهلى الذى يؤثر فى حياته مواريث الآباء والأجداد ، فكان من أهداف هذه التربية تدريب الذات العربية على الصبر واحتمال الشدائد التى لا يصبر عليها بالعادة من الضيم على شخصيته أو من يلوذون به حتى يخلص جسده وعقله وقلبه ووجدانه وفكره لله رب العالمين . وحتى يتجرد من ذاته وذات من

---

(١) الحلية ج : ١ ص : ٢٣٧ .

يلوذون به فلا تكون الذات هي المحور لحياته ولا هي الدافع لتحركه في وجوده . .

وكانت كذلك تربية على ضبط الأعصاب حتى لا يندفع الرجل العربي وراء حماسته لأى مؤثر يشعل حميته ، وحتى لا يهتاج لأول مهيج وذلك حتى يتم الاعتدال في طبيعة وحركته . .

وكانت كذلك تربية على أن يتبع أسلوب حياة جديدة تحت قيادة جديدة يرجع إليها في كل شيء ويأخذ عنها جميع أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ماتأمره به مهما يكن الأمر مخالفا لمألوفه وعادته ومواريثه : وقد كان ذلك هو حجر الأساس في إعداد شخصية الرجل العربي لإنشاء نواة المجتمع الإسلامى الذى يخضع لقيادة موجهة من الوحي بعيداً عن السلطان البشرى الضال المزيف

إن إعداد النفوس وتربيتها بناء صعب يحتاج إلى زمن طويل وصبر طويل لكي يعطى فرصة واسعة لمن وضع نفسه في موضع الخصومة ليتفكروا ويتأملوا ويبحثوا أسباب ردهم للدلائل والبراهين التي طال شرحها وطال عرضها : ويبحثوا كذلك أسباب تخلق المسلمين بالصبر مع القدرة على اتخاذ موقف دفاعي كما حدث من عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الذى بدل عنفه على المسلمين قوة لهم : وغير ظلمه إياهم عدلا لمبادئهم ودعوتهم بعد أن استروحت نفسيته عبير الدعوة واستنشقت رئتاه نسيم الإيمان ، فتذوق حلاوة الإسلام . فانقاد في قوة عارمة وعاد من تجبره ليكون للمسلمين عونا ومعينا ومساعدا ونصيراً وتلك واحدة من آثار منهج الصبر وشاء الله أن يكون ذلك دائماً هو

طابع العمل فى الدعوة لما يعلمه جل شأنه من أن بعض المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الله ومن قادة الدعوة المخلصين .

هذه الخلقية التى تحتاجها الدعوة فى مرحلة العرض تحتاج كذلك إلى إيمان بالتفويض المطلق إلى الله جل شأنه فى تسيير مجريات النصر وأسبابه للدعوة الإسلامية فإن النصر : معناه ووقته وسببه والذين سيشهدون ملابساته أمور موكولة إلى الله وحده فإنها مقادير عليا تخضع للسلطان الإلهى فحسب (له مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) .

وما على الدعاة إلا أن يخلصوا العمل لوجه الله حسب منهاج الدعوة وإن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا وواجبهم هنا هو أن يختاروا الله ورسوله والقرآن الكريم ، غاية وزعيما ودستوراً ، وأن يؤثروا العقيدة على كل متاع الحياة فى أوج عظمتها وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة فى أشد قسوتها وأن يصدقوا الله فى العمل والنية ثم بعد ذلك يفعل الله بهم وبأعداء دينهم مايشاء . .

وإذن فإنه لمن الخطأ الكبير فى عصرنا الحديث أن نسأل متى نصر الله ؟ . .

إن نصر الله لابد آت إنه وعده الكريم ولن يخلف الله وعده أبداً ولكن مفهوم النصر ليس هو التسلط ولا الحكم وليس هو المال والجاه ، وليس موطنه الحياة فى الأرض فقط .

إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها وليس هو الحياة الدنيا وحدها وشهود المعركة ليسوا هم الناس فى جيل من الأجيال ... بل

إن الملأ الأعلى يشاركه فى أحداث الأرض ويشهد عليها ويزنها بميزان خاص غير ميزان الأرض فى نوع من أجيالها بل فى أجيالها جميعاً ، والملأ الأعلى يضم مع الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس ، وما من شك أن ثناء الملائكة والملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأعظم وأجل وأنفس وأرجح فى أى ميزان من رأى أهل الأرض وتقديرهم وموازينهم على الإطلاق ... وبعد ذلك هناك الآخرة وهى المجال الأصيل الذى يلحق به مجال الأرض إن طوعاً وإن كرهاً ثم هو لا ينفصل عنه لا فى الحقيقة الواقعة ولا فى الحس المؤمن فيما يتعلق بهذه الحقيقة ... فالمعركة إذن لم تنته وخاتمتها الحقيقية لم تجئ بعد والحكم عليها بالجزء الذى عرض منها فى الأرض فى وقت ما أوفى الأوقات كلها غير دقيق بل وغير صحيح لأنه حكم على الشطر الصغير الأدنى والشطر الزهيد الطائش وصدق الله العلى العظيم :

(الَّذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومن حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْد رَبِّهم ويُؤْمنونَ به ويَسْتَغْفرُونَ للَّذين آمَنُوا رَبَّنَا وَسعْتَ كُلَّ شَىْء رَحْمَةً وَعلْمًا فَاغْفرْ للَّذينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقهم عَذَابَ الجَحيم[1]) .

(ولا تَحْسَبَنَّ الله غَافلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالمُونَ إنَّما يُؤَخِّرُهُم ليَوْم تَشْخَصُ فيه الأَبْصَارُ . مُهْطعينَ مُقْنعى رُءُوسهم لاَ يَرْتَدُّ إلَيْهم طَرْفُهُم وأَفْئدَتُهم هَوَاء[2]) . .

---

(١) الآية رقم : ٧ من سورة غافر .

(٢) الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ من سورة إبراهيم

نعم لم تعد الحياة الدنيا هى الخاتمة للمطاف ولا هى موعد الفصل فى الخلاف .. كما أن الحياة وكل مايتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان لم تعد هى القيمة العليا فى الميزان . .

(وَمَا الحَيَاة الدُّنْيَا إلاَّ لَعبٌ ولَهْوٌ وَللدَّار الآخِرَة خَيْرٌ للَّذينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقلُون[1]) .

(وَمَا هَذه الحَيَاةِ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ ولعبٌ وإنَّ الدَّارَ الاخرَة لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْكَانوا يَعْلَمُونَ)[2] . .

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياة الدُّنْيَا . والاخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى[3]) . .

ومرة أخرى نعود إلى مفهوم النصر لنراه قضاء مقضياً ووعداً نافذاً من الله تعالى :

(إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ يَقومُ الأَشْهَادُ[4]) . .

بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مطروداً مكذبا . . . وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب وفيهم من يلقى فى الأخدود وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد وضيق فى الرزق فيسألون : فأين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا . . . ؟ . .

---

(١) الآية رقم : ٣٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآية رقم : ٦٤ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى .
(٤) الآية رقم : ٥١ من سورة غافر .

ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل ، ولكن الناس يخطئون إذ يقيسون الأمور بميزان ظاهرى محدد ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة فى التقدير . .

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمن وحيز محدود من المكان . . وهذه مقاييس بشرية صغيرة .

فأما المقياس الشامل فيعرض القضية فى الرقعة الفسيحة فى الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ولو نظرنا إلى قضية الإيمان فى هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك وانتصارها مرتبط بانتصار أصحابها إذ ليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتى خارج وجودها وأول مايطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيه ويختفوا هم ويبرز هو . .

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينه معهودة قريبة الروية والمنال لأعينهم ، ولكن النصر له صور شتى ، وقد يلتبس بعضها بصورة الهزيمة عند النظرة القصيرة أو السطحية . .

فسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يلقى فى النار هو من غير شك فى منطق الإيمان أنه كان على قمة النصر عندما ألقاه الكفار فى النار كما أنه انتصر مرة أخرى عند ماقيل للنار : كونى بردا وسلامًا على إبراهيم . .

هذه صورة والأولى صورة وهما فى الظاهر بعيد من بعيد أماق الحقيقة فهما قريب من قريب وكلاهما نصر من عند الله . .

والحسين —رضى الله تعالى عنه — وهو يستشهد ، كان فى تلك الصورة مفجعة عظيمة من جانب ولكنها كانت من جانب آخر نصراً عظيما له . .

فى الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة ، فأما فى الحقيقة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً ، فما من شهيد فى الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو القلوب له وتجيش بالغيرة والفداء من أجله كالحسين بن على — رضى الله عنه — يستوى فى ذلك المتشيعون وغيرهم من كثير من المسلمين . .

وكم من شهيد ماكان يملك أن ينصر إيمانه ودعوته ولوعاش ألف عام كما نصرها الحسين باستشهاده . .

وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الجليلة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمه فتبقى دائما حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد بل ربما كانت محركاً لخطا التاريخ كله على مدى الأجيال ... وذلك نصر كبير ... بحمدالله .

إننا اليوم فى حاجة كبيرة إلى أن نراجع ما استقر فى تقديرنا من الصور والقيم لمعنى النصر قبل أن نسأل : متى نصر الله ؟ وأين وعد الله ؟ . .

إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر فى صورته الظاهرة القريبة حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثانية ... لقد

انتصر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن هذا النصر يرتبط بمضى إقامة العقيدة بحقيقتها الكاملة فى الأرض ، فإن هذه العقيدة لايتم تمامها إلا إذا هيمنت على حياة الجماعة البشرية فى كل تصرفاتها من قلب الفرد الواحد ، حتى الدولة القائمة على الحكم بإذن الله وقد شاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة عليه أفضل الصلاة والسلام فى حياته ، ليحقق هذه العقيدة فى صورتها الكاملة ويتركها من بعده حقيقة مقررة فى واقع تاريخى ملموس مشهود ومن هنا اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية لأن الله أراد هذا ورتبه ، ذلك لأن وعد الله قائم برسله والذين آمنوا معهم فلا بد أن توجد حقيقة الإيمان فى القلوب التى ينطبق عليها هذا الوعد.

وثمة إعتبار آخر أن كثيراً مايتجاوز الناس فى إدراك حقيقة الإيمان وهى لاتوجد إلا حين يخلو القلب من الشرك فى كل صورة وأشكاله وأن هناك أشكالا من الشرك خفية لايخلص منها القلب إلا حين يتوجه لله . وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضائه وحده ، ويحس أن الله وحده هو الذى يصرفه ، فلا خيرة له إلا مااختاره الله له : (ومَاتَشَاؤون إلاَّ أن يَشَاء الله ربُّ العالمين[1]) . .

ويلتقى هذا كله بالثقة والطمأنينة والرضا والقبول وحين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة فلم يجد فى نفسه محلا لسؤال يقدمه بين يدى الله العلى العظيم ولن يجد من نفسه جرأة يقترح على الله صورة

(١) الآية رقم : ٢٩ من سورة التكوير .

معينة من صور النصر أو صور الخير التي تريدها نفسه بل أنه ليكل كل شيء إلى جناب الله صاحب الملك والتصرف ويلتزم ويتلقى كل ما يمليه عليه أنه خير .... وذلك وحده نصر على الهوى والذات والشيطان ... وهو النصر الداخلي الذي لايتم نصر خارجي بدونه[1] ، وأساس ذلك النصر الداخلي هو الصبر الطويل واحتمال الشدائد حسبة لوجه الله الكريم ، ويضرب القرآن الكريم في العهد المكي لهذه المعاني مثلا أصحاب الأخدود في سورة البروج . .

(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود . النَّارِ ذَاتِ الوَقُود إِذْ هُم عَلَيْهَا قُعُود وهُم عَلَى مَايَفْعَلُون بالمُؤمنِينَ شُهُود . وما نَقَمُوا مِنْهم إلاَّ أن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيد[2]) . .

لقد استحق أصحاب الأخدود ـ هذا الغضب من الله في حالة السلطان الذي كانوا يملكونه وهذه صورة ظاهرة لمفهوم نصر الكافرين ولكنها صورة الهزيمة المنكرة . .

وكانت صورة المؤمنين الظاهرة صورة هزيمة ولكنها في الحقيقة واحدة من صور النصر فوزن الحادثة وما استحقته من نقمة وغضب كما ينته بعد فوراءه حساب الله الكبير المتعال .

وتبقى في التاريخ روعة الإيمان المستعلي على الفتنة المنتصر بالعقيدة على الطغيان . .

---

(١) راجع في ظلال القرآن : ج ٢٤ ص ٧٩ – ٨١ .

(٢) الآيات من رقم : ٤ – ٨ من سورة البروج .

ويبقى تجرد المؤمنين من لذائذ الحياة نصراً فوق الشهوة ويبقى استعلاؤهم فوق الآلام نصراً على قوة المعتدين .

ومن هنا فإن بلاء الدعوة فى العصر الحديث هو تكرار هذا السؤال : متى نصر الله ؟ .

إن قيم الجهاد لاترتبط بثمن يقبض أورجاء ينتظر، إن قيم الجهاد هى فقط لتكون كلمة الله هى العليا و كلمة الذين كفروا السفلى . .

وإنه من الخطأ أن يفهم الدعاة أن معنى النصر هو تحقيق مطالب الحياة بالحكم أو بالجاه أو بالمال ، إنه من الخطأ أن يجعل الدعاة موازين النصر موازين الأرض المحدودة السطحية الفانية ، بل إن المعنى الذى يجب أن يفهم عن النصر هو المعنى الذى تقدمه سورة : « أصحاب الأخدود » الذين انتصرت أرواحهم على الخوف والألم وانتصرت أجسادهم على جاذبية الحياة ونعمها . .

وانتصرت قلوبهم على الفتنة الطاغية فكانوا شرفاً للجنس البشرى كله ... ذلك ماتحتاجه الدعوة والداعية فى العصر الحديث وذلك ما طبقته طلائع التبشير هنا فى منطقة جنوب شرق آسيا إذ يعيش الواحد منهم أربعين عاماً فى قرية صغيرة فى الغابات يعيش معهم بخلق طيب ويقدم لهم المساعدات ويدعوهم فى رفق ويستقطبهم حوله حتى يحبوه ثم يجعلهم بعد ذلك مسيحين . .

ولقد شاهدت فى يناير سنة ١٩٧١ أثناء السيول التى اجتاحت عاصمة ماليزيا (كوالا لمبور) رجال الكنيسة من المبشرين وهم

يخوضون لجج الفياضانات ، ويحملون الغذاء والكساء والدواء للمصابين ؛ وعلماء الإسلام فى بيوتهم يتختمون بالذهب ويجلسون فى هدوء آمنين ... فلما انتهى البلاء واستوت على الجودى لهج الناس المسلمون بالثناء على المبشرين ، وثاروا ساخطين على علماء الإسلام .... فهل يملك رجل الكنيسة منهج عمل مع الجماعة مثل مايملك العالم الإسلامى ... ؟ . .

إن الفارق الوحيد هو الإعداد والتربية وذلك هو داء الداعية الإسلامى وواجب معاهد الإسلام فى العصر الحديث ....

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له [١] . .

وقد تكفل الله لهذا المؤمن أن سيجعل له منزلة ورضواناً ومحبة . .

---

(١) مسلم كتاب الزهد والرقائق ج : ٤ ص : ٢٢٩٥ ، راجع السراج المنير ج : ٢ ص : ٤٣٠ ، الفتح الكبير ج : ٢ ص : ٢٢٢ .

الفصل الثالث

مراحل الدعوة

تمهيد :

(إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقْ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقْ . إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَم - عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَم[1]) . .

إنها أول مانزل على الاطلاق تبدأ باسم الله : وتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم أول ماتوجهه فى بعثه رسولا يبلغ دعوة الله التى اختير لها ، توجهه وقد اتثقت بالوحى صلته بالملأ الأعلى ، توجهه إلى : أن يقرأ باسم ربه ، فهو مصدر الخير كله والكمال كله ولاتتحقق للإنسان ذاتيته البشرية المعتدله إلا إذا كان فعله وعمله من عند ربه وابتغاء وجه ربه ، فيتحول بذلك خط التاريخ كله تحولا ما وقع قط ، ولن يقع مثله فيما بعد أبدا . .

وكان : (اقرأ) مفرق الطريق بين علم الضلالة الجاهلية ولوكانت فى أرقى حضارات المادية وبين علم الربوبية ، فإن فيه النقلة البعيدة من الظلام إلى النور ، ومن الباطل إلى ألحق ، ومن الشك إلى اليقين ، فان مصدرالتعليم الربا هو الله جل‌جلاله منه يستمد الإنسان كل ما يعلم وكل مايفتح به من أسرار هذا الوجود . وأسرار نفسه وأسرار الحياة التى يعيشها . .

---

(١) الآيات من رقم : ١ - ٥ من سورة العلق .

من ذلك المصدر الوحيد باسم ربك يتلقى البشر علمهم فى أول لقاء مشهود بين الوحى والرسول النبى ليبدأ فى تعليم البشر اياها . . .

ولقد كانت هذه الحقيقة التى تلقاها قلب الرسول النبى — صلى الله عليه وسلم — فى اللحظة الأولى المشهودة هى التى ظلت تصرف شعوره ولسانه وعمله واتجاهاته طول حياته بوصفها قاعدة الايمان الأولى :

(باسم ربك) ، وقد عرف العلماء السابقون هذه الحقيقة ، أن الرسول النبى الذى سيحمل العلم الربانى إلى البشرية كلها هو المنعوت فى كتبهم بسمات خاصة . .

وقد نطق بالرسالة من قبل مجيئها راهب فى الطريق هو : «جرجيس» : بحيرا مترهب ، نصرانى على مايرويه صاحب التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم :

فجاء الراهب وهم يحملون رحالهم فصار يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال : هذا سيد العالمين : هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين[1] . .

---

(١) التاج — ج : ٣ ص : ٢٤٧

وتتكرر المقالة من راهب آخر هو « نسطورا » على . مارواه صاحب السيرة الحلبية :

فدنا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – سرا من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال :

آمنت بك وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة : ثم قال يامحمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة وأوضح لى عن كتفك فأوضح له فاذا هو بخاتم النبوة يتلألأ فأقبل عليه يقبله ويقول :

أشهد أن لاإله إلاالله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمى الذى بشربك عيسى بن مريم[1] . .

وقد نطق بتلك الوحدة بين الرسالة والنبوة « ورقة بن نوفل » وهو عالم جليل فى الأديان قال فى الحلبية :

فقال له ورقة أبشر ثم أبشر فانى أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم فانك على مثل ناموس موسى وأنك نبى مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك[2] . . .

والروايات فى كتب السنة والسيرة تفيد أن الحجر كان يلقى السلام على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل البعثة بصفة الرسالة ..

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ١٥٨

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٢٨٠

قال فى التاج :

وقال على رضى الله تعالى عنه : كنت مع النبى — صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها فما استقبله جبل ولاشجر إلا وهو يقول :

السلام عليك يارسول الله . .

وابن هشام يؤكد هذه الرواية فى سيرته ، يقول :

كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بحجر ولا شجر إلا قال :

السلام عليك يارسول الله

قال ابن كثير فى سيرته

قال : فرفعت رأسى إلى السماء فأنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فما أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك فمازلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها

---

(١) التاج ج : ٣ ص : ٢٤٩

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٣٤ راجع الوفاج : ١ ص : ١٦١

فقالت : يا أبا القاسم اين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى . . . ؟ . ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر ياابن عم وأثبت فو الذى نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة[1] . .

لقد كان مفهوم النبوة والرسالة متحدا فى الماصدق؛ متحدا فى الوظيفة التى بعث من أجلها خير المرسلين وخاتم النبيين لأن العقل فى هذه المرحلة كان يتلقى معلوماته من ثقافته العربية التى ليس فيها هرأ المنطق الأرسطى . .

ويؤكد وحدة الرسالة والنبوة مفهوما وماصدقا ماورواه الامام مسلم رضى الله عنه فى باب اسلام عمرو بن عبسة وهو يسأل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن معنى النبى فقال له رسول الله ونص الفقرة من الحديث الشريف

فتلطفت حى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت؟ قال : نبى فقلت : وما نبى ؟ قال : أرسلنى الله فقلت : وبأى شىء أرسلك ؟ قال : أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شىء قلت له : فمن معك على هذا ؟ قال : حر وعبد . . فقلت إنى متبعك[2] . .

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ص : ٤٠٣ ، ٤٠٤

(٢) مسلم ج : ١ص : ٥٦٩ حديث رقم ٨٣٢ راجع السيرة لابن كثير ج٤ ص٤٤٢ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٢١

ومادام الاستعمال قديما قد جرى على اتحاد النبوة والرسالة فى الماصدق والمفهوم وصح عن سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفسيره كلمة : (نبى) بمعنى (رسول) فلماذا جنح العلماء إلى المفارقة بينهما . . . ؟ .

ليجنح علماء الكلام[1] إلى التفرقة بين الرسول والنبى بعموم وخصوص مطلق فانهم قد جهلوا بترك لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو . .

ولكن لماذا يجنح إلى هذه التفرقة علماء السيرة . . . ؟ .

لقد قال فى السيرة الحلبية

ياليتنى فيها جذعا ـ أى ياليتنى فى زمن الدعوه إلى الله ـ أى إظهارها الذى جاء به . . . بناء على تأخر الدعوى التى هى الرسالة عن النبوة[2] . .

وهو تفسير مراعى الحد المنطقى ولهذا أعاد الضمير فى كلمة (فيها) إلى الدعوة ولوأنه أعاده على مايفهم من السياق وهى المعارك التى ستدور بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الكفار والتى يتمناها ورقة لينصر الله نصرا موزرا ، لكان أجود وأفضل واللغة تجريه والقرآن نفسه يسمح به فى قوله تعالى : (حتى تَوَارَتْ بالحِجَاب) . (إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[3]) . .

---

(١) أصول الدين أبو اليسر البزدوى ص : ٢٢٢ ، كتاب الفقة الأكبر ص : ٥٨

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٢٧٧ ، ٢٩٨

(٣) تفسير الطبرى ج : ٢٣ ص : ١٥٥ ، روح المعانى ج : ٢٣ ص : ١١٢ الخازن والبغوى ج : ٦ ص : ٥٥ . راجع شذور الذهب ص : ٣٢ تحقيق الشيخ محى الدين

وكذلك فى المواهب اللدنية يجعل الرسالة متأخرة على النبوة فيقول : نبوته عليه الصلاة والسلام كانت متقدمة على ارساله لأن نزول (قم فأنذر) انما كان بعد النبوة [١] . .

وكان يمكن التسليم بهذا التفسير لو افتتحت السورة بيا أيها النبى قم فأنذر . . . لكنها لم تفتتح بذلك بل بـ (يا أيها المدثر) . .

والمدثر هو صاحب الرسالة التى يؤمر بتبليغها بقوله تعالى : (قم فأنذر) ويدل على ترجيح هذا التفسير أسلوب صاحب المواهب وشارحها وهو يرى مقالة ورقة ، يقول :

إنه أى ورقة ـ قال : أبشر فأنا أشهد ـ أقر وأذعن ـ أنك الرسول الذى بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل تأكيد زيادة فى تطمينه وأنك ستؤمر بالجهاد ـ علم ذلك من الكتب القديمة لتبحره فى علم النصرانية ـ وإن أدرك ذلك لأجاهدن معك » وفى آخر هذا الحديث فلما توفى قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد رأيت القيس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى فهذا تصريح منه بتصديقه برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم [٢] ـ . .

ولكن الذى يؤسف أن الشارح يستدرك على هذا الشرح الطبيعى المتسق مع الذاتية الاسلامية بقوله :

لكن يجوز أنه قاله قبل الرسالة لعلمه بالقرائن [٣] . .

---

(١) المواهب اللدنية ج : ١ص : ٢٣٧

(٢) المواهب ج : ١ ص : ٢٤٢

(٣) المواهب ج : ١ ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣

وهل القرائن التى كانت مصدر شهادة ورقة لديها تفرقه بين النبى والرسول ؟ مع العلم بأن التفرقة حديثة لما دخل لسان أرسطو فى لغة العرب فأفسد منطق المسلمين[١] ؟ . .

ولقد عقد القاضى عياض رضى الله عنه فى كتاب الشفا فصلا عن النبوة والرسالة وذكر اختلاف العلماء التقليدى فى حقيقة النبى والرسول[٢] ، وسار فيه على النمط الذى سلكه علماء الكلام مع أنه قد ذكر فى جملة عابرة له معنى لطيفا لوسار عليه فى توضيح مفهوم النبوة والرسالة لكان أقرب للذاتية الاسلامية لأنه يفيد الوحدة بين الرسالة والنبوة وكان أبعد عن لسان أرسطو الذى جهل الناس به . .

قال القاضى عياض :

وحط الله عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس مانزل اليهم . .

ففى العبارة توضيح لمصدر الارسال ولوظيفته . .

فالنبوة تأخذ عن الله الوحى . .

والرسالة تبلغ الناس ماجاءهم من عند الله . .

وكذلك هو اتحاد الماصدق والمفهوم من حيث التبليغ إذ هو يحتاج إلى مصدر يأخذ عنه وجهة ينقل إليها وذلك هو مايفهم من تفسير النبى – صلى الله عليه وسلم – : (نبى) بمعنى (رسول) فى حديث

---

(١) الاسلام والعقل ص : ٤٢ ، ٤٨

(٢) الشفاج : ٢ ص : ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ج : : ١ص : ١٤٦ ، ٣١٧

إسلام عمرو بن عبسة الذى رواه مسلم ، وعلى هذا فقد كانت (اقرأ) و (قم فأنذر) حقيقتان لمصدر الوحى والجهة التى سينقل إليها . .

فالنبوة اصطفاء من عند الله . .

والرسالة نقل ما أوحى إلى الناس . .

وكلاهما كالنور وشعاعه . .

وكلاهما فى الجسد الواحد كاليد اليمنى واليد اليسرى تعطى وتأخذ . .

وماجهل الناس بالاختلاف فى حقيقة النبوة والرسالة إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو[1] . .

لقد قال الحجر له قبل البعثة :

السلام عليك يارسول الله . .

وقال الراهب :

أشهد أنك رسول الله . .

وقال له ورقة :

أشهد أنك نبى مرسل[2] . .

---

(١) الإسلام والعقل ص : ٣٤ ، ٤٨

(٢) راجع الوفا ج : ١ ص : ١٦١ ، السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٠٣ السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٣٤ ، المواهب ج : ١ ص : ٢١٩

وقال له جبريل :

يا محمد أنت رسول وأنا جبريل . .

وقالت خديجة رضى الله عنها :

والله إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . .

والإضافة إلى الأمة فيها معنى الرسالة . .

وقال هو - صلى الله عليه وسلم - : نبي يعنى : رسول الله . ..

فدل ذلك على أن الرسالة والنبوة متحدان فى الماصدق . . . وليس من المعقول أن يكون هناك نبي غير رسول . . . فمهمة الأنبياء هى توحيد الله الذى يتعلق به الإرسال والبعث . .

وقد ذكر فى شرح الشفاء أدلة القائلين بهذه الوحدة ومنها :

واستدلوا على تساويهما بقوله تعالى :

(وما أَرْسَلْنَا من قَبْلك من رَّسُول ولا نَبىٍّ . . . .)

لأنه علق فعل الإرسال بهما فاذا أرسل النبى لزم أن يكون الرسول نبيا والنبى رسولا وإليه أشار بقوله : فقد ثبت لهما معا الإرسال . .

وقد جرى الاستعمال القرآنى فى مكة والمدينة المنورة على هذا الأساس :

فجميع الأحكام الشرعية التى هى من سمات الرسالة فيما يدعيه علماء الكلام مبتدأ بنداء رخى كريم ، (يأيُّها النبى) .

---

(١) الشفا شرح نسيم الرياض ج : ٢ ص : ٤٥٣ .

(يـأيهـ النبىُّ اتق الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين [1] . .) .

(يـأيها النبىُّ إذا طلقتم النساء [2] . . .) .

(يـأيها النبىُّ لمَ تُحرمُ ما أحلّ الله [3] . . .) .

(ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذنٌ قل أُذنُ خيرٍ لكم [4] ...)

فلو كان اصطلاح الرسول مرادا هنا لخاطبه بـ(يـأيها الرسول) أنها أحكام شرعية .

كذلك فى مكة أول البعثة نزل عليه : (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا [5] . . .) .

وإذن فالنبي رسول والرسول نبي وقد بدأت الرسالة بالاصطفاء وأعد النبي – صلى الله عليه وسلم – بمنهج تربوى خاص بتكاليف ربانية خاصة قبل أن يبدأ دعوته وذلك هو طبيعة المنهج القرآنى . أن يمهد ويخطو وئيدا ويتحرك متئدا لأنه يربى ويبنى ويرفق ويحنو فلا يأخذ الناس جزافا ولا يأتيهم بغتة ولا يتصرف معهم على عجل ، ولله در الشاعر :

داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

---

(١) من الآية رقم : ١ من سورة الأحزاب « مدنية » .

(٢) الآية رقم : ١ من سورة الطلاق « مدنية » .

(٣) الآية رقم : ١ من سورة التحريم « مدنية » .

(٤) من الآية رقم : ٦١ من سورة التوبة « مدنية » .

(٥) الآية رقم : ١٥ من سورة المزمل « مكية » .

لقد كانت رسالة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي نبوته وكانت نبوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي رسالته فهو خاتم الأنبياء وهو خاتم المرسلين وكل نبي كذلك هو رسول ونبي ذاتا ووظيفة . .

وبهذا الفهم تكون قد أبرزنا ذاتية المفهوم للنبوة والرسالة فى الجو الإسلامى ؛ وأغلقنا به شرا مستطيرا على من يدعى النبوة فيما بعد من أمثال الفئة الضالة من القاديانية وأشباهها . .

واتقينا فتنة التفاضل بين النبوة والرسالة[1] . واسترحنا من خزعبلات العموم والخصوص .

وأوصدنا باب البحث عن صفة الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ فى تبليغ الدعوة[2] فقد انتقل حالهم إلى الله جل شأنه وهو وحده صاحب الملك والتصريف والبحث فى هذه المسائل مهوك وبعد عن طبيعة الإسلام وجرى وراء تفكه فكرى لايليق بإسلام الوجه لله . .

لقد جاءت الرسالة أو النبوة ليعيش أهل الأرض فى كنف الله ورعايته المباشرة يتطلعون فى كل أمر من أمورهم إلى وحى من عند الله يتحركون به ويحسون بيد الرحمة تمتد إليهم فى كل حين لتنقل خطاهم خطوة خطوة إلى الصراط المستقيم .

---

(١) أثار شارح الشفاء هذه المسألة راجع ج : ١ ص : ٣١٧ من كتاب الشفاء القاضى عياض .

(٢) راجع الحلبية ج : ١ ص : ٢٧٧ ـ ٢٨٧ ، المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وكان القائد للبشرية كلها قد أعد بعد الرسالة بمنهج خاص . .

(يـأَيُّهَا المُزّمل . قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَه أَو انْقُصْ مِنْه قَلِيلاً . أَوزِدْ عَلَيْه وَرَتِّل القُرْآنَ تَرْتِيلاً . إنا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَولاً ثَقِيلاً . إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وطْئاً . وَأَقْوَمُ قِيلاً . إن لَكَ فى النَّهَار سَبْحاً طَوِيلاً . واذْكُر اسْمَ ربِّكَ وتَبَتَّل إلَيْه تَبْتِيلاً [1]) . .

هكذا دبر الله لمحمد — صلى الله عليه وسلم — هذه الفترة التربوية يعده فيها لحمل الأمانة الكبرى بوسائل الإعداد الإلٓهية المضمونة ، قيام الليل ، ترتيل القرآن ، ذكر الله . . . الخ .

فان الاتصال بالملأ الأعلى سيستمر لتبليغ شرع الله إلى الناس كافة وهذا الاتصال لابد وأن تسبقه تهيئة خاصة يتم فيها التجرد المطلق لله لتستوعب الروح الطاهرة فيوضات الأنس الإلٓهى والمدد الإلٓهى والصلة الإلٓهية ، وحتى تذوب المعانى الأرضية كلها وتصفى النفس من كل صغيرة لاتتفق مع نورانية الحق وجلال الله الأكبر ، كانت الأوامر الالهية تربى سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — وتعده بمنهج تدريبى قوى يتصل فيه بالله والناس نيام — ويذكر فيه اسم ربه وقد سكن الوجود وغاب النائمون ، ويرتل القرآن ترتيلا يصل بصوته النبوى أجواء الأرض بأسماع السماء . .

ويمضى الرسول الكريم — صلوات الله عليه وسلامه — يقوم الليل إلا قليلا ، ويرتل القرآن ترتيلا ، ويذكر اسم ربه بكرة وأصيلا حتى جاء الحق بتنفيذ الوظيفة . .

(يا أيها المدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذر)

---

(١) الآيات من رقم ١ — ٨ من سورة المزمل .

فبدأ دعوته إلى الله[1] . .

واتخذت الدعوة أربع مراحل على نحو ماجاء فى القرآن الكريم :

١ ـ (قم فأنذر[2]) . .

٢ ـ (وأنذر عَشيرَتكَ الأَقْرَبين[3]) . .

٣ ـ (. . . لتنذرَ أمَّ القُرى ومَن حَوْلها[4] ...) . .

٤ ـ (. . . لتخرج النَّاس من الظُّلُمَات إلى النُّور[5]) . .

وهى :

مرحلة إعداد القيادة . .

مرحلة الأهل والأقارب . .

مرحلة العرب عامة . .

مرحلة البشرية كلها . .

وأشهد أنه قد بلغ الدعوة بهذه المراحل كلها وهو مازال فى ظلال مكة والبيت العتيق . .

---

(١) نزول يأيها المزمل قبل يأيها المدثر وإعلان هذا المنهج التربوى بعد الاختبار والاصطفاء يلغى البحث المتعلق باكتساب النبوة ويجعله فى غير محل له مطلقا لأن كثرة العبادة وقوة الرياضة النفسية جاءت بعد الاصطفاء والرسالة وهذا يفيد أن الاكتساب ليس طريقاً مسلوكاً ولا مفروضاً لتقدم الاصطفاء على كثرة الرياضة وقوة العبادة ...

(٢) الآية رقم : ٢ من سورة المدثر .

(٣) الآية رقم : ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٤) الآية رقم : ٧ من سورة الشورى .

(٥) من الآية رقم : ١ من سور إبراهيم .

ضابط التقسيم

ماهو أول مانزل من القرآن ؟ .

هل هو اقرأ . .

هل هو يـأيها المدثر . .

لقد دافع ابن حجر فى فتح البارى عن رواية أبى سلمة بن عبدالرحمن لما سأله يحيى بن أبى كثير عن أول مانزل فقال : سألت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن ذلك وقلت له مثل الذى قلت فقال جابر : لا أحدثك إلا ماحدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أرشيئا ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ونظرت أمامى فلم أرشيئا ونظرت خلفى فلم أرشيئا فرفعت رأسى فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على ماء باردا ، قال : فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال : فنزلت : (يـأَيُّها المُدَّثِّر : قُم فَأَنْذر) . .

قال ابن حجر فى هذه الرواية نقلا عن الكرمانى : استخرج جابر أول مانزل يـأيها المدثر – باجتهاد وليس هو من روايته والصحيح ماوقع فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها . .

ثم قال : ويحتمل أن تكون الأولية فى نزول يـأيها المدثر يفيد السبب أى هى أول ما نزل من القرآن بسبب متقدم وهو ماوقع من التدثر الناشىء عن الرعب ، وأما اقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم

وهو احتمال بعيد فى نظر ابن حجر كذلك هنا رأى آخر فى أن أول مانزل (المزمل) أن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحى . . .

. . . بخلاف (المدثر) فان فيها (قم فأنذر) [١] . . . الخ .

ماذكره ابن حجر فى الدفاع عن هذه الروايات ليرجح أن أول مانزل هو (اقرأ) كما جاء فى رواية السيدة عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى [٢] . .

وإذا كانت معرفة مانزل بتاريخه فى هذه الفترة المكية قد شاء الله تعالى أن يستأثر بعلمها فلم يبق لى ـ بعد أن كثر الحديث بين العلماء فى تحديد أول مانزل ـ إلا مااتفق عليه العلماء وهو ترتيب سور القرآن الكريم على نحو ماذكره علماء علوم القرآن [٣] . .

وقد لاحظت أن اتخاذ ترتيب السور على نحو ماذكره علماء علوم القرآن وحده كضابط لتقسيم مراحل الدعوة قد لايساعد على تحقيق

---

(١) فتح البارى ج : ١٠ ص : : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، إرشاد السارى ج : ٧ ص : ٤٠٣ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، الحلبية ج : ١ ص : ٢٨٥ ، أسباب النزول للواحدى ص : ٤٧٥ روح المعانى ج : ٢٩ ص ١١٥ ، التاج ج : ٤ ص : ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، راجع تفسير الطبرى ج : ٢٩ ص : ٩٠ ، الخازن ج : ٧ ص : ١٧٢ ، تفسير ابن كثير ج : ٤ ص : ٤٤٠ ، التفسير الحديث ج : ١ ص : ٩٢ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٣٩٣ ، ٣٩٧ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤١٣ ، مناهل الفرقان ج : ١ ص : ٨٦ ، ٨٨ ، تاريخ التشريع للشيخ السايس ص : ٤٠ ، ٤١ ، الكامل فى التاريخ ج : ١ ص : ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) راجع الاتقان للسيوطى ج : ١ ص : ٦٨ ، ٧٢ .

(٣) راجع الإتقان للإمام السيوطى ج : ١ ص : ٧٢ ، ٧٣ ، التفسير الحديث ج : ١ ص : ١٤ ، ١٥ .

فائدة ، إذ فى سورة متقدمة يوجد ذكر للدعوة العامة قبل الدعوة الخاصة فسورة الأعراف مثلا تأخذ فى التسلسل المتفق عليه عند العلماء رقم ٣٩ والشعراء ٤٧ ومع هذا ففى الشعراء : (وأنذر عشيرتك الأقربين) وفى الأعراف : (إنى رسول الله إليكم جميعا) . .

فأضفت إلى ترتيب السور الذى اتفق عليه العلماء دلالة الآية على الأمر بالتبليغ أو بأنها إخبار عن حدوده ، ومعالمه وآفاقه . .

وعلى هذا فالضابط الذى سأعتمد عليه إن شاء الله فى تقسيم مراحل تبليغ الدعوة هو :

الترتيب المتفق عليه بين العلماء لسور القرآن الكريم . .

ومدلول الآية : أمر هو أو إخبار ؟ . .

فان اجتمع الترتيب والدلاله على الأمر بالتبليغ كانت الآية علامة مرحلة من مراحل تبليغ الدعوة . . .

وهى فى نظرى قدر ماوصلت إليه كالآتى :

مراحل تبليغ الدعوة

١ – (قُمْ فَأَنْذِر . وربَّكَ فَكَبِّر [١]) المدثر (٧٤) . .

وهذا دور العمل السرى واختيار الرعيل الأول واعداد القيادة التى تتحمل مع النبى – صلى الله عليه وسلم – نشر الدعوة . .

---

(١) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة المدثر .

٢ ـ (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين[1]) الشعراء (٤٧) . .

وهو بدء بالعمل الجهرى بعد أن أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة . قال فى إرشاد السارى : لأن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم[2] . .

٣ـ (لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حَوْلَهَا[3]) الشورى (٦٢) . .

وهو على ما قاله الطبرى مكة ومن حولها شرقا وغربا[4] . .

وهى دور دعوة العرب . .

٤ ـ (لِتُخْرِجَ النَّاسَ من الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور[5]) ابراهيم (٧٢) . .

وهو دور العمل على المستوى الانسانى كله . .

وقد اخترت هذه الآيات كضابط لمراحل تبليغ الدعوة لأنها فى سورها المتسلسلة حسب اتفاق العلماء فيها أمر بالانذار وفيها سير طبيعى مع منهجية القرآن الكريم التى تأخذ بالتدرج فى التربية والاعداد حتى فى العصر المدنى نجد التدرج سمة التشريع الإسلامى[6] على نحو ما ذكره الكاتبون فى تاريخ التشريع الإسلامى . .

---

(١) الآية رقم : ٤-٢ من سورة الشعراء .

(٢) إرشاد السارى ج : ٧ ص : ٢٧٩ .

(٣) من الآية رقم : ٧ من سورة الشورى .

(٤) الطبرى تفسير ج : ٧ ص : ٢٧١ ، روح المعانى ج : ١٩ ص : ١٣٤ .

(٥) من الآية رقم : ١ من سورة إبراهيم .

(٦) تاريخ التشريع الخضرى بك ص ١٧ ـ تاريخ التشريع الشيخ السايس ص ٥٣ .

حقيقة هناك آيات تدل على عالمية الدعوة فى سورة الأعراف (٣٩) آية رقم : (١٥٨) ، ولكنها اخبار عن أبعاد الرسالة وشمولها للناس كافة : (قل يَـأَيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ الله إليْكُم جَمِيعًا) والأخبار ليس كالأمر بالتبليغ فى اتخاذه ضابطا يصطلح عليه فى تقسيم مراحل تبليغ الدعوة كذلك فى سورة الفرقان (٤١) آية رقم (١) دلالة على هذا العموم ولكنه كذلك اخبار عن حدود الرسالة وآفاقها العالمية . .

وفى سورة سبأ (٥٨) آية رقم (٢٨) وهى فى نفس الاتجاه الذى يعلن ويخبر أن الإسلام رسالة للعالمين لا لبيئة ولا لقومية خاصة :

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيرًا وَنذيرًا ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُون) . .

وكذلك فى سورة الأنبياء (٧٣) آية رقم : (١٠٧) :

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً للْعَالَمين) . .

وفى سورة الأنعام (٥٥) آية رقم (٩٢) (ولتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حَوْلَهَا) مما يفيد تبليغ الدعوة إلى العرب ولكنها جاءت فى وسط الآية التى تتوجه إلى الاخبار عن صفة القرآن الكريم أنه كتاب مبارك مصدق الذى بين يديه . .

وإذن فلم يبق – على ما وصلت إليه بعون من عندالله إلا الآيات الدالة على الأمر بالتبليغ حسب ورودها ووجودها فى السور المتسلسلة باتفاق العلماء ، ولعله مما يقوى هذا الضابط الذى أذهب إليه الحديث الشريف الذى أورده شارح الشفاء [1] :

(بعثت إلى الناس كافة :

فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى بنى هاشم . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى وحد) . .

ذكره السيوطى فى جامعه الصغير . .

فى الحديث خمس دعوات :

واحدة للناس كافة . .

وواحدة للعرب . .

وواحدة لقريش . .

وواحدة لبنى هاشم . .

وواحدة لذاته الشريفة . .

---

(١) الشفاء شرح على القارى ج : ١ ص : ٣٠٠ : راجع السراج المنير ج : ٢ص: ١٤٣ من حديث ابن سعد عن خالد بن سعدان مرسلا .

فإذا استثنينا الدعوة الأخيرة لأن الله تعالى فتح به لدينه فى كل صوب وحدب بقيت أربع دعوات ، للناس كافة وللعرب ولقريش ولبنى هاشم . .

فإذا ما تتبعنا أحداث التاريخ وجدنا قريشا وبنى هاشم قد أدخلهما النبى — صلى الله عليه وسلم — فى عشيرته الأقربين يوم أن صعد على الصفا وجعل ينادى . .

يامعشر قريش — أو كلمة نحوها — اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم شيئا ، ياعباس ابن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، وياعمة رسول الله ، لاأغنى عنك من الله شيئا ، ويافاطمة بنت محمد — صلى الله عليه وسلم — سَلِينِى مَاشِئْتِ من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا [1] . .

قال ابن حجر فى شرح الحديث : فى رواية موسى بنت طلحة عن أبى هريرة عنه مسلم واحد : دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قريشا فعم وخص فقال يامعشر قريش انقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب كذلك ، يامعشر بنى هاشم كذلك ، يامعشر بنى عبد المطلب كذلك . . . الحديث ، وقد ذكر صاحب الحلبية : أنهم بنو هاشم وبنوا المطلب وبنو عبد شمس وبنو نوفل [2] . .

---

(١) فتح البارى ج : ١٠ ص : ١٢٠ راجع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد رضا ص : ٨٢ - راجع روح المعانى ج : ١٩ ص : ١٣٥ الطبرى ج : ١٨ ص ١١٩ ١٢٠ الوفا ج : ١ ص : ١٨٢ ، ١٨٣ ، السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٦ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣١٩ .

فكان ذلك عونا لى على أن أجعل قريشا وبنى هاشم المذكورين فى الحديث السالف مرحلة واحدة داخلة ضمن (وأنذر عشيرتك الأقربين) . .

وعلى هذا فأطوار الدعوة فى مكة زمنيا اثنتان :

١ ـ الدعوة وهى فى ظل العمل السرى ومدتها ثلاثة أعوام . .

٢ ـ الدعوة وهى فى ظل العمل الجهرى ومدتها عشرة أعوام [1] . .

ومراحل تبليغها أربعة :

١ ـ مرحلة واحدة فى دور العمل السرى وهى مرحلة إعداد : القيادة وثلاث مراحل بعد قوله تعالى :

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وهى :

١ ـ (وأنذر عشيرتك الأقربين) . .

٢ ـ (لتنذر أم القرى ومن حولها). .

٣ ـ (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) . .

أما ما ذكره صاحب زاد المعاد فى فصل ترتيب الدعوة ففيه تداخل إذ قد جعل إنذار قومه مرحلة ثالثة ، وجعل ، وأنذر عشيرتك الأقربين مرحلة سابقة عليها ، وهما واحد لافرق بينهما كما أنه

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣١٨ ـ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٦٠ راجع فتح البارى ج : : ٨ ص : ١٦٤ ، صحيح مسلم ج : ٤ ص : : ١٨٢٦ ، محمد رسول الله محمد رضا ص : ٧٧ ، ٨٢ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص ٣٩٠ ، .

جعل النبوة مرحلة داخل أقسام الدعوة مع أن الدعوة هى وظيفة النبوة على الرأى القائل بالفرق بين الدعوة وهى الرسالة وبين النبوة ، ولهذا لم أحظ بشرف التبعية لابن القيم الجوزية فى تقسيمه للدعوة ونص عبارته :

(فصل فى ترتيب الدعوة ، ولها مراتب) :

المرتبة الأولى النبوة . .

المرتبة الثانية : انذار عشيرته الأقربين . .

المرتبة الثالثة : إنذار قومه . . .

المرتبة الرابعة : إنذار قوم ما آتاهم من نذير من قبلهم وهم العرب قاطبة . .

المرتبة الخامسة : إنذار جميع من بلغته من الجن والأنس إلى آخر الدهر[1] . .

ولو أنه قصد بمرحلة النبوة مرحلة العمل الفردى السرى للدعوة الإسلامية وجعل المرحلة الثانية والثالثة مرحلة واحدة هى : دعوة أهله وأقاربه كما هو واضح من تحديد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لمدى الأهل والأقربين فى ندائه لقريش وبطونها يوم نزلت هذه الآية ، لكان متمشيا مع النصوص القرآنية التى توحى بمدلولها

---

(١) زاد المعاد ج : ١ص : ٢٠ ، راجع الوحى إلى رسول محمد صلى الله عليه وسلم ص : ٦٦ ، ٦٧ .

ووجودها فى السور بتسلسلها على التدرج فى التبليغ وهو المنهج الطبيعى الذى دائما يستخدمه القرآن الكريم وهو كذلك منهج يتمشى مع طبائع الأشياء يتدرج من الأدنى إلى الأعلى ، ويتصاعد من القليل إلى الكثير ... حتى يشمل الدائرة التى يهدف إليها . .

ولكن ابن القيم الجوزيه قسم مراتب الدعوة هكذا دون اعتماد على أصل أو ضابط ولعل عذره أن العمل الأكاديمى للدعوة الإسلامية لما يتهيأ له بعد الجو العلمى الذى يسمح بمثل هذه الدراسات وعلى كل فجزاه الله خيرا ونفع بعلمه . . .

كذلك لم أحظ بشرف المتابعة للتقسيم الذى ذكره شيخى فضيلة الدكتور المرحوم العلامة محمد بن فتح الله بدران طيب الله ثراه وتغمده برحمته وأفسح له فى قبره وتقبل عمله فى الصالحين . .

لأنه وصل مرحلة إعداد القيادة وهى مرحلة العمل السرى للدعوة بمرحلة ، « وأنذر عشيرتك الأقربين » وهى المرحلة التى نفذ بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — أمر الله تعالى بأن يصدع بما يؤمر قال ابن هشام : ثم أن الله عز وجل أمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادىء الناس بأمره وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنين — فيما بلغنى من مبعثه . ثم قال الله تعالى له : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين[1]) . .

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٢٦٢ ، راجع الطبرى ج : ١٤ ص : ٦٨ ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم — محمد رضا ص : ٨٢ ، راجع تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣١٨

قال فى شرح المواهب :

مازال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستخفيا هو والمسلمون فى دار الأرقم حتى نزلت : فاصدع بما تؤمر فجهر هو وأصحابه[1] . .

فدل ذلك على أن العلاقة بين قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) . وقوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر) هى علاقة التنجيز للأمر ، قال فى المواهب : قيل معناه أفرق بين الحق والباطل لأن الصدع الفرق بين الشيئين[2] . .

فجعل : (وأنذر عشيرتك الأقربين) مرحلة . .

وجعل : (فاصدع بما تؤمر) مرحلة قسيمة للمرحلة الثانية وأنذر عشيرتك ، مع أن فاصدع ليست مرحلة التبليغ بل هى مرحلة زمنية فى التبليغ ، والفرق بينهما أن مرحلة التبليغ لها حد تعمل فيه كالأفراد ، أو البيئة الخاصة أو البيئة العامة أو الناس جميعا . .

أما مرحلة فى التبليغ فهى المرحلة الزمنية الفاصلة بين أسلوبى العمل للدعوة أسلوب العمل بالطريقة السرية ، أو بالطريقة الجهرية . والذى يمثل المرحلة فى التبليغ هو : فاصدع بما تؤمر لأنه يأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينتقل بالعمل من طريقته السرية إلى طريقة جديدة وهى الجهر الذى يفصل بين الحق والباطل . .

كذلك جعل فضيلته الاسراء والمعراج مرحلة فى الدعوة مع أنهما معجزتان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهما أسرار خاصة فى مجال

---

(١) و (٢) المواهب ج : ١ ص : ٢٤٩ .

العمل للدعوة وليسا قسماً من أقسام الدعوة لا من حيث العمل لها أو من حيث تبليغها . .

وعلى كل حال فإن تقسيم فضيلته مراحل الدعوة فى العهد المكى – حسبما استخلصته – إلى خمس مراحل[1] ، كان له أثر طيب فى القاء أضواء على تفهمى خاصة لهذا التقسيم فجزاه الله خيرا وغفر له ورفعه مكانا عليا إن شاء الله . .

وفضيلة الدكتور محمد أبو شهبة يذكر للدعوة طورين : الطور السرى والطور الجهرى[2] ، ولكنه لم يتحدث عن مراحل التبليغ . .

فقد أصاب المحز فى جانب تقسيم الدعوة إلى طورين حسب العمل الزمنى ولكنه ترك تقسيمها من الناحية التوجيهية ، وهى مراحل التبليغ ، ولعل العذر الذى يلتمس لفضيلته أنه اتخذ المنهج التقليدى المألوف للكاتبين أسلوبا لعرضه السيرة النبوية فى مجال تخصصه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . .

فلم يكن لى كذلك شرف متابعته فى التقسم الزمنى فقط لأنه وضع تاريخى لا مفر منه لمن يتصدى لدراسة هذه الفترة المكية فى عمر الدعوة الإسلامية . .

وأيما كان فجزاه الله خيرا ونفع بعلمه وهدى بفقهه إلى سواء السبيل . .

---

(١) الفلسفة الحديثة فى الميزان ص : ٤٥٢ – ٤٥٥ .

٢) السيرة النبوية فى ضوء القرآن بالسنة ص ٢٨٩ ، ٢٩٨

مرحلة التبليغ الأول

اعداد القيادة

انتشارها وعملها :

بالنبوة المعصومة والرسالة الممنوحة من الله تعالى لسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم ، دعا إلى الإسلام فى بدء أمره سرا وهذه الدعوة فى هذه المرحلة جزء أساسى من منهج العمل مع الجماعة ، وقد رأينا فى الفصل السابق إلى أى حد وصل مستوى هذا الاعداد ، لقد ارتفع المسلمون الأوائل بدعوة الإسلام إلى أرفع مستوى تهون دونه الحياة نفيسها وجايلها . .

لقد كانت غايتهم القصوى هى الله وحده وقائدهم المعصوم هو محمد — صلى الله عليه وسلم — لا غيره وكان القرآن الذى يترى دستورهم المفدى . .

لقد استعذبت أرواح هؤلاء الأوائل رسالة الإسلام فمنحوها النفس والنفيس وآثروها على كل الوجود وسموا بأنفسهم فوق المجتمع الجاهلى بمادياته ومعنوياته . .

هذه القيادة التى رباها سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — لتتحمل نشر الدعوة الإسلامية أريدلها أن تنتشر فى ربوع الجزيرة والإسلام ما زال فى مكة يسير وئيدا بين الأصفياء المختارين حتى إذا ما ظهرت الدعوة جهرا وأذن للنبى — صلى الله عليه وسلم . بأن يصدع بها كانت القيادة فى شتى أنحاء الجزيرة العربية وخارجها

أعلام هداية تساند وتؤيد وتصدق وتدعو وتنشر دعوة الله فتظهر رقعة العمل للدعوة على مساحة شاسعة مترامية الأطراف ، وقد وجدت فى كل ناحية منها داعية يثق فى صدق برسالته ، ويجاهد فى صدق لنشر دعوته ، فتشتعل الجزيرة ساعتئذ بمشاعر من النور والإيمان تتلاقى مع صوت الحق الذى يصدع به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مكة « أم القرى » ومركز الإرشاد لجميع الدعاة . .

وهنا نجد قيادة الدعوة بعد أن أعدت القيادة كمنهج للعمل مع الجماعة أمرت بعضهم بالتوجه إلى ديارهم يدعون إلى الإسلام حتى يسمعوا بظهور النبى — صلى الله عليه وسلم — فيلحقوا به ، ويتضح هذا فى عدة نماذج منها :

النموذج الاول :

فى مكة المكرمة كانت ظاهرة اشتراك القيادة التى أعدها ورباها سيدنا — رسول الله صلى الله عليه وسلم — قوية الدلالة على منهجيتها فى العمل للدعوة . .

فسيدنا أبو بكر رضى الله عنه يدعو إلى الإسلام كل من يتوسم فيه خيرا ويعرف عنه صلاحا من أمره ، لقد كرس جهده الكريم لنشر الدعوة الإسلامية ، وقاد أصدقاءه إلى مركز الإرشاد إلى سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليعلمهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن ويمنحهم من فيوضات النبوة قبسا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وكان النجاح حليف سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فقد أسلم بدعايته : عثمان بن عفان . .

والزبير بن العوام . .

وسعد بن أبي وقاص[1] . .

وكان يتحمل مؤنة الضيوف الذين يفدون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كانت له ضيافات لا يفعلها أحد ، وعندما سمع قصة أبي ذر الغفاري وأنه بات عديدا من الأيام يعيش على ماء زمزم استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن يستضيفه عنده يقول فى الحلبية :

« إن أبا بكر قال يارسول الله ائذن لى فى إطعامه الليلة قال أبو ذر : فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف فكان ذلك أول طعام أكلته[2] »..

قال الطبرى فى تاريخه :

« ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة الصديق . فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا إلى الله عز وجل وإلى رسوله ، قال : وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ؛ وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها ؛ وبما كان فيهم من خير أو شر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ؛ وتجاربه . وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه وجلس إليه فأسلم على يديه ـ

---

(١) راجع السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣١٢ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٥٥٩

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٠٩ ، ٣١٦ ، دلائل البيهقى ج : ١ ص ٤٥٧ . محمد رسول الله اتين دينه ١١٧ .

فيما بلغنى ـ عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ، فجاءبهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام ، فصلوا وصدقوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم [(١)] » . .

ولقد كانت أعمال أبى بكر رضى الله تعالى عنه للدعوة الإسلامية أبعد من نشرها بالموعظة والحكمة والبيان والشرح وأبعد من إيواء الضيوف فقد تجاوزت أريحيته الكريمة هذه الحدود فوظف ثروته لشراء العبيد الذين ارتفعوا بقلوبهم المؤمنة على مستوى أسيادهم الأحرار الذين غاظهم هذا السمو العقلى والروحى فى إيمان عبيدهم فراحوا يسومونهم العذاب ألوانا وأشكالا . .

يقول ابن هشام :

« ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم :

عامر بن فهيرة . والنهدية وابنتها وأم عيسى ، ولبيبة جارية بنى مؤمل (المؤملية ، وزنيرة ..

وذكر فى شرح المواهب اللدنية أنه أعتق :

أبا فكيهة ، وأم بلال [(٢)] . .

---

(١) تاريخ الطبرى ج : ١ ص : ٣١٧ راجع المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤١٨ ، راجع الدرر ص : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣١٧ — ٣١٩ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٦٦ - ٢٦٩ ، الحلبية ج : ١ص : ٣٣٦ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص: ٦٦ — ٧٠ ، الدرر ص : ٤٧ ٥ المحبر ص : ١٨٣ ، ١٨٤ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٣

وتستمر هذه الأريحية القائدة تعمل للدعوة بذكائها وجاهها ومالها ، فأبو بكر رضى الله تعالى عنه هو الذى اشترى راحلة السفر لهجرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ودفع ثمن أرض المسجد الأول الذى أسس على التقوى من أول يوم فى المدينة المنورة .

ويوم تبوك تبرع بكل ما يملكه وما ترك لأولاده إلا الله ورسوله .. قال فيه النبى — صلى الله عليه وسلم :

(ان أمنَّ الناس على فى صحبته وماله أبو بكر [1]) .

النموذج الثانى :

لما أسلم الطفيل بن عمر الدوسى على الرغم من الجهد الذى بذلته قريش حتى لا يدخل الطفيل فى دين الإسلام ، أدرك الطفيل أنه بدخوله فى هذا الدين صار متحملا مسئولية العمل له فقال للنبى — صلى الله عليه وسلم : يانبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا أرجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا فيما أدعوهم إليه ؟ . .

فقال : اللهم اجعل له آية [2] . .

هذا نجد مسألتين :

الأولى : أن الرجل حمل نفسه مسئولية العمل للدعوة وأنه يطلب عونا من الله يساعد ، فى نشرها . .

---

(١) فتح البارى ج : ٨ ص : ١٣ ، الفتح الكبير ج : ١ ص : ٣٧٥ .

(٢) ابن هشام ج : ١ ص : ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٣٦ — ٣٣٩ ، حياة الصحابة ج : ١ ص : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص ٧٢ — ٧٤ .

الثانية : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا له الله أن يجعل له الآية التى تعينه على نشر الرسالة . .

وإذا مضينا نستطلع عمل الطفيل كداعية نجده قد دعا إياه وزوجته ثم دعا قومه وما زال بأرض دوسى حتى هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن أسلم معه من قومه وكانت عدتهم تقرب من ثمانين بيتا من دوس . .

وتستمر الحماسة القيادية فى نفس الطفيل فبعد فتح مكة يطلب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرسله إلى صنم عمرو بن حممة ليحرقه ، فأحرقه وجعل يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
إنى حشوت النار فى فؤادكا [1] . .

واستمر الطفيل رائدا مجاهدا مخلصا للدعوة حتى كان أحد أبطال الجيش الإسلامى الذى حارب طليحة الكذاب فى حروب الردة عهد خلافة الصديق رضى الله تعالى عنه [2] . .

---

(١) راجع أخبار مكة للأزرقى ج : ١ ص : ١٣١ .

(٢) ابن هشام ج : ١ ص : ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، الروض الأنف ج : ٣ ص : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ١ ص : ٣٥٣ ج : ٢ ص : ١٠٨ ، ١٥٧ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٧٥ .

النموذج الثالث :

ولما أسلم أبوذر الغفارى قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

(أكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتونى فإذا أبلغك ظهورنا فأقبل[1]) . .

يقول البيهقى :

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

(إنى قد وجهت إلى أرض ذات نخل لا أحسبها إلا يثرب . فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله أن ينفعهم بك وبأجرك فيهم ؟ .

فانطلق أبو ذر بهذه الشحنة من التوجيه النبوى يدعو إلى الله . .

قال البيهقى يحكى جهاده وتنفيذه لما أمر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

فانطلق حتى أتيت أخى أنيسا فقال لى : ماصنعت ؟ قلت : صنعت أنى أسلمت وصدقت ، قال : فما بى رغبة عن دينكما فإنى قد أسلمت وصدقت قال : ثم احتملنا حتى أتينا قومنا غفار فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وكان يؤمهم خفاف بن أيما بن رحضة الغفارى قال وكان سيدهم يومئذ ، وقال بقيتهم إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلم بقيتهم . .

---

(١) الحلية ج : ١ ص : ٣١٦ .

وجاءت أسلم فقالت يارسول الله أخواننا . نسلم على الذى أسلموا عليه فأسلمنا فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : غفار غفرا الله لها وأسلم سالمها الله[1] . .

هكذا تبدو أهمية نشر القيادة فى أنحاء الجزيرة العربية وتبدو أهمية مساهمتها فى العمل للدعوة الإسلامية فقد خفف الطفيل بن عمرو الدوسى وأبو ذر الغفارى عن مركز الإرشاد فى مكة أعباء ثقل العمل فى تلك الديار وكانوا رصيدا بشريا محترما عندما هاجر الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة فكانوا بذور شجر يترعرع فى سرعة وينمو بقوة فى ظلال النبوة الكريمة عندما أذن الله لرسوله — صلى الله عليه وسلم — بالهجرة ليستبدل منهجا جديدا بعد أن وضعت لبنة البناء العظيم للأمة الإسلامية فى مكة المكرمة . .

وهكذا يبدأ التبليغ باعداد القيادة فى مدة أعوام ثلاثة من العمل السرى للدعوة ويتم فيها عليا تواؤم الدعوة مع الطبيعة الانسانية فلا يبقى لمعترض تعلة فقد آمن بيت الرسول — صلى الله عليه وسلم جميعا . .

وآمن صديقه أبو بكر . وغلامه زيد والمنتظرون لبعثته الشريفة منذ زمن . مثل : ورقة . وبحيرا . ونسطورا . وعلماء النصارى ،

---

(١) راجع دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٥٧ — ٤٥٨ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٤٧ — ٤٥١ صحيح مسلم باب فى فضائل أبى ذر رضى الله عنه ج : ١٩١٩ فتح البارى ج : ٨ ص : ١٧٤ ، ١٧٥ ، الحلبية ج : ١ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

فلم يبق لواحد من بعد ذلك شبهة اعتراض لو كان ما يدعو إليه محمدا حقا لكان أولى الناس به زوجه وغلام بيته وصديقه[1] . .

أما وقد آمن هؤلاء جميعا وآمن معهم خلق آخر بدعوتهم اياهم فقد انسد باب الافتراض والتعلة وأغلق كل ثقب شيطانى للالتواءات الإبليسية التى يتذرع بها المطمسون عن نور الحقيقة المحجوبون عن خيرات الإسلام ، وبات الحق واضحا يدلل على وضوحه وصدقه إيمان السيدة خديجة منذ اللحظة الأولى ، وإيمان ورقة منذ أن علم بالوحى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإيمان الصديق ساعة أن دعى دون كبوة أو تردد ، وإيمان على دون مشورة أبى طالب ، وإيمان زيد بن حارثة دون بحث أو نظر . وإيمان الطفيل رغم الدسيسة وإيمان أبى ذر وتحديه لمجتمع مكة . .

وبذلك فقد اكتمل للدعوة فى كل موطن قيادة تعمل وتجاهد فى سبيل نشر الإسلام الحنيف وهى تثق فى لحظة الظهور التى وعدهم بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم . .

ومن هنا فقد حان للدعوة بعد هذا أن تأخذ طريقها للانطلاق والظهور فأذن الله جل شأنه لنبيه أن يصدع بما يوحى إليه فابتداء الركب النورانى يأخذ مراحله الثلاثة :

لعشيرته الأقربين . .

للعرب . .

للعالمين جميعا . .

(١) راجع فقه السيرة ص : ٩٩ ، محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اثين دينه ص ١١٧ .

فتسلسلت مراحل التبليغ لتكون كل واحدة منها كالتمهيد التقديم لما بعدها أخذا بالتدرج الذى انتهجته الدعوة فى كل عمل تشريع يبنى ويهذب ويعلم .

وما أحوج الدعوة الإسلامية هنا فى جنوب شرق آسيا إلى مثل هذه القيادة لتحد من الاسراف فى عبادة الأصنام التى مازالت تشكل جاهلية كاملة فى مفهوم العقيدة حيث تكثر وتتعدد دور عبادة الأصنام للهنود والصينيين والسيلانيين وينفق على بنائها مال كثير (١) ؛ إن الأصوات التى تعلو هنا بانشاء دولة إسلامية لما تعرف بعد : أن أول خطوة يجب أن تتخذ هى انهاء سلطة الأصنام وتنزيه عبادة الله جل شأنه من هذا الشرك التافه الذى لا يتفق مع كرامة الانسان ووظيفته ولا يتلائم مع منطق العقل ومشاعر الوجدان . .

ولو أن الدراسات التى تجرى هنا فى جنوب شرق آسيا تعتمد على طبيعة منهج الدعوة الإسلامية لا تخذت سياسة اعداد القيادة أسلوبا جديا لمناهضة الأصنام التى تملأ الشوارع والحقول وتفسد على الناس علاقتهم بالله الحق الذى له ملك السموات والأرض وهو على كل شىء قدير . .

إن مرحلة بناء القيادة جزء أساسى فى منهج العمل مع الجماعة لنشر الدعوة وهو فى نفس الوقت مرحلة أساسية لتبليغ الدعوة قبل الجهر بها حتى تجد الفكرة لها أنصارا يحمونها ويدافعون عنها ويضحون

---

(١) وافتنا وزارة التعمير والانشاء باحصائية سرية عن قيمة المبالغ التى تنفق على بيوت الأصنام ولولا أنها سرية لنشرتها .

من أجلها فيضمن لها بذلك قاعدة فى داخل المجتمع تعمل لها وتدعو إليها وتخفف عن الداعية الرائد كثيرا من الأعباء . .

وأن ذلك لمن أحوج ما تحتاج إليه الدعوة فى العصر الحديث .. قيادة تؤمن فى صدق وإخلاص بأن الله غايتها والرسول زعيمها والقرآن الكريم وحده هو دستورها والجهاد الخالص لوجه الله سبيلها والموت فى سبيل الله أسمى أمانيها ، إذا وجدت تلك القيادة فيومها يبدأ الطريق إلى تحقيق رسالة الإسلام التى تتركز فى قوله تعالى :(فاعلم : أنه لاَ إلَه إلا الله واسْتَغفر لذَنْبكَ وَللْمُؤْمنينَ والمُؤْمنَات والله يعْلَمُ مُتَقَلبكُم وَمَثْوَاكُم[1]) . .

مرحلة التبليغ الثانى

وانذر عشيرتك الاقربين

قال البيهقى فى دلائله :

« لما نزلت هذه الآية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرفت أنى إذ بادأت بها قومى رأيت منهم ما أكره فصمت عليها فجاءنى جبريل عليه السلام فقال : يامحمد إنك إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ربك ، قال على : فدعانى ، فقال : ياعلى ، إن الله قد أمر أن أنذر

---

(١) الآية رقم : ١٩ من سورة محمد .

فصمت عن ذلك ثم جاءنى جبريل عليه السلام فقال : يامحمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك ، قال : فاصنع لنا ياعلى رجل شاة على صاع من طعام وأعد تعب لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه ، فيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزه ، والعباس ، وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ رسول الله — صَلَّى الله عليه وسلم — منها قطعة فشقها بأسنانه ثم رمى بها نواحيها وقال : كلوا باسم الله ، فأكل القوم حتى نهلوا عنه ، ما يرى إلا أثار أصابعهم والله إن كان الرجل منهم يأكل مثلها ، ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أسقهم ياعلى ، فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لهدماسحركم صاحبكم ... فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما كان الغد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ياعلى ، عدلنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب ... فان هذا الرجل قد بدرنى إلى ما قد سمعت قبل أن اكلم القوم ، ففعلت ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ثم سقيتهم فشربوا من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وايم الله أن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ثم قال رسول الله — صلى الله

عليه وسلم – : يابنى عبد المطلب انى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، انى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة »[١] . .

هذه محاولة أولى مع عشيرته الاقربين وخطوة أساسية فى وسيلة تبليغ الدعوة عن طريق اللقاء الشخصى وهو أجدى وسائل العمل الاجتماعى فى كل عصر وحين ، ولهذا كرر النبى – صلى الله عليه وسلم – اللقاء بعشيرته فى الحلبية : فجمعهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثانيا وخطبهم . ثم قال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم . ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة . وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا ، وأنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . والله يابنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، أنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة فتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب فأنه قال : يابنى عبد المطلب هذه والله السوأة . خذوا على يده قبل أن يأخذ على يده غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وأن منعتموه قتلتم . .

فقالت أخته صفية – عمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رضى الله تعالى عنها : أى أخى : أيحسن بك خزلان ابن أخيك .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، وهذه الرواية نظيفة من الزيادة التى رواها الطبرى فى تفسيره ج : ١٩ ص : ١٢١ ، ١٢٢ ، وردها ابن كثير فى السيرة ج : ١ ص : ٤٥٩ . والحلبية ج : ١ ص : ٣٢٢ . ولهذا لم أعتمد على رواية الطبرى فى التفسير راجع الوفاء ج : ١ ص : ١٨٤ ، ١٨٥ . الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٠٦–٣٠٩ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٦٢ – ٦٣ ، تفسير بن كثير ج : ٣ ص : ٣٥١ ، ١١١ .

فوالله ما زال العماء يخبرون أنه يخرج من بنى عبد المطلب نبي . فهو هو : قال : هذا والله والباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال . إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس ، فقال أبو طالب والله لنمنعنه ما بقينا . .

ثم دعا النبى – صلى الله عليه وسلم – جميع قريش وهو قائم على الصفا وقال : إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سنح (سفح) هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبونى ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبًا فقال : يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، إنى لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد[1] . .

والنص الذى ساقه صاحب الحلبية يفيد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يلح فى دعوة أهله وعشيرته[2] وكان يزاوج فى استخدامه لوسائل التبليغ بين الحديث الشخصى والندوة والمؤتمر المؤقت فهو يتحدث إليهم فى جو عائلى ويكرر هذا اللقاء ثم يصعد على الصفا ويناديهم ... ففى البخارى :

..لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبى – صلى الله عليه وسلم على الصفا – فجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ... لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ... ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال :أرأيتكم

---

(١) الحلبية ج : ١ ص ، ٣٢١ .

(٢) راجع روح المعانى ج : ١٩ ص : ١٣٥ .

لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق ؟ ، قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : أنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : (تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب[1]) .

وبذلك يتم توصيل الدعوة إلى عشيرته الأقربين وسورة النقاش التى دارت بين صفية بنت عبد المطلب وأبو لهب (عبد العزى بن عبد المطلب) أثر طبيعى لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم وهو : انفعال أو تفاعل داخل الجماعة مطلوب حصوله لأن الاقناع لا يتم إلاّ عن طريق المناقشة الضيقة التى تعطى وتأخذ وتقيم الأدلة وتناقش البراهين[2] . وقد حجت صفية أخاها أبو جهل فلم يخرج من المأزق إلا بغلظة التعبير (كلام النساء فى الحجال) . .

لقد ثبت بهذه النصوص :

أن نقل الدعوة من طورها السرى إلى طورها الجهرى كان باذن من عند الله حيث أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ينذر عشيرته الأقربين : فثبت أن الدعوة تسير فى رعاية الله وكنفه . .

---

(١) فتح البارى ج : ١ ص : ١١٨ ـ ١٢٠ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٦ ، تفسير الطبرى ج : ١٩ ص : ١٢١ دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٣١ ، الوفا ج : ١ ص : ١٨٣ .

(٢) راجع القيادة وديناميكية الجماعات ص : ١٩٩ .

وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ استخدم فى هذه المرحلة وسيلتين للتبليغ :

١ ـ اللقاء الشخصى فيما صنعه سيدنا على رضى الله عنه من طعام مرات تمكن فى آخرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبليغ رسالته . .

وهذه الرواية على ما ذكره ابن كثير فى سيرته أو ما ذكره الطبرى فى تفسيره تفيد حدوثها تاريخيا بغض النظر عن الزيادة التى لم يقبلها ابن كثير وصاحب الحلبية (١) . .

٢ ـ الوسيلة الثانية المؤتمر المؤقت على نحو ما ذكره الإمام البخارى فيما نقلته عنه سالفا . .

٣ ـ اخبار العلماء السابقين بنبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك يؤكد مرحلة التمهيد للدعوة . .

لقد كلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بانذار أهله بعد مرحلة التبليغ السرى لإعداد القيادة حتى تكون عشيرته لمن سواهم عبرة فهؤلاء مع قربهم وقرابتهم من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون ، وقد أخرج مسلم والترمذى باسناده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه . قال : لما نزلت هذه الآية

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٩ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٢ ففيهما انكرا الزيادة المذكورة (أخى ووزيرى) ومع رفض الزيادة فالحادثة صحيحة ، راجع روح المعانى ج : ١٩ ص : ١٣٥ .

دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قريشا فعم وخص فقال يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار : يا معشر كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة بنت محمد انقذى نفسك من النار فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها ..

ففى هذه النصوص توضيح شفاف لكيفية تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم — الأمر . وكيف بلغه لعشيرته الأقربين . ونفض يديه الكريمتين من أمرهم ووكل موقفهم وشئونهم إلى ربهم وبين لهم أن قرابتهم له لا تنفعهم شيئا إذا لم ينفعهم عملهم . وبأنه لا يملك لهم من الله شيئا وهو رسول الله : وهذا هو الإسلام فى نصاعته : أن ينفى الوساطة بين الله وعباده : حتى ولو كانوا أقرباء إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لم يكونوا مسلمين [1] .

(ومن يُسْلِم وجْهَه إلَى اللهِ وهو مُحْسِنٌ فقد اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوةِ الوُثْقَى وإلَى الله عَاقِبَةُ الأُمُور [2]) ..

---

(١) مع تصرف فى ظلال القرآن ج : ١٩ ص : ١١٧ ، من راجع هذا البحث الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٠٦ — ٣٠٩ الوفا بأحوال المصطفى ج : ١ ص : ١٨٢ — ١٨٥ . تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣١٩ — ٣٢٢ الطبقات ج : ١ ص : ٢٠٠ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ مسلم ج : ١ ص : ١٩٢ ، ١٩٣ اللؤلؤ والمرجان ج : ١ ص : ٥٢ .

(٢) الآية رقم : ٢٢ من سورة لقمان .

مرحلة التبليغ الثالث

لتنذر ام القرى ومن حولها (العرب)

قال ابن هشام :

« كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به [١] » ...

وينقل ابن اسحق عن ربيعة بن عباد ما سمعه فى صغره قال :

إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يابنى فلان إنى رسول الله إليكم فآمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى . حتى أبين عن الله ما بعثنى به قال : وخلفه رجل أحول وضئ له غديرتان عليه حلة عدنية . فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يابنى فلان أن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه قال : فقلت لأبى : ياأبت من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ، قال : هذا عمه عبد العزى عبد المطلب ،أبولهب [٢]

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٢ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٥١ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٣ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٥٥ ، ١٥٦ .

قال فى الخصائص :

وأخرج الواقدى وأبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسى عن أبيه عن جده قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمنى فدعانا فما استجبنا له ولا خير لنا وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا : أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط رجالنا لكان الرأى ، فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ فأبى القوم وانصرفوا فقال لهم ميسرة ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود نسائلهم عن هذا الرجل فمالوا إلى اليهود فأخرجوا سفرالهم فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ النبى الأمى العربى يركب الحمار ويجتزىء بالكسرة وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط فى عينيه حمرة مشرب اللون فإن كان هو الذى دعاكم فأجيبوه وأدخلوا فى دينه فإنا نحسده ولا نتبعه ولنا منه فى مواطن بلاء عظيم ولا يبقى أحد من العرب إلا أتبعه أو قتله فقال ميسرة ، ياقوم إن هذا الأمر بين . فاسلم فى حجة الوداع[1] . .

قال فى المواهب :

وكان صلى الله عليه وسلم ـ يطوف على الناس فى منازلهم يقول : إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأبو لهب يقول : يأيها الناس هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم[2] . .

---

(١) الخصائص ج : ١ ص : ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

(٢) المواهب ج : ١ ص : ٢٥٠ .

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، لم يأل جهدا فى توصيل دعوة الله إلى العرب . .

فقد أتى كلبا فى منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى أنه ليقول لهم : يابنى عبدالله إن الله عز وجل قد أحسن اسم آبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . .

وأتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم كذلك إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم[1] . .

كذلك عرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه على بنى عامر فدعاهم إلى الله عز وجل ولكنهم أرادوا أن يتخذوا الدعوة فيما بعد ملكا عضودا لهم فرفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ابن هشام : « فقال رجل منهم يقال له (بيحرة بن فراس) والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب : ثم قال : أرأيت :

إن نحن بايعناك على أمرك . ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله حيث يشاء : قال : فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه[2] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص ٢٤٢ ، راجع الوفا ج : ١ ص : ٢١٥ تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٩ ، الحلبية ج : ٢ ص : ٣ ، ٤ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٥٧ ، ١٥٩ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٠ .

ومرة أخرى يتضح أن هدف الدعوة دائما كان غاية فى النقاء من أعراض الدنيا وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان دائما يؤكده ولا يساوم فيه أبدا وقال ابن سعد فى الطبقات :

.. فدعا الناس إلى الإسلام يوافى المواسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم : بعكاظ . ومجنة . وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ... فلا يجد أحدا ينصره ولا يجيبه حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : يأيها الناس قولوا لا إلّه إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة ، وأبو لهب وراءه يقول : إن تطيعوه فإنى صابر . . فيردون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبح رد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول :

اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا . . .

فكان من سمى لنا من القبائل الذين آتاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعاهم وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفه وقراره وغسان ومرة ، وحنيفة ، وسليم . وعبس ، وبنو نضر . وبنو المكاء . وكنده . وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة . فلم يستجب منهم أحد[1] . .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ٢١٦ ، ٢١٧ ، راجع ابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٤ ، ٤٢٥ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٣ ، ٩٤ ، شرح المواهب ج : ٣٠٩ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ٢ ص : ١٥٧ ، ١٦٣ .

وفى سبيل تبليغ الرسالة طاف الرسول عليه الصلاة والسلام — بعيدا يدعو الناس فى ديارهم لقد دهب إلى الطائف وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم وهم أخوة ثلاثة :

- عبديا ليل بن عمرو بن عمير . .
- ومسعود بن عمرو بن عمير . .
- وحبيب بن عمرو بن عمير . .

لقد جلس اليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعوهم إلى الله ، كلمهم بما جاءهم به من الحق والهدى وطلب نصرته على الإسلام فتفلسفوا عليه لقد ركبوا عقولهم وامتطوا أهواءهم . .

قال له متشدقهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

وقال فيلسوفهم : والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . .

ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك . .

لقد رفضوا نصرة النبى — صلى الله عليه وسلم — فطلب منهم مبدأ عاديا هو مبدأ خلقى يلتزمه الفرد العادى لقد طلب منهم أن يكتموا أمره . ولكنهم لم يفعلوا وافشوه وتمادوا فى الضلالة وأغروا به عبيدهم وسفاءهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وهما فيه[1] . .

(١) مع تصرف ابن هشام ج : ١ ص : ٤١٩ ، ٤٢٠ ؛ دلائل البيهقى ج : ٢ص : ١٥٩ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩١ راجع المواهب ج : ١ ص : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

وفى لحظة الكرب تبدو طبيعة الداعية أن أمره كله لله وأمره كله خير فهو يفعل ما يؤمر به وينفذ ما جاءه أما أن يستجيب الناس فتلك مشيئة الله . وتبدو طبيعة الداعية وقد ارتبطت بالجو الربا' يدعو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دعاءه الخاشع بكلماته الرخية التى ترطب الفؤاد ، وتحل فيه السكينة ، وتذهب عن القلب همومه :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين . وأنت رب المستضعفين ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو بعيد يتجهمنى أم إلى صديق قريب ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[1] .

وتظهر كذلك طبيعة الداعية وصفاء نفسه وارتفاعها فوق الآلام وعفوها عن كل زلات المحجوبين عن رحمة الله . .

لقد استجاب الله لدعاء نبيه الكريم وجاء ملك الجبال ليدمرها على ثقيف ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يحنو عليهم ويرأف بهم فيقول فى عفو كريم :

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له .

---

(١) المواهب ج : ١ ص : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩١ ، ٩٢ الوفا ج : ١ ص : ٢١٣ .

قال فى شرح المواهب :

وهذا من مزيد شفقته وحلمه وعظيم عفوه وكرمه[1] .

ولم تكن جهودا ضائعة ولا دعوة فارغة بل كانت واجبات تؤدى وثمارها مطوية مكنونة فى علم الله فقد استجاب فى هذه الحملات رجال من أهل طليه استروحوا لنسائهم الإيمان فى صدورهم فحملوها إلى قومهم فى يثرب طيبة وكان فى مقدمة هذه البشائر :

سويد بن الصامت ، أخو بنى عمرو بن عوف من الأوس قدم مكة حاجا أو معتمرا فعرض عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإسلام والإيمان فقال للنبي عليه الصلاة والسلام لعل الذى معك مثل الذى معى فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما الذى معك ؟ فقال : مجنة لقمان يعنى حكمة لقمان . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اعرضها على : فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله عزوجل علىّ هو هدى ونور . . . فتلا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج وكان رجال من قومه يقولون : إنا لنرى أنه قتل وهو مسلم[2] . .

---

(١) المواهب ج : ١ ص : ٢٩٨ ، راجع الدرر ص : ٦٨ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٥ الحلبية ج : ١ ص : ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٢) الدلائل للبيهقى ج : ٢ ص : ١٦١ ، ١٦٢ ، الدرر ص : ٧٠ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٧٣ ، ١٧٤ .

قال صاحب الحلبية :

وفى كلام بعضهم أنه آمن بالله ورسوله وسافر حتى دخل المدينة إلى قومه فشعروا بإيمانه فقتلته الخزرج بغتة[١] . .

وإياس بن معاذ وهو فتى من فتيان بنى عبد الأشهل قدم مكة مع أبو الحيسر أنس بن رافع الذى جاء يلتمس من قريش حلفا على قومهم من الخزرج عندما تصدى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كعادته ليبلغهم الإسلام ويدعوهم إلى الإيمان ، قال : إياس وهو غلام حدث : ياقوم هذا والله خير مما جئتم له فغضب عليه شيخ الوفد أبو الحيسر فأخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجهه[٢] . .

قال فى الحلبية : فلما دنا موت إياس صار يحمد الله ويسبحه ويهلله وتكبره حتى مات[٣] . .

قال البيهقى : قال محمود بن لبيد : فأخبرنى من حضرنى من قو أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره . ويحمده . ويسبحه . حتى مات وكانوا لا يشكون أنه قد مات مسلماً . .

كان قد استشعر من الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ماسمع[٤] . .

---

(١) الحلبية ج : ٢ ص : ٧ .

(٢) راجع السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٧٥ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٥ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٣ .

(٣) الحلبية ج : ٢ ص : ٧ .

(٤) الدلائل للبيهقى ج : ٢ ص : ١٦٣ ، راجع السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٨ .

وهكذا تنتقل الدعوة وئيدة حسب طبيعتها لتقرر مبدأ عاماً (لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَه [1]) . .

وتستمر ثمرات هذا الكفاح المضنى والجهد الشاق الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ الدعوة فى هذه المرحلة فتنتقل الثمرات من إنتاجها الفردى إلى إنتاج جماعى لكأنما شاء الله لها فى عهدها المكى أن تبدأ فردية وتنتقل إلى الجماعة جهرية وشاء لها كذلك أن تكون ثمارها هكذا واحدة واحدة ثم جماعة قد اختارهم الله واختصهم دون ذلك القوم الذين دعوا فلم يستجيبوا . .

يقول ابن هشام :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه — صلى الله عليه وسلم — وإنجاز وعده له خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . .

قال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم : قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب

---

(١) التغابن .

وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم إذا كان بينهم شيء قالوا لهم · إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ؛ فلما كلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض ياقوم تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . .

ثم انصرفوا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[1] .

وهذا النص يوضح عدة حقائق سبق عرضها فى هذه الدراسة ومنها :

أهمية مرحلة التمهيد بالدعوة فقد كان حديث اليهود وتوعدهم لهذا البطن من الخزرج جعلهم يتبادلون الشورى فيما بينهم ليسبقوا اليهود ويفسدوا عليهم خطتهم فآمنوا وصدقوا . .

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٤ ، الوفا ج : ١ ص : ٢١٧ ، المواهب ج : ١ ص : ٣١١ ، ٣١٢ .

وإن هولاء النفر لما عادوا تحملوا مسئولية العمل للدعوة وهو جزء أساسى فى منهج التبليغ والعمل مع الجماعة وقد حمل التاريخ الإسلامى لهؤلاء النفر مجهوداً مشكوراً ونشاطاً رائعاً مخلصاً فى نشر الدعوة بعد عودتهم إلى يثرب طيبة . .

يقول ابن هشام :

. . . فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

وبذلك فقد تم توصيل الدعوة إلى أصقاع الأمة العربية نعم رفضها المطموسون بظلام الجاهلية ولكن قبلها المشرقون بصفاء النفس الممنوحون نعمة السمع وشاء الله لهم أن يكونوا لها أجناداً مصطفين أخياراً . . . والله ذو الفضل العظيم . .

مرحلة التبليغ الرابع

لتخرج الناس من الظلمات الى النــور « عالمية الدعوة »

قال فى الحلبية :

فجمعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ثانيا وخطبهم ثم قال لهم : إن الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٤٣٠ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٧٨ ، الدرر ص : ٧١ ، الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢١٩ ، الدلائل للبيهقى ج : ٢ ص : ١٧٤ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص : ٩٦ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٥ ، الوفا ج : ١ ص : ٢١٧ .

ماكذبتكم . ولوغررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لااله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة[1] . .

ويقول كذلك على لسان سيدنا على رضى الله عنه :

(ثم جمعتهم له — صلى الله عليه وسلم فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا ثم قال لهم : يابنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة[2]) . .

منذ اللحظة الأولى للدعوة الإسلامية وهى عالمية . .

إنها قانون الله للإنسان . .

(لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[3]) . .

هذا قانون خاص بالشمس والقمر ، والليل والنهار[4] . .

(وهُوَ الَّذِى مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وحِجْراً مَّحْجُوراً[5]) . .

ذلك قانون النهر والبحر وكثافة المياه[6] . .

---

(١) و (٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية رقم : ٤٠ من سورة يس .

(٤) راجع العلم يدعو للايمان ص : ٥٦ ، ٥٧ قصة الإيمان ص : ٣٠٣ — ٣١١ .

(٥) الآية رقم : ٥٣ من سورة الفرقان .

(٦) راجع قصة الايمان ص : ٣٣٥ .

(وأَرْسَلْنَا الرِيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِين[1]) . .

ذلك قانون الرياح والأمطار[2] . .

(كل شيء فى الوجود يسير وفق قانون ربانى :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[3]) . .

(والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فيهَا رَوَاسِيَ وأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ[4]) . .

(وإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُه ومَا نُنَزِّلُه الاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُوم[5]) . .

تلك بعض القوانين الالـهية التى تحكم الكون الذى يعيش فيه الإنسان والدين هو قانون الله إلى البشر . وقد تمت عموميته بالرسالة الخاتمة . ومن هنا فان النبى — صلى الله عليه وسلم — يحدد وهو فى البيئة الأولى . والخطوة الأولى . والحركة الأولى للدعوة الإسلامية : أن الإسلام دعوة الله إلى الناس كافة . .

ولم تكن آمالا يطمح إليها فالظروف فى مكة كانت قاسية وليس أمام البصر العادى للناس أن يتنبئوا بعموم رسالة تحارب من الناس فى أم القرى لوكانت دعوة محمد بن عبدالله صلى اللهعليه وسلم دعوة

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة الحجر .

(٢) راجع قصة الايمان ص : ٣٤٥ .

(٣) الآية رقم : ٤٩ من سورة القمر .

(٤) الآية رقم : ١٩ من سورة الحجر .

(٥) الآية رقم : ٢١ من سورة الحجر .

مصلح أوزعيم أوقائد ماكان يمكن أن يطرح على بساط الخيال يومها يوم ضيقها وعسرتها : أنها تكون للناس كافة . .

أما وهى ربانية . .

أما وهى قانون الله إلى الناس كافة . .

أما ويحملها نبى عارف حدود رسالته ودعوته . .

فقد أعلنها :

(إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة) . .

ذلك لأنه يملك على هذا الصدق الذى يبلغه :

أمر تبليغ . .

ونصوص أدلة . .

أما أمر التبليغ الذى كلفه — وهو فى مكة بالدعوة العامة للناس كافة فقول الله جل شأنه :

(الرَ كتابٌ أنزلْنَاه الَيكَ لتُخرْجَ النَّاسَ منَ الظُّلمَات إلَى النُّور بإذْنِ رَبِّهم إلَى صرَاط العَزيز الحَميد[1]) . .

وأما النصوص التى اعتصم بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — هذا التبليغ العام فهى :

(. . . إنْ هُوَ الاَّ ذكْرٌ للْعَالمين[2]) . . .

---

(١) أول سورة إبراهيم .

(٢) من الآية رقم : ٩٠ من سورة الأنعام

(قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرضِ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُون[1]) .

(وما تَسْأَلُهُم عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِنْ هُوَ الاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالمين[2]) . .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين[3]) . .

(تَبَارَكَ الَّذى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلى عَبْدِه لِيَكُونَ لِلْعَالَمِين نَذِيراً[4]) . .

(وما أَرسَلْنَاك الاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ولَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لايَعْلَمُون[5]) . .

(إِن هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالمين[6]) . .

(وماَ هُو الاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمين[7]) . .

(إِن هُو الاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمين[8]) . .

وهذه كلها سور مكية تأتى فيها هذه النصوص أضواء على الحدود الشاملة العامة الكاملة لمحيط الكرة الأرضية كميدان لتبليغ الدعوة : وهى لاتزال فى مكة تقابل من الجحود والنكران ألوانا ولكنها فى

---

(١) الآية رقم : ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية رقم : ١٠٤ من سورة يوسف .

(٣) الآية رقم : ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٤) أول سورة الفرقان .

(٥) الآية رقم : ٢٨ من سورة سبأ .

(٦) الآية رقم : ٨٧ من سورة ص .

(٧) الآية رقم : ٥٢ من سورة القلم .

(٨) الآية رقم : ٢٧ من سورة التكوير .

هذا الضيق المستحكم من البشر تعلن أنها « للناس كافة » فتلك طبيعتها وحقيقتها وأبعادها التي يحددها القرآن في أسلوبين منذ الأيام المبكرة في ظل الكعبة المشرفة :

أسلوب الأمر بالتبليغ . .

وأسلوب الأدلة والنصوص . .

وهي هكذا شاملة لجنس البشر لأنها قانون الله له لاتعرف وطنا ولا قوما ولا لغة ولامناخا ولا إقليما . . . لاتعرف إلا الكرة الأرضية تملكها لتكون كلها في طاعة الله كقانون يجب أن يسود ويطبق في حياة الإنسان أي إنسان على هذه الأرض لأنه واحد من هذا الكون الذي يسير وفق قوانين ربانية لا يحيد عنها إلا بإرادة الله يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . .

هكذا أرادها الله وهكذا اتجهت الدعوة منذ أيامها الأولى وكذلك تتجه في كل عصر ووطن إلى آخر الزمان وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والله وحده الذي أرادها هكذا وهو صاحبها وراعيها وهو وحده المدافع عنها وحاميها وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم التبليغ العام بالهجرة إلى الحبشة وينبغي أن نتصور الأمور هنا بمقاييس الزمن الذي كانت تقع فيه الأحداث لا بمقاييس العصر الحاضر . . .

لقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم أن الله قد هيأ لدينه أناسا وأن النجاشي رجل لايظلم أحد عنده وأنه يؤمن بأن عيسى نبي

قد بشر به فوجه البعثة[1] الأولى من المهاجرين إلى الحبشة ليعيشوا هناك بدينهم الجديد بعيدا عن سطوة الجبارين من كفار قريش ولعل المسلمين بسلوكهم وإيمانهم يتركون أثرا ولوكان قليلا وسط بيئة تعلم أن نبيا خاتما قد أظل زمانه وفيهم من ينتظر قدومه ومبعثه .

وفى هجرة سيدنا جعفر بن أبى طالب فى المرة الأولى[2] دليل واضح على أن الهجرة أريد منها كذلك أن يسمع الناس عن الإسلام بالإضافة إلى بعد المسلمين عن مواطن الأذى . .

إذ أن جعفر بن أبى طالب أخ على بن أبى طالب وعلى لم يهاجر وأبوهما أبوطالب يدافع عن الدعوة ماقصر يوما فى حمايتها ، ولا آذى عليا يوم أن رآه يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية بل قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى الخير فالزمه[3] . .

وإذن فلما ذا يهاجر جعفر بن أبى طالب فى السنة الخامسة من المبعث ووالده مازال حيا ومازال منافحا مدافعا عن الدعوة ؟ . .

إن أمر هجرته هو أمر تبليغ الدعوة بالطريقة الذاتية لها وهو ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم أعلم الناس به وأعرفهم بأحواله وأحقهم بحمل رسالته ولهذا كان هو المتحدث مع النجاشى فى شأن الفتنة التى تودها قريش لما أرسلت رسوليها فى طلب المهاجرين إلى الحبشة . .

(١) الجهاد فى الإسلام محمد شديد ص : ٤٤ مؤسسة المطبوعات الحديثة . .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٢٣ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٦ ، الدرر ص ٥١ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٧٦ ، ٧٧ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٣١ .

(٣) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٤٧ .

يقول الأستاذ محمد شديد :

إن الذين هاجروا جميعا إلى الحبشة كانوا جميعا من ذوى القوة والمنعة الذين كان لهم من عصبتهم مايدفع الأذى عنهم إلى حد كبير [١] ، أما الموالى المستضعفون الذين كانوا يتلقون معظم التعذيب فلم يهاجر منهم أحد وظلوا فى مكة حتى نهاية العهد وقد كانوا أحق بالهجرة والنجاة . . . فلماذا هاجر الأقوياء وبقى المستضعفون إن كان الفرار هو الهدف من الهجرة ؟ ولماذا هاجرت نساء من بين أشراف قريش ولم تتعرض إحداهن لأذى أوفتنة ؟ . .

ولماذا هاجر أبو موسى الأشعرى ومؤمنو اليمن ولحقوا بإخوانهم بالحبشة ، وقد كانوا بعيدا عن مكان المعركة ؟ ولماذا بقى معظم المهاجرين بالحبشة ومعهم جعفر حتى السنة السابعة من الهجرة بعد أن أصبح [٢] للإسلام دولة قوية فى المدينة وقويت فيها شوكة المسلمين ؟ . .

أما جوابى فقد كانت تلك جهود فى تبليغ الدعوة على صعيدها العالمى الطبيعى ؛ بل إن محاولة قريش استرداد المهاجرين هو نفسه دليل على ما أدركوه من إمكان انتشار الإسلام بهذه الهجرة فى الحبشة وخوفهم من بناء قاعدة إسلامية تناهض القرشيين فى مكة . وإلا فهجرة

---

(١) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٦٦٠

(٢) الجهاد فى الإسلام ص : ٤٧ ، يثبت ابن البر الهجرة لأبى موسى بطريق المصادفة فيروى أنه كان يريد المدينة ولكن الريح رمت سفينتهم إلى الحبشة فاستقر فيها حتى هاجر مع سيدنا جعفر ، راجع الدرر ص : ٥٤

المسلمين من مكة كانت راحة لهم من هم تكاثرهم فى داخل أم القرى . غير أن الأمر لم يكن فى خاطرهم مسألة راحة من أشخاص بقدر ماهو سد الطريق على الدعوة حتى لاتنتشر وتنمو وتفشو . ولقد سقط فى يد قريش عند مارجع رسولاها بخفى البعير فى يوم مطير وقرروا أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب . .

يقول صاحب زاد المعاد :

« ثم أمر - النجاشى - فرد عليهما هداياهما ورجعا مقبوحين ، فلما رأت قريش أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلو والأمور تتزايد أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد مناف أن لايبايعوهم ولايناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبوا بذلك صحيفة[1] . .

وعبارة ابن هشام فى ذلك صريحة قال :

« فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا بها أمنا وقرارا وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وجعل الاسلام يفشو فى القبائل اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب[2] . . . . » . .

---

(١) زاد المعاد ج : ٢ ص : ٤٦ ، راجع حول هذا المعنى تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٣٥

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٥٠

وعبارة ابن الأثير جلية كذلك يقول :

« ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد وأن المسلمين قووا بإسلام حمزة وعمر وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى أمية من عند النجاشى بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم »[1] .

وعبارة ابن سعد واضحة فى ربط المقاطعة بخيبة قريش فى مساعيها عند النجاشى قال :

« لما بلغ قريشا فعل النجاشى لجعفر وأصحابه وإكرامه إياهم كبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأجمعوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبوا كتابا على بنى هاشم ألا يناكحوهم »[2] . .

هذه النصوص فيها ربط بين كتابة الصحيفة وفشل قريش فى مساعيها عند النجاشى وازدهار المهاجرين هناك وانتشار الإسلام . .

وعلى هذا فالتفسير المعقول لهجرة سيدنا جعفر بن أبى طالب بالإضافة إلى بعد المسلمين عن الأذى هو : إيصال الدعوة إلى أهل الحبشة وقد أسلم النجاشى بمجرد أن سمع عرض الإسلام من جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه . .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٨٧ راجع الدرر ص : ٥٥ — ٥٧

(٢) الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢٠٨

وعلى هامش الموضوع فان السؤال الذى ردده الدكتور هيكل فى كتابه :

ومن حق مؤرخ محمد أن يسأل : كيف أمن محمد على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا إلى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها دين كتاب ورسولها عيسى يقر الاسلام رسالته ثم لايخاف عليهم فتنة كفتنة قريش ... لكن من نوع آخر[1] يبدو فى غير محله . . "

والجواب عليه أن الحبشة لها دين وكتاب . ولكن أهلها وجانب من قساوستها كانوا ينتظرون هذه البعثة المحمدية : ولقد خضلوا اللحى من دمع عيونهم لما قرأ عليهم جعفر سورة مريم . . . فالمقاييس التى يقاس بها السؤال هى مقاييس عصر المسيحية الاستعمارية الصليبية لاالدين السمح الذى كان أهله ينتظرون محمدا رسولاخاتماً كما عرض فى مرحلة التمهيد ومواقف بحيرا ونسطورا . . . .

إن عبارة النجاشى :

مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده : أشهد أنه رسول الله ، فانه الذى نجد فى الانجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأمر بهدايا الآخرين فردت اليهم[2] . .

---

(١) حياة محمد ص : ١٥٦ راجع ص : ٤٤ ، ٤٥ من كتاب الجهاد فى الاسلام ففيه توضيح دقيق فى مقابل ما أثاره الدكتور هيكل فى كتابه المذكور .

(٢) الوفا ج : ١ ص : ١٩٧ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ٢ ص : ٦٧ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٠٠ .

هذا النص كاف فى منع افتراض سؤال مثل الذى أثاره الدكتور هيكل باشا . . .

لقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الدعوة بقدر ما أذن الله له ومنحه من الفيض والبركة وما أكرمه به من العون والمدد ، وانى لأشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وجاهد فى سبيل الله حق جهاده ـ صلى الله عليك وسلم ـ ياسيدى يارسول الله فقد نشرت رسالة ربك على العالمين وكنت لهم رحمة أجمعين . .

اسلوب التبليغ ووسيلته

اسلوب التبليغ :

ـ « أدْعُ إلَى سبَيِلِ رَبّكَ بالحكمة والمَوْعِظةَ الحَسَنَة وجَادِلْهُم بالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بمَن ضلَّ عن سَبيِلهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتَدِين [1] »

ماهو الأسلوب الذى استخدمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فى تبليغ دعوة الله وهو ينقل الدعوة بمنهج عملها مع الجماعة ومنهج التفكير الذى رسمه القرآن الكريم سالفا . . . ؟ مناهج الدعوة فكريا واجتماعيا هى الطريقة التى سنها القرآن لتبليغ دعوة الله ، فما هوالأسلوب وماهو نوع الكلمة التى نقل بها الرسول صلى الله عليه وسلم مبادئ الاسلام إلى الناس وهو يتخذ مناهج الدعوة طريقاً ؟ . .

---

(١) الآية رقم : ١٢٥ من سورة النحل .

إن القرآن الكريم يجيب على هذا التساؤل :

(أدْعُ إلَىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هي أَحْسَنُ إن رَبَّكَ هُو أعلم بمن ضَلَّ عَنْ سَبِيله وهو أَعْلَم بالمُهْتَدِين) .

الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن هي الأسلوب وهي نوع الكلمة التي بلغ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الله إلى الناس في جميع مراحلها . .

وبمنتهى البساطة يدرك الداعية مقدار التواؤم بين المناهج السالفة وطريقة استخدامها في عملية التبليغ بهذا الأسلوب . .

ففي المناهج وأسلوب أو نوع الكلمة المستخدمة في التبليغ عنصر أساسي جامع ، وهو السلام المطلق والصبر الطويل ، حتى يمكن للدعوة أن تبدو على حقيقتها في ثوبها الطبيعي وأهدافها السامية دون تزيين أو انحراف عن جادتها . .

والحكمة : التي توصف بها الكلمة التي تستخدم للتعبير عن مبادئ الدعوة هي في حيز قوله تعالى : « ... وجَاهِدهم به جِهَاداً كَبيراً [1] » . .

---

(١) من الآية رقم : ٥٢ من سورة الفرقان

فنى القرآن الكريم كل شفاء وغناء يقول الله تعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ...[1] » . .

يقول شيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود :

«ولكن القرآن لم يكن يلقى القول على علاته وإنما يأتى بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلو الدليل فيرضى العقل ويطمئن النفس ويقود الضمير إلى الإذعان[2]»

ويقول الإمام الغزالى فى كتابه : « الجام العوام » فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان .

بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولاينتفع بها الصبيان أصلا ...[3] » .

فنى القرآن الكريم كل كفاية لتوصيل دعوة الله وتحقيق وحدات المنهج يقول شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود : .

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والصحابة بأجمعهم ماسلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين فى تقسيماتهم وتدقيقاتهم لالعجز منهم عن ذلك ، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا فى تحرير الأدلة خوضاً يزيد على خوضهم فى مسائل الفرائض وإذا عارضوا اليهود

---

(١) من الآية رقم : ٨٢ من سورة الإسراء .

(٢) التفكير الفلسفى ص : ٤٨

(٣) الجام العوام ص : ٢٦٦ من مجموعة القصور العوالى من رسائل الامام الغزالى .

والنصارى عارضوهم بكلام الله سبحانه وتعالى فى أوثق نص من نصوصه المنزلة وهو القرآن [١] . .

إن الحكمة هنا هى كما استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم — مع الحصين . .

لقد كان الحصين رجلا تعظمه قريش وتجله فأرسلوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكلمه حتى ينتهى عن دعوته فلما جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : أوسعوا للشيخ . . .

فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياحصين كم تعبد من آله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء فقال : فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟ قال الذى فى السماء. قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء ، قال : فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ أسلم تسلم . . . فأسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه شيعوه إلى منزله [٢] .

والحكمة من الأسلوب الذى واجه به النبى صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة لما عرض على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشياء حتى إذا فرغ منها ماناقشها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا جادله فيها ولكن قال له : أفرغت ياأبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : اسمع منى فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : حم تنزيل من الرحمن

---

(١) التفكير الفلسفى ص : ١١٩

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣١٨

الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. . . ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه [1] حتى انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام عتبة وقد تغيرت معالم وجدانه وتقاسيم وجهه وقال فيه قومه لما رأوه من بعيد . « نحلف بالله . لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به » . .

نعم ، لقد جاءهم بوجه رق للإسلام ولقد قال لهم صراحة : (والله لقد سمعت قولا ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به) [2] . .

والحكمة كأسلوب ووصف للكلمة التى تنتقل الدعوة هى أسلوب يؤدى به الداعية رسالته دون فضل يتحدث به أو شهوة فى شهرة يعرف بها وليس له منة على الدعوة بل الله يمن عليه أن هداه إلى الإيمان ..

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٤ .

(٢) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٥ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٤ ، ذكر فى الخازن ج : ٤ ص : ١٢٤ ، والطبرى ج : ١٤ ص : ١٩٤ ، وتفسير المراغى ج : ١٤ ص : ١٦١ وابن كثير ج : ٢ ص : ٥٩٠ ، الالوسى ج : ١٤ ص : ٢٥٤ ، وفى غيرها من كتب التفسير معانى للحكمة ولكنى أطلقتها من كل عقال لتجمع كل وصف يراد منها حسبما هى طبيعة كلمات القرآن الكريم .

إن النظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذى ينبغى أن يستخدمه الداعية كل مرة فى تبليغ رسالته بحيث لايثقل ولا يشق بالتكاليف قبل أن تستعد النفوس للتحمل الشامل للدعوة ، وطريقة المخاطبة والتنويع فى الأسلوب حسب مقتضيات الأحوال هو الحكمة التى تريدها الدعوة فى العصر الحديث كبديل للحماس المتزايد والإندفاع المتهب الذى يتجاوز حدود الحكمة فيضر الدعوة على السواء [1] . .

وهى فى أدق موازينها العيش فى الجو القرآنى والهدى النبوى الكريم . .

الموعظة الحسنة :

طبيعة الكلمة العاطفية التى تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء فتلطف من حرارة الصدر وتعمق المشاعر بلطف وتنعش الوجدان فى تؤدة ، وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة فهى ترطيب لفكر الثائر وحل لعقد التقاليدا لصعبة وإنقاذ من حيرة لاشعورية موهومة وطمأنينة تسكن ثورة الجموح ، وكثيراً ماهديت القلوب الشاردة بالموعظة الحسنة وإنها مع الطبائع الخيرة أفضل من الزجر والتأنيب والتوبيخ والتجريح . .

وقد حرص القرآن الكريم كثيراً على الموعظة الحسنة كأسلوب ووصف للكلمة التى يتلفظ بها الداعية . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٤ ص : ١١٠ .

ومع قسوة العذاب والتنكيل التى شنها أعداء الدعوة فى عهدها المكى كان القرآن دائماً يحرص على الوصية بالموعظة الحسنة يقول الله تعالى : (. . ادفَع بالَّتى هى أَحْسَن فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ و بيْنَه عَدَاوةٌ كأَنَّه وَلِىٌّ حَميم)[1] . .

فليس للداعية أن يرد بالسيئة إذ لا تستوى آثار السيئات وآثار الحسنات ، كما لا تستوى كذلك قيمة كل منهما ، فإن الصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس فى مواجهة الشر بمثله قد يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين : وكم تصدق هذه القاعدة فينقلب الهياج إلى وداعة والغضب إلى سكينة والتبجح إلى حياء ؟ . .

إن الكلمة الطيبة تبقى قاعدة وأسلوبا فى تبليغ الدعوة ترد بنبرتها الهادئه وبسمتها الحانية غاضبا متبجحا مفلوت الزمام . .

فإن لم ترده هذه الكلمة الطيبة فقد بقى للدعوة أنها كانت ولاتزال تحب له الخير غير أنه هو الذى لا يريد لنفسه ذلك . .

وبالموعظة الحسنة يظهر للدعاة أن هدفهم هو حب الخير للناس بهذا الدين وحماية مستقبلهم فى الدنيا والآخرة من الضنك والضياع ثم يظهر لمعارضى الدعوة أو معارضى الخير لأنفسهم سؤال . .

لم لا يرد الدعاة السيئة بمثلها وهم قادرون عليها ؟ . .

---

(١) من الآية رقم ٣٤ من سورة فصلت .

أن الذى يمنع الدعاة هو الأسلوب المفروض عليهم ، ادفع بالتى هى أحسن السيئة . .

وتلك الوظيفة تحتاج إلى سماحة تستعلى على دفعات الغيظ وشحنات الغضب وتحتاج إلى قوة توازن بين الدفع بالتى هى أحسن وبين السماحة التى تستعلى على الآلام والغضب والغيظ . .

وهى معادلة دقيقة وصعبة جدا ولكنها لازمة فى تبليغ الدعوة حتى يستمر الداعية نشيطا تدفعه الحسنى فى المعاملة إلى مزيد من العمل دون حساب لسيئات المناهضين للدعوة . .

وفى الانسان - وخاصة الانسان العربى - طابع الحياء والشهامة التى تحب أن تعود إلى الحق وتعترف به كفضيلة خلقية لها ، ولهذا أشاد القرآن الكريم بالموعظة الحسنة كأسلوب ووصف لنوع الكلمة التى يستخدمها الداعية فى تبليغ الدعوة لأنها تتلاءم مع طابع الحياء أو الشهامة التى يتحلى بها الانسان غالبا ولقد كان من نفحاتها اسلام عمر بن الخطاب ، وحمزة بن عبدالمطلب [1] ، فقد أرجعتهم إلى صوابهم حسنات المسلمين فانقلبت ضرواتهم على الإسلام له تحمسا وانتصارا وفتح الله بهما للمسلمين فتحا كريما . .

وما أحوج الدعوة فى هذا العصر إلى الموعظة الحسنة وخاصة فى المجتمعات البدائية التى لا تحتاج فى نشر الإسلام إلى أكثر من السلوك الطيب والكلمة الطيبة والمعاملة بالمعروف . .

---

(١) راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٦٧ .

وجادلهم بالتى هى احسن :

لا تحامل على المخالف :

ولا ترذيل له ولا تقبيح لفكره وما دام يريد أن يصل إلى الحق ؛ فالمجادلة بالتى هى أحسن صفة الكلمة التى ينبغى أن يستخدمها الداعية مع هذا اللون من الناس ؛ ليس هدف الداعية الغلبة ولا المخاصمة ولا الشهرة بالتفلسف . ولكن هدفه توصيل دعوة الله فإذا احتاج الداعية مع صنف من الناس إلى جدال فليكن الجدال بالتى هى أحسن بالاقناع الموصل إلى الحق فى قالب الكلمة الطيبة بعيدا عن الحماس الشارد عن الحُجة البيضاء ، وكثيرا ما يختلط على النفس البشرية قيمة رأيها وقيمته عند الناس حتى ليصبح التنازل عن الرأى تنازلا عن الهيبة والكيان . .

فحدد القرآن الكريم أسلوب التبليغ مع هذا الصنف « الجدل بالحسنى » . فإنه هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل بأن ذاته مصونة وقيمته محفوظة وكرامته موقرة ؛ وأن ما يقصده الداعية من مجادلته هذه إلا كشف الحقيقة فى ذاتها والاهتداء إليها حسبة لله لا ابتغاء نصر لرأيه وهزيمة لرأى الآخر [1] . .

وبالتى هى أحسن قيمهم غفل عنه المسلمون فوقعوا فى شباك مكيدة كانت مبيتة للأمة الإسلامية تواطأ عليها أعداؤهم من خارجها ومن داخلها حتى أضناها الخلاف وضيعها التشدق والجدال [2] . .

---

(١) راجع : فى ظلال القرآن ج : ١٤ ص : ١١٠

(٢) التفكير فريضة اسلامية ص ٤٠ — ٤٣

ثم هو قيد مهم كذلك لأخلاق الداعية الذى أريد له أن يخرج عن إطار المنهج فيستقر حتى ينفد صبره فيفسد منهجه ولكى يطامن الداعية من حساسيته واندفاعه كان هذا القيد : التى هى أحسن ثم كان ختام الآية الكريمة :

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ..).

فلا ضرورة إذن للجاجة فى الجدل (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ) والأمر بعد ذلك لله رب العالمين . . .

هذا هو أسلوب الدعوة ودستورها فى التبليغ ما دام الأمر فى دائرة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فإذا ما تغير الموقف وصار الأمر من جهة الخصوم كلاما بالسلاح كان للدعوة أسلوب ومنهج يتفق مع موقف المعاندين بعد أن أفصحت الدعوة لهم عن سموها وأخلاقها وحنوها عليهم طول سنين[1] . .

وقد ذكر الإمام الغزالى رضى الله عنه فى كتابه (القسطاس المستقيم) :

أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم وعلل لذلك بقوله : « فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى . .

---

(١) راجع كتابنا : الجهاد فى سبيل الله .

وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن غذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر ، وهو لم يألف إلا البر [1] . .

وهو تصنيف مقبول من جانب إذا نظرنا إلى الأساليب الثلاثة مجزأة : الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن ، ولكن إذا نظرنا إلى أحوال الشخص الواحد وأنه قد تعتريه حالات ثلاث :

حالة الفطنة

وحالة الوجدان والعاطفة . .

وحالة الكبرياء والذاتية .

أدركنا ان هذه الأساليب الثلاثة تصح لرجل واحد قد يكون فى حالة تستدعى الخطاب بالحكمة أو تستدعى الخطاب بالموعظة الحسنة ، أو تستدعى الخطاب بالجدال بالتى هى أحسن . .

وقد استخدم النبى — صلى الله عليه وسلم — هذه الأساليب مع مفاوضى قريش :

ففى المرة الأولى قرأ عليهم آيات فصلت . .

وفى المرة الثانية قال لهم : واعظا ومجادلا بالتى هى أحسن : ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم

---

(١) القسطاس المستقيم ص : ١١ ، ١٢ .

ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم وإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم[١]

يقول أستاذنا الفاضل الدكتور محمود حب الله :

وبما أن الإسلام دين عام ، وهو دين منطق وحكمة ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الانسان ، بل نحو قوى الانسان كلها من قلب وعقل وعاطفة كان من الطبيعي له أن يخاطب كل هذه القوى النفسية ويهذبها لتتضامن جميعها في الإيمان وفي تربية الشخصية الإنسانية الحقة[٢] .

وبهذا يمكن أن ندرك أن الأسلوب الذى دعت إليه الآية الكريمة هو أسلوب يصلح لطوائف الناس عندما تبرز هذه الخصائص متفرقة كما أنها كذلك تصلح لواحد من الناس تقويما لجميع قواه العقلية والقلبية والعاطفية وبذلك تنفرد الدعوة الإسلامية بأسلوبها الخاص بها في استخدام مناهج الفكر والعمل مع الجماعة بأسلوب غاية في التهذيب والبناء لجميع قوى الانسان الذى تنقل إليه الدعوة ليكون ربانيا في دنياه وآخرته على السواء . .

وسيلة التبليغ :

وعلى الرغم من تطور وسائل الاتصال في العصر الحديث التي تستخدم في بث الأفكار والدعوة لمبدأ ما فإن الاتصال عن طريق اللغة والمقابلة

---

(١) راجع الحلية ج : ١ ص : ٣٤٠ ، راجع الشفاء ج : ٢ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ شرح نسيم الرياض

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص : ٢٨٧

الشخصية ما زال هو العامل الأساسى فى توصيل آية دعوة لأن اللغة تمثل أهم طريقة للتفاعل الاجتماعى بين الأفراد وعن سبيلها يمكن الإلمام بمعرفة أحوال الناس والمشاركة فى الأفكار والمشاعر والمعتقدات ونتيجة لهذا يمكن تحديد وتشخيص وحل المشكلات فى المجتمع[1] . .

وقد نشطت الدراسات الاجتماعية الحديثة فى تصوير وسائل الاتصال بالجماعة عن طريق اللغة التى تعتبر وسيلة أساسية فعالة فى توصيل المبادىء للناس .

وقد توصل الدارسون الغربيون والشرقيون إلى وضع عدة وسائل منها :

١ ـ المناقشة فى الجماعة الصغيرة وقد حاولوا وضع تعريف لها فقالوا : إنها تبادل الأفكار والآراء وجها لوجه بين أعضاء جماعة صغيرة نسبيا (وتكون عادة من خمسة إلى عشرين) . .

وحددوا سمات لهذه الوسيلة منها : أنها تتيح الحد الأقصى من التفاعل المتبادل بين الأعضاء ، وأنها تعلم الأعضاء التفكير فى حيز إطار الجماعة الذى ينمى الاحساس بالمساواة ، وإنها تساعد على انبثاق قيادة[2] ، ولقد سبق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الدراسات منذ أن توجه إلى تبليغ دعوة الله . .

---

(١) القيادة وديناميكية الجماعات ص : ٧٨

(٢) القيادة وديناميكية الجماعات ص : ١٨٣

فى أسباب النزول للواحدى : أن النبى : ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبدالمطلب وأبيا وأمية بن خلف ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو اسلامهم فقام ابن أم مكتوم وقال : يارسول الله : علمنى مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشتغل مقبل على غيره [1] .

٢ ـ جماعة الطنين : وهى وسيلة بديلة عن وسيلة « الحابل والنابل » التى تتفتت الجماعة فيها إلى وحدات صغيرة لتيسير المناقشة [2] .

وطريقة الطنين هذه يقتصر فيها على عضوين اثنين فقط لمناقشة موضوع ما ، وقد سبق القرآن الكريم هذه الدراسة منذ فجر الدعوة حيث دعا المخاصمين إلى أن يقوموا قومة خالصة لله مثنى وفرادى : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [3] » .

٣ ـ الندوة : وهى طائفة من الأحاديث والكلمات أو المحاضرات يعرضها أشخاص لموضوع مشكلة واحدة [4] .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص : ٤٧٨

(٢) القيادة وديناميكية الجماعات ص : ١٩٩

(٣) الآية رقم : ٤٦ من سورة سبأ

(٤) القيادة وديناميكية الجماعات ص : ٢٠٣

وقد سلف أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما نزل قوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) أقام لهم ندوة مرتين تكلم أبو لهب فى الأولى وعرض وجهة نظره وتكلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الثانية وشرح لهم دعوته [1] . .

٤ – المناظرة : هى محاورة تجرى بين شخصين من ذوى المعرفة القادرين على الحديث عن موضوع معين [2] . .

وقد سبقت الدعوة الاسلامية بهذا الأسلوب فى العمل لتبليغ الدعوة كما وقع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وحصين [3] ؛ وسبق أن ذكرت كيف أسلم ضماد [4] وقد أسلم عمرو بن عبسة السلمى [5] نتيجة محاورة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ غير أن عنصر المحاورة هنا كان طبيعيا لايحمل صفة التعصب أو التعنت وهو أمر غير سهل فى العصر الحديث . .

٥ – المقابلة [6] : وهى وسيلة متعددة الأساليب، بالزيارة أو بالراديو والتلفزيون . . الخ . .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – دائما حريصا على أن تتم المقابلة بينه وبين خصوم الدعوة فانه رغم الأذى الذى كان

---

(١) راجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٨ ، ٤٥٩

(٢) القيادة وديناميكية الجماعات ص : ٢٣٣

(٣) راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣١٨

(٤) ، (٥) راجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٢ ، ٤٤٢

(٦) دراسات فى تنظيم المجتمع ص : ١١٠ – القيادة وديناميكية الجماعات ص : ٢٣٩

يدأب على تقديمه عقبة بن أبى معيط إلا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكثر من مجالسته ولما دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اوليمة فى بيته أثر عودته من سفر استجاب له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وما أكل حتى أنطقه شهادة التوحيد[1] . .

٦ ـ المؤتمرات المؤقتة[2] : وقد استخدم النبى ، صلى الله عليه وسلم ـ المؤتمر المؤقت فى أسلوب الدعوة حين صعد على الصفا يوم أن نزل قوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ) ، وناداهم فاجتمع الناس إليه وكانوا بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسولا عنه ثم قال لهم : (لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم ، قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد[3] . .

المؤتمرات الدورية وهى مواسم الحج :

وقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر على الناس فى أسواق الحج يقول لهم : يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا[4] .

وقد كانت هذه الوسيلة هى ركيزة العمل التمهيدى لنقل الدعوة من مكة إلى طابة المدينة المنورة . .

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٣ .

(٢) دراسات فى تنظيم المجتمع ص : ١٧٦ ، القيادة وديناميكية الجماعات ص : ٢٩٤ .

(٣) الوفا ج : ١ ص : ١٨٣ .

(٤) الوفا ج : ١ ص : ١٨٢ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٥٥ ومابعدها .

إن وسائل الدعوة التى استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أمنية العاملين فى الحقل الاجتماعى فى العصر الحديث . .

وما يزيد المبشر فى المجتمعات البدائية عن هذه الطريقة التى سنتها الدعوة الاسلامية كأسلوب ووسيلة لنشر دين الله ، إلا أنه ينفذها فقط . .

وياليت شعرى لو أن بعثات الأزهر الشريف فى آسيا وأفريقيا وهم يكتسبون رزقا واسعا ومركزا جليلا ، ليت شعرى لو أنهم أخلصوا العمل لله فامتثلوا والتزموا وأحيوا سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى نشر الدعوة بهذه الوسيلة ، والله ما أعوذ الناس يومها بعد ذلك جرعة دواء من يد كافر . ولفتح الله لنا ولدينه فى بلاد الله خيرًا كثيرًا . .

وكما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَة) . .

ولكن متى كان لليت جواب ؟

أو : لعل أن يكون لها جواب إن شاء الله ؟ .

الفصل الرابع

معالم فى طريق الدعوة

(أ) المجابهة

المجال الذى تعمل فيه الدعوة مجال دقيق وحساس : إنه مجال يمس التقاليد والعادات ويمس الوجدان والفكر ، ومع أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان حريصا على تنقية المجتمع من الشرك ووضح هدفه وغايته بأسلوب رفيع كريم وتبرأ من كل غرض مادى دنيوى يتنافس عليه من البشر إلا أن القوم كفروا . .

لقد كانوا ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام وهو نبى موحد .. (مَاكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) . .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يذكرهم بهذه الحقيقة ، وكانوا هم كذلك يقرون له بأنه يكلم من السماء . .

قال فى الحلبية :

.. صار كفار قريش غير منكرين لما يقول فكان — صلى الله عليه وسلم — إذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه : إن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء وكان ذلك دأبهم حتى عاب آلهتهم وسفه عقولهم وضلل آباءهم حتى أنه مر عليهم يوما وهم فى المسجد الحرام

يسجدون للأصنام فقال : يامعشر قريش ، والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم ، فقالوا : إنما نعبد الأصنام حبا لله لتقربنا إلى الله [1] . .

وهنا يجد الباحث مركز صعوبة العمل فى التبليغ عندما يركب الناس هوى النفس ويقدسون ماكان عليه الآباء والأجداد . .

فهم متفقون مع النبى صلى الله عليه وسلم على أصلين :

انهم من نسل إبراهيم . .

وانهم خالفوا التوحيد الذى كان عليه أبوهم إبراهيم .

وإذن فلماذا يجحدون . . . ؟ . .

إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلنها واضحة صريحة :

ماجئت أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ؛ ولكن الله بعثنى رسولا ، وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وأن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم [2] . .

وبهذا يتحدد للقارىء أوالباحث أن الرسالة الاسلامية لم تكن تهدف إلى مال أوجاه ولكنها كانت تريد أن تكرم بنى البشر بخضوعهم إلى توحيد الله وتنزيهه فهى لاتأخذ من أحد ماله ولاتعطى لأحد جاها .

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٢ ، راجع تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٢٢ .

(٢) راجع الحلبية ج ١ ص : ٣٤٠ ـ ٣٤١ ؛ السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

لا هى مؤممة لأموال الناس ، ولا هى مصدر لتمويل البشر ، ولكنها نظام الله الذى يجب أن يعيش عليه البشر ولهذا حدد القرآن الكريم قضيتين رئيسيتين :

الأولى : أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لم يسأل الناس شيئا من أموالهم ، يقول الله تعالى :

(قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[1]) . .

(قُلْ ماسَأَلْتُكُم مِن أَجْر فَهُوَ لكُم إن أَجْرِىَ إلاَّ عَلَى اللهِ وهُوَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد[2]) . .

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه من أجْر إلاَّ من شَاء أن يَتَّخذَ إلَى رَبِّه سَبيلاً[3]) .

إنه لايطلب أجرا وهو كذلك لايعطى مالا :

(قل لاَّ أَقولُ لَكُم عِندِى خَزَائنُ الله ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُم إنِّى مَلَكٌ إن أَتَّبِعُ الاَّ مَايُوحَى إلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى والبَصيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُون[4])

(قُل لَّا أَمْلِكُ لنَفْسِى نَفْعاً ولا ضَرًّا الا مَاشَاء اللهُ ولوكُنْتُ أَعْلمُ الْغَيْبَ لاَ سْتكْثَرْتُ من الخَيْرِ ومَامَسَّنِى السُّوءُ إن أَنَا إلاَّ نَذيرٌ وَبَشيرٌ لِّقَوْم يُؤْمنون[5]) .

---

(١) الآية رقم : ٨٦ من سورة ص .

(٢) الآية رقم : ٤٧ من سورة سبأ .

(٣) الآية رقم : ٥٧ سورة الفرقان .

(٤) الآية رقم : ٥٠ من سورة الأنعام .

(٥) الآية رقم : ١٨٨ من سورة الأعراف

الثانية : أن القرآن الكريم رفض كل اقتراح مادى فيما يتعلق بطلب المعجزات كثمن لدخولهم فى الاسلام . .

(ولَوْ نزَّلْنَا عَلَيْكَ كتَاباً فى قرْطاس فَلَمَسُوه بأَيْديهم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إن هَذَا الاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ . .

« وقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ ولَوْ أنزَلْنَا مَلكاً لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُم لاَ يُنْظَرُون .

« ولَوْجَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهم مَايَلْبِسُون »[1] . .

(وما مَنَعَنَا أن نُرْسلَ بالآيَاتِ إلَّا أن كَذَّب بهَا الأَوَّلُون وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ومانُرْسلُ بالآياتِ إلاَّ تَخْوِيفًا »[2]) . .

وإلى جوار هاتين الحقيقتين القرآنيتين يقرر التاريخ موقفين :

الأول : رفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل مساومة تتجه بالرسالة إلى غير هدفها الأسمى (وربك فكبر) وفى هذا يحفظ التاريخ المقالة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكأكأ عليه القوم فى منزل أبى طالب :

والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تنازلت عن هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه[3] . .

---

(١) الآيات من رقم : ٧ — ٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٥٩ من سورة الأسراء .

(٣) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٣ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٢٣ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٦٦ .

الثانى : أن القرشيين مع مجابهتهم دعوة الله فقد اعترفوا بالرسالة للنبى — صلى الله عليه وسلم — على نحو ماذكره أبوجهل والنضر بن الحارث [١] ، ولكنهم مع هذا جابهوا الدعوة ووقفوا لها بالمرصاد وصبوا عليها جام غضبهم مع ماتحلى به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من رفيع الخلق ، وكريم السجايا ، وعظيم الحلم ، وطول الصبر ؛ فكانت تلك المجابهة تحدد ظاهرة طبيعة فى العمل من أجل الدعوة . .

لقد أصبح من مظاهر العمل للدعوة الاسلامية أنه لابد وأن تعانى مجابهة وخصومة ، وقد تكون المجابهة القاسية من أقرب الناس إلى الداعية .

ومن واقع الأحداث التاريخية التى شنها القرشيون على الدعوة تبدو معالم الطريق دائما وهى كما وقعت منذ فجرها تدور حول :

١ — الداعية واتباعه وهو ماقدمه المشركون فى مكة من صنوف الأذى للدعوة والداعية وهى تصويرللمعالم التاريخية للدعوة فى عهدها المكى

٢ — الأسباب التى دفعت بهم إلى هذه المجابهة وتشكل خطا دائما فى بقاء هذه المواجهة . .

---

(١) راجع الشفاء ج : ١ ص : ١٨١ ، ٣١٦ ، على القارى راجع السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٦٦ ، ٣١٦ .

٣ ـ النماذج التاريخية التى قدمها القرآن الكريم فى هذا الفجر لتبين للناس أن هذه المعالم طبيعية مستمرة فى حقل العمل للدعوة . .

وحول هذه الدوائر الثلاث نستعين بالله جل شأنه فى توضيح هذه المجابهة التى صارت فعلا مضادا لحركة التبليغ .

أولا : المعالم التاريخية المجابهة فى العهد المكى

١ ـ رفض الدعوة مباشرة دون نظر :

(تَبَّت يَدَا أَبِى لَهَبٍ وتَب) . .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) ورهطك منهم المخلصين : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا عليه فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا ، قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب عظيم ، قال أبولهب : تَبًّا لَكَ ، ماجمعتنا إلاَّ لهذا . . ؟ ثم قام فنزلت تبت يدا أبى لهب وتب [(١)] ، والنص واضح فى ثلاث حقائق :

١ ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم وصل لهم القول وجمعهم بأسلوب علمى متفق مع قواعد المنهج للدعوة وقد استنطقهم ثقتهم فيه . .

٢ ـ أنهم اعترفوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصدق فى حاضره وماضيه .

---

(١) فتح البارى ج : ١ ص : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، راجع دلائل النبوة البيهقى ج : ١ ص : ٤٣٠ — ٤٣٢ .

٣ـ أنهم لووا رءوسهم لما دعاهم إلى دين الله دون نظر . .

فلماذا رفضوها دون نظر ؟ . .

(وكأيِّن من آية فِي السمَوَات والأَرض يَمُرُّونَ عَلَيهَا وهُمْ عَنهَا مُعْرِضُون[1]) .

ما أكثر الآيات الدالة على وحدانية الله جل شأنه المعرفة لجلال قدرته ؟ ! انها مبثوثة فى تضاعيف الكون معروضة للأبصار والبصائر فى السموات وفى الأرض وفى النفس ذاتها (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ولكنهم لايرونها ولايسمعونها ولا يحسون بها . .

أما لماذا قالها أبولهب وهو عم النبي - صلى الله عليه وسلم - ؟ :

لقد قالها ليشعر بأنه انتقم لنفسه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد قيل : إن أباطالب لاحى أبا لهب فقعد أبولهب على صدر أبي طالب . فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخذ بضبعى أبي لهب فضرب به الأرض فقال له أبولهب : كلانا عمك . فلم فعلت بى هذا ؟ والله لايحبك قلبي أبدا[2] . .

وهو وأن كان منطقاً صبيانيا غير أنه مقبول فى وسط قوم يتناحرون على الشرف والكرامة ولهم مفاهيم خاصة لمعنى الشرف والكرامة . . .

---

(١) الآية رقم : ١٠٥ من سورة يوسف .

(٢) فتح البارى ج : ١٠ ص : ٣٦٨ .

لقد خبأها أبولهب ن صدره زمنا طويلا حتى جاءت لحظة التحويل العظيم من الجاهلية بكل مفاهيمها إلى الإسلامية بنورانيته الجليلة فلم يجد أبو لهب فى صدره غير الغل القديم ؛فنافس الدعوة وطمس قلبه وأعمى عينيه . . . فكانت هذه واحدة من أسباب المجابهة والكفر معا ...

٢ ــ اغراء ابى طالب :

استمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى دعوته ومضى يظهر دين الله ويدعو إليه على بصيرة حتى شرى الأمر فاحمرت وجنتا المجابهين للدعوة وفكروا فى التماس طريق للصد عنها وكان فى مقدمة محاولاتهم إغراء أبى طالب فسعوا عنده ثلاث مرات :

١ ــ فى الأولى قالوا له :

يا أباطالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه فتكفيكه . ولكن أباطالب ردهم ردا رقيقاً وانصرفوا وما لإغرائهم عنده أدنى أثر ؛ لقد ضاع جهاد أبطال المجتمع هباء فى هذه المرة التى تصدى للعمل فيها مشيخة العرب :

عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . .

وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . .

وأبو البحترى : العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب . .

والأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصى بن كلاب . .

ثم أبو جهل . عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب [1] . .

لقد خابت جولتهم الأولى وردهم الله على لسان أبى طالب بوجوه صفر .

٢ – وفى المرة الثانية وقد أخذت الدعوة الإسلامية طريقها إلى القلوب والعقول فآمن الذين هداهم الله وكتب لهم النجاة واستحقوا العقبى . ورأت قريش فى تزايد المسلمين خطرا عليها ، واندثارا لدينها الباطل فتجمعوا فى مظاهرة متبرمة وقالوا لأبى طالب : (إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين [2]) !

وكانت المظاهرة حادة فقالوا كلمتهم ثم انقلبوا راجعين دون أن يسمعوا من أبى طالب جوابا فعظم على الرجل فراق أهله وعداوتهم وتلك حالة شعورية فى نفس كل فرد عندما يجابه من كبار قومه وهو فيهم ذو شرف ومنزلة . ولكنه فى نفس الوقت يعز عليه كثيرا ولا تطيب نفسه أبدا أن يسلم لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأراد الرجل أن يهدئ من ثقل الجاذبية عليه فبعث إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له :

---

(١) راجع السيرة ، لابن هشام ، ج : ١ ص : ٢٦٥

(٢) السيرة ، لابن هشام ، ج : ١ ص : ٢٦٥

ياابن أخي : أن قومك قد جاءُوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . .

وذلك منطلق لين تبدو منه ضعضعة أبي طالب فظن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن عمه قد ضعف عن نصرته والقيام معه وانه قد بدا له فيه بداء . .

فحدد الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه ليكون قانونا سرمديا لكل داعية يواجه جاذبية المجتمع الثقيلة :

(والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته » . .

إنها لقاعدة توزن بالحياة كلها إن تكأكأ المجتمع على الداعية فهو يساوي في ثقله ثقل الثقيل ريشة على كتف بعير أورق هو سيد حمر النَّعم فإذا أبوطالب وقد لمسته شرارة من هذا النور المتوهج يعدل عن لينه ويقول : اذهب ياابن أخي فقل ما أحببت فوالله لاأسلمك لشيء أبدا [1] .

وبهذا يتحدد الموقف من الجانبين : من جانب الكفرة ، رفض مطلق للرسالة واقتراح حرب عائلية حتى يتقرر لمن يكون النصر !! . .

ومن جانب النبي – صلى الله عليه وسلم – تصميم على الاستمرار في الدعوة وتصميم عمه على ألا يسلمه لشيء أبدا . .

---

(١) السيرة ، لابن هشام ج : ١ص : ٢٦٦ ، الحلبية ج : ١ص : ٣٢٣ ، راجع تاريخ الطبري ج : ٢ ص : ٣٢٣ – ٣٢٧ . الكامل في التاريخ ج : ٢ ص : ٦٤ ، الوفا ج : ١ ص : ١٩١ .

٣ـ لقد خابت مساعى مشيخة العرب وأحسوا بالندامة لعجزهم عن فعل شىء مع أبى طالب فمشوا مرة ثالثة ومعهم بديل ، معهم « عمارة ابن الوليد بن المغيرة » وقالوا له : « هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل » . . .

هكذا قالوها فى حمق « سلم ابن أخيك نقتله ، وخُذْ ابْنَنَا عندك يحيا فى كنفك واتخذه ولدا » . .

منطلق أعمى واقتراح أنانى فاسد لم يطقه أبو طالب الذى لايقل تحمسا للدفاع عن ابن أخيه من حبهم لولدهم عمارة فقال لهم :

« والله لبئس ماتسوموننى ! ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون أبدا[1] » .

ولو أنهم أعطوه عمارة بن الوليد ليقتنه أبوطالب نظير قتلهم ابن أخيه لكان حقا مايقولون : « فانما هو رجل برجل » فأى شىء يسر أبا طالب إن قتل ابن أخيه وعاش ولدهم فى خيرات أبى طالب ؟ . .

« وإنه لمن الغريب حقا أن يقول المطعم بن عدى بعد مقالة أبى طالب : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً » . .

---

(١) السيرة ، لابن هشام ج : ١ص : ٢٦٧ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ص : ٣٢٧ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ص : ٦٤ : ٦٥ ، الطبقات ، لابن سعد ج : ١ ص : ٢٠٢ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٥

فقال أبوطالب : والله ما أنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فاصنع مابدالك . .

أى انصاف هذا يامطعم ؟ ولد يُغَذَّى وولد يُقْتَل ؟ وأى شىء كان يكرهه أبو طالب ؟

ولو كان يكره محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماطالت معه محاولاتكم فى شأن ابن أخيه . . . إنها الأنانيات العمياء والعواطف الخبيثة التى يمتطيها إبليس فتزين السوء للمعتدين . . .

ومن هذه السفارات الثلاث تظهر حقيقة تاريخية فى هذا الصبح المبكر للدعوة : إنها ليست دعوة عنصرية ولا قومية ولا إقليمية ولا محلية فقد جحدها بادىء بدء أبناءُ قُصَىٍّ وعبدِ مَنَافٍ وهاجرت الدعوة ديارهم ووكل الله بها قوما ليسوا بها بكافرين فكانت يثرب هى طابة المنورة التى ترعرع فيها لدين الله مجتمع إسلامى كبير .

٣ ـ مساومة النبى صلى الله عليه وسلم :

لقد فشلت جهود مشيخة العرب مع أبى طالب ومازال الإسلام ينمو ووجهاء من القوم يدخلون فى دين الله ، فلقد أسلم حمزة بن عبد المطلب إثر معركة مع أبى جهل . انتصر فيها حمزة لابن أخيه [١] ، فغيرت قريش أسلوب المواجهة بالمواعدة . إلى المواجهة بالمساومة مع النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة وقد تعددت مرات هذه المساومة . .

---

(١) راجع ابن هشام ج : ١ ص : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٨٣ ، دلائل النبوة للبيهقى ج : ١ ص : ٤٥٩ ، راجع المواهب ج : ١ ص : ٢٥٦

فارسلوا عتبة بن ربيعة وكنيته ، « أبو الوليد » فكلم النبي — صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فيعطوها له ويكف عنهم . . .

وقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » . .

لقد كان عتبة بهذا العرض يتحدث باسم مشيخة العرب فقد فوضوه فى حسم الأمر والاتفاق مع محمد — صلى الله عليه وسلم — على أى أمر يحب . .

يقول ابن هشام :

« اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البحترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ،

وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية . والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبة ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف أول من اجتمع منهم قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وكان حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا له : يامحمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك : وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب نبرئك منه أو نعذر فيك[1] . .

هذا النص يؤكد أن سفارة عتبة بن ربيعة كانت سفارة عن مشيخة القوم على أن النص المروى عن عتبة آنفا فى صدره عبارة تفيد هذه الوكالة . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٥ ، راجع الإسلام والعقل ص : ١٢٢ الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٠ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٥٧ .

قال ابن اسحق : وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال :

حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش؟ ألا أقوم إلى محمد فأُكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى ياأبا الوليد[1] . .

وإذن فسفارة عتبة سفارة مفوضة من وجهاء القوم وكبارهم . .

ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول لعتبة بعد أن فرغ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ثم يتلو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الآيات الأُولى من سورة فصلت ويستمع إليها عتبة بإصغاء تام . ثم يعود لقومه ناصحا لكنه غير أمين على وجدانه فلم يفلح . .

٤ – اذى النبى – صلى الله عليه وسلم :

لقد فشلت قريش وضاقت ذرعا بهذا الفشل ، وأشعة الإسلام فى كل يوم تمتد إلى قلب أوتدخل بيتا ، والمسلمون يتزايدون صلابة وصبرا . ومستويات سفاراتهم كلها قد انتكست وفشلت مساعيهم فعبروا عن خيبتهم بسلوك صبيانى . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٣ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٨ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٥٠ .

فأبو لهب يرى فى تطليق ابنتى الرسول - صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم من ولديه عتبة - وقد أسلم فيما بعد يوم الفتح - وعتيبة : بَرْدًا يشفى غليله ويهدئ من ثورته [١] وكان يتتبع النبى صلى الله عليه وسلم - ليكذبه [٢] . .

وركانة بن عبد يزيد بن هشام : كان شديد العداوة للدعوة [٣] أراح شقوته بمصارعة النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخى بلغنى عنك أمر ولست بكذاب فإن صرعتنى علمت أنك صادق ، ولم يكن يصرعه أحد فصرعه النبى - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات فلما غلب دعاه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الاسلام فتقاعس وتعلل [٤] وطلب معجزة ثم تنطع واستمر كافرا . .

وعقبة بن أبى معيط بن عمر بن أمية بن عبد شمس يستريح فى مناوأته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند مايلقى سلاجزور على ظهر النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو ساجد حتى تأتى فاطمة الزهراء البتول فتلقيه عن أبيها [٥] . .

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٧ .

(٢) تاريخ الجنس البشرى ج : ٢ ص : ٦٦ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤٩ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٤ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٣ ، راجع المحبر ص : ٥٣ .

(٣) راجع الروض الانف ج : ٣ ص : ٣٨٩ ، الشفاء ج : ١ ص ٣٨٢ .

(٤) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٧٦ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٢٢ ، السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٨٢ .

(٥) الوفاء ج : ١ ص : ١٩٠ ، فتح البارى ج : ٨ ص : ١٦٦ ، مسلم ج ٣ ، ص : ١٤١٨ .

وفى الحلبية أن عقبة بن أبى معيط وطئ على رقبته – صلى الله عليه وسلم – وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان ، ومرة وضع ثوبا على عنقه وخنقه خنقا شديدًا ، فأقبل أبوبكر – رضى الله تعالى عنه – وأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله[١] . .

ويستمر عقبة بن أبى معيط فى أفعاله الصبيانية فيبصق فى وجه النبى – صلى الله عليه وسلم – استجابة لرغبة صديقه اللدود أبىّ بن خلف لما بلغه أن عقبة نطق بشهادة التوحيد إرضاء لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى وليمة كان أعدها عقبة إثر عودته من سفر ودعا إليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – ورفض الرسول أن يأكل منها حتى يسلم فلما بلغ ذلك أبىّ بن خلف، قال له : وجهى من وجهك حرام إن لم تأته فتتفل فى وجهه ففعل عقبة فأنزل الله تعالى فيه : (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً[٢]) . .

قال فى الحلبية : قال الضحاك : لما بزق عقبة لم تصل البزقة إلى وجه النبى – صلى الله عليه وسلم – بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق مكانها وكان أثر الحرق فى وجهه إلى الموت[٣] . .

وكانت أم جميل (أروى بنت حرب بن أمية) زوجة أبى جهل وهى سيدة من كبار بيوتات قريش أخت أبى سفيان بن حرب من

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٠ فتح البارى ج : ٨ ص : ١٦٨ ، السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٧٠ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٥١ .

(٢) ابن هشام ج : ١ ص : ٣٦١ أسباب النزول للواحدى ص : ٣٤٧ .

(٣) الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

أماجد سلالة حرب بن أمية ، كانت تتولى بنفسها جمع القاذورات من الطريق لتلقيها على باب منزل النبى - صلى الله عليه وسلم - كتعبير عن انفعالاتها السيئة نحو المبعوث رحمة للعالمين[1] . .

ويأتى دور سيد الجهلاء والجاهليين ، المغيرة بن هشام المخزومى المعروف فى التاريخ بكنيته المشهورة (أبوجهل) لقد كان سفسطائيا فى منطقه وسلوكه . .

قال أبو جهل يوما لقريش : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله : فإذا سجد فى صلاته فضحت به رأسه فأسامونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم . .

قالوا والله لانسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد . .

فلما أصبح أبوجهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينتظره وغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما كان يغدو ، وكان رسول الله - صلى الله عايه وسلم - بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود . .

وجعل الكعبة بينه وبين الشام فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى ،وقد غدت قريش ،فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ماأبوجهل

---

(١) فتح البارى ج : ١٠ص : ٣٦٩ ، راجع من أفعالها ، مارواه صاحب الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٥ ، رواية الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٥ .

فاعل فلما سجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ احتمل أبوجهل الحجر .ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما ممتقعًا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ . .

قال : قمت إليه لأفعل به ماقلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ؛ لا والله مارأيت مثل هامته . ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط فَهَمَّ بى أن يأكلنى [1] . .

لقد كانت بطولة أبى جهل بطولة خيالية . وكان تشدقه بالتوعد تشدقا سفسطائيا .ولم تكن مرة واحدة ينتكس فيها على عقبيه بل كانت مرارا . يرويها صاحب الحلبية وابن كثير فى السيرة منها :

أن الأراشى : كان رجلا من رجال خثعم ؛ باع لأبى جهل أجمالا فمطله فدلته قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينصفه من أبى جهل استهزاء منهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما يعلمونه من شدة عداوة أبى جهل للدعوة وصاحبها . عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلما ذكر الأراشى حاله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام معه لينصفه من أبى جهل . فلما ضرب باب أبى جهل ؛ خرج وهو ممتقع الوجه حتى لكأنه النقع وهى الصفرة مع كدرة ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعط هذا حقه . فقال أبوجهل : نعم لاتبرح حتى أعطيه الذى له . فدفعه إليه . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٨ ، ٢٩٩ ؛ الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣١٥ الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٤ .

فلما سأله قومه : ويلك مارأينا مثل ماصنعت ؟ قال : وَيْحَكُمْ !! والله ماهو إلا ضرب على بابى وسمعت صوته فَمُلِئْتُ رعبا ثم خرجت إليه وإن فوق رأسى فحلا من الإبل مارأيت مثله قط ، لو أبيت أو تأخرت لأكلنى[1] . .

لقد كان فى كل مرة تحيط به الزبانية وكان ينتكس ويخيب ولكنه ما زال سادِرًا فى غَيِّه . .

لقد كان يقول :

واللهِ لانُصَالِحُكَ ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً[2] . .

وكان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه . .

هكذا اجتمعت الأصهار والأنساب والرجال والنساء من وجهاء القوم فى مكة على مجابهة الدعوة والداعية بعديد من الأذى وصنوف من المساومات .

٥ ـ فتنة الاتباع :

لقد كانت المجابهة مخططا متوجِّهًا نحو الداعية ودعوته وأتباعه ، فقد حرصت قريش بعد فشلها فى التوصيل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حل يرضى شهوة كفرها على أن تواصل المواجهة ضد الأتباع ...

---

(١) و (٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣١٧ ، راجع مواقف أبى جهل تجاه النبى (ص) فى الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣١٥ ، ٣١٧ ، وفى الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، الوفاء ج : ١ص : ١٨٩ ، ١٩٠ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣١١

يقول ابن هشام :

ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، سيما من استضعفوا منهم يفتنوهم عن دينهم [1] ..

ومن نماذج ذلك :

١ ـ بلال بن رباح :

كان مملوكا لأُمية بن خلف . ولكنه كان صادقَ الإسلام ، طاهر القلب ، قوى العقيدة ، متين الإيمان ، وكان أُمية كافراً عنيداً أسود القلب غليظ المشاعر دفعته غلظته إلى تعذيب رجل رقيق الحال علكه كما يملك أى متاع فكان يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره حتى يرجع عن إسلامه ويقسم أمية : لاوالله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى [2] . .

يقول ابن هشام :

وكان أُمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه ، إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣١٧ ، الحلبية ج : ١ص : ٣٣٤ ، السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٢ ، المواهب ج : ١ ص : ٢٦٦ ، راجع الرسالة المحمدية ص : ١٠٠ ، ١٠١

(٢) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٢ ، راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٤ .

العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له :لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى[١] . .

قال فى المواهب :

وإن بلالا هانت نفسه عليه – فى الله عز وجل – فلم يبال بتعذيبهم وصبر على أذاهم وهان على قومه – أى مواليه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحدٌ أحدٌ ، وزاد مجاهد فى قصة بلال . وجعلوا فى عنقه حبلا ودفعوه إلى الصبيان يلعبون به حتى أثّرَ الحبلُ فى عنقه ليرجع إلى الكفر ، والله يعيذه وحسبه بهذا منقبة[٢] . .

قال – صلى الله عليه وسلم – لبلال : سمعتُ دُفَّ نعليك فى الجنة[٣] . .

كان بلال –رضى الله تعالى عنه– يعرف أن ذلك التعذيب ظاهرة طبيعية فى حياة الدعوة فنسى جلده الذى يعذب ؛ وسقاه الله شرابا طهورا فارتفعت أحاسيسه فوق سياط الجلادين ؛ وكلما استشاط غيظهم كانت الكلمات الحلوة النورانية تجوب الفضاء ، وتتجاوب معها أجواء البيت العتيق : (أحدٌ أحدٌ) فكانت على أسماع الكافرين سياطا أشد لذعا وأقوى إيلاما وأعنف مواجهة .

ويأتى دور الأخوة الإسلامية ، ذلكم الرباط المقدس الذى صنعته

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣١٨ .

(٢) شرح المواهب ج : ١ ص : ٢٦٧ ، الدرر ص : ٤٤ .

(٣) فتح الباري ج : ٨ ص ١٠٠ .

عقيدة التوحيد فيساوم أبو بكر رضى الله عنه أمية بن خلف ويعتق بلال وينجو[1] وبه تزيد جماعة المسلمين ويكثر سوادها وتبقى إلى الأبد قصة بلال وأمية هى قصة المواجهة بين أتباع الحق وهمزات الشياطين . .

٢ ــ عمار بن ياسر :

كانت أسرة عمار بن ياسر كلها تعذب :

سمية أم عمار ، وياسر بن عامر ، أبو عمار ، وعبد الله أخو عمار . .

كانوا جميعا فى « زنازن » التعذيب القرشى .

يقول فى المواهب :

مات ياسر فى العذاب . .

وأعطيت سمية لأبى جهل فطعنها طعنة فى موضع يعافه الرجل الأبى فقتلها .

ورمى عبد الله فسقط .

وأما عمار فقد فرج الله عنه بعد طول تعذيبه وقد كان يعذب حتى لايدرى مايقول : رؤى فى ظهره أثر كالمخيط فسئل فقال هذا ماكانت تعذبنى قريش فى رمضاء مكة : وجاء أنهم أحرقوه بالنار[2] . .

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٥ .

(٢) المواهب ج : ١ ص : ٢٦٦ ، راجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٥ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٢٠ .

وتفنى الأسرة كلها فداء لدين الله وتتأبى أسرة عمار بن ياسر على كبرياء قريش وتقدم للدعوة نموذجا حيا فى مكافحة شهوة الكفر فتستعذب العذاب فى سبيل الله : وتنجو من راحة الجسد فى كنف الشيطان وتفوز بهذا الوعد الكريم :

« عن أم هانئ قالت : فمر بهم النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة . .

اللهم لاتعذب من آل ياسر أحدا بالنار[1] . .

وفتح آل ياسر بشهادة سمية بابا للنصر لا يعرفه الا الأوفياء المخلصون فى الجهاد لتكون كلمة الله وحدها هى العليا فكانت سمية أول شهيد فى الإسلام . .

٣ – خباب بن الأرت :

خباب بن الأرت من بنى تميم أومن خزاعة سبى فى الجاهلية فاشترته امرأة تسمى أم أنمار وكان حدادا يصنع السيوف ، صدق برسول الله – صلى الله عليه وسلم فعذبته أم أنمار مشتركة بتعذيبه فى الموجة العامة التى شنتها قريش على ضعفاء المسلمين من التعذيب والإرهاب . وقد تناقلت كتب السيرة والحديث شكوى خباب بن الأرت إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – من كثرة مايلاقيه وأصحابه من التنكيل ففى البخارى : عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال :

---

(١) المواهب ج : ١ ص : ٢٦٦ ؛ الطبقات الكبرى ج : ٢ ص : ١٣٦ ، ١٣٧ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٧ . السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٢٠ ، دلائل النبوة ج : ٢ ص : ٥٦ .

شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، قلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أوعصب . ومايصده ذلك عن عينه . والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف الا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون[1] .

٤ ـ زنيرة الرومية :

أمة رقيقة الحال ضعيفة الحول معدومة الكنف آمنت بالله وبرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عذبها أبوجهل عذابا مريرا حتى إنه لكان يتعجب من صبرها وصبر اخوانها يقول فى المواهب :

« وكان أبوجهل يقول : ألا تعجبون إلى هؤلاء وأتباعهم لوكان ماأتى محمد خيرا وحقا ماسبقونا إليه أفتسبقنا زنيرة إلى رشد . .

لقد عذبوها وهم أحرار ليستعبدوا قلبها فرفضت أن تبيع عبوديتها لله إرضاء للأسياد الأحرار وظلوا يعذبونها حتى عميت فقالوا : ما أصاب بصرها الا اللات والعزى ، فقالت والله ماهو كذلك وما يدرى اللات والعزى من يعبدهما ، ولكن هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد علىَّ بصرى فرد الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة فقالت قريش هذا من سحر محمد فاشتراها أبوبكر فأعتقها . .

---

(١) البخارى ج : ٧ ص : ٤٣١ ، ٤٣٢ ، دلائل النبوة ج : ٢ ص : ٥٧ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٦ ، ٣٣٧ السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٩٦ — ٤٩٨ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٦ ، المواهب ج : ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٥ .

فإلى متى سيظل سحر محمد له جاذبية يتشوق الناس إليها ؟ . .

وإلى متى سيظل سحر محمد يؤثر على النفوس والقلوب والعقول ؟ .

وإلى متى سيظل سحر محمد حتى يبنى لله دولة الحق الأمين ؟ . .

هكذا واجهت قريش الدعوة الإسلامية مواجهة سافرة عنيفة استخدمت فيها أسلحة الحرب الدعائية . .

والضغط الاجتماعى . .

والأذى البدنى والأدبى . .

ولكن ذلك كله كان واحدا من معالم الطريق عرفها السابقون الأولون فتحملوها وتذوقوا آلامها احتسابا فقننوا بذلك طريق الدعوة وطوبى لمن صبر وبشرى لمن احتمل . .

« وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَايُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[1] » ..

٥ ـ الحصار الاقتصادى :

فشلت قريش فى اكتساب نصر ضد الدعوة الإسلامية ، وأضيف إلى فشلها هذا اتساع العمل الإسلامى وخروجه من النطاق العربى إلى النطاق العالمى حيث هاجر المسلمون إلى الحبشة واستقبلهم النجاشى بروح طيبة ورد سعاية قريش حافية القدمين فاستقرت جماعة المهاجرين من السابقين فى الاسلام فى ظل ملك لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق[2] واستقرت عند النجاشى حقيقة الإسلام فمكن للمسلمين

---

(١) سورة فصلت : الآية : ٣٥

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٦٠ ، راجع المواهب ج : ١ ص : ٢٧٨

من اقامة سعيدة طيبة هادئة فأرهقت كرامة قريش بهذا الاستقرار وزادها رهقا ان دخل حمزة بن عبد المطلب فى الاسلام . .

يقول الطبرى :

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد عز وإن حمزة سيمنعه[١] . .

وغاظهم كثيرا خيبة عمرو بن العاص وصاحبه عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى فى عدم التمكن من العودة بقافلة النور من المهاجرين وزادهم حنقا اسلام عمر بن الخطاب يقول الطبرى :

« فوجهوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى إلى النجاشى مع هدايا كثيرة . . . وأمروهما أن يسألا النجاشى تسليم من قِبَله وبأرضه من المسلمين إليهم . فلم يصلا إلى ما أمل قومها من النجاشى فرجعا مقبوحين وأسلم عمر بن الخطاب رحمه الله فلما أسلم وكان رجلا جلدا جليدا منيعا ، وكان قد أسلم قبل ذلك حمزة بن عبد المطلب . ووجد أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أنفسهم قوة وجعل الإسلام يفشو فى القبائل وحمى النجاشى من ضوى إلى بلده منهم ، اجتمعت قريش فأتمرت بينها أن يكتبوا كتابا[٢] . .

هكذا تبدو ظاهرة الفشل وقد زلزلت عقل قريش وتخبطوا فى أساليب الانتقام من الدعوة والداعية فتعاهدوا على أن يقيموا حصارا

---

(١) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٣٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٣٥ .

اقتصاديا يشمل جماعة المسلمين وأقرباءهم ، يقول ابن الأثير فى الكامل :

ولما رأت قريش الاسلام يفشو ويزيد وان المسلمين قووا باسلام حمزة وعمر وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى أمية من النجاشى بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وآمنهم عنده ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على :

ألا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب . .

ولاينكحوا إليهم . .

ولا يبيعوهم ولايبتاعوا منهم شيئا . .

فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا لذلك الأمر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا[1] . .

وما أشبه اليوم بالبارحة ، فالمضايقات الاقتصادية والتحفظ فى السجون والضغط الاجتماعى على البيوت المؤمنة هو نفس الأسلوب القديم الذى استعملته المواجهة القرشية ضد الدعوة والداعية . .

ان شاب قريش وفتاها عمر بن الخطاب قد أعلن اسلامه بطريقة مجاهرة تتحدى جاذبية قريش ومجابهتها فقد تظاهر المسلمون فى

---

(١) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٨٧ ، راجع السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٧٥٠ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٧٤ : دلائل النبوة ج : ٢ ص : ٨٧ .

موكب تحفة الملائكة ، وتغشاه الرحمة ، وتنزل عليه السكينة ، وتحرسه جنود الله ، ويتصدره النبي الأمين الكريم — صلى الله عليه وسلم — ويأخذ الموكب اتجاهه نحو الكعبة وعمر فى المقدمة يكبر الله أكبر الله أكبر ، فتنخلع قلوب الكفرة وتموت شهامتهم من رعدة الخوف التى ألمت بهم وبهذا يكتسب الاسلام « آديولوجية » جديدة وتتخذ الدعوة لها وضعا خاصا فيه نشوة وعافية وراحة وتبدو الصورة بعد هذا الموكب الكريم :

١ — انتشار الإسلام وسط الأمة العربية اتخذ طريقه رغم أنف قريش . .

٢ — وانتشاره خارج الوسط العربى إلى حدود الحبشة تحت رعاية ملك كريم مؤمن مسلم رد سفراءهم بالخيبة والندم والحسرة . .

٣ — صناديد المجابهة وكبراء العمل العدائى للدعوة بدأوا يدخلون فى دين الله عن طواعية وحب وتعقل . .

٤ — احتضان النجاشى لبعض رجالات قريش ونسائها من طغيان قريش نفسها إذا قيس بالخلقية العربية فيه مرارة عار على قريش وخزى لهم . .

ولكنهم بدل أن يتعقلوا المسائل ويوازنوا الأمور خسارة وربحا ويحصوا ما أراقوه من عرق وتفكير وجلد وحبس وطرد وسب ولعن وحرمان دون فائدة ما ، والدعوة لاتزال تعيش وتنمو وتتحرك وتتمدد حتى خرجت من البطون العربية السمراء إلى بطون من الحبشة رحبوا

بها وآنسوها وهدهدوا على مصابها بالأمن والطمأنينة بدل كل هذا ركبت قريش رأسها واتخذت طريقا مخبولا لايقدره فكر دبلوماسى واع ، ولايقدم عليه عقل سياسى حصيف : فقررت الحصار الاقتصادى والإجتماعى على الدعوة والداعية والأتباع ومن لاذ بهم من غير المسلمين .

فما زادت قريش بهذا الخبل تقدما ولا أحرزت نصرا بل انتكست على أعقابها كما تنتكس فى كل مرة وكما ينتكس المجابهون للدعوة دائما فى كل عصر ومكان : فقد مشى هشام بن عمرو بن الحارث العامرى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال : يازهير : أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وإخوالك حيث قد علمت لا يبايعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ . .

أما إنى أحلف بالله لوكان أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا : قال : ويحك ياهشام؟ فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها قال : وجدت رجلا ؟ قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : أبغنا ثالثا فذهب إلى المطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف فقال له : يامطعم : أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ . .

أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال وجدت ثانيا قال : من هو ؟ ، قال : أنا قال أبغنا ثالثا ؟ قال قد فعلت . قال : من هو ؟ قال :

زهير بن أبي أمية قال : أبغنا رابعا ؟ فذهب إلى ابن البخترى بن هشام فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدى فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم قال : من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وأنا معك قال : أبغنا خامسا ؟ فذهب إلى زمعة بن الأسود ابن المطلب بن أسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعو إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمى له القوم فاتعدوا له « خطم الحجون » الذى بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها [(1)] ..

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا ما كان (باسمك اللهم) [(2)] ..

وهكذا عندما يسلم الداعية أمره لله ويبلغ رسالات ربه ويخشاه ولا يخشى أحدا إلا الله تأتى أسباب النصر ، وينقسم المجابهون على أنفسهم ، وينصر الله دعوته بمثل هذا الرجل الفاجر ، ويبقى للداعية أنه احتسب جهاده لوجه الله الكريم ..

٦ ـ مهاترات بطلب المعجزات :

لم تكن دعوة الإسلام دعوة لقوم أو لجنس . كذلك لم تكن دعوة جيل أو زمن محدد معلوم ..

---

(١) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٨٩ ، راجع حول هذا دلائل النبوة ج : ٢ ص : ٨٠ — ٨٤ السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٠٠ — ٣٧٧ ، الحلبية ج : ١ ص : ٣٧٤ — ٣٨٣ السيرة لابن كثير ج ٢ ص : ٤٤ ، راجع المواهب ج : ١ ص : ٢٩٠ .

وهى كذلك لم تعتمد فى عملها على القهر والتسلط على العقل أو المشاعر . .

إنها دعوة عامة للبشر وهى دين الله الخاتم للناس جميعا : ثم هى دعوة قائمة على الحجة الواضحة والبيان النير : لقد كانت دعوة بالدليل الذى يحترم العقل وقدمت له وسائل المعرفة واضحة جلية متعددة الألوان مثانى تلون البراهين ليستجيب العقل والقلب والوجدان والاحساس حتى يكرم الانسان ذاته بالإيمان بالله : ويقدر قدر نفسه بعيدا عن الشركة العامة مع الحيوانات إن لم يكرم نفسه بالإيمان بربه الذى خلقه وعدله وأكرمه فى أحسن صورة ما شاء الله ركبه ، ثم جعل له عينين ولسانا وشفتين وهداه النجدين : وبعث فى مشاعره احساسا فطريا بالحنين إلى الإيمان بالله الأحد الفرد الصمد . .

ومع أن القوم لا يختلفون فى هذا مع الدعوة والداعية وأنهم دائما يفتخرون بالنسب إلى « إبراهيم » عليه السلام ولكنهم جابهوا الدعوة بعنف متغيظ محموم فلما فشلت المجابهة بألوانها المتعددة واستعلت الجماعة الإسلامية بإيمانها فوق كل ضغوط العمل العدائى من كفار قريش لم يسع كفار قريش إلا أن يسلكوا سبيل المهاترات فاتجهوا إلى أسلوب منحرف على المنهج الانسانى الكريم لقد سألوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن ينزل على هواهم ويعمل فى الأرض لهم معجزات : لقد طلبوا آيات مادية : وزعموا أنها إن جاءتهم يؤمنون .

يقول ابن هشام :

قالوا : يامحمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ماسألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول [1] .

ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يرد عليهم بقوله :

(ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ؛ وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم . .

فيعودون لمثل ما قالوا : قالوا :

فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك : سل أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ؛ وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ؛ وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم [2] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٦ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٧ .

فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

(ما أنا فاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ..

ولكنهم يستمرون فى المهاترات فيقولون : فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ..

فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

(ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل) ..

قالوا : يامحمد أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : « الرحمن » ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، أو تهلكنا [1] ..

عندئذ لا مجال للرد عليهم ولا الاستماع منهم ..

يقول ابن هشام :

« فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم — قام عنهم [2] .

---

(١) و (٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وراجع السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٧٨ — ٤٨١ .

ولكن بقية من هذا الفكر الرجعي الجاهلي ما زالت تريد أن تلاحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطاول في المماحكة والمراء والمهاترة .

لقد قام مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبدالله بن أبي أمية ابن المغيرة وهو ابن عمة النبي ـ صلى الله على وسلم ـ أمه عاتكه بنت عبد المطلب ، وكان المفروض أن يقول عبدالله هذا كلاما لينا يسرى به عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؛ بحكم القرابة القريبة وصلة الرحم ؛ ولكنه كان واحدا من الرجعيين لقد كان منكرا رجعيا ممتازا فقال : يامحمد : عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوابها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ؛ لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك [1] . .

وإذن فلم يطلب عبدالله بن أبي أمية معجزة ؟ إن كان الأمر هو الاصرار على المماحكة والمجابهة واغلاق العقل وقفل البصيرة وكراهية الحق ؟. .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص : ٢٩٨ ، راجع في هذا الموضوع ، السيرة الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٤ – ٣٤٦ ، راجع هذا البحث في تفسير الطبرى ج : ١٥ ص : ١٦٤ – ١٦٦ .

لقد كشفت هذه المقالة عن دوافع طلب المعجزة ، وفضحت المخطط الفكرى الرجعى تجاه الدعوة الإسلامية : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[1]) . .

ولم تكن مقالة عبدالله بن أمية مقالة يتيمة لقد كانت رأس فتنة يتحدث بها الرجعيون لقد قالها زمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث . وأبى بن خلف ، والعاص بن وائل ، قالوا : لو جعل معك يامحمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك[2] فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ[3]) .

ويسجل القرآن هذه المرحلة من العمل العدائى الذى واجه به الرجعيون دعوة الإسلام بقول الله تعالى :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٣

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٥ ، راجع حول طلب المعجزات ، تفسير ابن كثير ج : ٣ ص : ٦٢ — ٦٤ ، تفسير الطبرى ج : ١٥ ص : ١٥٩ — ١٦٦ .

(٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الأنعام .

وَالمَلائِكَةُ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّماء وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً [1]).

لقد قصرا ادراكهم عن التطلع إلى آفاق الاعجاز القرآنى فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ويتعنتون فى اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج ، لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيها لعرض حقائقه فى أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر وشتى الأجيال والأطوار ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، وعلقوا إيمانهم بالرسول — صلى الله عليه وسلم على تعللات مادية : يفجر لهم من الأرض ينبوعا ...الخ .

فتبدو طفولة الإدراك والتصور الرجعى الجاهلى فى هذا التعنت الساذج ، وتبدو معالم تخبطاتهم ومماحكاتهم فى تسويتهم بين بيت من زخرف وعروج إلى السماء ، أو بين تفجير ينبوع من الأرض ومجيء الله جل شأنه وتعالى جده ومعه الملائكة قبيلا [2] إن الذى يجمع فى تصوره بين هذه المقترحات كلها إنما هو رجل مختل العقل فاقدا لعنصر الاتزان والتعقل فى تفكيره . .

يقول السهيلى :

وذكر ما سأله قومه من الآيات وإزالة الجبال عنهم ، وإنزال الملائكة عليه وغير ذلك جهلا منهم بحكمة الله تعالى فى امتحانه

---

(١) سورة الاسراء الآيات من ٨٩ — ٩٣

(٢) فى ظلال القرآن ج : ١٥ ص : ٩٧ .

الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر في الأدلة فيقع الثواب على حسب ذلك ، ولو كشف الغطاء وحصل لهم العلم الضرورى بطلت الحكمة التى من أجلها يكون الثواب والعقاب إذ لا يؤجر الانسان على ما ليس من كسبه كمالا يؤجر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك ، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضى النظر فيه : العلم الكسبى وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب ، وهو النظر والدليل وفى وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول : وإلا فقد كان قادرا سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعونه ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم ؛ ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين فجعل الأمر يعلم فى الدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار لأنها دار تعبد واختيار ، وجعل الأمر يعلم فى الآخرة بمعاونة واضطرار[1] . .

يقول صاحب الحلبية :

وإذا كانت الحجج والبراهين لم تفدهم شيئا من الهدى فطلب الهدى منهم بتلك الحجج تعب لا يفيد شيئا ؛ وإذا ضلت العقول عن طريق الحق مع علم منها بتلك الطرق فأى قول يقوله العظماء[2] . .

وقد جاءت هذه الآيات فى سورة الاسراء بعد قوله تعالى :

(وما مَنَعنَا أن نُرسلَ بالآيات إلا أن كَذبَ بهَا الأوّلُون وآتَيْنَا ثَمُودَ الناقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بهَا ومَا نُرْسلُ بالآيَات إلاَّ تَخْويفاً) . .

---

(١) الروض الأنف ج : ٢ ص : ١٥٢ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٧ .

قال الواحدى :

سأل أهل مكة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون فقيل له :

إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبى منهم وإن شئت . أن تؤتيهم الذى سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ؟ قال :لا ، بل استأنى بهم فأنزل الله عز وجل : (وما مَنَعَنَا أن نُرسِلَ بالآيات إلاَّ أن كَذَّبَ بها الأَوَّلون ...[1]) . .

قال السهيلى :

أن التكذيب بالآيات نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم وانزاله الملائكة يوجب فى حكم الله إلا يُلبث الكافرين بها وأن يعاجلهم بالنقمة كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون ، فلو أعطيت قريش ما سألوا من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يلبثوا ، ولكن الله أكرم محمدا فى الأمة التى أرسله إليهم ، إذ سبق فى عمله أن يكذب به من يكذب ويصدق به من يصدق وابتعثه رحمة للعالمين ، بر وفاجر . أما البر . فرحمته إياهم فى الدنيا والآخرة وأما الفاجر ، فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حسبان عليهم من السماء[2] . .

لهذا فأن الدعوة الإسلامية لم تعتمد على إعجاز مادى لأنها خالدة إلى يوم القيامة . وعامة لكل جيل من البشر فى أى مكان على وجه البسيطة .

---

(١) أسباب النزول ص : ٢٩٦ ، راجع كذلك ص : ٢٧٧ ، ٢٧٨ تفسير الطبرى ج : ١٥ ص : ١٥٧ ، ١٠٨ راجع تفسير روح المعانى ج : ١٥ ص : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) الروض الأنف ج : ٣ ص : ١٥٢ ، ١٥٣ .

والمعجزات المادية تأتى لرسالات محدودة وقوم مخاطبون باصلاح أنفسهم من نبى خاص لهم فاذا لم ينصاعوا حقت عليهم الإبادة كمثل الذين خلوا من قبل . .

على أن الخوارق ليست مما يغنى النبى فى دعوة المكابر المفتون فإنه ليزعم أنها ضرب من السحر (١) . .

ولقد انصدع قلب أبو جهل رعبا لما طرق النبى - صلى الله عليه وسلم - بابه وأمره أن يسدد الدين الذى عليه للأراشى . . . وأطاع وخضع ودفع الدين ولكنهم فسروا هذا الانصياع بالسحر .

ومرة أخرى يتوعد أبو جهل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقاء حجر عليه ويمضى ليفعل فاذا هو راجع يلبس ثوب الخوف وخزى الهلع فلما سئل وأجاب عما رآه قالوا لقد سحرك . .

وعقبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة لما سمعا القرآن ورقت أفئدتهما وهشوا وبشوا للكتاب العزيز قالوا لهما لقد سحركما . .

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة للذين كانوا يشاهدون الآيات ثم لم يؤمنوا بها ، لقد ضرب المثل بقوم ثمود الذين جاءتهم الناقة وفق ما ماطلبوا واقترحوا وكانت آية واضحة لكنهم ظلموا بها وأوردوها مورد الهلكة فأخذهم الله أخذةرابية ، وأهلكوا بالطاغية ..

هذه التجارب اقتضت أن تجىء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بخوارق مادية لأنها رسالة الانسان على وجه الأرض ، إنها رسالة

---

(١) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص : ٥٨ .

الأجيال المتعاقبة جميعا ، وهى رسالة الرشد البشرى تخاطب فى الانسان مداركه وعقله ووجدانه جيلا إثر جيل ، إنها رسالة تحترم الانسان وتميزه ببشريته عن كل ما خلق الله من ذى روح ونفس رطبة . .

وآية هذا الخطاب هى معجزة القرآن ذاته وهو كتاب مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدا إنه يرسم منهجا كاملا للحياة . ويخاطب الفكر والقلب ويلبى الفطرة القوية : ثم يبقى مفتوحاللأجيال المتعاقبة كلها تقرؤه وتتدبره وتؤمن به وتطبقه إلى يوم القيامة لتحظى فى الدارين بالسعادة ورضوان الله[1] . .

أما الخوارق التى وقعت للرسول – صلى الله عليه وسلم – فإنها لم تتخذ إطار المعجزة التى تقوم برهانا على صدق الرسالة والنبوة ، وفى مقدمتها انشقاق القمر . .

فهو على الرغم من أنه حدث وقع تاريخيا وثبت بالسنة على نحو ما رواه البخارى : (انشق القمر ونحن مع النبى – صلى الله عليه وسلم – بمنى فقال : (اشهدوا وذهبت فرقة نحو الجبل) . وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبدالله : انشق القمر بمكة وتابعه محمد ابن مسلم عن ابن نجيح عن مجاهد عن أبى معمر عن عبدالله[2] . .

---

(١) فى ظلال القرآن ج : ١٥ ص : ٤٩ .

(٢) فتح البارى ج : ٨ ص : ١٨٣ ، راجع اللؤلؤ والمرجان ج : ٣ ص : ٢٨٠ ، باب إنشاق القمر مسلم ج : ٤ ص : ٢١٥٨ م .

وهو حادث واجه به القرآن الكريم جماعة المشركين فى حينه ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه فهو قدوقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، حتى ولو على سبيل المراء الذى كانوا يتذرعون به يرِ أنه روى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ، ولكنهم أنفسهم اختبروا الأمر فعرفوا أنه ليس سحرا ، قال فى الحلبية :

فقال رجل منهم : إن محمدا إن كان سحر القمر أى بالنسبة إليكم فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ، فاسألوا أهل الآفاق ، وفى لفظ : انظروا ما يأتيكم به السفار حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا ؟ فأخبروا أهل الآفاق وفى لفظ فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه فأخبروهم أنهم رأوه منشقا فعندذلك قالوا هذا سحر ابن سحر للسحرة فأنزل الله تعالى : (اقْتَرَبَت الساعَة وانْشَق القَمر . وإن يَروا كل آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سحْرٌ مُسْتَمر[1]) . .

لكن كون هذا الانشقاق تم كاستجابة لطلب المشركين فى مكة فذاك قدر لايصح التسليم به لأن النصوص القرآنية الصريحة تمنعه ، (وما مَنَعَنَا أن نُرْسل بالآيات إلا أن كَذبَ بهَا الأَولُون) فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الاستجابة لهم بالخوارق المادية لما كان من تكذيب السابقين الأولين بها . .

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٣ .

وفى كل مناسبة طلب المشركون آية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كان الرد بالرفض ؛ :

(وَقَالُوا لن نُؤْمِنَ لك حَتى تَفْجُر لَنَا منَ الأَرْض يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُون لَكَ جنةٌ مِّن نَخِيل وَعِنَبٍ فَتُفَجرَ الأَنهَارَ خلاَلَهَا تَفجِيراً . أَوْ تُسْقطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْتَأْتِىَ باللهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبيلاً . أَوْ يكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُف ، أَوْ تَرْقَى فى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لرُقِيِّكَ حتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كتَاباً نَقْرؤُه ...[1]) . .

تلك هى المطالب :

فأما الجواب فهو : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَراً رَّسُولا) . .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين خارقة قول متجاف مع النص القرآنى والموقف النبوى الذى وضحته آيات سورة الاسراء ، قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا :

ويقوى هذا الفهم موقف الإمام ابن حجر من طرق الحديث التى تذكر أن انشقاق القمر كان عقب سؤال المشركين : قال ابن حجر :(ولم أر فى شىء من طرقه أن ذلك كان عقب سؤال المشركين إلا فى حديث أنس[2]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٩٠ — ٩٣ من سورة الاسراء .

(٢) فتح البارى ج : ٨ ص : ١٧٧ .

وعلى ذلك فقوله فى روايته : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية من المراسيل كما قال ابن حجر لأن أنسا لم يدرك هذه القصة .وقد جاءت هذه القصة من حديث ابن عباس وهو أيضا ممن لم يشاهدها لكن روايته ليس فيها الصدر الذى جاء فى رواية أنس[1] . .

وعلى هذا فطلب المعجزات لم يلب من الله ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم ـ لأنه اتجاه يبعد الرسالة الخاتمة عن أساسياتها وينفيها عن وظيفتها ويبعد العقل والقلب عن آيات الله القائمة فى النفس والآفاق وفى التاريخ والكون ..

أما ما وقع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان إكراما من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا دليلا لا ثبات رسالته ونبوته . .

يقول : المسلم الفرنسى اتين دينه :

إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدا كانت فى الواقع معجزات وقتية وبالتالى معرضة للنسيان السريع بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآيات القرآنية « المعجزة الخالدة » ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن فى كل زمان وفى كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله ، وفى هذه المعجزة نجد التعليل الشافى للانتشار الهائل الذى أحرزه الاسلام ذلك الانتشار الذى لا يدرك سببه الأوربيون لأنهم يجهلون القرآن: أو أنهم لايعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلا عن أنها غير دقيقة . .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ج : ٣ ص : ٢٨٠ .

أن الجاذبية الساحرة التى يمتاز بها هذا الكتاب الفريد بين أمهات الكتب العالمية لا تحتاج منا ـ نحن المسلمين إلى تعليل ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله[1] . .

ومن ثم فإن هذا الرجل الفرنسى العظيم يقول عن انشقاق القمر :

أننا لا نستطيع تصديق تلك المعجزة المزعزعة لأنها تتنافى صراحة مع الكثير من آيات القرآن يقول الله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاَّ أن كَذَّبَ بهَا الأَوَّلُون) . .

وما أقل تأثير المعجزات فيما مضى من التاريخ : لقد عبد بنو اسرائيل العجل بعد أن أنقذهم موسى بمعجزته من لجة البحر ومن طغيان فرعون وما كان أهل مكة المشركون ليتأثروا بالمعجزة أكثر من غيرهم من بنى البشر فان الطبيعة الانسانية واحدة[2] أ هـ .

غير انى لا أملك أمام الكثرة الكثيرة من الأحاديث الصحيحة إلا أن أقول انه ليس فى الوسع تكذيب حادثة انشقاق القمر لكنها وقعت لا على أنها دليل فى مواجهة مطالب المشركين لاثبات الرسالة ، بل هى وقعت كما تقع خوارق كثيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولو سلمنا بأن حادثة انشقاق القمر كانت استجابة لمطلب المشركين لبقى سؤال عسير الجواب ، لماذا لم يستجيب القرآن ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لباقى مطالب القوم فيما ربما كانوا يسلمون ؟ . .

---

(١) محمد رسول الله اتين دينه ص : ١٣٨ .

(٢) المرجع السالف ص : ١٣٥ .

وهذا هو مامنعته الآيات البينات : (وما مَنَعَنَا أن نُرْسِلَ بالآيات الا أن كَذبَ بهَا الأولونُ) . .

ولم ترسل الآيات لتحمل الناس على الايمان وانما ترسل كما قال الله جل شأنه : (ومانرسل بالآيات إلا تخويفا) . .

على أن القوم كانوا لا يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولا يعتقدون فىقرارة أنفسهم أنه ليس رسولا فلقد كانوا يقولون إذا مر عليهم : إن غلام بنى هاشم هذا ليكلم من السماء فكانوا على ذلك حتى عاب آلهتهم التى كانوا يعبدون وذكرهلاك آبائهمالذين ماتوا كفارا فغضبوا لذلك وعادوه[1] . .

فالقوم ليسوا فى حاجة إلى معجزة مادية وخارقة تخسف بهمالأرض حتى يصدقوا ويؤمنوا ، فانهم ليعرفونه نبيا رسولا كما يعرفون أنفسهم وأولادهم ولكنهم مهاترون مكابرون جاحدون وصدق الله العلى العظيم :

(قَد نَعْلَم إنه لَيَحْزُنُكَ الَّذى يَقولُون فَإنَّهُمَ لايُكَذِّبُونَكَ ولَكنَّ الظَّالمينَ بآيَات الله يَجْحَدُون[2]) . .

---

(١) الدرر ص ٣٨ ، السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٦٤ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٢٢ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ١ ص : ١٩٩ ، المواهب ج : ١ ص . ٢٤٨ .

(٢) الآية رقم : ٣٣ من سورة الأنعام .

ثانيا : لماذا كفرت قريش

تدل المرحلة التمهيدية فى الباب الأول والثانى[1] على أن مرحلة التوعية كانت لها وظيفة هامة فى توعية المجتمع لاستقبال الرسالة الخاتمة والحياة الدينية فى مكة فى هذا الوقت السابق على البعثة كان فيها نظام حنيفى موحد . .

والقوم كانوا ينتسبون إلى جدهم الأكبر إبراهيم المسلم الحنيف . .

والمنهج الذى ملكته الدعوة له أصالة ذاتية فى الحصول على ثمار جيدة النوع والمحصول ، ولكن قريشا جابهت الدعوة مجابهة عنيدة عنيفة فلماذا ؟ .

لماذا رفضت قريش دعوة الله ؟ . .

أرفضتها عن اعتقاد فى عدم صحتها ؟ . .

أم رفضتها لأسباب أخرى ؟ . .

أما الاجابة على السؤال الأول فإنها لم ترفض الدعوة اعتقادا فى عدم صحتها.

فالوليد بن المغيرة يشهد ويقسم :

والله أن لقوله لحلاوة وأن أصله لعذق وان فرعه لجناة[2] . .

---

(١) راجع هذا الموضوع فى كتاب : بشائر النبوة الخاتمة سلسلة البحوث الاسلامية

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٧٠ .

وعتبة بن ربيعة يقول لقومه :

قد سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم[١] . .

والنضر بن الحارث وهو رأس العداء للدعوة يقول لقومه وقد أصابتهم (حيرة وتلجلج) : « يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا ، والله ماهو بساحر[٢] » .

وقد أرسلت قريش وفدا منها إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم لقد بعثوا وفدا مكونا من عضوية النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وكلاهما يكن للدعوة والداعية بغضا وكرها ويرد بجدع الأنف أن يصل اليهما بسوء وسألا أحبار اليهود فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرُوافيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٤ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٠٠ — ٣٠٨ راجع الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٧ .

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبوه . .

وسلوه عن الروح ما هى :

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدالكم [1] . .

ورجع الوفد وسألوا النبى — صلى الله عليه وسلم — ونزل القرآن الكريم حسبما شاء الله أن يوحى إلى نبيه ، وعرفوا أنه الحق ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا . .

وإذن فقريش رفضت دعوة الإسلام لا عن اعتقاد فى عدم صحتها ، ولكنها رفضت الدعوة لعلل وأسباب أخرى يمكن تركيزها فى الأسباب الرئيسية التالية :

١ — الاستعلاء والتكبر . .

٢ — جبرية التقاليد والعادات . .

٣ — العنصرية القبلية أو القومية الخاصة . .

٤ — جاهلية المقاييس . .

٥ — الحساسية الخاصة : الحسد ، والخوف على مصير الآباء . .

٦ — ضعف الإرادة أمام تعاليم الإسلام . .

---

(١) سيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

تلك هي جملة من الأسباب التي يمكن أن تفسر لنا لماذا كفرت قريش وردت دعوة الله وهم يعلمون أنها الحق المبين من ربهم ورب جدهم ابراهيم عليه السلام . .

١ ـ الاستعلاء والتكبر :

فى أوبة من رحلة بعيدة دار حديث بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب . .

قال أمية لأبي سفيان :

ياأبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفقة فنتحدث ؟ . .

قال أبو سفيان : نعم . .

وفعلا الرجلان وتحدثا عن شأن النبوة القادمة المنتظرة . .

قال أمية : إنى كنت أجد فى كتبي نبيا يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا أشك أني أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف فنظرت فى بني عبد مناف فلم أجد أحدا يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس هو حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه . .

قال أبو سفيان : فضرب الدهر ضربة فأوحى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخرجت فى ركب من قريش أريد اليمن فى تجارة : فمررت بأمية فقلت له كالمستهزىء به : ياأمية قد خرج النبي الذى كنت تنعته ؟ . .

قال : أما أنه حق فاتّبعه . .

قلت : ما يمنعك من اتباعه . .

قال : ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف [1] . .

إنه الحسد والكبر إنه كان يريد أن يكون هو النبى ، وأراد أن يكون النبى من قبيلته ، ثم هو يتكبر أن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم خوفا على كبريائه من فتيات قريش يعيرنه أنه صار تابعا بعد أن كان يدعى أنه النبى المنتظر . .

واستمع رجال ثلاث من قريش إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فى جوف الليل ، وهو يصلى ويقرأ القرآن وعاودوا هذه المرة ثلاثا دون اتفاق منهم على اللقاء على الرغم من اتفاقهم على عدم العودة وهؤلاء الثلاثة هم : أبو سفيان بن حرب وأبو جهل والأخنس ابن شريق . .

فلما كانت المرة الثالثة وتعاهدوا ألا يرجعوا إليها ذهب الأخنس ابن شريق يسأل أبا جهل رأيه فيما سمع فقال أبو جهل :

« ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى تدرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه [2] » . .

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣١٦ ، راجع الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨٦ .

هى عنصرية قبلية وحسد قومى واستعلاء وتكبر أن يخضع بنو مخزوم لبنى عبد مناف ولكن الرسالة أسمى من كل ما جال فى خاطر أبى جهل . .

ومرة أخرى يتنفس أبو جهل الصعداء ويقول وهو محموم الصدر إلى الوليدبن المغيرة :

والله إنى لأعلم أنه صادق . .

فقال له الوليد « مه » وما دلك على ذلك ؟ . .

قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن ؟ والله إنى لأعلم أنه صادق . .

قال الوليد : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به . .

قال أبو جهل : تتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعزى أن اتبعته أبدا . .

إن أبا جهل يخشى بنات قريش كما كان يخشاهن أمية أنه ترفع تدفع إليه مقاييس عاطفية تضع فى حسابها كلام النساء فترتعد منهن وتتأبى على الله ورسوله من أجل كلامهن فما أبخس المقياس وما أتعس حظ الجاهلين :

(وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِن جَاءَهُم نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى من إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُم نَذِيرٌ مازَادَهُم إلا نُفُوراً . اسْتِكْبَاراً

---

(١) تفسير المراغى ج : ٢٥ ص : ١٥٧

الأرض ومَكْرَ السَّيىء . ولاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيىءُ إلَّا بأَهْلِهِ . فَهَلْ ينْظُرُون إلَّا سُنَّةَ الأَولينَ . فَلَن تَجد لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ولَنْ تَجدَ لسُنَّةِ الله تَحْوِيلًا[1]) . .

٢ ـ جبرية العادات والتقاليد :

(قَالُوا : وجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابدِين[2]) . .

(قَالُوا : بَلْ وَجدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفعَلُون[3]) . .

كانت الدعوة الإسلامية نقلة جديدة لحياة الانسان فى التصور والسلوك فى العقيدة والأخلاق والمعاملات ، وقد درج الأولون على أسلوب خاص ارتبط فى أذهانهم ومشاعرهم بالمواريث الاجتماعية التى يمجدون فيها الآباء والأجداد . .

فإذا تليت عليهم آيات الله البينات قالوا :

(مَا هَذَا إلَّا رجُلٌ يُرِيدُ أن يَصُدَّكُم عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤكُم[4]) .

(وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا[5]) . .

(وإذَا قِيلَ لَهُم اتَّبعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا : بَل نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا[6]) . .

---

(١) الآية من رقم : ٤٢ ، ٤٣ من سورة فاطر .

(٢) الآية رقم : ٥٣ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية رقم : ٧٤ من سورة الشعراء .

(٤) من الآية رقم : ٤٣ من سورة سبأ .

(٥) من الآية رقم : ٢٨ من سورة الأعراف .

(٦) من الآية رقم : ٢١ من سورة لقمان .

إنهم دائما يتعللون :

(بلْ قَالُوا إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمة وَإِنَّا عَلَىَ آثَارِهِم مُهْتَدُون[1])

وقد ظهر ذلك فى سلوكهم وأقوالهم :

كان عتبة بن ربيعة سيدا فى قومه قال لهم يوما وهو جالس فى نادى قريش :

يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأُكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا فقالوا له بلى ، يا أبا الوليد قم إليه فكلمه[2] .

وقام عتبة وعرض ما عرض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم حتى إذا أفرغ قرأ عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – آيات من سورة « فصلت » وصغى إليها عتبة جيدا وعاد إلى قومه وقد هش وجدانه وبش قلبه يتذوق ما لحلاوة الإيمان . ولكنه ما أسلم ولا آمن ولا رضى الله عنه . لأنه أوثق نفسه بأغلال (إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عليَ أُمَّةٍ وإنَّا عَلىَ آثَارِهم مُهْتَدُون) . .

وكذلك شأن الوليد بن المغيرة ريحانة قريش ووحيدها فى الشرف والسؤدد ، اجتمع إليه نفر من قريش وقد حضر الموسم فقال لهم :

يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة الزخرف .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٣ .

ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا قالوا : فأنت ياأبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به . .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع ؟ . .

قالوا : نقول كاهن . .

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون . .

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . .

قالوا : فنقول شاعر . .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . .

قالوا : فنقول ساحر . .

قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ . .

قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وأما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل وإن أقرب القول

فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك[1] . .

الآن يثبت الوليد بن المغيرة صفة السحر مع أنه كان قد نفاها ونفى كل صفة قدمها القوم من قبل وحكم بأنهم لن يقولوا قولا مما قالوه إلا عرف بأنه باطل ثم وصف القرآن بأن له لحلاوة وأن فرعه لجناة . . . الخ . .

فلماذا انتكس الوليد ؟ . .

لقد انتكس كما انتكس ابن أخيه أبي جهل فى حمأة التقاليد وجبرية العادات فما استطاعوا أن ينقبوها ليخلصوا إلى دين الله الحق المبين . .

٣ ـ العنصرية القبلية (القومية) :

كان أمية بن أبي الصلت ينتظر نبوة فى العرب لقد كان يتمناها لنفسه فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره أبو سفيان ابن حرب صديقه ونديمه ثم سأله :

فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ . .

فقال أمية : والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف أبدا[2] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٧٠ ، ٢٧١ ، راجع الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٢٨١ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٥٦ .

إنها كلمة الجاهلية : لكذاب ربيعة خير عندى من صادق مضر . .

هى الداء الذى يعانيه الحق وأنصاره من العاطفيين القوميين أو العنصريين الأرضيين . .

وكان لأبى جهل مثل هذا المنطق فيما يرويه المغيرة بن شعبة قال :

إن أول يوم عرفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى جهل ، ياأبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله . .

فقال أبو جهل : يامحمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل أنت تريد أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لا تبعتك . . . . .

إنه يقسم بالله أنه لو كان يعلم أن ما يقوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق لا تبعه . . . ؟ فهل هو لا يعلم أنه حق . . . ؟ فلنرجع إليه ثانية لنراه بماذا يعقب على مقاله هذا فى حديثه مع المغيرة حسبما يروى :

فانصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل على فقال :

والله إنى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شىء أن بنى قصى قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم . ثم قالوا : فينا السقاية فقلنا : نعم . ثم قالوا فينا الندوة . فقلنا : نعم . ثم قالوا : فينا اللواء ،

فقلنا : نعم . ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي والله لا أفعل [1] . .

إن أبا جهل يؤكد معرفته للنبوة وأن ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم حق مشهود له ولكنه ما زال يردد عصبيته لقومه وقبيلته ، وأن النبوة شرف ضاع من بنى مخزوم كما ضاع من بنى ثقيف . .

إن أبا أمية وأبا جهل معا يعرفان أن محمدا رسول الله حقا وصدقا ، ولكن قوميتهما وعنصريتهما وتعصبهما لقومهما أضاع عليهما نعمة الايمان وحلاوة الاسلام . .

٤ ــ جاهلية المقاييس :

(ا) اقتراح نبى خاص :

(وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [2])

لقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من ذؤابة قريش ثم كان من ذؤابة بنى هاشم وبنو هاشم فى العلية من العرب وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم سنا ما فى هذه الذؤابة العلية معروفا بسمو الخلق ، فى بيئته قبل البعثة لكنه ما كان زعيم قبيلة ولا كان رئيس عشيرة لم يكن واحدا فى مشيخة العرب وبيئتهم تهتز بمثل

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٦ — ٥٠٧ راجع حول هذا كتاب تاريخ مكة للسباعى ص : ٤٨ ومابعدها .

(٢) الآية رقم : ٣١ من سورة الزخرف .

هذه القيم فاعترضوا بقولهم : (لولا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وذلك تخبط وتخليط فى القيم والموازين . . فاختيار الأنبياء واصطفاؤهم فضل يؤتيه الله عز وجل لمن شاء من عباده . . (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقد شاء الله جل شأنه أن لا يجعل لهذه الرسالة الأخيرة سندا من خارج طبيعتها ولا قوة من خارج حقيقتها فاختار لها رجلا ميزته الكبرى : الخلق ، وهو من طبيعة هذه الدعوة ، وسمته البارزة : التجرد . وهو من حقيقة هذه الدعوة :

لم يختره ولم يجعله زعيا لقبيلة ولا رئيسا لعشيرة ولا صاحب جاه أو ثراء . حتى لا تلتبس قيمة من قيم هذه الأرض بقيم الدعوة الربانية النازلة من السماء ، ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض لا تتفق مع حقيقتها فى شىء ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة ، ولكى لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف . .

ولكن القوم كانت قد غلبت عليهم مقاييس الأرض وضلوا فى شعاب هذه المقاييس فلم يدركوا طبيعة الدعوة فخلطوا فى القيم والموازين : قيم الأرض وموازينها وقيم الدعوة وموازينها وظنوا أن الوحى يتنزل على هواهم فاقترحوا أحد رجلين للرسالة : الوليد بن المغيرة عم أبى جهل أو عروة بن مسعود الثقفى [1] : فرد الله عليهم موازينهم : (أهمْ يقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) ؟ . .

---

(١) الحلية ج : ١ ص : ٣٤٧ .

ياعجبا مالهم هم ورحمة الله وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ولا يحققون لأنفسهم رزقا : (... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخرِيًّا ورَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[1]) . .

فحتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن الذين أعطينا هم إياه وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو الحياة[2] . .

فما بالهم يدسون أنوفهم فى نعمة عليا اصطفى الله جل شأنه لها من ربى لها وأعد لرسالتها وكانت له منذ الأزل وكان هو لها منذ كان علم الله العزيز الحميد . .

لقد كان القوم يعيشون فى ظل مقاييس الجاهلية : إن الرياسة مرتبطة بالجاه والثروة وإن الشرف مناط بالأغنياء فقط فضلوا بذلك عن سواء السبيل وتلك واحدة من أسباب إعراض قريش عن دعوة الله..

الخوف من الضياع الاجتماعى والاقتصادى :

(وقَالُوا : إِن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أَرْضِنَا . أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُم حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقاً مِّن لَّدُنَّا . ولكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ[3]) . .

---

(١) الآية رقم : ٣٢ من سورة الزخرف .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٠ ص : ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) الآية رقم : ٥٧ من سورة القصص .

قال الواحدى :

« نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنا لنعلم أن الذى تقول حق : ولكن يمنعنا من أتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا لاجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم [1] . .

قال الخازن : نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة ، قال الله تعالى : (أَوَلَم نُمَكِّن لَّهُم حَرَماً آمِنًا) . .

وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم [2] . .

فهى نظرة سطحية أرضية محدودة تمليها المقاييس الجاهلية وتوحى بها شيطانية الفروض العقلية والهوى النفسى . .

فهم لا ينكرون أن الذى جاء به محمد هو الهدى ولكنهم يخافون :

مجرد خوف . .

مجرد ظن . .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص : ٢٥٣ ، راجع روح المعانى ج : ٢١ ص : ٩٧ ، تفسير الطبرى ج : ٢١ ص : ٩٤ ، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروزه ج : ١ ص : ٢٢٠ ،

(٢) الخازن ج : ٥ ص : ١٧٨ ، راجع تفسير ابن كثير ج : ٣ ص : ٣٩٥ .

مجرد شعور كاذب يخافون أن يتخطفهم الناس إنهم كانوا أيام الجاهلية فى أمان ورد الله أبرهة ألاشرم عن البيت الحرام وهم يومئذ فى تشوش من التوحيد ومع هذا فقد آنسوا فضل الله ورحمته ؟ أنه وحده الحامى وهو وحده المدافع . .

وإن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطف ريشة من جناح طائر ما لم يأذن بذلك الله وهى فى كنف الله وفى رحاب البيت العتيق فلماذا يخافون أن تتخطفهم الناس ؟ . .

إن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله ، وهى كذلك لا تملك أن تضرهم إذا نصرهم الله ؟ ..

إن العلة هى أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ولو خالطهم لتبدلت نظرتهم لمفهوم القوى ولا ختلفت تقديرهم للأمور ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله وأن الخوف لا يكون إلا فى البعد عن هداه . وأن هدى الله موصول بالعزة وأن هذه الوصلة حقيقة منشؤها أن الله هو الخالق وهو المدبر والذى يتبع هداه يستمد منه العون والحول والقوة ويأوى بذلك إلى ركن شديد فى واقع الحياة [1] . .

٢ ـ احتقار صنف من الناس :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا . لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُون هَذَا إِفْكٌ قَدِيم [2]) . .

---

(١) فى ظلال القرآن ج : ٢٠ ص : ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الآية رقم : ١١ من سورة الأحقاف .

قال فى المواهب :

كان أبو جهل يقول ألا تعجبون إلى هؤُلاء واتباعهم لو كان ما أتى محمدا خيراً وحقا ما سبقونا إليه أفتسبقنا زنبرة إلى رشد[1] ..

لقد كان إسراع الفقراء والوالى إلى الإسلام مغمزا فى نظر الكبراء المستكبرين فراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيرا ما كان هؤلاء أعرف منا به ولا أسبق منا إليه فنحن فى مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا أعرف منهم بالخير . .

لقد كان الاعتزاز الأجوف بالمراكز الاجتماعية والمنازل الاقتصادية

حاجبا لهذه الحفنة من الايمان وهو تصور لا يتفق مع معايير الإسلام فإن الحقيقة التى يجاهد الإسلام فى تركيزها فى تصور البشر أن تستمد الأرض موازينها من الدعوة من السماء من عند الله وهو أمر عظيم جدا عسير على الناس أن يتقبلوه إلا بمعركة : كانت العقيدة هى بدؤها حتى يخلص الناس لربهم ويتطهروا من قيم الأرض وجلابيب العادات والتقاليد . .

إن الميزان الذى ثقل على القوم هو : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . .

فهى القيمة الحقيقية التى يزن بها الإسلام أقدار الناس وهى المعيار الذى يتفاضل الناس به وما سوى ذلك فهو قتاد لا وزن له ولا معنى وإذن فقولهم : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ) تعلة مرتبطة

---

(١) المواهب ج : ١ ص : ٢٦٩ .

بجاهلية المقاييس التى لا تقرها قواعد الدعوة ولا تقيم لها وزنا وقد قالها الذين كفروا من قبل فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . .

٥ – الحساسية :

(ا) الحسد – يقول ابن هشام :

« فلما جاءهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما عرفوا من الحق : وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ولجوا فيما هم عليه من الكفر فقال قائلهم :

(لا تَسْمعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوا فيه لَعلكُم تغْلبون) فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم [1] . .

كان التطلع إلى الشرف عاملا من عوامل الانحراف : قوته مقاييس الجاهلية الأولى واستقبلته بعض النفوس بالآنانية السوداء المردية وكان من صورها ومن ضحاياها أمية بن أبى الصلت الذى ردد فى شعره توحيدا خالصاً وتمنى نبوة تخبره بما بعد الموت :

الا رسول لنا منا يخبرنا
مابعد غايتنا من رأس محيانا [2]

ولكنه يكفر لأن النبوة لم تنزل عليه . .

---

(١) ابن هشام ج : ١ ص : ٣١٣ . .

(٢) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ١٣٣ ، ١٣٤ . وراجع كتابنا : بشائر النبوة الخاتمة : سلسلة البحوث الإسلامية .

قال ابن كثير : إن أمية قدم المدينة بعد بدر يريد لقاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قيل له إن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما ابنا خاله قد قتلا فى غزوة بدر وهما الآن يرقدان فى القليب جدع أذنى ناقته وقطع ذنبها وتهيج بشعر سفيه ثم رجع إلى مكة وترك الاسلام [(١)] . .

فيالها من تفاهة وياله من صدأ يفسد النفس التى نطقت غابرا بالتوحيد فلما جاءها الحق الذى تعرفه حسدت الناس على ما أتاهم الله من فضله . .

وما تزال الدعوة الاسلامية حتى يومنا هذا تعانى من هذا الداء الدفين « الحسد » وما أتى الله به بعض دعاته من التوفيق لخدمة رسالة نبيه محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - فهل لهؤلاء إلى خروج من سبيل ؟ ..

(ب) الخوف على آبائهم فى الآخرة : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ [(٢)])..

كانت هذه الآيات ونظائرها مما يصور اليوم الآخر ومافيه من عذاب شديد للكافرين تزعج قلب الرجل المكى لأنه مرتبط فى تدينه الوثنى بما كان عليه الآباء والأجداد . .

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) الآيات من رقم : ٣٣ - ٤٢ من سوره عبس .

فكانت تتزلزل قوائم عقله اذا تتلى عليه آيات فيها مصير الذين مضوا على الكفر وهى مغالطة سوّل لهم الشيطان بها أن يجابهوا الدعوة ويكذبوها حتّى يسلم آباؤهم من هذا الوعيد الشديد . .

لقد كانت المشاعر المنحرفة والعقلية الخطابية تريد أن تقاوم الدعوة بهذا الفقه الأعرج الأعمى لتقنع نفسها أن أباءهم الذين مضوا كانوا على شيء من الدين وتلك حساسية جوفاء فإن الرسالة الاسلامية قد قررت :

(مَن اهتَدَى فَإِنمَا يهْتَدى لنَفْسه ومَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَايَضِلُّ عَلَيْهَا ولاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ومَاكُنَّا مُعذِّبِينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً[1]) . .

وذلك قانون نظمته الدعوة حتّى تخف هذه الحساسية المرهقة نحو الآباء الذين ماتوا قبل البعثة وكانوا فى حياتهم على ضلالة لعدم بعث رسول يهديهم إلى طريق الله الصحيح . .

وهى فرصة نفسية تقدمها الدعوة ليتعرفوا منها على حقيقتها وطبيعتها لينقذوا أنفسهم من الظلمات والجاهلية التى يتخطبون فيها . ولكنهم حلوا وزينوا لأنفسهم التعلل بما كان عليه الآباء وزينوا لأنفسهم بالمغالطة مجابهة الدعوة لينقذوا آباءهم من يوم القيامة وما أعد فيه للكافرين فضروا أنفسهم بذلك فى معمعة الشيطان وغمرتهم الابليسية بموجها العاتى فغرقوا فى الضلالة ولا عاصم من امر الله إلا من رحم . .

---

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة الإسراء .

٦ ـ **ضعف الارادة امام سمو التعاليم الاسلامية :**

(وإذَا المَوْءُ ودَةُ سئلتْ بأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[1]) .

(وإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنثَى ظل وجْهُهُ مُسْوَدًّا وهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىَ هُونٍ أَمْ يَدُسُّه فى التُّراب ألاَ سَآءَ مَايَحْكُمُون[2]) . . .

(قلْ تَعَالَوا : أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إحْساناً ولا تَقْتُلوا أولاَدكُم من إملاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُم وإياهُم ولا تقْرَبُوا الفَواحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَما بَطَنَ ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التى حرَّمَ اللهُ إلَّا بالْحَقِّ ذلكُم وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعْقلُون . ولاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ الاَّ بالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّه وأَوفُوا الكَيْلَ والميزَانَ بِالقِسْطِ لانُكَلِّفُ نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا وإذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا ولَوْكَانَ ذَا قُرْبَى وَبعَهْدِ الله أَوْفُوا ذَلكُم وصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون[3]) . .

لقد كانت تعاليم الإسلام ومبادئ الدعوة فى هذا العهد المكى تنقية كاملة للانسان من أوشاب الشرك وأوشاب الخرافة وتنقية للمجتمع ن ضلالات الجاهلية وتنقية للحياة كلها من عبودية العباد واتجاه بالحياة كلها إلى الله وحده . .

لقد كان الشرك فى كل صوره هو المحرم الأول وهو المنكر الأول . .

---

(١) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة التكوير .

(٢) الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .

(٣) الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ من سورة الأنعام .

وكان التوحيد على اطلاقه هو القاعدة الأولى التى لاغنى عنها ومن أجل ذلك جاءت تنقية الإنسان عقلا وقلبا وتنقية المجتمع والحياة جميعا فى ظلال هذا التوحيد والخضوع الكامل لله وحده فالتوحيد هو القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بربه على بصيرة وترتبط بها الجماعة بالمعيار المستقر العادل فلا تطل فيها شهوة تعكر الأمن والإيمان ولاتبرز نزوة تفسد المجتمع والحياة . .

وكانت تلك النقلة تعنى إقامة العدل لكل من فى الحياة ، وهو عدل قائم على أساس أن الله وحده هو المتصرف فى الكون ، وهنا تتصاغر النفوس التى تحب النشوز عن ربقة الخضوع لله ، وتنطلق فى حرية الفوضى والانزلاق لتعيش مع الشيطان والهوى . وترد دين الله ودعوته

ولا تزال النفوس حتى اليوم وفى داخل الجماعة الاسلامية ترتعب من حكم الإسلام لأنه قيد على انحرافاتها ، وعدل يفضح ظلمها ، وكمال يغطى نقصها ورحمة تخزى قسوتها وسمو بصغر نقصها . .

ولقد تصاغرت نفوس الكفار أمام هذا السمو الجليل لمبادىء الدعوة :

(وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإذَا خَاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً . والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِيَاماً . والَّذِين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَاماً . والَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يقْتُرُوا

وكانَ بَيْنَ ذَلكَ قَواماً . والَّذينَ لَايدْعُونَ معَ اللهِ إلَهاً آخَر ولَا يَقْتُلونَ النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالْحَق وَلَايَزْنونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ يَلْقَ أثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ العذَابُ يَوْمَ القيَامةَ ويَخْلُدْ فيه مُهَاناً . إلاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وعملَ عمَلاً صالحاً فَأُولئكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيِّئَاتهِمْ حَسَناتٍ وَكَانَ اللهُ غفُوراً رَّحِياً . وَمَن تَابَ وعمِلَ صَالحًا فَإنَّهُ يتُوبُ إلَى اللهِ مَتَاباً[1]) . .

ولكنها أثقال على نفس الكفرة ناءت بحملها فتثاقلوا إلى أرض الهوى ووكر الشيطان فكفروا بأنعم الله وصدوا عن سبيله : فخطوا بذلك معالم الطريق التى تبدوا دائما كظاهرة فى العمل لنشر دعوة الله . .

ثالثا : النماذج القرآنية لمعالم الطريق

وكان من رحمة الله سبحانه وتعالى بالجماعة الاسلامية الأولى أنْ قدم لها زادا روحيا تتبلغ به حتى يأتيها نصره وفرجه فقدم القرآن الكريم فى العهد المكى للدعوة الاسلامية مجموعة من الزاد الروحانى تتزود به جماعة السابقين الأولين على مجابهة عدوها ويحدد به القرآن الكريم طبيعة الطريق ومعالمه : وأنها هكذا شاقة وصعبة وهى هكذا قد خاضها الذين سبقوا من الأمم ويخوضها فى مكة مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم بلال وسمية وعمار وزنيرة وخباب : وسيخوضها من بعدهم كل من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويتمسك بالوفاء لهذه التعاليم فإن القضية من أولها هى اختيار الله ورسوله على قيم الحياة

---

(١) الآيات من رقم : ٦٣ — ٧١ من سورة الفرقان .

الدنيا ، وقد كانت العادة التي قضى الله بها أن يكون الذين في جانبه قلة (. . . وقليلٌ من عبادىَ الشَّكُور [1]) . .

وستبقى للدعوة هذه الميزة ليبلو الله الذين آمنوا ويمحصهم ويمحق الكافرين .

والنماذج التي اخترتها كقواعد تبرز معالم الطريق هي نماذج في مواجهة :

- التسلط البشرى على عباد الله المستضعفين . .
- موازين المال والثراء في مواجهة تعللات الكفرة من قريش . .
- الايمان دون سؤال أو طلب دليل . .
- أبعاد المعركة بين الداعية وخصومه . .

١ — في مواجهة السلطة :

جاءت سورة القصص المكية التي نزلت والمسلمون مستضعفون والمشركون هم أصحاب الجاه والتسلط لتضع الحد الحقيقي لميزان القوى وميزان القيم .

لقد نزلت سورة القصص لتقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله وحده ، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الايمان بالله وحده فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى التي على ظهر هذه الأرض ، ومن كانت له قيمة الإيمان كان له الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس ينفعه شيء ألبتة . .

(١) من الآية رقم : ١٣ من سورة سبأ .

ومن ثم يقوم كيان سورة القصص على قصتين :

واحدة فى البدء هى : قصة موسى وفرعون . .

وواحدة فى الختام هى : قصة قارون مع قومه . .

والقصة الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان : قوة الطاغية الديكتاتور المتجبر مع كمال يقظته وحذره وفى مواجهتها : فى مواجهة هذه القوة الطاغية الطفل الصغير «موسى» ، وهو رضيع لاحول له ولا قوة ولا ملجأ له ولا وقاية ، وقد علا فرعون فى الأرض واتخذ أهلها شيعا وقال لهم : (أنا ربكم الأعلى) ، وخافوه وصدقوه ولكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته وجنوده لاتغنى عنه شيئا فلم يتمكن من موسى وهو طفل ، لقد رعته عناية الله ووقته قدرته جل جلاله وهو طفل مجرد من كل حيلة ، وفرعون عات جبار ؛ لكن موسى كان فى حراسة القوة الحقيقية ترعاه العناية الربانية وتدفع عنه السوء وتعمى عنه العيون وتتحدى به فرعون وجنوده تحديا سافرا فتدفع به إلى حجره وتدخل به عليه عرينه بل تقتحم به عليه قلب امرأته ؛ وفرعون مكتوف اليدين ازاءه مكفوف الأذى عنه . .

والقصة الثانية تعرض قيمة المال ومعها قيمة العلم ؛ المال الذى يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون فى زينته وهم يعلمون أنه أوتى من المال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة من الرجال الأقوياء . .

والعلم الذى يعتز به قارون ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتى ذلك المال ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لاتستخفهم

خزائنه ولا تستخفهم زينته بل يتطلعون إلى ثواب الله ويعلمون أنه خير وأبقى ثم تتدخل يد الله فتخسف بقارون وبداره الأرض لايغنى عنه ماله ولا يغنى عنه علمه وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا واضحا كما تدخلت فى أمر فرعون فألقته فى اليم هو وجنوده فكان من المغرقين . .

وإذن فإلى أين يتجه كفار مكة بثرائهم وأموالهم ؟ . .

ومن يحميهم أن تخطفهم الناس من حول البيت العتيق ؟ . .

لقد ساق الله لقريش ومن يسير على دربها هذا النموذج ليبين الله أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؟ ويعلم الله البشر أن الأمن إنما هو فى جوار الله ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التى تعارف عليها الناس . .

وأن الخوف إنما هو فى البعد عن جوار الله ولو تظاهرت أسباب الأمن التى تعارف عليها الناس وجاءت قصة قارون فى سورة القصص تقرر وتؤكد هذه الحقية فى صورة الغرور بالمال والعلم الزائف [(١)] ، فبقى ذلك نموذجا دائما لعلامات الطريق . .

٢ ـ فى مواجهة الثراء والمادة :

وها هو ذا صاحب الجنتين فى سورة الكهف المكية تمتلئ نفسه بهما زهوا فينتفض كالديك ويختال كالطاووس ويتعالى على صاحبه الفقير (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ منكَ مَالاً وأَعَزُّ نَفَرًا [(٢)]) . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن حـ : ٢٠ ص ٣٥ : ٣٧

(٢) الآيات من رقم ٣٤ من سورة الكهف .

ويخطوان معا إلى الجنتين وملء نفسه البطر وملء جنبيه الغرور وملء قلبه العتو ، لقد نسى الله ونسى شكره على نعمه وظن أن هاتين الجنتين لن تبيدا أبدا وأنكر قيام الساعة وافترض أنها ستجىء فساعتها سيجد هنالك الرعاية والإيثار ، أليس هو من أصحاب الجنان فى الدنيا فلابد وأن يكون جنابه فى الآخرة ملحوظا . .

ودخل جنته — هكذا — وهو ظالم لنفسه فقال: ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا .

غرور يخامر عقول ذوى الجاه والسلطان والثراء ، إن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى فماداموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلابد أن يكون لهم عند السماء مكان محفوظ ملحوظ ، إنه جهل وأحلام أطفال ، وعقول عصافير .

فأما صاحبه الفقير الذى لامال له ولا نفر ولا جنة عنده ولاثمر فانه معتز بما هو أبقى وأعلى ، معتز بعقيدته وإيمانه معتز بالله الذى تعنو له الجباه، فهو يجيب صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه كبره وبطره يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ويوجهه إلى الأدب الواجب فى حق المنعم جل جلاله وينذره عاقبه البطر والكبر ، ويرجو عند ربه ماهو خير من جنته وثمارها :

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً).

لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا . .

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً .

فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرا من جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صعيداً زَلَقاً ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً[1]) . .

وهكذا يبرز النص انتفاضة عزة الايمان فى النفس المؤمنة فلا تبالى بالمال والنفر ولا تدارى الغنى والبطر ولا تتلعثم فى الحق ولا تجامل فيه الأصحاب ولاتجهل فى التعبير عن عزتها وايمانها بربها . .

وهكذا يرتسم فى طريق الدعوة أن المؤمن لابد وأن يستشعر أمام الجاه والمال ، أنه عزيز وأن ماعند الله خير وأبقى ، خير من الحياة بقضها وقضيضها ، وأن فضل الله عظيم وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب المتبطرين (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ : يَالَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا[2]) . .

الثمر كله مدمر والجنة خاوية محطمة وصاحبها يقلب كفيه ندما وحزنا وأسفا ، إنه نادم على إشراكه بالله وهو الآن يعترف

---

(١) الآيات من رقم : ٣٧ : ٤١ من سورة الكهف .

(٢) الآية رقم : ٤٢ من سورة الكهف .

بربوبيته ووحدانيته فهل كان في هذا النموذج ردع لريحانة قريش وصاحبه الوليد بن المغيرة صاحب بساتين الطائف وعروة بن مسعود الثقفي . .وقد اختالا بحدائقهما وما لهما ؟ . .

هل في ذلك ردع لكل ريحانة من أساطين الجاه والثروة ؟ . .

والمبطرين نعمة الله من القوارين الكثيرين في العصر الحديث ؟ . .

وهكذا كانت تتغذى قلوب المسلمين الأوائل بلال وصهيب وعمار وخباب فاحتقرت موازين أبي جهل والوليد وأبي بن خلف وعقبة بن معيط . وارتفعوا بايمانهم فوق قيم الأرض التي ارتبطوا فيها . .

وكان جاه الله أعظم من جاههم . .

وصبر الضعفاء أقوى من تجبر الأقوياء . .

فانفردوا بحلاوة الإيمان ونصرالله القريب [1] . .

٣ — في مواجهة المهاترات :

نوع فريد من البشر إذا سمع الحق اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب وكانت له استجابة لايتلوى فيها :

(وَجَآءَ مِنْ أَقْصى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى . قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين

اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُم أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدونَ .

ومَالِىَ لآ أَعْبُد الَّذى فَطَرَنى وَإِلَيْه تُرْجَعُون .

---

(١) راجع في ظلال القرآن ج : ١٥ ص : ٩٤ ، ٩٥ .

أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ[1]) . .

إنها استجابة فطرية سليمة مستقيمة فيها الصدق والبساطة والحرارة وفيها استقامة الفهم واستقامة الإدراك ثم فيها التلبية الروحية متينة الوعى واضحة الصراط .

إنه رجل من أقصى المدينة يسمع دعوة الله فيأتى مسرعا مجيبا ملبيا ولم يطق عليها سكوتا ولم يقبع فى داره وهو يرى الضلال والجحود ، ولكنه يسعى بالحق الذى استقر فى وعيه وفى ضميره وتحرك فى شعوره يسعى به إلى قومه الذين يكذبون ويجحدون . لقد جاء يسعى من أقصى المدينة ليؤدى واجبه ليوجه قومه إلى الحق أو يقاوم اعتداءهم الذى سيصبونه على المرسلين . .

إنها استجابة دون مهاترات بطلب دليل أوخارق مادى . .

وهى استجابة سعى بها الرجل صاحب الفطرة السليمة . .

وإذن فما بال قريش وقد سعى إليها محمد — صلى الله عليه وسلم — وعرض هو نفسه عليها قبيلة قبيلة وفردا فردا وهو من هو نسبا وخلقا ووفاء وعهدا وأدبا وأمانة وحلما . وهو منهم . يعرفون عن حياته كل شئ . وهى كلها سنام فى ذروة الطهارة والعفاف والكمال الفريد .

بذلك تغذت أرواح الأوائل من المسلمين فكان لها سلوى من سطوة جبار عنيد مناع للخير معتد أثيم . .

---

(١) الآيات من رقم : ٢٠ — ٢٣ من سورة يس .

٤ ــ ابعاد المعركة :

كانت موجة الارهاب والتعذيب التى نشرتها قريش واشاعتها فائقة حدود الأخلاق والقدرة العظيمة ، ولقد استشهدت فيها أم ياسر وأبوه ، وعدد آخر هاجر إلى الحبشة واستمرت معركة العقيدة ثلاثة عشر عاما إذا حسبت بمقاييس الزمن فى نظر الإنسان العجول كانت فترة طويلة وكانت لاتبشر بخير ولا يرتجى من ورائها نصر ؛ وهنا تبدو أبعاد المعركة كواحدة من المعالم فى الطريق . .

إن رسالة الإسلام هى رسالة السلطان الإلهى الذى ينبغى أن يستقر فى الأرض ليعبد الناس ربهم على هدى وبصيرة وما على الداعية إلا أن يبلغ دعوة الله بمنهجها وقواعدها وغاياتها ؛ أما أبعاد المعركة بينه وبين أعداء الدعوة فهى أبعاد بعيدة حتما سيكون له فيها النصر إن شاء الله . .

وسورة البروج تأتى فى الدور المكى لتقدم للفكر الإسلامى أبعاد المعركة .

إن الرواية تنتهى أحداثها فى أيام قصار تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه فاعلوها من نقمته وغضبه فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد فوراءه حساب الله : (ذلك الفوز الكبير) بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه وهى الخاتمة الحقيقية للموقف فلم يكن ماوقع منه إلا طرفا من أطرافه لايتم به تمام ؛ وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب على حادث أصحاب البروج لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة وفى قلوب فئة مؤمنة تتعرض فيها بعد للفتنة والتعذيب على مدى القرون . .

ويكون من معانى النصر التى يتشرف بها الداعية أنه استعلى على الفتنة وانتصر لعقيدته على الحياة الطاغية وانتصر على أوهام الجسم وجاذبية الأرض فقد كان فى مكنة المؤمنين فى سورة البروج أن ينجوا بحياتهم فى مقابلَ الهزيمة لإيمانهم والخسف بعقيدتهم . ولكن كم كانوا هم يخسرون أنفسهم فى الدنيا وفى الآخرة . .

وكم كانت البشرية كلها تخسر عند مايقتل معنى زهادة الحياة بلا عقيدة وبشاعتها بلاحرية وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟ إنه لمعنى كريم جدا ومعنى كبير جدا أن ينهزم الطغاة أمام أرواح الشهداء وإنه لربح كبير جدا ألاتحرق النار عقيدتهم وإن وجدوا مسها فى أجسادهم لتنتصر العقيدة ولو حرق الجسد . .

وهذا المعنى الجليل نفسه نصر مؤزر للشهداء وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب كريم ولأعدائهم الطغاة حساب عقيم :

(إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِين والمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ولَهُمْ عَذَابُ الحرِيقِ .

إن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ[1]) . . .

---

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة البروج .

إن الذى حدث فى الأرض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف ، فالبقية آتية هناك والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه والفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت وهو مقرر مؤكد وواقع فى يوم الدين . .

وهكذا عرفت الجماعة الأولى فى مكة المكرمة وتعرف كل جماعة بعدها تتحمل نفس الشرف الذى تحملته الجماعة الأولى : أن مجال المعركة ليس هو الأرض فما هى إلا جزء بسيط وفى الآخرة خير لمن اتقى وآثر لقاء ربه وعندئذ فلا خوف ولافزع ومرحبا بالموت فى سبيل الله (فَمَن زُحْزِحَ عنِ النَّارِ وأُدخِلَ الجنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا مَتَاعُ الغُرُور[1]) . .

(ب) العالمية :

من معالم الطريق للدعوة فى هذه المرحلة أنها بدأت عالمية وأن عالميتها كانت بالنص وبالتطبيق . .

النص :

مضى فيما نقلته من النصوص أن صاحب الحلبية نقل نصا وهو يشرح مرحلة (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال فيه :

قال على : ثم جمعتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا ثم قال لهم : يابنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة[2] .

---

(١) من الآية رقم ١٨٥ من سورة البقرة

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢٢ .

ومعنى هذا أن عالمية الدعوة بالنص كانت مذكورة مبلغة والنبى — صلى الله عليه وسلم — مازال فى مكة وفى سنواتها الأولى فكانت عالميتها مقرونة بحياتها منذ أن بلغها الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى مكة . .

التطبيق :

فى الدراسات السالفة وقفنا جميعا على خبر وفد نجران .

لقد قدموا على النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو بمكة وهم قوم من النصارى وبلدهم بين مكة واليمن على نحو من سبع مراحل من مكة وكانت منزلا للنصارى فلما بلغهم خبر النبى — صلى الله عليه وسلم — من المهاجرين إلى الحبشة وفدوا عليه — صلى الله عليه وسلم — فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وتلا عليهم القرآن فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وعرفوا منه ماهو موصوف فى كتابهم[1] . .

أن إيمان هؤلاء النصارى يوضح إدراكهم لوحدة الدين فى مفهومه ، وأن رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — كانت عامة لجميع الناس وأن كل ملة قبله قد بطلت بدعوته . ووفودهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثمرة من ثمرات الهجرة إلى الحبشة مما يقوى

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٨٣ .

الرأى أن الهجرة إلى الحبشة كانت أسلوبا من أساليب تبليغ الدعوة فى مرحلة عالميتها وأن دخول النجاشى نفسه فى الإسلام علامة من علامات أن عالمية الدعوة مصاحبة لبدئها لاتنفصل عنه أبدا . .

قال النجاشى :

يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان مايزيدون على ماتقولون أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل . .

النجاشى حبشى الجنسية نصرانى التدين ليست بينه وبين العرب صلة جامعة ولانسب فى الديار فلماذا يؤمن ؟ . .

إنه أدرك أن كل ماعلى الأرض من دين وكل ماعليها من جنس بشرى لابد وأن يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فتلك واجب البشر أجمعين .

رابعاً : المجابهة الثقافية

إذا كانت الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث تعانى من الغزو الفكرى بأنواعه المتعددة : فقد كانت الدعوة منذ عهدها المكي مستهدفة لمثل هذا اللون من المجابهة .

إذا جابه الغزو الفكر الشيوعى الكذاب ، والصليبي الحقود واليهودى الماكر الخبيث دعوا الله الخاتمة التى جاء بها سيدنا محمد ﷺ فإن هذه المواجهة استمرار لأسلوب طبيعى فى معاندى لا فرق بين قديم فيه أو حديث .

فلقد أعلنت قريش مجابهة ثقافية ضد الدعوة الإسلامية وكان لها جانبان كلاهما أخطر من الآخر فى محاولة هدم الدعوة ..

وهذان الجانبان هما : الجانب السلبي

والجانب الإيجابى

أما الجانب السلبي : فقد اتفقت كلمة قريش على اللغو فى القرآن الكريم ولقد حكي الله تعالى عنهم هذا الموقف إذ يقول الله تعالى :

« وقالوا لا تسمعوا لهـذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (فصلت) .

يقول ابن هشام فى تصوير هذا الموقف :

وكان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ، قالوا وهم يهزءون به : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، لا نفقه ما تقول ، وفى آذاننا وقر لا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك فاعمل بما أنت عليه ، إننا عاملون بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً ، فأنزل

الله تعالى فى ذلك : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً »[1] .

وقد تخطوا فى سياستهم السلبية هـذه دعوة أتباعهم باللغو فى القرآن الكريم وتجاوزوا بها أفراد مكة إلى أفراد المجتمع الخارجى ، فعندما حضر الطفيل بن عمرو الدوسى مكة نصحه أصحاب الثورة الثقافية المخاصمون للدعوة الإسلامية بألا يستمع إلى القرآن الكريم حتى ملأ صماخ أذنيه بالقطن كى لا يسمع القرآن إذا حضر إلى الكعبة ، وكان ذلك الفعل من الطفيل نتيجة الإلحاح الفكرى الغازى المواجه للدعوة الإسلامية من كفار قريش ، ولقد فعل الرجل ذلك حرصاً منه على عدم سماع شىء من القرآن ، غير أن الطبيعة الخيرة لا تملك أمام فطرتها إلا أن تتلألأ مهما حجب لألاءها ثياب بالية من نسيج الفكر الجاهلى العارى التائه .

يقول الطفيل بن عمرو الدوسى مصوراً حالته :

فوالله مازالوا بى حتى أجمعت أن لاأسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا — قطنا — فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه ، قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة . قال : فقمت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، قال : فسمعت كلاماً حسناً ، قال : فقلت فى نفسى واثكل أمى والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول ؟ فان كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قد قالوا كذا وكذا للذى قالوا ...

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ ط مكتبة الكليات الأزهرية .

والله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك
م أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولا حسناً فاعرض على أمرك . .
ال: فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام وتلا على القرآن فلا والله ماسمعت
ولا قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة
لحق وقلت : يا نبي الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم
لى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم
ليه ، فقال : اللهم اجعل له آية[1] .

وأما الجانب الإيجابى فهو : أن النضر بن الحارث كان يحاول أن يلهى
شباب العرب بأنواع من الأدب والشعر والحكايات والقصص فى لا ينتبهوا إلى
رواء التلاوة وجاذبية الأسرار فى آيات الذكر الحكيم ، فهو عمل توجيهى
ثقافى إيجابى فقد كان ينقل قصص فارس وأدبها وحكاياتها ليغرى الفكر
العربى بهذا اللون من المتع الأدبية حتى لا يجد فى فكره ومشاعره مكاناً
باقياً ليشعر بلذة القرآن الكريم تلك اللذة التي وصفها كبيرهم عتبة بن ربيعة
بقوله :

لقد سمعت قولا فلا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر
ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا
بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه
نبأ عظيم[2] .

ووصفها الارستقراطى المدلل الوليد بن المغيرة :

والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٢ / ٢٣ ط مكتبة الكليات الأزهرية
بمصر .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ .

ومع أن الأربين : عتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة يصدران حديثهما من القرآن الكريم بالقسم إلا أن طبيعتهما كانت سبخة فما زالوا على الكفر حتى طهرت سيوف المسلمين وجه الأرض منهم يوم بدر .

كانت قريش تدرك مقدار جاذبية القرآن الكريم للنفس الإنسانية الصافية فأرادوا أن يعكروها وأن يشوشوا على الفطرة بشعر فارس وأدابها فكان النضر بن الحارث يسافر إلى بعيد فى بلاد فارس ليجلب أدباً خليعاً وشعراً رخيصاً ليفسد به فطرة الشباب حتى لا يستمعوا إلى حلاوة القرآن الكريم، وحسن إعجازه .

يقول ابن هشام :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر الله فيه وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً منى[1] ؟ .

ولقد وضع القرآن الكريم صورة هـذه المواجهة فى شكل قرار لتتعلم القيادات العاملة فى حقل الدعوة الإسلامية أن هذه المجابهة الثقافية واحدة من ضمن المجابهات العديدة التى يجب أن تنبه لها المسلمون فى كل زمان ومكان .

يقول الله تعالى :

«ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين » (لقمان) .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ .

وهكذا منذ العهد المكى تبدو المجابهة الثقافية علامة من علامات الحذر التى ينبغى أن يفطن لها المسلمون ، وأن يأخذوا حذرهم منها ومن أساليب تنفيذها ومن وسائل التنفيذ ومن أصحاب الكلمات المعسولة من قيادات المجابهة الثقافية التى تتخذ أسلوب العلم تارة وأسلوب الإنقلاب الثورى تارة أخرى ، وأسلوب التقدم الحضارى فى صيغ متجددة للاغراء والتضليل والتعمية وقد يكون للضحك على أصحاب اللحى فى كثير من الأحايين .

إن الحركة الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى تخطيط بقدر ما تحتاج إلى تبعية لفرقة من الفرق الإسلامية : القديمة أو الحديثة .

إنها ليست فى حاجة إلى أن تتبع مذهباً لواحد من قادة الدعوة فى قرن من القرون سواء كان ذلك القائد فى القرون السحيقة أو فى القرن المنصرم .

إنما الحركة الإسلامية فى حاجة إلى :

(أ) إدراك أساليب الأعداء المعاصرين وهم :

— العلمانيون .

— الشيوعيون .

— الصليبيون .

— اليهود .

(ب) وضع خطة تشمل مجال :

— التربية .

— والإقتصاد .

— ورياسة العمل العلمى بالجامعات .

— والنقابات المهنية والصناعية .

— والتجارية .

(جـ) تحقيق مبادىء الإسلام من القرآن الكريم والسنة الإسلامية كحقيقة حضارية .

(د) الابتعاد عن مجالات الاختلاف والجدل والتفرقة .

(هـ) محاولة محاصرة التيارات المعاصرة وإفساد مفعول أساليبها .

وتحقيق ذلك سهل إذا :

(أ) خلصت النية لله .

(ب) لم تتخذ الدعوة وسيلة للأثراء وجمع للمال ، وطريقاً للمناصب والشهرة والجاه .

الباب الثانى

الغايات

ثمار العهد المكى وخاتمته

- الفصل الأول : فى العقيدة الاسلامية ...
- الفصل الثانى : فى التشريع والأخلاق والجماعة الاسلامية ...
- الفصل الثالث : خاتمة العهد المكى ...

الفصل الأول

في العقيدة الإسلامية

الفصل الأول

فى العقيدة الإسلامية

(ا) لا اله الا الله :

كانت معركة انتقال المجتمع المكى من الجاهلية إلى الاسلام — على الرغم من ضخامة المجابهة وطول الزمن — ذات أثر إيجابى أثمرت فيه الدعوة ثمارا طيبة بقيت ركائز للحياة الاسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفى مقدمة هذه الثمار :

اثبات التنزيه والوحدانية لله جل جلاله . .

واثبات النبوة والقرآن لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . .

وأن البعث حق . . . الخ

١ — وأنه بالاضافة إلى ماعالجته فى الباب السابق عند الحديث على منهاج التفكير ورأينا كيف أثبت القرآن الوحدانية لله جل جلاله : وحدانية الذات والسلطان والتدبير . فان القرآن الكريم قد عمق مناقشة هذه القضية مع مشركى العرب فلم ينته العهد المكى إلا وقد استقرت فكرة التوحيد فى جلاء جلى ووضوح واضح ، ولم يبق لمعاند فيها أدنى شبهة . وسأعتصم باذن الله بقدر الامكان بالجو القرآنى المكى فى عرض مناقشات القرآن الكريم للشبهات التى أثارها القوم

لقد قالوا :

(وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون) .

(اصطفى البنات على البنين[١]) . .

(أَجَعَلَ الالهَةَ إِلٰهاً واحِداً إن هَذَا لَشَىْءٌ عُجَاب[٢]) . .

وادعوا أنهم مايعبدونها إلا زلفى:

(. . . مَانَعْبُدُهُم إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىَ اللهِ زُلْفَى[٣]) . .

والقرآن الكريم يفند هذه الدعوى فى موجتين من المناقشة :

الموجة الأولى تتجه نحو ما يشركون به :

ماذا خلقوا من السموات والأرض ؟ . .

ماذا يملكون للبشر من ضرر أو نفع أو رزق ؟ . .

ماذا يملكون للبشر من شىء إن جاء عذاب الله ؟ . .

وآيات القرآن الكريم حول هذه الأسئلة كثيرة انتخب منها باقة ميسرة كنموذج يصور هذه الموجة التى جابه بها القرآن الكريم ادعاءات المشركين .

---

(١) الآيتان : ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الصافات .

(٢) الآية رقم : ٥ من سورة ص .

(٣) من الآية رقم : ٣ من سورة الزمر .

ماذا خلقوا من السموات والأرض ؟ :

ماذا خلقوا من السموات والأرض ؟ :

يقول الله تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقُون[1]) . .

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لا يخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ[2]) . .

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يمْلكُون مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلا نُشُوراً[3]) . .

(هذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِين[4]) . .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ ماتَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذَا أَوْ أَثَارة مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين[5]) . .

ماذا يملكون للبشر من نفع أو ضر أو رزق ؟ :

يقول الله تعالى :

(وَلاَ يسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْراً ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُون .

وإن تَدْعُوهُم إِلىَالهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكم سواءٌ عليْكم أَدعوتُمُوهُم أَمْ أَنتُم صَامِتُون .

(١) الآية رقم : ١٩١ من سورة الأعراف .

(٢) الآية رقم : ١٧ من سورة النحل .

(٣) الآية رقم ٣ من سورة الفرقان .

(٤) الآية رقم : ١١ من سورة لقمان .

(٥) الآية رقم : ٤ من سورة الأحقاف .

إنَّ الَّذين تَدْعونَ من دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُم فَادْعُوهُم فَلْيسْتَجِيبُوا لَكُم إنْ كُنْتُم صادِقِين .

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يمْشُونَ بهَا أَمْ لَهُم أَيْدٍ يبْطشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصرونَ بِهَا أَم لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُل ادْعوا شُرَكَاءكُم ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرون [1]) . .

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُون نَصْرَكُم وَلاَ أَنفُسَهم ينْصُرُون) .

(وإن تَدْعُوهُم إِلَى الهُدَى لاَ يَسْمعوا وتَرَاهُم يَنْظُرُون إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُون [2]) .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ ينْفَعُهُمْ وَيقُولُونَ هَؤُلاَء شُفَعاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون [3]) .

(اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ منْ شُرَكَائِكُمْ مَن يفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُو ن [4]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ١٩٢ — ١٩٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان : ١٩٧ ، ١٩٨ من سورة الأعراف .

(٣) الآية رقم : ١٨ من سورة يونس .

(٤) الآية رقم : ٤٠ من سورة الروم .

ماذا يملكون للبشر ان جاءهم عذاب الله :

يقول الله تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُم إنْ أَتَاكُم عذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتكُم السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُم صَادِقِين .

بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْهِ إنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُون [1]) .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبكُمْ مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَات ثُمَّ هُمْ يصْدِفُون [2]) .

ولا تنتهي هذه الموجة حتى تحدد إجابات القوم عن الخلق والرزق يعني بدءُ الانسان وعناصر وجوده وفيها يقر المشركون بالألوهية والوحدانية لله تعالى :

(قُلْ مَن يرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَار وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّت وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون [3]) . .

---

(١) الآيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٤٦ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ٣١ من سورة يونس .

وإذن فالحقيقة التى يجب أن يقربها القوم :

(فَذَٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ الحَقُّ ، فَماذَا بَعْدَ الحَقِّ إلا الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ[1]) . .

فإذا سئلوا بعد ذلك عن شركائهم أفحموا وأجاب عنهم القرآن الكريم فما حيلة العاجز أمام الحق الأبلج :

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يبْدَؤُ الخَلْقَ ثُم يُعِيدُهُ ؟ قُل اللهُ يَبْدُؤُ الخَلْقَ ثُم يُعيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون) .

قُلْ هَلْ من شُرَكَائكُم مَنْ يَهْدى إلَىَ الحق ؟ قُل اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ، أفمَنْ يَهْدِى إلَىَ الحَقِّ أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ ؟ أَمَّنْ لا يَهِدِّى إلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُون[2]) . .

ثم يكشف القرآن الكريم عن واحدة من مسببات الكفر وهى فساد منهج التفكير :

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُم إلَّا ظَنًّا إنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيْئاً إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُون[3]) .

---

(١) الآية رقم : ٣٢ من سورة يونس .

(٢) الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ من سورة يونس .

(٣) الآية رقم ٣٦ من سورة يونس .

ثم يتحداهم :

(قُلْ ادْعُو الذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونه فَلاَ يَمْلِكُون كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُم وَلَا تَحْوِيلاً[1]) .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ من لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ وهُمْ عَنْ دُعَائِهِم غَافِلُون[2]) . .

(أَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِير[3]) . .

الموجــة الثانية :

فى تسميتهم الملائكة بنات الله ، وقالوا اتخذ الله ولدا . .

وقد ناقشهم القرآن الكريم فى هذه المسألة من عدة جوانب :

الجانب الأول :

جانب تقاليدهم هم وعاداتهم فهل هم يستبشرون خيرا إذا بشر أحدهم بالأنثى؟

لقد وضح القرآن الكريم بل فضح أساريرهم الحزينة إذا بشر أحدهم بالأنثى يقول الله تعالى :

(وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّايَشْتَهونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَى مِنَ القَومِ مِنْ سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَاب؟ أَلاسَاءَ مَايَحْكُمون[4]) .

---

(١) الآية رقم : ٥٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية رقم : ٥ من سورة الأحقاف .

(٣) راجع الشاطبى فى الموافقات ج ٣ ص ٣٥١ والآية رقم : ١٧ من سورة الملك .

(٤) الآيات من رقم : ٥٧ — ٥٩ من سورة النحل .

(أَفَأَصفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً[1]) .

(أَم اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينِ وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[2]) .

(وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ويُسْأَلُونَ[3]) .

وهنا يسألهم القرآن الكريم :

(فَاسْتَفْتِهِمْ : أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُون ؟ . أَمْ خَلَقْنَا المَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُون ؟ . أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون . أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ . مَالَكُم كَيفَ تَحْكُمُونَ ؟ . أَفَلاَتَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُم سُلْطَانٌ مُبِين. فَأْتُوا بِكِتَابِكُم إِن كُنتُم صَادِقِينَ . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون[4]) .

هكذا يحاصر القرآن الكريم أسطورتهم فى كل مساربها ويحاجهم بمنطقهم وبمنطق البيئة التى يمسكون بتراثها وثقافتها الجاهلية . .

---

(١) الآية رقم : ٤٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة الزخرف .
(٣) الآية رقم : ١٩ من سورة الزخرف .
(٤) الآيات من رقم ١٤٩ — ١٥٩ من سورة الصافات .

انهم يعدون ولادة الأنثى محنة ويرونها مخلوقا له درجة دون درجة الذكر ، ثم هم يدعون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، فمن أين جاءتهم هذه الأسطورة وهم مع الرتبة الدون لأنهم وهم خلق محتاج إلى بارئه الأجل الأعظم لايقبلون الأنثى لهم ذرية وامتدادا لحياتهم فهل اختار الله البنات وترك لهم البنين؟ استفهتهم عن هذا الزعم السقيم المتهافت؟.

ويسترسل القرآن فى تفنيد أسطورتهم حتى الخاتمة :

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ . وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ[1]) .

فينفى قدرتهم على أن يضلوا من عباد الله إلا من هو محسوب من أهل الجحيم وإنهم عاجزون عن فتنة قلب مؤمن محسوب من الطائعين . .

ولكل مقامه لايتعداه . .

فالملائكة عباد من خلق الله لهم وظائف فى طاعة الرحمن . يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد ربهم . ويقف كل منهم على درجته لايتجاوزها والله هو الله الملك القدوس ذوالجلال والإكرام[2]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ١٦١ — ١٩٥ من سورة الصافات .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢٣ ص : ٧١ — ٧٢ .

ومثال آخر فى حياتهم المعيشية وهو مثل واضح حاسم لامجال للجدل فيه :

(ضَرَبَ لَكُمَ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُم هَلْ لَكُم مِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيه سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون[1]) .

وهو مثل شامل لكل ماكانوا يتخذونه شريكا من دون الله جنا أوملائكة أو أصناما أو أشجارا ..

إنهم – فى العادة الغالبة – لايرتضون أن يشركهم مواليهم فى شىء مما تحت أيديهم من مال ولايسوون عبيدهم بأنفسهم فى شىء أفليس من العجب أن يجعلوا لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده ؟ . .

إنهم يأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء فى أموالهم التى هى منحة الله ورزقه الذى ساقه إليهم أفليس من المضحك أن يأنفوا ذلك لأنفسهم ثم يشركون مع الله واحدا من خلقه ، وتعبيرات القرآن الكريم دقيقة إنها تخطو بهم رويدا رويدا فى ضرب هذا المثل : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) ،فهو مثل قريب لايحتاج إلى رحلة أو جهد فى تدبره (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء)؟.

فهم لايرضون أن يشاركهم العبيد فى شىء من الرزق فضلا عن المساواة بينهم فى ملكيته . .

---

(١) الآية رقم : ٢٨ من سورة الروم .

انهم لايرضون ذلك لأنفسهم وإذن فكيف ترضونه فى حق الله وله المثل الأعلى ؟..

(سُبْحَانَه وتَعَالى عَما يَقولون عُلوًّا كَبيرًا . تُسَبِّح لَهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ ومَن فِيهِنَّ وإن مِّن شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّح بحَمْدِهِ ولَكِن لَّاتَفقَهُون تَسْبِيحَهُم إنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غفورًا[1]) .

الجانب الثانى :

السلطان الالهى :

(لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ من لَّدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِين[2]) .

(وَلَهُ مَن فِى السَّموَاتِ والأَرْضِ وَمَن عندَهُ لايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلايَسْتَحْسِرونَ . يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لَايَفْتُرون . أَم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يَنْشُرون . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون لايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُون ..

أَم اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قل هَاتُوا بُرْهَانَكُم هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِىَ وذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُون الحقَّ فَهُم مُّعْرِضُون[3]) .

(او) مجرد فرض جدلى تفيد امتناع وقوع اللهو لأن الله جل ثناؤه لم يرده أزلا ولن يكون أبدا هناك لهو لأن الفعل منفى منذ الأزل

---

(١) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ من سورة الإسراء .

(١) الآية رقم : ١٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيات من رقم : ١٩ — ٢٤ من سورة الأنبياء .

وهذا تقرير لحقيقة أساسية هى أن اختراع البشر شركاء من دون الله ونسبتهم ذلك إلى الله تجرؤ لايملكه العباد لأن الله خلق الكون كله حسب علمه وإرادته ولم تتوجه إرادة الله إلى مثل هذا اللهو فلو كانت إرادة الله توجهت للهو ما احتاج الأمر إلى اقتراح لهو من العباد ينسبونه إلى ذاته المقدسة وذلك استنكار لما وقع منهم وتهكم بآلهتهم أن لها قدرة على شىء من نشر إذ من أوليات صفات الاله أن ينشر الأموات من الأرض ؛ فان الخالقية صفة الله وحده ومن مظاهر الخالقية أن يبعث ماق القبور ، وإذن فما قالوه :

(مانَعْبُدُهُم إلّا لِيُقَرِّبُونَا إلَى الله زُلْفَى) .

انحراف عن الطريق السواء وتبجح لايملكون له سندا :

(أَم اتَّخَذُوا من دونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وهوَ يُحْيِ المَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]) . .

لقد استقرت شهادة التوحيد : استقرت فى الدليل واستقرت فى الاعتراف واستقرت فى صدور الذين آمنوا بها :

(قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وبَيْنَكُم وأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ ومن بَلَغَ أَئِنَّكُم لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُل لَّا أَشْهَد ، قُل إنَّمَاهوَ إلَهٌ واحدٌ وإنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُون)[2] .

---

(١) الآية رقم : ٩ من سورة الشورى .

(٢) الآية رقم : ١٩ من سورة الأنعام .

(ذَٰلِكُمُ اللهُ ربُّكُم لَا إِلَٰه إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعْبدوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيلٌ. لاتُدْرِكُهُ الأَبْصارُوهويدْرِكُ الأَبْصَارَ وهوَ اللَّطِيفُ الخَبِير [1]).

(فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تصْرَفُون [2])

(قُلْ هوَ اللهُ أَحَد . اللهُ الصَّمَد . لم يَلِد ولَمْ يولَد . وَلَم يَكُن لَّه كُفُوًا أَحَدٌ [3]) . .

٢ ــ تصحيح التدين :

ومن هذه الثمرة الأساسية « لتوحيد الله جل شأنه » تبدو ظاهرة « التدين الصحيح » كثمرة ملحقة بالثمرة الأولى ، فان القوم لم يكفروا بالله فهم يعتقدون أنه الخالق والرازق والنافع والضار ولكنهم اتخذوا طريقا منحرفا فى العبادة أسرفوا فى العقيدة حتى وسع إيمانهم مخترعات آبائهم وأجدادهم فكانت الدعوة فى هذا العهد المكى تحاول أن تردهم إلى طريق الله السواء [4]) . .

(أَلَا لِلهِ الدِّينُ الخَالِص [5]) . .

(قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّه الدِّينَ . وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المُسْلِمِين . قُل إِنِّي أَخَافُ إن عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم . قُل الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّه دِينِي [6]) . .

---

(١) الآيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٣٢ من سورة يونس .

(٣) سورة الإخلاص .

(٤) راجع الاسلام والعقل ص : ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) من الآية رقم : ٣ من سورة الزمر .

(٦) الآيات من رقم : ١١ — ١٤ من سورة الزمر .

(لِلّهِ الدِّينُ الخَالِصُ) الدين الخالص : القاعدة التى تقوم عليها الحياة كلها بل يقوم عليها الوجود كله ومن ثم ينبغى أن ترسخ وتتضح وتعلن فى هذا الأسلوب الحاسم الجازم : (ألاَ لِلّهِ الدِّينُ الخَالِصُ)

والقلب الذى يوحد الله هو الذى يدين لله وحده لايحنى هامته لأحد سواه ولايطلب شيئا من غيره ولايعتمد على أحد من خلقه فالله وحده هو الولى الحميد وهو وحده القوى المتين وهو وحده القاهر فوق عباده . والعباد كلهم مهازيل ضعاف لايملكون نفعا ولاضرا ولاموتا ولاحياة ولانشورا ، وإذن فلا حاجة ألبتة إلى أن يحنى الانسان هامته لواحد من المخلوقات المحتاجة بالطبع إلى الله الصمد فهو وحده المانح والمانع وهو وحده الغنى . والناس جميعا هم الفقراء إلى الله . .

والقلب الذى يوحد الله يؤمن بوحدة الناموس الالهى الذى يصرف الوجود كله ويؤمن إذن بأن النظام الذى اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد الذى لاتصلح حياة البشر إلا باتباعه ومن ثم لايختار غيرما اختاره الله ولايتبع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة كلها . .

والقلب الذى يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعته يد الله فى هذا الكون من أشياء ويحيا فى الكون بقلب يحس بيد الله فى كل ماحوله فيعيش فى أنس الله ورعايته ويشعر بالتحرج أن يشرك بالله شيئا يعلمه أولا يعلمه . .

وتبدو كذلك آثار التوحيد فى التصورات كما تبدو فى السلوك ، فلا تبدو عقيدة التوحيد كلمة تقال باللسان بل تصير حالا للمرء فى تفكيره وسلوكه وقلبه وعقله وجميع أنماط تصرفاته [1] . .

وقد أعلنها القرآن كذلك فيما يتعلق بالنبى - صلى الله عليه وسلم - :

(قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ . . .) وقيمة هذا الاعلان كبيرة جدا ، لأنها تحوى أصلا لمفهوم التدين وهو الخضوع الكامل والاستسلام التام لجناب الله الأعظم . .

إن قيمة هذا الاعلان فى تجريد العقيدة من كل شائبة : فالنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو المصطفى من عند الله هو فى هذا المقام عبد لله وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم حسب مراتبهم الأمثل فالأمثل وترتفع ذات الله سبحانه وتعالى متفردة فوق الجميع وعندئذ تتميز العبودية عن الألوهية فلا يختلطان ولايشتبهان ، وتتجرد صفة الله الأحد الصمد بلا شريك ولاشبيه ولاند : وحين يقف سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى مقام العبودية لله وحده : وهو من هو فى تاريخه الطويل الحافل بالقمم الشريفة من الأخلاق . تتلاشى مخترعات الذين أشركوا وتنمحى دعوى شفاعة الأصنام والملائكة ويبقى مفهوم التدين خالصا (قل : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى) ، ليس فيه خلط ولا تشابه ، فقد وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا

---

(١) راجع الإسلام والايمان ص : ٢١٩ - ٢٢١ فى ظلال القرآن ج : ٢٤ ص : ١٠ راجع الإسلام والعقل : ١٠٠ راجع المصطلحات الأربعة فى القرآن ص : ١١٥ .

وما أنا من المشركين : قُلْ إنَّ صَلاتِى ونُسُكِى ومَحْيَاىَ ومَمَاتِى لِلهِ رَبِّ العَالَمِين . لاشَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وأَنا أَوَّلُ المُسْلِمِين [1]) . .

إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة فى القلب ونبضة فى العرق وطرفة من العين وبكل حركة فى الحياة . .

إنها تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة تجمع الصلاة والاعتكاف والحياة والممات وتخلصها لله وحده رب العالمين ، فهو المهيمن المتصرف المربى الحاكم إنها تسبيحة فى إسلام كامل لا يستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية إلا يُعْبِدُها لله وحده ، ولا يحتجز دونه شيئا فى الواقع ولا فى الضمير (وبذلك أمرت) ، فسمع — صلى الله عليه وسلم وأطاع حق السمع والطاعة حتى تفطرت قدماه وعبّد بذلك الطريق المستقيم فبانت علامات التدين الصحيح [2] وهى مع تلك الهداية نيرة فى قوله تعالى :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ولاَ تَتَّبِعُوا من دُونِه أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون [3]) .

(وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) . .

---

(١) الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٢) راجع ظلال القرآن ج : ٨ ص : ١٠٠ .

(٣) الآية رقم : ٣ من سورة الأعراف .

(ومن يُسْلِم وجْهَهُ إلَى الله وَهُو مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوة الوثْقَى وإلَى الله عَاقِبَةُ الأُمُور [1]) . .

(واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُم من رَّبكُم من قَبْلِ أن يَأْتِيَكُم العَذَابُ بغْتَةً وأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون [2]) . .

٣ ـ مفهوم الدين وعناصره :

(قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُون . لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون . ولاَ أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، ولاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عبدتُّمْ .ولا أَنْتُم عَابِدُون مَا أَعْبُد لَكُم دِينُكُم ولِى دين [3]) . .

إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر مقابل ولا لقاء بين المنهاجين ألبته .

التوحيد منهج يتجه بالانسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له ويحدد الجهة والمصدر الذى يتلقى منه الانسان عقيدته وشريعته وأخلاقه وموازين آدابه وقيمه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . .

هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله وحده لا شريك له ، ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس غير ملتبسة بالشركة فى أية صورة من صوره الظاهرية والخفية . .

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة لقمان .

(٢) الآية رقم : ٥ من سورة الزمر .

(٣) سورة الكافرون .

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً والَّذِين آتَيْنَاهم الكِتَابَ يَعْلَمون أَنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين[1]) . .

فالآية تستنكر أن يبتغى غير الله حكما فى شأن من الشئون على الاطلاق . . وتقرر أن الحاكمية لله وحده وتنفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه البشر طلبا لحكم منه فى أمر من أمور الحياة ، والقرآن كثيراً ما يؤكد هذا المبدأ ويكرره فى كل مناسبة :

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونه إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآبَاؤُكُم ما أَنْزَلَ اللهُ بهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الحُكْمُ إلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ ذَلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون[2]) . .

(وهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ لَه الْحَمْدُ فِى الأُولَى والآخِرَة ولَهُ الحُكْم وإلَيْه تُرْجَعون[3]) . .

(ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَر لاَ إِلَه إلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وجْهَه لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْه تُرْجَعُون[4]) . .

وإذن فالدين هو منهج الله للبشر هو وحى الله إلى أنبيائه ليسلك العباد طريقهم إلى الله[5] . .

---

(١) الآية رقم : ١١٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٤٠ من سورة يوسف .

(٣) الآية رقم : ٧٠ من سورة القصص .

(٤) الآية رقم : ٨٨ من سورة القصص .

(٥) راجع المصطلحات الأربعة فى القرآن للمودودى ص : ١٢٥ راجع هذا الدين ص : ٤ ، المستقبل لهذا الدين ص : ٥ ، ٦ ، ١٨ ، ١٩ .

(وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون[1]) . .

وإذا كان الدين هو وحى الله فإن القرآن الكريم قد حرص على أن يبرز عناصر هذا الدين الذى حمله موكب الأنبياء على التعاقب . .

(وهذا كِتَابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ لِتُنْذِرِ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَهَا والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وهُم عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُون[2]) . .

(كِتَابٌ أنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[3]) . .

(يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بالرُّوحِ مِن أَمْرِه عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِه[4])

(وما أنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيه وهُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[5]) . .

(الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً[6]) . .

(واتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ولَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً[7]) . .

---

(١) الآية رقم : ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية رقم : ٩٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ٢ من سورة الأعراف .

(٤) من الآية رقم : ٢ من سورة النحل .

(٥) الآية رقم : ٦٤ من سورة النحل .

(٦) أول سورة الكهف .

(٧) الآية رقم : ٢٧ من سورة الكهف .

(ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلَىَ الَّذِينَ من قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ من الخَاسِرِين[1]) . .

(قُلْ : إنِّى نُهِيتُ أن أَعْبُد الَّذِينَ تَدْعُون مِن دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ من رَبِّى وأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِين[2]) . .

فى هذه الآيات المكية يحدد القرآن مجموعة العناصر التى يكتمل بها الدين الذى يرتضيه الله لعباده :

العنصر الأول : الموحِى أو المصدر وهو الله سبحانه وتعالى . .

العنصر الثانى : الموحَى به وهو الشريعة المرسلة من قبل الله جل شأنه . .

العنصر الثالث : الموحىَ إليه وهو الرسول النبى الذى اصطفاه الله ليبلغ رسالته إلى الناس . .

العنصر الرابع : الوحى أو حامل الوحى وهو الملك الذى وكله الله تعالى بالسفارة إلى رسوله المصطفى . .

(يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمْرِه عَلَىَ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِه أَن أَنْذِرُوا أَنَّه لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُون) . .

ينزل : فاعله هو الله جل شأنه . .

الملائكة : الموحى معه . .

بالروح : الموحى به . .

---

(١) الآية رقم : ٦٥ من سورة الزمر .

(٢) الآية رقم : ٦٦ من سورة غافر .

على من يشاء من عباده : الرسول المصطفى . .

أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون :

ذلك هو الهدف والغاية التى من أجلها خلق الله الجن والأنس على السواء . .

٤ ـ وحدة الدين :

وعلى هذا فإن ثمرة الدعوة الإسلامية فى مكة تعلن منذ الفجر الصادق أن كل دين لا يجتمع فيه هذه العناصر فهو دين باطل :

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً[1]) . .

(قل أَفَغَيْرَ اللهِ تَـأْمرونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُو ن[2]) . .

وعلى هذا فكل ما حمله الأنبياء عن ربهم هو دين واحد ، يتجه إلى غاية واحدة : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْه ، أَنَّهُ لاَ إلّه إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون[3]) . .

(إنَّ هَذه أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُم فَاعْبُدُون[4]) . .

(وإنَّ هَذِه أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُون[5]) . .

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى به نُوحاً والَّذِى أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيم ومُوسَى وَعِيسَى أن أَقِيمُوا الدينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا

---

(١) من الآية رقم : ١١٤ من سورة الأنعام . .

(٢) الآية رقم : ٦٤ من سورة الزمر .

(٣) الآية رقم : ٢٥ من سورة الأنبياء :

(٤) الآية رقم : ٩٢ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية رقم : ٥٢ من سورة المؤمنون .

فِيه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ[1]) . .

فالآية تقرير لوحدة الوحى ، وحدة مصدره فالموحى هو الله العزيز الحكيم والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان . .

والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمن وهذه الحقيقة تبدو قوية فى العهد المكى لتشد أواصر الصلة بين اتباع الوحى فى كل زمان ومكان فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ وتمتد جذورها فى شعاب الزمن وتتصل كلها بالله فى البدء والنهاية فليتقوا جميعا ، وفى مسلم : (الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد[2]) . .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين الذين آمنوا بمحمد — صلى الله عليه وسلم — هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى فإن الغاية العظمى هى :

(أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) فليقفوا جميعا تحت هذه الراية صفا واحدا ، هذه الراية التى رفعها موكب الأنبياء على التوالى :

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم حتى انتهت الى سيدنا محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام . .

---

(١) الآية رقم : ١٣ من سورة الشورى .

(٢) مسلم ج : ٤ ص : ١٨٣٧ راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٥ ص : ٧ ، ١١ ، ج : ٨ ص : ١١٣ .

وقد أعلن هذه الوحدة من قبل سيدنا يوسف عليه السلام . .

(واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى ابْرَاهِيمَ واسْحَقَ ويَعْقُوبَ مَاكَانَ لَنَا أن نُّشْرِكَ باللهِ من شَئٍ ذَلِكَ مِنَ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وعَلَى النَّاسِ وَلكِن أكْثَر النَّاسِ لايَشْكُرُون[1]) . .

كما أعلنها بعد رجل منَ آل فرعون يكتم ايمانه :

(وقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِى أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَاد[2]) . .

إنه دين واحد تقرره الدعوة الاسلامية منذ فجرها الصادق فى مكة المكرمة ، وتعلن أنها هى الخاتمة لهذا الدين ، وأنها التاج الأسمى والشرف الأكمل للبشرية أجمعين :

(. . . ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِن أَكْثَر النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون[3]) . .

٥ ــ عالمية الدين :

والدين الذى يدعو إليه سيدنا محمد بن عبدالله منذ أن نزل عليه (اقرأ) هو دين الله للناس كافة وللجن كافة . .

يقول الله تعالى :

(قُل لَّا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْراً إنْ هُوَ الاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين[4]) . .

(قُلْ يَـاأَيُّهَا النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إلَيكُم جَمِيعا[5]) . .

---

(١) الآية رقم : ٣٨ من سورة يوسف .

(٢) الآية رقم : ٣٨ من سورة غافر .

(٣) من الآية رقم : ٣٠ من سورة الروم .

(٤) الآية رقم : ٩٠ من سورة الأنعام .

(٥) من الآية رقم : ١٥٨ من سورة الأعراف .

(قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ من رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه ومن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ومَاأَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيل[1]) . .

(وما تَسْأَلُهُمْ عَلَيْه مِن أَجْرٍ إِنْ هُوَ الاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين[2]) . .

(الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلُمَاتِ إِلَىَ النُّور بإِذْنِ رَبِّهِم إِلَىَ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيد[3]) . .

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين[4]) . .

(تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُون لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا[5])

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَيَعْلَمُون[6]) . .

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين[7]) . .

(ومَاهُوَ الاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين[8]) . .

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُو الاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين[9]) . .

---

(١) الآية رقم : ١٠٨ من سورة يونس .
(٢) الآية رقم : ١٠٤ من سورة يوسف .
(٣) الآية رقم : ١ من سورة ابراهيم .
(٤) الآية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٥) أول سورة الفرقان .
(٦) الآية رقم : ٢٨ من سورة سبأ .
(٧) الآية رقم : ٨٧ من سورة ص .
(٨) الآية رقم : ٥٢ من سورة القلم .
(٩) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من التكوير .

وقد شهدت الجن بأنها على هذا الدين استجابة لداعى الله .

يقول الله تعالى :

(وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوه قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىَ قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ . قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وآمِنُوا بِه يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم ويُجِرْكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيمٍ [1]) . .

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً . وأَنَّه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولا وَلَداً [2]) . .

٦ — تصحيح فكرة ان لله ولدا :

وفى هذا العمر المتقدم للدعوة فى كنف البيت العتيق بمكة ظهرت فكرة نفى الولد ، سواء كان القائل بهذه الفكرة أهل الكتاب أو بعض العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله . .

والقرآن الكريم فى هذه المرحلة المكية يصور الدعوى ثم يرد عليها :

(قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَه هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَافِى السَّمَوَات وَمَا فِى الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُم مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا ؟ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مالاَ تَعْلَمُون [3]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٢٩ — ٣١ من سورة الأحقاف .

(٢) راجع حول هذا كتاب : هذا الدين ص : ٨٤ ، ٨٥ ، والآيات من أول سورة الجن .

(٣) الآية رقم : ٦٨ من سورة يونس .

(وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ ولَداً . لَقَدْ جِئْتُم شَيْئاً إِدًّا . تَكَاد السَّمٰوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا للرَّحْمٰنِ ولَداً . ومَايَنْبَغِي للرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ ولَداً . إِنْ كُلُّ من فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُم وعَدَّهُم عَدًّا[1]) . .

(وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ ولَداً سُبْحَانَه بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمون[2]) .

(أَلا إِنَّهُم مِن إِفْكِهِم لَيَقُولُونَ . وَلَدَ . اللهُ وَإِنَّهُم لَكَاذِبُون[3]) . .

ومع أن هذه الآيات تصور الدعوى وترد عليها الا أن القرآن الكريم كذلك خصص آيات لنفي هذه الأسطورة التي صنعها المشركون وهذه الآيات ترد هذه الدعوى من جانبين :

جانب السلطان الإلٓهى . .

ثم إقرار الجن الذين جعل لهم المشركون بالرحمن نسبا . .

أما فيما يتعلق بالجانب الأول فيقول الله تعالى :

(بَدِيعُ السَّمٰوَات والأَرضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ولَم تَكُن له صَاحِبَةٌ ، وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[4]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٨٨ — ٩٤ من سورة مريم

(٢) الآية رقم : ٢٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ من سورة الصافات .

(٤) الآية رقم : ١٠١ من سورة الأنعام .

(وقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ولَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وكَبِّرْهُ تَكْبِيراً [١]) . .

(مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ومَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ولَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [٢]) . .

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ولَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ وخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [٣]) . .

(لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَايَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّار [٤]) . .

إن الذى يبدع هذا الوجود من العدم ماتكون حاجته إلى ولد ؟ والولد انما هو امتداد للفانين وهو عون للضعفاء ؟ وقاعدة التكاثر أن يكون للكائن صاحبة منجنسه فكيف يكون لله ولد وليست لهصاحبة فقد تفرد جل جلاله بالألوهية (لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير [٥]) . .

على أن الفرض الجدلى الذى يقبله العقل العادى أن الله لوأراد أن يتخذ ولدا لاصطفاه هو جل شأنه من بين خلقه فإرادته مطلقة ،

---

(١) الآية رقم : ١١١ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية رقم : ٢ من سورة الفرقان .

(٤) الآية رقم : ٤ من سورة الزمر .

(٥) الآية رقم : ١١ من سورة الشورى .

والأمر لايحتاج إلى قرار من البشر أو اقتراح منهم ، ولكن مشيئة الله لم تتجه نحو هذا الاصطفاء لأنه الواحد القهار ، (خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ بالحَقّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهَارِ ويكوِّر النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) فهو صاحب السلطان المطلق فأين حاجته إلى خلف ؟ .

وأما الجانب الثانى :

فالجن تنفى ماادعاه البشر وتبرأ من أساطير الناس :

(وجَعَلوا بيْنَه وبَيْنَ الجِنَّة نَسَباً ولَقَد عَلِمَت الجِنَّةُ إنَّهم لَمُحْضَرُون سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ[1]) . .

(قُلْ أوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمعْنَا قُرآناً عَجَباً. يَهْدِى إلَىَ الرُّشْد فَآمَنَّا بِهِ ولَن نُّشْركَ بِرَبِّنَا أحَدًا وأنَّه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا[2]) ..

لقد أقرت الجن بالوحدانية وكذبت الأسطورة التى تزعم أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر من الجن . .

لقد نزهت الجن وسبحت بحمد الله فردت ترهات البشر المنحرف، وقد كان للجن أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لكنها استنكرت هذا التحريف البشرى فأعلنتها قذيفة ضخمة تحطم ذلك الزعم الذى حاكه المشركون . .

---

(١) الآيتان : ١٥٨ ، ١٥٩ من سورة الصافات .

(٢) الآيات من رقم : ١ — ٣ من سورة الجن .

٧ — عيسى بن مريم :

وفى خضم نفى أسطورة الولد يصحح القرآن التصور عند أهل الكتاب فيما يتعلق بعيسى[١] يقول الله تعالى :

(ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَاكَانَ لله أن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَه إذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيكُون . وإنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُم فَاعْبُدُوه هَذَا صراطٌ مُسْتَقِيم)[٢] .

لقد نطق عيسى بن مريم بنفسه وبحالته : (مَاكَانَ لله أن يَتَّخِذَ مِنْ ولد) . (وأن الله ربى وربكم فاعْبُدوه) ، فلم يبق من بعده مجال للأساطير والاوهام ، وبتلك التنقية تبدو عالمية الدعوة الاسلامية فى مكة بالموضوع : إنها ليست عقيدة لجنس خاص ، ولادعوة لطائفة من الناس ، ولكنها انهاء لسلطة الأساطير البشرية واحلال للإيمان الإسلامى فى الصدور والسلوك ، فهى نقلة من عالم الحيوان الذى يعيش فيه البشر إلى عالم الانسانية الذى يقدس فيه الناس ربهم ، وقد حمل هذه العقيدة جعفر بن أبى طالب والذين هاجروا معه إلى الحبشة فصادفت موقعا ملائما حيث كانت العقيدة عند النجاشى كذلك ، فكان ذلك اللقاء دليلا واضحا على عالمية الدعوة بالموضوع وهو الهدف الرئيس لها (لا إله إلا الله) كمنهج للعقل والقلب والسلوك والوجدان . .

---

(١) راجع مناقشة قريش للرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام فى سيرة ابن هشام ج : ١ ص : ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) الآيات من رقم : ٣٤ — ٣٦ من سورة مريم .

وبذلك فقد قررت النصوص القرآنية منذ ذلك الفجر أنه لاأديان متعددة ولا مقارنة بين أديان ، وأن الدين واحد هو نظام الله الموحى به إلى عباده عن طريق سفرائه المرسلين المصطفين الأخيار ، وأن الدعوة الاسلامية شاملة للجنس البشرى كله فى كل صقع وحين ، وقد حافظت نصوص القرآن الكريم على ذلك الهدف فى العهد المدنى فيما بعد ؛ إذكانت تنادى الناس جميعا وتهتف بهم :

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ[1] ..) .

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَىْءٌ عَظِيم[2]) . .

(يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خبير[3]) . .

ودلالة هذا أن الهدف الأساسى للدعوة هو أن يشهد الناس جميعا (لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله) فلا يبقى لسان بشر على وجه الأرض ، إلا وقد رطب بها ، وصعد صوته يدوى بجلالها ، ولايشغل المسلمون أنفسهم بعوارض الحياة الدنيا ويقبعون فى زاوية من الأرض ويتركون الأساطير تحيا والاشراك يفشو وبناة الأصنام تعيش فى سلام . .

---

(١) من الآية رقم : ١ من سورة النساء .

(٢) الآية رقم : ١ من سورة الحج

(٣) الآية رقم : ١٣ من سورة الحجرات .

إن : (لاإله إلا الله محمد رسول الله) هى وظيفة الدعاة اليوم لاسيما هنا فى جنوب شرق آسيا ، ماليزيا ، سنغافورا ، تايلاند ، والهند الصينية ، حيث توجد الأصنام فى الشوارع وعلى قارعة الطريق وفى قلاعها هى وفى بيوتها هى وفى منازل الناس الذين مازالوا يجهلون الطريق السواء إلى الله الواحد الصمد العزيز الجبار المتكبر سبحان الله وتعالى عما يشركون . .

(ب) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فى صميم أفئدة القوم اقرار بأن محمدا رسول الله :

(. . . فَإِنَّهُم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ [1]) . .

ولكن القوم أثاروا ضجة كان من البواعث عليها الحسد وعبادة التقاليد

وقد تصدى القرآن الكريم لهذه الضجة ليستخلص منهم مكنون صدورهم واخراج ما أسروه وأنهم يعتقدون أن محمدا رسول الله . .

والضجة التى أثاروها يمكن تركيزها فى ثلاث نقاط :

(مَا أنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ [2]) . .

(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنا [3]) . .

(إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ البَشَر [4]) . .

---

(١) من الآية رقم : ٣٣ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية رقم : ٩١ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية رقم : ٨ من سورة ص .

(٤) الآية رقم : ٢٥ من سورة المدثر .

ويتولى القرآن الكريم الإجابة على ضجيجهم وتمتلئ السور المكية بحشد جليل من الآيات التي تفند هذه المزاعم الصغيرة في دوافعها وغاياتها . .

* أما فيما يتعلق بالضجة الأولى :

(ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . .) فان القرآن الكريم يردها من زاويتين :

١ ـ زاوية اعترافهم بأهل الكتاب . .

٢ ـ وزاوية الأساس الدافع لهذه الضجة . .

١ ـ أما الزاوية الأولى فيقول الله تعالى :

(وَمَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُم وَلَا آبَاؤُكُم قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِم يَلْعَبُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وهُمْ عَلَى صَلَاتِهِم يُحَافِظُونَ[1]) . .

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يزعمون أن الله لم يرسل رسولا من البشر ولم ينزل كتابا يوحى به إلى البشر بينما كان إلى جوار هؤلاء المشركين أهل الكتاب من اليهود الذين يتعاملون معهم

---

(١) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة الأنعام .

فى التجارة ويلتقون معهم فى الأسواق ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، فلم اذن يقولون : ما أنزل الله على بشر من شى ؟ ذلك منطق العناد واللجاج . .

وتمضى آيات أخرى من السور المكية تقرر أن الأنبياء بشر أوحى إليهم من عند الله :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نوحِى إِلَيْهِم فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْر إِن كُنتُم لاتَعْلَمُونَ[1]) . .

(قُل لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولًا[2]) . .

(وَمَا أَرسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْر إِن كُنتُم لَاتعلَمُونَ) ؛

وَمَاجَعَلْنَاهم جَسَدًا لَّايَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ومَاكَانُوا خَالِدِينَ .

ثُمَّ صَدَقْنَاهُم الْوَعدَ فَأَنْجَينَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ[3]) . .

٢ ــ وأما زاوية الأساس الذى دفعهم ليختلقوا هذا الزعم فهى السنة المشئومة التى وجدوا عليها آباءهم ، فقد كانت تلك التعلة هى الداء الدفين الذى جعل الناس من قبل يردون دين الله . .

---

(١) الآية رقم : ٤٣ من سورة النحل .

(٢) الآية رقم : ٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات من رقم : ٧ — ٩ من سورة الأنبياء .

يقول الله تعالى :

(فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَومِه مَانَرَاكَ إِلَّا بشَرًا مِثْلَنَا ومانَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِين هُم أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْى ومانَرَى لَكُم عَلَينَا مِن فَضل بَلْ نَظُنُّكُم كاذِبين[١]) . .

وبهذه اللغة كفر قوم نوح وقالوا له :

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم ولو شَاءَ الله لأَنْزَلَ مَلائِكَةً ماسَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الأَوَّلِين[٢]) . .

(مَاهَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم يأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ويشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُون[٣]) . .

(قَالَت رُسُلُهُم أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ والأَرضِ يَدْعُوكُم لِيَغْفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُم ويُؤَخِرَكُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِن أَنتُم إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَان مُبين[٤]) . .

ويرد القرآن هذه المقالة على لسان الرسل :

(قَالَتْ لَهُم رُسُلُهُم إِن نَحْن إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِه وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْن الله وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل المُؤْمِنُون[٥]) . .

---

(١) الآية رقم : ٢٧ من سورة هود .

(٢) من الآية رقم : ٢٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية رقم : ٣٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية رقم : ١٠ من سورة ابراهيم .

(٥) الآية رقم : ١١ من سورة ابراهيم .

ويقرر القرآن أن هذه التعلة واحدة من أسباب الكفر :

(ومَا مَنَع النَّاس أن يُؤْمِنُوا إذ جَاءَهُم الهُدَى إلَّا أن قَالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا[1]) . .

قُلْ لَوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِن السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا[2]) . .

والذين فى الأرض بشر وليسوا ملائكة ولقد كفر أصحاب القرية فى سورة يس لهذا المنطق :

(إذْ أَرْسَلْنَا إلَيْهِم اثْنَيْن فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إنَّا إلَيْكُم مُرْسَلُون . قَالوا مَا أَنتُم إلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وما أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَىْء إن أَنتُم إلَّا تَكْذِبُون[2]) . .

فارتدت الضجة واستقرت النبوة اصطفاء من الله لمن شاء من عباده المكرمين :

• (أأُنْزِلَ عَلَيْه الذكر من بيننا) . .

ذلك دافع الحسد (فالله أعلَم حيْثُ يَجْعَل رِسَالته) ، (وماكانَ لِبَشر أن يُكَلِّمَه الله الَّا وحياً أومِن وَرَاء حِجابٍ أويُرسِلَ رَسُولاً . . .) وتلك ارادة الله لامدخل لواحد من الخلق فيها البتة ، ويجيب القرآن فى بساطة وسهولة :

---

(١) الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة يس .

(... بَلْ هُم فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَا يَذُوقُوا عَذَاب. أَم عِندَهُم خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ ، أَم لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرضِ ومابَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَاب . جُندٌ مَّاهُنَالِك مَهْزُومٌ مِّن الأَحْزَاب[1]).

إنه الحسدوضيق الصدر دون داع ، وبغض الخير دون مبرر ، وقد ظهر ذلك فى اقتراحهم :

(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[2]) . .

فرد عليهم القرآن الكريم مستنكرا هذا الاقتراح فهو خروج على الأدب مع جناب الله عز وجل يقول الله تعالى :

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّك نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم معيشتَهم فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ورَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَات لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ورحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَا يَجْمَعُون[3]) . .

إنهم لايملكون لأنفسهم شيئا فمعيشتهم منحة من الله ومراتبهم الاجتماعية تكريم لهم من عند اللهلغاية تدبَّر بها شئون الحياة فدولاب الحياة لايدور الا بهذا التفاوت فى الرزق وفى المراتب الاجتماعية . .

ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذؤابة قريش ثم من ذؤابة بنى هاشم وهم فى العلية الرفيعة من العرب ، وكانت ذاته الشريفة عليه الصلاة والسلام فيما قبل البعثة على الأمثل الرفيعجدا من مكارم الأخلاق

---

(١) الآيات من رقم : ٨ — ١١ من سورة ص .

(٢) الآية رقم : ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية رقم : ٣٢ من سورة الزخرف .

نعم لم يكن زعيما لقبيلة ولا رئيسا لعشيرة وتلك هى موازين القوم التى دفعتهم ليعترضوا أوليقترحوا : (لولا نُزِّلَ هَذَا القرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّن القَرْيَتَين عظيم) . .

وهم أنفسهم يشهدون بذلك قال عتبة بن ربيعة : ياابن أخى انك منا حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب[1] . .

وقالها أبوسفيان لهرقل : هو من أوسطنا نسبا[2] .

فأى دافع لهم اذن على هذا الاقتراح ؟ (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه) ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل وهم يعلمون أنه كذلك أهل لها فلماذا يقترحون ؟ انه الحسد الذى حاك فى الصدور . .

ولم يترك القرآن القضية تمر دون أن يثبت النبوة لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتبقى فى التاريخ والذمة أن القوم كفروا حسدا وتعنتا ولجاجا . .

فردهم إلى حاله وحثهم على دراسة أسراره انه منذ المولد حتى البعث وهو معروف السريرة مكشوف الخطوات فى شرف سامق ، وعزة أبية . وكمال محترم ، وماكان يقول هذا القول من قبل أفإذا جاءهم بالهدى . قالوا : (أأُنْزِلَ عَلَيْه الذِّكْر من بيننا ؟) . .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٣ .

(٢) فتح البارى ج : ١ ص : ٣٨ .

يقول الله تعالى :

(وإذَا تُتْلى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بقُرْآن غَيْر هَذَا أوْبَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَه مِن تِلْقَاء نَفْسِي إن اتَّبِعُ إلَّا مَايُوحَى إلَيَّ إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْم عَظِيم ..

قُل لَّوشَاءَ اللهُ مَاتَلَوْتُه عَلَيْكُم ولا أَدْرَاكُم بِه فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا مِّن قَبْله أَفَلا تَعْقِلُون[1]) ..

لقد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاما ماحدثهم عن نبوة أورسالة ولاكان يتلو من كتاب ..

يقول الله تعالى :

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِه مِن كِتَاب ولَاتَخُطُّه بيَمِينِكَ إذًالارْتَابَ المُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمُ ومَايَجْحَدُ بآيَاتِنَا الَّا الظَّالِمُون[2]) ..

إن الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم – يشهد له حاله ويشهد له تاريخه فهو أمى لم يقرأ ولم يكتب وقضى فى هذا المستوى أربعين عاما فاذا ما طلع بين عشية وضحاها فكلم الناس بالوحى وحدث اليهم فانزل ربهم اليهم ليعبدوا الله على بصيرة أفى مثل هذا يقول قائل انه ليس بنبى ؟ .

---

(١) راجع القرطبى ط الشعب ص : ١٦٠ ، ٣١٨٢ والآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة يونس .

(٢) الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت

إننا إذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين فإننا نجد أن الآية الأولى تنفى وقوع الارتياب من عاقل على فرض أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ ويكتب ذلك ، لأن معانى القرآن الكريم ومفاهيم الدعوة آيات بينات فى صدور أهل العلم [١] وقد جعل الله لها من قبل علامات وبشائر ، وهى فيما تدعو إليه إنما تتفق مع مطالب الفطرة وتتلاءم مع العقل السليم يقول أكثم بن صيفى :

إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا [٢] .

وقد استدل هرقل على صدق الدعوة بحال الداعية يقول :

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [٣]

وكذلك النجاشى قالها مؤمنا :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة [٤] .

وقالتها السيدة خديجة راضية مرضية . .

وقالها أبو سفيان رغم أنفه [٥] . .

ولهذا يركز القرآن الكريم على أن استيعاب حال الداعية كدليل على صدق النبوة يقول الله تعالى :

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِين .

---

(١) الاسلام والعقل ص : ١٣٢ .

(٢) التفكير الفلسفى فى الاسلام ص : ٣٠ .

(٣) فتح البارى ج : ١ ص : ٣٩ .

(٤) فقه السيرة ص : ١٢٠ فى هذا النص ، تعبيرات شتى ، راجع الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٨١ السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٣٧ .

(٥) راجع مقدمة ابن خلدون ج : ١ ص : ٣٤٨ .

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُون . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُون[1]) . .

ليست هناك شبهة من هذه الشبهات قائمة على أصل محترم إنما هى كراهيتهم للحق لأن الرسالة ستسلبهم قيمهم الاجتماعية الباطلة وتلغى أهواءهم المغرورة ، والحق لا يمكن أن يدور مع هواهم ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . .

ثم يتصدى القرآن بعد أن أثبت النبوة عن طريق حال الداعية فيجابه أسئلتهم التى يشاغبون بها ويصدون عن دين الله ببريقها يقول الله تعالى :

(وقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْه مَلَكٌ ولو أنزلْنا مَلَكًا لقُضِىَ الأَمْر ثُمَّ لاَ يُنْظَرُون . .

ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً . وللبَسْنَا عَلَيْهم مَّا يَلْبِسُون[2])

(وقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا[3]) .

فرد عليهم فى صرامة :

(... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رَّسُولا[4]) . .

(وقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُول يأْكُلُ الطَّعَامَ ويَمْشى فى الأَسْوَاق . .

---

(١) الآيات من رقم : ٦٨ — ٧٠ من سورة « المؤمنون » .

(٢) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ٩٠ من سورة الإسراء .

(٤) من الآية رقم : ٩٤ من سورة الإسراء .

لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً . أَوْ يُلْقَى إِلَيْه كَنْزٌ أَو تَكُونُ لَهُ جَنَةٌ يَأْكُلُ منْهَا وقَالَ الظَّالِمُون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً [١]) . .

فيرد عليهم :

(تَبَارَكَ الَّذى إِنْ شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ ويَجْعَل لَّكَ قُصورا . بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ وأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعيرا [٢]) . .

(ومَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن المُرْسَلين إِلاَّ إِنَّهُم لَيَأْكُلُون الطَّعَامَ ويَمْشُونَ فى الأَسْوَاقِ وجَعَلْنَا بَعْضَكُم لبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُون . وكَانَ رَبُّكَ بَصيرا [٣]) . .

وقالوا :

(وقَالَ الَّذينَ لاَيَرْجُون لقَاءَنَا لولا أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلائكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ...) . .

ويجيب القرآن الكريم :

(لَقَد اسْتَكْبَرُوا فى أَنْفسِهم وعَتَوا عُتُوّاً كَبيراً . يَوم يَرَوْنَ المَلاَئكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئذٍ للمُجْرمينَ ويَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً [٤] .

---

(١) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الفرقان .

(٢) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الفرقان .

(٣) فى ظلال القرآن ج : ١٧ ص : ١٣ ج : ١٨ ص : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ والآية رقم ٢٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة الفرقان .

ولا يترك القرآن الجانب التاريخى كدليل على إثبات النبوة يقول الله تعالى :

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[1]) . .

هل كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاهدا ميقات موسى مع ربه ؟ حتى يعلم نبأه المفصل كما ورد فى سورة الأعراف ؛ وأن بينه وبين هذا الحادث لقرون وأجيال متطاولة ؟ . .

هل كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقيما فى أهل مدين يتلقى عنهم أخبارهم ؟ هل سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نداء الله لسيدنا موسى[2] ؟ . .

إنه الوحى وإنها الرحمة التى شاءها الله جل شأنه لعباده لمن شاء منهم أن يستقيم . .

يقول ابن خلدون . .

النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى . .

---

(١) الآيات من ٤٤ – ٤٦ من سورة القصص .

(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢٠ ص : ٢٢ – ٣٠ ، ١٠٣ ؛ راجع النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص : ٣٠ ، ٣١ ، الإسلام والعقل ص : ١٣٠ ، ١٣٣ ، راجع التفكير الفلسفى فى الإسلام ص : ٤٤ ، ٤٥ .

وصنف متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعدادات لذلك ... الخ . .

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيها وروحانيها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم [1] ..

وهذا ما اصطلحت عليه سالفا بالبشرية السوية الخاصة بالأنبياء وذلك ما أثبته القرآن الكريم واستدلت بأحواله العقول الكريمة الفياضة بالنور والسناء الوضىء ، ولقد كان سيدنا ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو قلادة هذا العقد النبوى الكريم وكان هو وحده ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء والمرسلين . .

ان هذا الا قول البشر

النبوة والقرآن نعمتان اختص الله جل شأنه بهما حبيبه سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلاهما مستند إلى الآخر فى الإثبات والتقرير فإذا ما ثبتت النبوة فقد ثبت أن القرآن من عند الله فلا نبوة بغير قرآن ولا قرآن لغير نبوة . .

وقد استفاض القرآن الكريم فى اثبات النبوة لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تلك الاستفاضة كافية فى اثبات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج : ١ ص : ٣٥٧ ، ٣٥٨

(٢) راجع : بشائر النبوة الخاتمة .

أن القرآن من عند الله غير أن لجاج القوم وعنادهم كان قد ملأ الدنيا بالصخب والضجيج مما أدعوه بهتانا وما نشروه بين القبائل فى المواسم والأعيادفأخذ القرآن الكريم يواجه هذهالجحافل الظلماء ليكشف عن الحق . .

وللقرآن منهجه الخاص فى معالجة الأمور والقضايا . .

• فهو يصور أولا مايدعيه المعارضون . .

• ثم يصور موقف النبى – صلى الله عليه وسلم – وهو موقف كاف فى الرد على المعاندين . .

• ثم يقيم البيان على أن القرآن وحى من عند الله جل شأنه بطريقين :

الأول : طريق النص، أنه من عند الله ، وأن لا مدخليه للرسول فيه .

الثانى : وطريق التحدى وبهذا يقرر حقيقة القرآن . .

ثم يأمر النبى – صلى الله عليه وسلم– أن يستمر على ماهو عليه من الحق وإتباع مايوحى إليه من عند ربه ويؤكد أن الذين أوتوا العلم من قبله أنه الحق من ربهم . .

(أ) أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد جمع القرآن الكريم دعاوى القوم وصورها فقال الله تعالى : .

(وإذا تُتْلَى عَلَيْهم آيَاتُنَا بَيِّنات قالَ الَّذين لايَرْجون لقاءنا ائْتِ بِقُرْآنٍ غيْرَ هَذا أو بدّله قلْ مَايَكونُ لى أن أبَدّله من تِلْقَاء

نَفْسِى إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَايُوحَى إلَىَّ إنِّى أَخَافُ إن عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١]) . .

(وقَالَ الذين كَفَرُوا ان هَذَا الا إفْكٌ افْتَرَاه وأَعَانَه عَلَيْه قَومٌ آخَرُون فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وزُورًا . وقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْه بُكْرَةً وأَصِيلاً [٢]) . .

(وقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لن نُّؤمِن بهَذَا القُرْآنِ ولاَ بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْه [٣]) . . .

(وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَتَسْمَعُوا لهَذَا القُرْآنِ والْغَوْا فِيه لَعَلَّكُم تَغلِبُونَ [٤]) . .

(وقالُوا لوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُل مِّنَ القرْيَتيْنِ عَظِيمٍ [٥]). .

(إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَر [٦]) . .

وهى كلها آمال جوفاء وصخب أطفال لايدركون مستوى مسئولية الخطاب والتعقل [٧] ويكفى فى هذه المواجهة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأن القرآن وحى من عند الله يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز . . .

---

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة يونس .

(٢) الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة الفرقان .

(٣) من الآية رقم : ٣١ من سورة سبأ .

(٤) الآية رقم : ٢٦ من سورة فصلت .

(٥) الآية رقم : ٣١ من سورة الزخرف .

(٦) الآية رقم : ٢٥ من سورة المدثر .

(٧) راجع التصوير الفنى لمدلول هذه الآيات كما شرح فى تفسير فى ظلال القرآن ج : ٢٩ ص : ١٩٠

والحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من من جنس الدعاوى فتحتاج إلى بينة وإنما هى من نوع الاقرار الذى يؤخذ به صاحبه . .

ولا يتوقف صديق ولا عدو فى قبوله منه إذ أى مصلحة للعاقل الذى يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة؟ نقول أى مصلحة فى أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلاخاً ؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة شأنه، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه . .

الذى نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ماخف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته حتى أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه فى زينته من تلك الأثواب المستعارة . .

أما ان أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ماتجود به قريحته فهذا مالم يلده الدهر بعد (١) . .

(١) راجع النبأ العظيم ص : ١٤ ، ١٥ لقد قدم المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز حول هذا الموضوع دراسة أكاديمية ممتازة دافع فيها عن القرآن الكريم فجزاه الله خيرا ، غير أن هذا المنهج مع امتيازه وجودته اسلاميا وعلميا فانه يغاير من ناحية الطريقة لا من ناحية الهدف ولا من ناحية الموضوع الأسلوب الذى انتهجه فى إبراز ثمار العهد المكى فى جوها القرآنى وحده . .

(ب) وأما فيما يتعلق بالنقطة الثانية :

فقد أقر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن القرآن وحي من عند الله . .

يقول الله تعالى :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ[1] . . .) . .

(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ انْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ[2]) . .

(وإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُل إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَايُوحَى إِلَيَّ من رَّبِّي هَذَا بَصائِرُ من رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لقَوْمٍ يُومِنُونَ[3]) . .

(. . إن أَتَّبِعُ إِلاَّ مَايُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[4]) . .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُم يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِك بعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[5]) . .

---

(١) من الآية رقم : ١٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية رقم : ٥٠ من سورة الأنعام .
(٣) الآية رقم : ٢٠٣ من سورة الأعراف .
(٤) الآية رقم : ١٥ من سورة يونس .
(٥) الآية رقم : ١١٠ من سورة الكهف .

(قُل إنَّمَا يُوحَى إلَىَّ أنَّما إلَٰهُكُم إلَٰهٌ واحِدٌ فَهَلْ أنتُم مُسْلِمُونَ[1]).

(إن يُوحَى إلَىَّ إلَّا أنَّمَا أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ[2]) . .

(قُلْ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُم يُوحَى إلَىَّ أنَّمَا إلَٰهُكُم إلَٰهٌ وَاحِدٌ فاسْتَقِيمُوا إلَيْهِ واستَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ[3]) . .

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أدْرِى مَايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُم إنْ أتَّبِعُ إلَّا مَايُوحَى إلَىَّ ومَا أنَا إلَّا نَذِيرٌ مُّبِين[4]) . .

(ج) وأما فيما يتعلق بالنقطة الثالثة :

فمع هذا الإقرار الكافى فى صد غارات الصخب التى يشنها الاعداء فإن الله جلَّ جلاله يتصدى للمعركة مع الكافرين على حد المنطق القرآنى « فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بهَذا الْحديث » فيقرر القرآن الكريم أن الله أوحى القرآن من عنده إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بطريقين .

الطريق الأول :

(١) طريق النص أنه من عند الله :

(تِلْكَ مِن أنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إلَيْكَ مَاكُنتَ تَعْلَمُهَا أنتَ ولاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ[5])

---

(١) الآية رقم : ١٠٨ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية رقم : ٧٠ من سورة ص .

(٣) الآية رقم : ٦ من سورة فصلت .

(٤) الآية رقم : ٩ من سورة الأحقاف .

(٥) الآية رقم : ٤٩ من سورة هود .

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وإن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ [1]) . .

(ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [2]) . .

(ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِين إِلَّا خَسَارًا [3]) . .

(وقُرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاه تَنْزِيلاً [4]).

(الحَمْدُ لله الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّه عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيدًا مِّن لَّدُنهُ ويُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِين يَعْمَلُون الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا [5]) . . .

(طه . ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى [6]).

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ من الوَعِيدِ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُم ذِكْرًا فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وقل رَبِّ زِدْنِى عِلمًا [7]) . .

---

(١) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة يوسف .
(٢) الآية رقم : ٨٧ من سورة الحجر .
(٣) الآية رقم : ٨٢ من سورة الإسراء .
(٥) الآية رقم : ١٠٦ من سورة الإسراء .
(٥) أول سورة الكهف .
(٦) أول سورة طه .
(٧) الآيتان : ١١٣ ، ١١٤ من سورة طه .

(تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا[1]) .

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا[2]) . .

(وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِين . بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين . وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ . أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُم آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرائِيلَ . ولو نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِين[3]) . .

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيم[4]) . .

(إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جاءَ بِالهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ[5]) . .

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ[6]) . .

---

(١) أول سورة الفرقان .

(٢) الآية رقم : ٦ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات من رقم : ١٩٢ — ١٩٩ من سورة الشعراء .

(٤) الآية رقم : ٦ من سورة النمل .

(٥) الآية رقم : ٨٥ : من سورة القصص .

(٦) الآية رقم : ٤٧ من سورة العنكبوت .

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَاآتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ [(١)]) . .

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [(٢)]) . .

(وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِن الْكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ [(٣)]) . .

(ومَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ومَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ [(٤)]).

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ . إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بالحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ [(٥)]) . .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ العَلِيمِ [(٦)]) . .

تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [(٧)]) .

(مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَاقَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِك إِنْ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْجَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ

---

(١) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة السجدة .

(٢) الآية رقم : ٦ من سورة سبأ .

(٣) الآية رقم : ٣١ من سورة فاطر .

(٤) الآية رقم : ٦٩ من سورة يس .

(٥) أول سورة الزمر .

(٦) الآية رقم : ٢ من سورة غافر.

(٧) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة فصلت .

آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ[1]) . .

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزِ الحَكِيمُ[2]).

(وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[3]) . .

(إِنَّا جعَلْنَاه قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ[4]) . . .

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ[5]) . .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحَكِيمِ[6]) .

(وَمَا يَنطِق عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[7]) . .

(الرَّحْمَنَ . عَلَّمَ القُرْآنَ[8]) . .

---

(١) الآيتان : ٤٢ ، ٤٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية رقم : ٣ من سورة الشورى .

(٣) الآية رقم : ٧ من سورة الشورى .

(٥) الآيةرقم : ٣ من سورة الزخرف .

(٤) الآية رقم : ٣ من سورة الدخان .

(٦) الآية رقم : ٢ من كل من سورة الجاثية والأحقاف .

(٧) الآيات من رقم : ٣ — ٥ من سورة النجم .

(٨) أول سورة الرحمن .

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ[1]) . .

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ[2]) . .

(لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ[3]) . .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً . فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُم آثِمًا أَوْ كَفُوراً[4]) . .

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ[5]) . .

هذه الآيات الجمة التى حشدها القرآن الكريم هى نصوص تثبت أن الله جل شأنه هو الذى أوحى القرآن الكريم إلى عبده ونبيه الخاتم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم وهى كافية فى مواجهة ما يثيره الحاقدون .

---

(١) الآيات من رقم : ٧٧ — ٨٥ من سورة الواقعة .

(٢) الآيات من رقم : ٤٠ — ٤٣ من سورة الحاقة .

(٣) الآيات من رقم : ١٦ — ١٩ من سورة الواقعة .

(٤) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الانسان .

(٥) أول القدر .

(ب) طريق إثبات أن لا مدخلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – في شيء من القرآن الكريم بالنص القرآني :

يقول الله تعالى :

(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ [1]) . .

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [2]) . .

الطريق الثاني – التحدى :

ادعى القوم أن القرآن الكريم حديث مفترى وصور القرآن الكريم هذه المقالة وردَّ عليها بما يفحم أصحاب اللجاج والعنت بقول الله تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تجْرِمُونَ [3]) . .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّك لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ [4]) . .

---

(١) الآية رقم : ٨٦ من سورة القصص .

(٢) الآيات من رقم : ٤٤ – ٤٧ من سورة الحاقة .

(٣) الآية رقم : ٣٥ من سورة هود .

(٤) الآية رقم : ٢ من سورة السجدة .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ويمحُ اللهُ البَاطِلَ وَيحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[1]) .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[2]) . .

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ؟ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ[3]) . .

فى هذه الآيات وأمثالها فى القرآن الكريم ردٌّ عام للدعوى المهرجة التى افتعلها القوم ظلما وعلوًّا ، وما دام الأمر كذلك وأنهم رددوا هذه الدعوى التى لا يمكن إقامة دليل عليها ، فقد تصدى الله جل جلاله لهم وتحداهم وبلغ رسوله الكريم الأمين الصادق المصدوق أن يأتوا بمثله ؟ . .

قال الله تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[4]) . .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[5]) . .

---

(١) الآية رقم : ٢٤ من سورة الشورى .

(٢) الآية رقم : ٨ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية رقم : ٣٣ من سورة الطور .

(٤) الآية رقم : ٣٨ من سورة يونس .

(٥) الآية رقم : ١٣ من سورة هود .

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ[1]) ..

وعلى حسب وجود هذه الآيات فى سورها[2] فقد تحداهم الله أولا أن يأتوا بسورة مثل سورة من القرآن ، وسمح لهم أن يستعينوا بمن يشاءوا واستطاعوا إن كانوا صادقين فى ادعائهم الافتراء ؟ . .

ثم تحداهم بعشر سور مفتريات ليصححوا زعمهم أن القرآن مفترى ، وأباح لهم الاستعانة بمن شاءوا وقدروا معه على خلق عشر سور مفتريات . .

والذى يلاحظ هنا أن التحدى الأول ليس فيه قيد الافتراء فوقع التحدى بسورة واحدة ، للدلاله على أنه غير مقدور للبشر الأتيان بشئ مثله . .

والتحدى الثانى فيه قيد المفتريات فوقع التحدى بعقد كامل لأنه لو كان مفترى كما يزعمون لكان أمره سهلا مقدورا إذ ما يفعله واحد بنفسه يمكن أن يفعله الزاعمون به إنه لأمر جد يسير إذ استعانوا بمن يشاءونه من البشر . .

فترقى القرآن من التحدى بسورة واحدة إلى عشر ملاحظ فيها هذا القيد فكأنه تنازل مع الزاعمين من التحدى بالقرآن صافيا

---

(١) الآية رقم : ٣٤ من سورة الطور .

(٢) حول ترتيب هذه الآيات جاء حديث طويل فى تفسير المنار ج : ١٢ من ص : ٣٢ – ٤١ كذلك كتب الدكتور محمد أحمد الغمراوى عدة مقالات فى مجلة الأزهر خاصة عدد ربيع الأول سنة ١٣٣٩ هـ من ص : ١٨٢ – ١٨٩ وعدد ربيع الآخر سنة ١٣٨٩ هـ من ص : ٢٤٧ – ٢٥٤ وفى ظلال القرآن ج : ١٢ ص : ٣٩ تعليق على ترتيب الآيات الخاصة بالتحدى ولكنى فضلت إيراد الآيات فى جوها القرآنى مصورا للعهد المكى بعيدا عن مناقشات العلماء . .

ربانيا إلى زعمهم هم فلئن كان حقا كما يزعمون هو قرآن مفترى فما أيسر أن يجاء بمثله، ويجئ بمثله كثير لا قليل فلما عجزوا بان وتأكد أنه ليس مفترى ، ولهذا يأتى التحدى الأخير كاملا كليا جامعا «فليأتوا بحديث مثله». مثله مطلقا فى الصفاء والنقاء كما جاء به الوحى وعجزوا عنه فى التحدى الأول ، أو مثله على حسب زعمهم فى ادعاء الافتراء كما جاء فى التحدى الثانى ، وعجزوا عنه أيضا ، فثبت بذلك التحدى أن القرآن الكريم وحى من عندالله أنه تنزيل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين . .

وإذن فليوضح القرآن الكريم حقيقة الأمر يقول الله تعالى عقب هذه : الآيات على التوالى :

(بَلْ كَذَّبوا بِمَا لَم يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ[1]) .

(فَإِن لَّم يَسْتَجِيبُوا لكُمْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ[2]) .

(أَمْ خُلِقُوا مِن غيْرِ شىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ . أَمْ عندَهُم خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُون[3])

---

(١) راجع تفسير القرطبى ص : ٣١٨٣ ، ٣١٨٤ والآية رقم : ٣٩ من سورة يونس .

(٢) الآية رقم : ١٤ من سورة هود .

(٣) الآيات من رقم : ٣٥ — ٣٧ من سورة الطور .

فأظهرت آيات سورة الطور علة نكرانهم لربانية القرآن ؛ أنهم لا يوقنون ولا يؤمنون ، ذلك لأنهم لا ينكرون الخالقية لله ولا يجحدون أن السموات والأرض وهم أنفسهم من خلق الله جل شأنه . ولكن من أغلق قلبه عن الإيمان حبب لنفسه إنكار الحق ولو كان الحق أشد نصاعة من وهج الشمس فى رابعة النهار . .

وإذن فكل ما يدعيه القوم بعد ذلك :

(وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ[1]) . .

(... إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ[2] ...) . .

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ[3] ...) . .

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً[4]) .

(... لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً[5] ...) . .

(وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[6]) . .

(... لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ[7]) . .

---

(١) الآية رقم : ٦ من سورة الحجر .
(٢) من الآية رقم : ١٠٣ من سورة النحل .
(٣) من الآية رقم : ٧٠ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية رقم : ٥ من سورة الفرقان .
(٥) من الآية رقم : ٣٢ من سورة الفرقان .
(٦) الآية رقم : ٣١ من سورة الزخرف .
(٧) من الآية رقم : ١١ من سورة الأحقاف .

(أَم يَقولُونَ شَاعِرٌ نَّتَربَّصُ به رَيْبَ الْمَنُونِ[1]) .

(... وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ[2]) . .

كل ذلك وأمثاله من دعاوى القوم إن هو إلا إفك وحسد من عند أنفسهم .

(... مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ولكن تَصْدِيقَ الَّذى بَيْنَ يَدَيْه وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وهُدًى ورَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[3]) . .

(ومَا كَانَ هَذَا القُرآنُ أَن يُفْتَرَىَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْه وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ[4])

وخاتمة المطاف :

(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً[5]) . .

والنقطة الأخيرة :

(د) اتبع ما يوحى إليك من ربك :

والجو القرآنى نفسه شاهد صدق على أن القرآن من عند الله وأن سيدنا محمدا — صلى الله عليه وسلم — تلقاه عن ربه وأمر باتباع ما أوحى إليه . .

---

(١) الآية رقم : ٣٠ من سورة الطور .

(٢) من الآية رقم : ٥١ من سورة القلم .

(٣) من الآية رقم : ١١١ من سورة يوسف .

(٤) الآية رقم : ٣٧ من سورة يونس .

(٥) الآية رقم : ٨٨ من سورة الإسراء .

يقول الله تعالى :

(اتَّبِعْ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ[1]) . .

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ[2]) . .

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[3]) . .

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ، وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً[4]) . .

(وَاتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً[5]) . .

(فَإِنَّمَايَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا[6]) . .

(اتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ[7]) . .

---

(١) الآية رقم : ١٠٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ١٠٩ من سورة يونس .

(٣) الآية رقم : ١٢٣ من سورة النحل .

(٤) الآيات من رقم : ٧٣ — ٧٥ من سورة الإسراء .

(٥) الآية رقم : ٢٧ من سورة الكهف .

(٦) الآية رقم : ٩٧ من سورة مريم .

(٧) الآية رقم : ٤٥ من سورة العنكبوت .

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [١]) ..

(قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا [٢]) ..

هذه الحقيقة لاينكرها الذين أُوتوا العلم يقول الله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُم لَا يُؤْمِنُونَ [٣]) ..

(... وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [٤]) ..

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّون لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا [٥]) ..

(أَوَلَمْ يَكُن لَهُمْ آيةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إسْرَائِيلَ [٦]) ..

(الَّذِين آتَيْنَاهُم الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ به يُؤْمِنُونَ . وإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِه مُسْلِمِين [٧]) ..

---

(١) الآية رقم : ٤٣ من سورة الزخرف .

(٢) أول سورة الجن .

(٣) الآية رقم : ٢٠ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية رقم : ١١٤ من سورة الأنعام .

(٥) الآية رقم : ١٠٧ من سورة الإسراء .

(٦) الآية رقم : ١٩٧ من سورة الشعراء .

(٧) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة القصص .

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُون بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَايَجْحَدُ بِآيَاتِنَا الَّا الْكَافِرُونَ[1]) ..

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بيِّنَاتٌ فى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَايَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إلاَّ الظَّالِمُونَ[2]) ..

وبهذا ثبت أن القرآن وحى من عند الله وبهذا أيضا ثبت أن محمدا رسول الله حقا وصدقا ..

يقول ابن خلدون : فى الغالب تقع الخوارق مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ؛ ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ؛ والقرآن هو نفسه الوحى ؛ وهو الخارق المعجز . فشاهده فى عينه لايفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ؛ فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَامِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ ؛ وإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُهُ وَحْيًا يُوحَى إِلَيَّ ؛ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ) ..

يشير إلى أن المعجزات متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها ؛ فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة . ا . هـ ..[3]

وأنا أشهد أن محمدا حقا وصدقا رسول الله ، وأن القرآن كتاب الله أوحى إليه ليكون للعالمين مبشرا ونذيرا ..

---

(١) الآية رقم : ٤٧ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية رقم : ٤٩ من سورة العنكبوت .

(٣) مقدمة ابن خلدون ج : ١ ص : ٣٥١ .

(ج) كذلك الخروج :

من ثمرات العمل الإسلامى فى مرحلة تبليغ الدعوة الإسلامية فى العهد المكى اثبات عقيدة البعث ، وعلى سنة المنهج القرآنى نستضىء بما أنزل الله تعالى من أدلة قرآنية واجه بها النبى – صلى الله عليه وسلم مزاعم القوم ، والموضوع فى صورته الكلية يأخذ أربعة جوانب :

الجانب الأول : تصوير لمقالات المشركين حول فهمهم لعقيدة البعث . .

الجانب الثانى : الرد على المعاندين فى جو السلطان الالهى . .

الجانب الثالث : الرد على المعاندين فى جو حكمة البعث لاقامة العدل . .

الجانب الرابع : الرد على المعاندين فى جو المشاهدة لاحياء الأرض وامكانيات العقل فى قبوله وادراكه لعقيدة البعث . .

فى الجانب الأول : يقدم القرآن الكريم تصويرا لدعاوى القوم ومن نماذج هذه الآيات قول الله تعالى :

(وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا [1]) . .

(... وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا [2]) . .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ [3]) . .

---

(١) الآية رقم : ٤٩ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية رقم : ٩٨ من سورة الإسراء .

(٣) الآية رقم : ٦٧ من سورة النمل .

(أَإِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُون [١]) . .

(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِين [٢]) . .

(وَقَالُوا مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا يُهْلِكُنَا إِلَّاالدَّهرُ وَمَالَهم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [٣]) . .

(أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ [٤]) . .

(وكَانُوا يَقُولُون أَإِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنا لَمَبْعوثُون [٥]) . .

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [٦]) . .

تلك مجموعة آراء القوم تصورها هذه النماذج من آيات القرآن الكريم . .

وفى الجانب الثانى : يرد الله عليهم :

(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْحَدِيدًا . أوخَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ؟ قُل الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا [٧]) . .

---

(١) الآية رقم : ١٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية رقم : ٣٥ من سورة الدخان .

(٣) الآية رقم : ٢٤ من سورة الجاثية .

(٤) الآية رقم : ٣ من سورة ق .

(٥) الآية رقم : ٤٧ من سورة الواقعة .

(٦) الآية رقم : ٣٦ من سورة القيامة .

(٧) الآيات من رقم : ٥٠ - ٥٢ من سورة الإسراء .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ قَادِر عَلَى أَنْ يخلقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لارَيْبَ فِيه فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا[١]) . .

(. . . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ[٢]) . .

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[٣]) . .

(قُلْ نَعَمْ وأَنتُمْ دَاخِرونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَاهم يَنْظُرُونَ . وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْم الدِّين . هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبون[٤]) . .

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . ومَاخَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُون . إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُم أَجْمَعِين[٥]) .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ ولَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الموْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير[٦]) ..

---

(١) الآية رقم : ٩٩ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية رقم : ١٠٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية رقم : ٢٨ من سورة لقمان .
(٤) الآيات من رقم : ١٨ — ٢١ من سورة الصافات .
(٥) الآيات من رقم : ٣٧ — ٤٠ من سورة الدخان .
(٦) الآية رقم : ٣٣ من سورة الأحقاف .

(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[1]) . .

إن المسألة سهلة بسيطة إذا قيست بمقاييس السلطان الالهى :

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ[2]) .

(إنما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ[3]) . .

وفى الجانب الثالث : يبرز القرآن الكريم الغاية من البعث إنها إقامة العدل فى دار الجزاء حيث توفى كل نفس ماكسبت :

(فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ[4]) . .

وحول هذه الحكمة تأتى نماذج من آيات الله البينات يقول الله تعالى :

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) . .

---

(١) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة ق .

(٢) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

(٣) الآية رقم : ٨٢ من سورة يس .

(٤) الآيات من رقم : ٦ — ١١ من القارعة .

(٥) الآية رقم : ٤ من سورة يونس .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون. ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين[1])..

(وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين. ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعو فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم[2])..

(ولله مافى السموات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى[3])..

وفى الجانب الرابع يعرض القرآن الكريم دليلين :

دليلا من المشاهدة . .

ودليلا من العقل . .

أما دليل المشاهدة ففى قوله تعالى :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير[4]) .

---

(١) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ من سورة النحل .

(٢) الآيات من رقم : ٣ — ٥ من سورة سبأ .

(٣) الآية رقم : ٣١ من سورة النجم .

(٤) الآية رقم : ٣٩ من سورة فصلت .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ[1]) .

فيجرهم القرآن الكريم إلى ملاحظة هذه العملية الدائمة المتكررة فيما حولهم من الأرض ، فكذلك الخروج من القبور على هذه الوتيرة السهلة ، فهم فى ملكوت الله شىء من الأشياء التى ينزل عليها الماء فتحيا به ويجف عنها فتموت تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . .

وأما دليل العقل والفكر فى آيات سورة يس :

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) . .

وأعرج فى استخلاص عقلياتها مما جاء فى كتاب أستاذنا الإمام الدكتور عبدالحليم محمود :

١ ــ وجود الشئ من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل

---

(١) الآيات من رقم : ٧ — ١١ من سورة ق .

مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم وإن كان لايوجد بالنسبة لله شئ هو أسهل وشئ هو أصعب ، هذا الدليل موجود فى قوله تعالى : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) . .

٢ - ظهور الشئ من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس واذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد ة أخرى وذلك على أساس المبدأ الأكبر ، وهو أن الشئ يمكن أن يوجد ن العدم المطلق بفعل المبدع الخالق ، وهذا الدليل العقلى موجود فى ولـه تعالى : (الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارا فَإِذَا أَنتُم مِّنْه تُوقِدُون) . .

٣ - خلق الإنسان أو أحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهذا الدليل موجود فى قوله تعالى :

(أَولَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) . .

٤ - الخلق والفعل مطلقا مهما عظم المخلوق لايحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافا للفعل البشرى الذى لايتم إلا فى زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل وهذا الدليل موجود فى قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كن فيكُونَ[1]) . .

(١) التفكير الفلسفى فى الاسلام مع تصرف ص : ٧٣ ، ٧٤ .

والقرآن نفسه يشير إلى هذه الأدلة

ففيما يتعلق بالدليل الأول يقول الله تعالى :

(... فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّة[1]) ..

(... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُه[2]) ..

أما فيما يتعلق بالدليل الثانى يقول الله تعالى :

(أَفرأَيْتُم النَّارَ الَّتِى تُورُون ، أأَنتُم أَنشَأْتُم شجَرَتَها أَمْ نَحْنُ المُنْشِئُون نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ومَتَاعاً لِلْمُقْوِين[3]) ..

وفيما يتعلق بالدليل الثالث ، يقول الله تعالى :

(لَخَلْقُ السَّموَاتِ والأَرضِ أَكبرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُون[4]) ..

وفيما يتعلق بالدليل الرابع يقول الله تعالى :

(أَفَعَيِينَا بالْخَلْقِ الأَوَّلِ[5]) ..

(انَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون[6]) ..

---

(١) من الآية رقم : ٥١ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية رقم : ١٠٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات من رقم : ٧٠ — ٧٣ من سورة الواقعة .
(٤) الآية رقم : ٥٧ من سورة غافر .
(٥) من الآية رقم : ١٥ من سورة ق .
(٦) الآية رقم : ٤٠ من سورة النحل .

(وهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه وهُوَ أهوَن عَلَيه ولَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَواتِ والأَرضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم [١])..

وبذلك يثبت البعث ويستقر عقيدة راسخة فى نفوس الصادقين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه..

ولكن القرآن الكريم لايترك المسألة تمر دون أن يفضح بواعث هذا الانكار انهم ينكرون البعث مع وجود أدلة يشاهدونها بالعين، وينتفعون بها، ويمكن لعقلهم إذا شفى من دائه أن يتعقلها، ولكن العلة انهم ألفوا ثقافة ودأبوا على تقاليد ربطوا عقولهم وأعناقهم فى جبالها فحقت عليهم لعنة الله، انهم يقولون مقالة السالفين من الكافرين من قوم نوح :

(أَيَعِدُكُم انَّكُم إذَا مِتُّم وكُنتُم تُراباً وعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيهَاتَ هَيهَاتَ لِمَا تُوعَدُون .ان هِىَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحيَ ومَا نَحْنُ بمَبعُوثِين [٢])..

بمثل هذا المنطق الأعمى قال كفار مكة :

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الأَوَّلُون، قَالُوا أَإذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وعِظَام أإنَّا لَمَبعُوثُون.لَقَد وُعِدْنَا نَحْنُ وآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إن هَذَا إ أَساطِيرُ الأَوَّلِين [٣])..

---

(١) الآية رقم : ٢٧ من سورة الروم..

(٢) الآيات من رقم : ٣٥ — ٣٧ من سورة المؤمنون.

(٣) الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ من سورة المؤمنون.

فليس هناك باعث على الجحود والكفر وإنكار البعث إلا تلك المقالة القديمة التي رددها السالفون من المشركين وهم على آثارهم يهرعون أما يوم البعث فهو حق لاريب فيه :

(يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لايَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلّٰهِ الوَاحِدِ القَهَّار . اليَوم تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بمَا كَسَبَت لاظُلْمَ اليَوْم إنَّ الله سَرِيعُ الحِسَاب[1]) . .

(ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوات وَمَنْ فِى الأَرضِ إلَّا مَن شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيه أُخرَى فَإِذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ . وأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشُّهَدَاءِ وقُضِىَ بَيْنَهُم بالْحَقِّ وهُمْ لايُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ وهُوَ أَعْلَمُ بمَا يفْعَلُونَ[2]) . .

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوا أَعْمَالَهُم . فَمَن يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه . ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَه[3]) . .

ولله عاقبة الأُمور . .

---

(١) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة غافر.

(٢) الآيات من رقم : ٦٨ — ٧٠ من سورة الزمر .

(٣) الآيات من رقم : ٦ — ٨ من سورة الزلزلة .

الفصل الثانى

فى التشريع والأخلاق والجماعة الإسلامية

اولا : فى التشريع والاخلاق

من ثمار الشجرة الطيبة فى العهد المكى بناءُ الأُسس التشريعية والجماعية الإسلامية التى ستتحمل فى المستقبل مسئولية بناء الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة ، ويمكن تركيز وحدات هذه الثمرات فى :

(ا) السلطة التشريعية . .

(ب) الأَحكام الشرعية والأَخلاق . .

(ج) بدءُ التدرج فى أَحكام تتعلق بنظام المجتمع الإسلامى مستقبلا.

(ا) السلطة التشريعية :

أَما فيما يتعلق بالوحدة الأُولى فان القرآن الكريم قد ألغى سلطة البشر فى التحليل والتحريم وجعلها خالصة لله وفوض رسوله الكريم فى تبيان كتابه فانحصرت السلطة التشريعية فى وحى الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاغير : يقول الله تعالى :

(قل أَرأَيتم مَّاأَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْه حَرَاماً وحَلالاً قُل آللهُ أَذِنَ لَكُم أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُون[1]) . .

كان الجاهليون من العرب يعترفون بوجود الله سبحانه ويقرون بأَنه الخالق وأَنه الرازق ، ولكنهم كانوا يزاولون التحريم والتحليل

(١) الآية رقم : ٥٩ من سورة يونس .

لأنفسهم فيما رزقهم الله فواجههم القرآن الكريم بهذا التناقض ، بين مايعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق والرازق ، وبين مايزاولونه من ربوبية لغير الله تتمثل فى التشريع الذى يزاوله نفر منهم ، وكانوا يزعمون أن مايزاولونه من التحريم والتحليل انما باذن من الله لهم فجاءت الآيات تقرعهم (قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُم أَم على الله تفْترون[1]) . .

قال ابن كثير : أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ماحرم الله بمجرد الآراء والأهواء التى لامستند لها ولادليل عليها[2] . .

قال الطبرى : فحللتم بعض ذلك لأنفسكم وحرمتم بعضه عليها وذلك كتحريمهم ماكانوا يحرمونه من حروثهم التى كانوا يجعلونها لأوثانهم كما وصفهم الله به فقال : (وجَعلُوالله مما ذَرأَ مِن الْحَرْث والأَنْعَام نَصِيبًا ، فقالُوا هَذا لله بزَعْمِهم ، وهذا لشُرَكائنا . . .) ومن الأنعام ماكانوا يحرمونه بالتبحير والتسبيب ونحو ذلك : يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل (يامحمد) آلله أذن لكم ، بأن تحرموا ماحرمتم منه – أم على الله تفترون – أى تقولون الباطل وتكذبون[3] ؟ . .

---

(١) فى ظلال القرآن ج : ١١ ص ١٧٧ ، ١٧٨ راجع القرطبى ص : ١٣٩٤ . ط الشعب . . وحول هذا راجع الموافقات الشاطبى ج : ٥٣١ ص راجع الرسالة المحمدية ص : ١٣٦ . . .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص : ٤٢١ .

(٣) تفسير الطبرى ج : ١١ ص : ١٢٧ ، راجع الآلوسى ج : ١١ ص ١٤٢ فى ظلال القرآن ج : ١١ ص : ١٧٨ راجع تفسير القرطبى ط الشعب ص : ٢٥٢٦ .

ومن هنا فقد تقرر منذ العهد المكى ألاَّ سلطة لأحد من البشر فى التحليل والتحريم فان الحاكمية والربوبية وهى مدار التحليل والتحريم صفات خاصة بالله جل شأنه ومقصد الشرع من وضع الشريعة اخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبدا لله اضطرارا : أوبمعنى آخر حتى يسلم وجهه لله وهو محسن . .

قال الشاطبي : ومايننطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى : فقد حصر الأمر فى شيئين : الوحى وهو الشريعة ، والهوى فلا ثالث لهما وإذا كان كذلك فهما متضادان وحين تعين الحق فى الوحى توجه للهوى ضده ، فاتباع الهوى مضاد للحق ، فهذا كله واضح فى أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى[1] . .

ولهذا جاءت آية سورة النحل قاطعة فى هذا الباب (ولاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُم الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرَوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ علىَ الله الكَذِبَ لا يُفْلِحُون) . .

وترد آية سورة الشورى الأمر كله لله تعالى :

(ومَا اخْتَلَفْتُم فيه من شَىْءٍ فَحُكْمُه إلَى الله ذَلكُم اللهُ رَبِّى عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وإلَيه أُنيب) . .

---

(١) راجع الموافقات للشاطبى ج : ٢ ص : ١٦٨ .

وإذا كانت السلطة التشريعية مردها إلى الله وحده فإن النبي — صلى الله عليه وسلم — مفوض من قبل الله جل وعلا ليبين لهم الذى يختلفون فيه قال الله تعالى :

(... وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون [1]) . .

(ب) الأحكام الشرعية والأخلاق :

وفى العهد المكى كانت هناك أحكام شرعية لها وزنها فى تربية الجماعة الإسلامية ولها ارتباطها بالعقيدة ولهذا امتازت الشريعة الإسلامية بقدرتها الدائمة على تنظيم المجتمع دائما فى كل زمان . .

لقد فرض الله الصلاة والصيام والزكاة ، فرضها ليدخل العبد فى العبودية محققا كلمتى الشهادة ، أما تنظيم هذه الواجبات فله مناسبته حسب طبيعة التشريع الإسلامى القائم على التدرج والأخذ بالحسنى وتربية النفوس بالهوينى [2] . .

وكان هناك محرمات : لقد حرم الله من المطعومات ما لم يذكر اسم الله عليه . وحرم قتل النفس ، وأكل مال اليتيم والزنا وشهادة الزور لأن دور الحكم الشرعى هنا كان لتربية النفس وبذل المجهود الكامل فى امتثال حقوق الله ورعايته . .

لقد كانت غاية الحكم الشرعى هنا أن يظهر السلوك الإسلامى بالمظهر الأخلاقى الرفيع ليبين للناس أن مستوى الانسانية الفاضل

---

(١) من الآية رقم : ٤٤ من سورة النحل .

(٢) راجع حول هذا الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ص : ١٩ ، ٢١ .

إنما هو فى التبعية لهذا الدين ، وقد ظهر ذلك واضحا فى حديث سيدنا جعفر بن أبى طالب مع النجاشى :

... حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام [١] ..

وآيات القرآن الكريم فى العهد المكى تؤكد ذلك يقول الله تعالى :

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ [٢]) ..

(ولاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَفِسْقٌ وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ [٣]) ..

(... وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [٤])

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٣٦ الحلبية ج : ١ ص : ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢) الآية رقم : ١١٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآية رقم : ١٢١ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية رقم : ١٤١ من سورة الأنعام .

وروى الطبرى عن العلماء فى تفسيرها أقوالا تدور كلها حول « الصدقة الواجبة[١] » . .

وجاء فى روح المعانى : لا نسلم أن الزكاة ما كانت واجبة فى مكة ، وعن الشعبى أن هذا حق فى المال سوى الزكاة[٢] . .

ولكن سورة « المؤمنون » فيها حديث عن الزكاة يقول الله تعالى :

(والَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ[٣]) . .

وقد وضح ابن كثير معنى وجوب الزكاة فى العهد المكى وتنظيمها فى العهد المدنى فقال :

« الأكثرون على أن المراد ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال الله تعالى فى سورة الأنعام : (وآتُوا حَقَّه يَوْم حَصَاده[٤]) أ هـ . . .

قال الشيخ الخضرى : ومما فرض بمكة الزكاة وقلما وجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة الا وبجانبه إيتاء الزكاة واستشهد بآية سورة الأنعام (وآتُوا حَقَّه يَوْمَ حصَاده) ثم قال : إلا أن هذه الحقوق

---

(١) تفسير الطبرى ج : ٨ ص : ٥٣ ومابعدها .
(٢) روح المعانى ج : ٨ ص : ٣٨ .
(٣) الآية رقم : ٤ من سورة المؤمنون .
(٤) تفسير ابن كثير ج : ٣ ص : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولا لما فى النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس [١] . . أ هـ . .

وتلك هى السنة الطبيعية للتشريع الإسلامى حتى فى عهده المدنى :

(قُلْ لَّا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٢]) . .

قال الطبرى فى تفسيرها : عن ابن طاوس عن أبيه كان أهل الجاهليه يستحلون أشياء ويحرمون أشياء فقال الله لنبيه : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا مِمَّا كُنْتُم تَسْتَحِلُّونَ إِلَّا هَذَا [٣] ..

قال الآلوسى : فيه إيذان بأن طريق التحريم ليس إلا التنصيص من الله تعالى دون التشهى والهوى [٤] . . أ هـ . . .

فدل ذلك على أن الحصر هنا مراد به مواجهة المشركين الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . وحرموا وحللوا افتراء على الله وإلا فبقية الأحكام الملحقة بهذه الآية موكولة إلى السنة النبوية على نحو ما ذكر عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتاب الأم [٥] :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية ج : ١ ص : ٩٢ . .

(٢) الآية رقم : ١٤٥ من سورة الأنعام .

(٣) تفسير الطبرى ج : ٨ ص : ٦٩ .

(٤) روح المعانى ج : ٨ ص : ٤٣ .

(٥) راجع كتاب الأم ج : ٢ ص : ٢٤١ .

أَلاَّ تُشْرِكُوا به شَيْئًا .

وبَالْوَالدَيْن إحْسَاناً ،

ولاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم من إملاَق نَحْنُ نَرْزقُكُم وإيَّاهم ،

ولاَ تَقْرَبوا الفَوَاحشَ مَا ظَهَرَ منْهَا ومَا بَطَنَ ،

ولاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتى حَرَّم الله إلاَّ بالْحَقِّ : ذَلكُم وصَّاكُم به لعَلَّكُم تَعْقلُون .

ولاَ تَقْرَبوا مَالَ اليَتيم إلَّا بالَّتى هى أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغ أَشُدَّهُ ،

وَأَوْفُوا الكَيْلَ والميزَانَ بالقسْط لاَ نُكلِّفُ نَفْساً إلَّا وسْعَهَا ؛

وإذَا قُلْتُم فَاعْدلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبعَهْد الله أَوْفُوا ذَلكُم وصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَذَكَّرون [1]) . .

لقد حرم الله فى هاتين الآيتين الشرك مطلقا : شرك العقيدة وشرك الربوبية ، شرك الإيمان وشرك الحاكمية ، فإن القاعدة الرئيسية التى يقوم عليها التصور الإسلامى والإيمان السليم هى أن يعترف الناس بالألوهية والربوبية لله وحده ، والربوبية : قوامة وتوجيه وتربية ، والألوهية : خالقيةوحاكمية ، وواجب البشر أن يقرور ويستقر فى قلبه أن الله وحده هو المتصرف ، وإنه وحده هو المشرع وأنهم يجب عليهم أن يخضعوا لتشريعه فى كل ما يأتون ويدعون [2] . .

---

(١) الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) راجع الطبرى ج : ٨ ص : ٨١ ، ٨٢ ابن كثير ج : ٢ ص : ١٨٧ ، ١٨٨ المصطلحات الأربعة فى القرآن ص : ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٤ راجع القرطبى ط الشعب ص : ٢٥٧٣ .

إنها تنقية كاملة من أوشاب الشرك والخرافات وتطهير من استعباد الحكم البشرى وارتباط كامل بالله عز وجل فى كل لمحة وحين . .

وبالوالدين احسانا :

تـأتى رابطة الأسرة بعد رابطة العقيدة تـأتى رابطة الأسرة فى رحاب الإيمان بالله والخضوع لربوبيته جل شأنه فهو أرحم بالناس من الآباء بالأبناء ويوصى القرآن فى العهد المكى برعاية الأسرة والأبناء وينهى عن قتل الأبناء لخشية الفقر أو لوجوده فالمتكفل بالرزق هو الله ، إن القرآن يريد أن يخلع من قلب البشر اتكالهم على التصور الأرضى فى مفهوم الحياة ، إن الحياة كلها تسير فى ظل ربوبية الله ، فلا ينبغى أن يتصرف الفرد من عند نفسه لشهوة أو فكرة أو ذكاء ، فهو مأمور أن يخضع للسلطان الإلهى ، وتـأتى آيات جمة فى هذا الموضوع :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالْوَالِدَين إحْسَاناً . إمَّا يَبْلُغَن عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لهُما أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَة وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانى صَغيراً[1]) . .

وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوَالدَيْه حُسْناً وإن جَاهَدَاكَ لتُشْركَ بى مَالَيْسَ لَكَ به علْمٌ فَلاَ تُطعْهمَا إلىَّ مرْجعُكُم فَأُنَبِئُكُم بمَا كُنتُم تَعْمَلُون[2]) .

---

(١) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية رقم : ٨ من سورة العنكبوت .

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وفِصَالُه فِى عامَيْن أن اشْكُرْلِى وَلِوَالِدَيْك إِلىَّ المَصِيرُ . وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فى الدُّنيَا مَعْروفاً واتَّبِع سَبيل مَن أَنابَ إلىَّ ثم إلىَّ مَرْجِعكُم فأُنبئُكُم بما كُنتُم تعْمَلُون [١]) . .

(وَوَصَّيْنا الإِنْسَان بِوَالديْه إِحْسَاناً حمَلتهُ أُمُّه كُرْهاً وَوَضعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثلاثُون شهْراً حتَّى إِذا بَلغَ أَشُدَّه وبَلَغَ أَرْبَعينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعَلَى وَالدَىَّ وأَن أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ وأَصْلح لِى فى ذُرِّيَّتى إنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى منَ المسْلمين [٢]) . .

وفى مواجهة قتل الأبناء للإملاق والفقر يقول الله تعالى :

(قد خَسرَ الَّذين قَتَلُوا أَولاَدَهم سَفَهاً بغَيْر علْم وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهم الله افْترَاءً علىَ الله قد ضَلُّوا ومَا كَانُوا مهْتَدين [٣]) .

(ولاَ تَقْتُلُوا أَولادَكُم خَشْيَةَ إِمْلاَق نَحْنُ نَرْزُقُهم وإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلهُم كَانَ خِطْئًا كَبيراً [٤]) . .

(وإِذَا المَوْءُودَةُ سُئلَتْ . بأَىِّ ذَنْب قُتِلَتْ [٥]) . .

---

(١) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان .

(٢) الآية رقم : ١٥ من سورة الأحقاف ..

(٣) الآية رقم : ١٤٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية رقم : ٣١ من سورة الإسراء .

(٥) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة التكوير .

وحرم الله الزنا والفواحش كلهـا :

(ولاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَن) قال الطبرى فى تفسيرها عن السدى ، أما ما ظهر منها فزوانى الحوانيت ، وأما ما بطن فما خفى .

وعن ابن عباس قال : كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزنا بأسا فى السر ويستقبحونه فى العلانية فحرم الله الزنا فى السر والعلانية [1] ، وإلى مثل هذا ذهب الآلوسى .

وفى القرآن المكى آيات مستفيضة فى بيان حرمة الزنا ، منها قال الله تعالى :

(ولاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّه كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً [2]) . .

(فَمَن ابْتَغى ورَاءَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُم العَادُونَ [3]) .

(...ولاَ يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلكَ يَلْقَ أَثَاماً [4]) . .

تحريم القتل :

(ولاَ تَقْتلُوا النَّفْسَ الَّتى حَرَّم الله إلاَّ بالْحقِّ ذَلكُم وَصَّاكُمْ به لَعلَّكُم تَعْقلُون) .

هذه هى الجريمة الثالثة [5] يحرمها الإسلام منذ العهد المكى لقد حرم جريمة الشرك ففيه قتل للفطرة التى فطر الله الناس عليها ..

---

(١) راجع تفسير الطبرى ج : ٨ ص : ٨٣ روح المعانى ج : ٨ ص : ٥٤ .

(٢) الآية رقم ٣٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية رقم : ٧ من سورة المؤمنون .

(٤) من الآية رقم : ٦٨ من سورة الفرقان .

(٥) المراد بالعدد هنا الترتيب فى آية سورة الأنعام ١٥١ التى صدر بها هذا الحديث .

وحرم جريمة الزنا وهى قتل للجماعة الانسانية ثم حرم الجريمة الثالثة وهى قتل الفرد . .

ومعنى هذا أن الإسلام منذ فجره يحمى الانسان من الاعتداء عليه فى فطرته وأسرته وذاته حتى يضمن الطمأنينة والانطلاق الحيوى للانسان فى ظلال ربه وكنف دستوره لا يؤذى بشىء إلا حين يتعدى هذه الحدود التى شرعها الله له ، فليس على الانسان فى الأرض وصاية إلا من عند الله وليس للانسان أن يطيع أحدا إلا فى الله ودمه محترم وتصرفاته مكفول لها التحرك مادامت فى حوزة الربوبية لله رب العالمين.

وتأتى آيات فى السور المكية تقوى هذا الحكم « تحريم قتل النفس دون حد شرعى » يقول الله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ومن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَد جَعَلْنَا لِوَلِيِّه سُلْطَاناً فلاَ يُسْرِف فِّى القَتْل إنَّه كَانَ مَنْصُوراً[1]) .

(... ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[2] . .) .

وبهذا فقد سبق الإسلام — لأنه وحى الله — جميع القوانين البشرية فى تقرير حق الإنسان فى الحياة وتأكيد كرامة الجنس البشرى وارتفاع مكانته على سائر المخلوقات :

(وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم فى البَرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم من الطَّيِّبَات وفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا[3]) . .

---

(١) الآية رقم : ٣٣ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية رقم : ٦٨ من سورة الفرقان .

(٣) الآية رقم : ٧٠ من سورة الإسراء .

فى شئون المـال :

(ولا تَقْرَبُوا مالَ اليَتيم إلاَّ بالَّتِى هى أَحْسَن ...) . .

ما أظن أن الجماعة الإسلامية فى مكة كانت قد بلغت حدا من التجمع يمكنها من تنظيم مجتمع له سيادة وحرية كاملة فى إدارة شئونه ، ومع هذا فأن رعاية اليتامى والحرص على تنمية أموالهم (حتى يبلغ أشده) كانت من الأحكام التى شرعها الإسلام فى مكة وهى هى بمستواها المكى توجد فى العهد المدنى يقول الله تعالى :

(ولاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيم إلاَّ بالَّتى هىَ أَحْسَن حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوفُوا بالعَهْد إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً)[1] .

وإذن فلا غرو أن قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى : ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . .

وفى هذا الجو من رعاية أموال اليتامى يقرر العهد المكى مبدأ أساسيا فى سياسة الانفاق وهو مبدأ (الوسط فى النفقة) أو الاعتدال فى تصريف الأموال أو الاقتصاد وعدم التبذير ، وبذلك يحفظ الإسلام الجماعة الإسلامية من هزة اقتصادية سواء كان ذلك فى عهد الرخاء والسراء أو فى عهد الحاجة والضراء . .

وتسبق الدعوة الإسلامية بهذا المبدأ جميع أنظمة الاقتصاد إذ حجم الانفاق له دخل فى المشكلة الاقتصادية ، ولقد شاء الله تعالى أن يعلم المسلمين منذ اللحظة الأولى أن التوسط فى النفقة يحمى المجتمع

---

(١) الآية رقم : ٣٤ من سورة الإسراء .

الإسلامى من الضيق الاقتصادى يقول الله تعالى : (ولاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إن المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَان الشَّياطين . وكَانَ الشَّيْطَانُ لربِّه كَفُوراً[1]

(ولا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولةً إلَى عنقِكَ ولاَ تَبْسطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً[2]) . .

ولهذا جعل القرآن الكريم فى العهد المكى هذا المبدأ من سمات المؤمنين يقول الله تعالى :

(والَّذينَ إذَا أنْفَقُوا لَم يُسْرفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قوَاماً[3]) . .

وقد وضح القرآن فى العهد المكى أن توزيع الأرزاق ونسب الثراء موكل إلى الله جل شأنه وحده يقول الله تعالى :

(لهُ مَقَاليدُ السَّمَواتِ والأَرْض يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ويَقْدِرُ إنَّهُ بكُلِّ شئْءٍ عَلِيم[4]) . .

(الله لطِيفٌ بعِبادِهِ يَرْزُقُ من يَشاءُ وهُوَ القوىُّ العَزِيز[5]) . .

وتلك الحقيقة غابت عن أعين الاقتصاديين فى العصر الحديث فباتوا يتخبطون فى تخير مذهب لتوزيع الثروات، ولن يفلحوا أبدا . .

---

(١) من الآيتين : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الإسراء .

(٢) الآية رقم : ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الآية رقم : ٦٦ من سورة الفرقان . .

(٤) الآية رقم : ١٢ من سورة الشورى .

(٥) الآية رقم : ١٩ من سورة الشورى .

ثم أكد لهم أن سيادة الأمة الإسلامية هى جزء من النشاط الإسلامى فى تملكهم واستخدامهم خيرات هذه الأرض التى سخرها الله تعالى لهم يقول الله تعالى :

(وَمَا ذَرَأَ لَكُم فى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُه إنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْم يذَّكَّرون . وهو الَّذِى سَخَّر البَحْر لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا منه حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيه ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ولَعَلَّكُم تَشْكُرُون[1]) . .

(وما يَسْتَوِى البَحْرَان هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُه وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُل تَأْكُلُون لَحْماً طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الفُلْكَ فِيه مَوَاخِر لِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ولَعَلَّكم تَشْكُرُون[2]) . .

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وكُلُوا من رِّزْقِه وَإِلَيْه النُّشُور[3]) . .

فدلت رسالة الإسلام بهذه الثمار اليانعة فى العهد المكى ـ عهد التدريب والتربية والاعداد ـ على أن موقف الجماعة الإسلامية هو موقف السيد الجليل على هذا الكون الذى سخر له :

(وَسَخَّرَ لكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجَومُ مُسَخَّرَاتٌ بأَمْره إنَّ فى ذَلِكَ لآيَات لِّقَوْم يَعْقِلُون[4]) . .

---

(١) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة النحل .

(٢) الآية رقم : ١٢ من سورة فاطر .

(٣) الآية رقم : ١٥ من سورة الملك .

(٤) راجع الرسالة المحمدية ص ١٣٤ ، ١٣٥ : الآية رقم : ١٢ من سورة النحل .

الوفاء والعدل والاحسان :

(...وأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ بالقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىَ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكم وصَّاكم به لَعَلَّكُم تذَكَّرُون[1]) .

لقد كان الوفاءُ فى الكيل والميزان بالقسط. من أهم الأحكام الشرعية والأخلاقية التى قررها العهد المكى يقول الله تعالى :

(وأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَن تَأْوِيلًا[2]) ..

وقداستفاضت السور المكية فى شرح هذه الخلقية علىلسان الأنبياء السابقين فنى سورة الأعرافقال شعيب لقومه من مدين :

(... فأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم ولاتُفْسِدُوا فِىالأَرْضِ بَعْد إِصْلَاحِهَا ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِن كُنتُم مُؤْمِنِين[3]) ..

وقال لهم فى سورة هود :

(... ولاتَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْر وإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يوْم مُحِيط . وياقَوْم أَوْفُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ بالقِسْطِ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشيَاءَهُم ولا تَعْثَوا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِين بقية اللهِ خَيْرٌ لَكُم إِن كُنتُم مُؤمنين . وما أَنَا عَلَيْكُم بِحفِيظ[4]) ..

---

(١) من الآية رقم : ١٥٢ من سورة الانعام .

(٢) الآية رقم : ٣٥ من سورة الإسراء .

(٣) من الآية رقم : ٨٥ من سورة الاعراف .

(٤) الآيات من رقم : ٨٤ — ٨٦ من سورة هود .

وقال لهم فى سورة الشعراء :

(أَوْفُوا الكَيْلَ ولاتكُونُوا مِنَ المُخْسِرِين . وَزِنوا بالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيم ولاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُم ولاتَعْثَوا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِين) ..

وقد هدد الله المطففين وتوعدهم فقال جل شأنه :

(وَيْلٌ للمُطَفِّفِين . الَّذِين إذا اكْتَالُوا على النَّاسِ يَسْتَوْفُون . وإذَا كَالُوهُم أَوْوَزَنُوهُم يُخْسِرُون . أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُون . لِيَوْمٍ عَظِيم[1]) ..

واذا قلتم فاعدلوا :

لقد جعل الإسلام منذ العهد المكى العدل أساسا للعلاقات والتعامل بين المسلمين وقد حرم شهادة الزور وبرأ منها الأخلاق الإسلامية يقول الله تعالى :

(والَّذِينَ لايَشْهَدُونَ الزُّور وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً[2]) . .

إن العدل يكفل لكل فرد وكل جماعة قاعدة التعامل القائمة على الاستقرار والثقة البريئة من الميل مع الهوى ، ولاتتأثر بالحب والبغض ولاتتبدل لعلاقة النسب والمصاهرة والغنى والفقر والضعف والقوة ، إنما تمضى فى طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع ، لهذا جاءت الآيات المكية تقرر العدل قاعدة للعلاقات الإسلامية يقول الله تعالى :

(إِنَّ اللهَ يأْمُر بالعَدْلِ والاحْسَانِ وإِيتَاء ذِى القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاء والمُنْكَر والبَغْى يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون[3]) ..

---

(١) أول سورة المطففين .

(٢) الآية رقم : ٧٢ من سورة الفرقان .

(٣) الآية رقم : ٩٠ من سورة النحل .

وهذا العدل الذى يدعو إليه القرآن فى العهد المكى متفق مع عالمية الإسلام نفسه ، فقد جاء القرآن الكريم لينشئ أمة وسطا وقيما ربانية وموازين ثابتة للانسانية كلها (إنسانية واحدة) بعيدا عن التعصب لقبيلة أو أمة أو جنس ، إنما هى آصرة واحدة ورابطة فريدة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يجتمع عليها الأسود ، والأبيض والأحمر والأصفر من أجل تحقيق العبودية الكاملة نحو الله رب العالمين[1] ..

ومن ثم كان الأمر بالعدل هو الأساس الذى ضمن به الإسلام منذ العهد المكى سلامة الآصرة التى تحقق للناس جميعاً انتظام العلاقات على أساس متين (وإذا قلتم فاعدلوا) ..

ويهتم الإسلام بالإحسان ففيه تلطيف من صرامة العدل الجازم مالم تنتهك محارم الله وهو باب مفتوح لقاعدة الايثار والود (وان تعفوا أقرب للتقوى) (ولا تنسوا الفضل بينكم) فى الإحسان مجال للتسامح فى بعض الحقوق وتشريع لمستوى خاص من الأخلاق للذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وهو تشريع لمن شاء أن يأخذ بالرحمة ، وهو أسلوب فى التعايش والأخذ والعطاء ، وتبادل المنافع والحقوق والواجبات ، ثم هو عنصر التكافل الإجتماعى وآصرة لإيتاء ذى القربى والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ..

وقد كان الوفاء بالعهد منذ العهد المكى قبل أن تولد الدولة الإسلامية وتعقد مع جيرانها معاهدات والتزامات كان خلقية يسأل

---

(١) هذا الدين ص : ٧٦ ، ٧٨ .

عنه الفرد المسلم وقد عنى به القرآن الكريم أيما عناية يقول الله تعالى :

(وأَوْفُوا بِعهْد الله إذا عَاهدتُم ولا تنقُضُوا الأَيْمَان بَعْدَ توْكيدِها وقَد جعلْتُم اللهَ عَلَيْكُم كفِيلًا إن الله يعْلَمُ ماتفْعلُون[1]) . .

(وَلَاتشْترُوا بِعَهْد اللهِ ثمَناً قَلِيلًا إنمَا عنْد اللهِ هُو خَيْر لَّكُم إن كُنْتُم تعْلمُون[2]) . .

(. . . وأَوْفُوا بِالْعهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً[3]) ..

ويجعل العهد صفة من صفات المفلحين :

(والذين هُم لأَمانَاتِهم وعهْدِهِم رَاعُون[4]) . .

(والَّذين هُم لأَمَاناتهم وعهْدهم رَاعُون[5]) . .

لقد تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود منذ العهد المكى ، فلم يتسمح فيه أبدا ، لأن الوفاء بالعهد قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة وينهدم صرحها .

وبذلك فقد ضمن القرآن المكى للجماعة الإسلامية أسس الحياة الصحيحة وكانت ثمار العهد المكى سواء كانت قواعد كلية كما يقول الكاتبون[6] فى تاريخ التشريع أو كانت أحكاما تنتظر تدرجها على سنة

---

(١) الآية رقم : ٩١ من سورة النحل . .
(٢) الآية رقم : ٩٥ من سورة النحل . .
(٣) من الآية رقم : ٣٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية رقم : ٨ من سورة « المؤمنون » .
(٥) الآية رقم : ٣٢ من سورة المعارج .
(٦) الموافقات للشاطبى ج : ٤ ص : ٢٣٦ تاريخ التشريع الإسلامى للسايس ج : ٣٠ ، ٣١ تاريخ التشريع الاسلامى الخضرى ص : ١٤ ، ١٥ تاريخ الأمم الاسلامية ج : ١ ص : ٨٥ ، ٩٢

المنهاج القرآنى فقد كانت ثمارا مرتبطة بالعقيدة كدستور للتعاشر الإنسانى كله فى كل زمان ومكان . .

ولم تنتقل الدعوة من مكة إلا وقد زرعت فى أرض خصبة مجموعة المبادئ الإسلامية التى تشكل القانون الالهى للإنسان حيث يكون . .

المسئولية والتوبة :

كان العهد المكى عهد بناء للتصور الإسلامى الذى يحدد أبعاد لمعركة التى يخوضها المسلم ليحقق عبوديته لله جل شأنه ومع أن نظام الدولة بعد لم يكتمل له مقومه من مجتمع وحكومة وأرض يقوم عليها المجتمع وحكومته لرعاية هذا النظام الربانى فإن الدعوة الإسلامية فى مكة كانت تعلم المسلمين أبعاد المسئولية وتدربهم على العودة إلى الله دائماً فى كل وقت وحين ، فكانت آيات القرآن المكى دروسا مفيدة فى تربية الجماعة الإسلامية على تحمل المسئولية وهى عنصر أساسى للجهاد فى سبيل الله الذى بدأ بإعلان الصبر وتحمل المشاق فى مواجهة غضبة كاذبة محمومة من المعتدين الجاهلين . .

فى المسئولية :

وحول المسئولية يقول الله تعالى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ولاتَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ولاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم فِيه تَخْتَلِفُونَ[1]) . .

(١) الآية رقم : ١٦٤ من سورة الأنعام .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَة يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بغَيْر عِلْم أَلا سَاء مَايَزِرُونَ[1]) . .

(... ولَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ومَاكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً[2]) .

(ولاتَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً[3]) . .

(وَلاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وان تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَايُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ولَوْكَانَ ذَا قُرِبى ، إِنَّمَا تـنْذِر الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالْغَيْب وأَقَامُوا الصَّلاةَ ومن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتزَكَّى لِنَفْسِه وَإِلَى الله المَصِير[4]) . .

(ولاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور[5]) . .

ولئن كانت هذه الآيات تصور المسئولية فى الدنيا والآخرة ، فإن القرآن يقرر أن مبدأ هذه المسئولية هو مبدأ دينى منذ بعث الله للناس رسلا يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، يقول الله تعالى

(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى . وابرَاهِيم الَّذِى وَفَّى . أَلَّاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَان إِلَّا مَاسَعَى . وأَنَّ سَعْيه سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاء الأَوْفَى[6]) . .

---

(١) الآية رقم : ٢٥ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية رقم : ١٥ من سورة الإسراء .
(٣) الإسراء الآية رقم : ٣٦ من سورة الإسراء .
(٤) الآية رقم : ٧ من سورة الزمر .
(٥) الآية رقم : ١٨ من سورة خاطر
(٦) الآيات من رقم : ٣٦ — ٤١ من سورة النجم .

فهو دين موصول أوله بآخره ثابتة أصوله وقواعده يصدق بعضه بعضا على توالى الرسالات والرسل وتباعد المكان والزمان فهو فى صحف موسى وهو فى ملة ابراهيم قبل موسى هوهو لاتحمل نفس حمل أخرى لاتخفيفا ولاتثقيلا ولاتملك نفس أن تتطوع فتحمل عن غيرها شيئا من أثقالها :

(كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ[1]) .

فلا مفر فإنما هو الحساب والجزاء والتذكير لمن ينسى ؛ سوف يذكر بما قدم وأخر ، وسوف لايقبل منه اعتذار فقد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ، فعلى كل فرد أن يهدى نفسه إلى الخير ويقودها إلى النجاة . .

التوبة :

ومع هذه الصرامة فى إدراك مدى المسئولية فى الدنيا والآخرة فإن الله وهو البر الرحيم يفتح أبواب التوبة لمن أناب إليه إن عائدا من ذنب أو راغبا فى تقرب يقول الله تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[2]) . .

---

(١) الآيات من رقم : ١١ — ١٥ من سورة القيامة .

(٢) الآية رقم : ٥٤ من سورة الأنعام .

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [١]) . .

(وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ [٢]) . .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [٣]) . .

(إِلَّا مَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَايُظْلَمُونَ شَيْئاً [٤]) . .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [٥]) . .

(إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً [٦]) . .

(فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ [٧])

---

(١) الآية رقم : ١٥٣ من سورة الأعراف .

(٢) الآية رقم : ٣ من سورة هود .

(٣) الآية رقم : ١١٩ من سورة النحل .

(٤) الآية رقم : ٦٠ من سورة مريم .

(٥) الآية رقم : ٨٢ من سورة طه .

(٦) الآيتان : ٧٠ ، ٧١ من سورة الفرقان .

(٧) الآية رقم : ٦٧ من سورة القصص .

(وهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ ويَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ويَعْلَمُ مَاتَفْعَلُون [١]) ..

وتقرر الآيات فى سورة هود أن التوبة مبدأ دينى رحم الله به عباده وبلغته رسله وأنبياؤه إلى الناس يقول الله تعالى :

(ويَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيزِدْكُم قُوَّةً إلى قُوَّتِكُم ولاتَتَوَلَّوْا مُجْرِمين [٢]) ..

هكذا قال هود لقومه عاد ..

وقال صالح لقومه ثمود :

(... يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمرَكُم فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِليْه إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ [٣]) ..

وقال شعيب لقومه مدين :

(واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ [٤]) ..

هذه التوبة من الذنوب قررها الوحى كمبدإ وبلغها الأنبياء كما قررت ذلك آيات سورة هود ، وكان سيدنا نوح قد علم قومه ذلك من قبل ، يقول الله تعالى :

(فَقُلْتُ اسْتغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّه كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارا . ويُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِين ويَجْعَل لَّكم جَنَّاتٍ ويَجْعَل لَّكم أَنْهَارا [٥])

---

(١) الآية رقم : ٢٥ من سورة الشعراء .

(٢) الآية رقم . ٥٢ من سورة هود .

(٣) من الآية رقم : ٦١ من سورة هود .

(٤) الآية رقم : ٩٠ من سورة هود .

(٥) الآيات من رقم : ١٠ — ١٢ من سورة نوح .

ومع هذا فإن التوبة ليست من الذنب فقط ، فقد تكون طاعة لله وتعبدا لجلاله توحي بذلك الآية الكريمة فى سورة المزمل :

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ[1]) . .

فالتوبة هنا لمسة التخفيف الندية تمسح على التعب والمشقة بالحنان والرأفة ، وهى دعوة التيسير الالهى على النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين معه وقد علم الله منهم خلوصهم لطاعته فهى توبة لا عن ذنب بل عن طاعة ، صبروا عليها حتى انتفخت أقدامهم من القيام الطويل بالليل فعطف ربهم عليهم وخفف عنهم وهو وحده الذى يقدر الليل والنهار فيطيل ويقصر فى أحدهما والمؤمنون مع هذا ماضون على ماهم عليه من قيام الليل نصفه أو ثلثه وربهم لا يريد بهم العنت ولا المشقة[2] فتاب عليهم بعد أن تزودوا بالطاعة وتدربوا على المشقة فى عبادته مع الحب فيها والرغبة إلى التقرب من جلاله ؛ فكانت التوبة هنا فى هذا الفجر الصادق من العام الأول لحياة الدعوة إيحاء بأن التوبة طاعة ورحمة وحنان وأنس من الله لبعض أوليائه المخلصين فى طاعته ، ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . .

---

(١) من الآية رقم : ٢٠ من سورة المزمل .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ٢٩ ص : ١٧٧ ، ١٦٨ .

هكذا يقدم العهد المكى مجموعة من المبادىء والنظم والأحكام والأخلاق التى تهيىءُ الجماعة الإسلاميةْ لحمل رسالة الله وقد قدمت بسلوكها دليلا عمليا فى الفكر والتطبيق على أن دين الله هو قانونه الذى ارتضاه للبشر ليؤدوا رسالتهم نحو ربهم كما تؤدى وحدات الكون كله رسالتها حسبما شرع الله لها من قوانين

وموجز ماأثمرت الدعوة الإسلامية فى مكه من غايات على غرار ما سلف بيانه :

أولا : حصر السلطة التشريعية فى الوحى وتفويض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى تبيين مانزل إلى الناس .

وهذا يستدعى إلغاء سلطة البشر فى التحليل والتحريم ورفض كل دعوى يدعيها البشر أنهم حللوا أوحرموا بإذن من الله . . افتراء عليه . .

ثانياً : أن العهد المكى امتاز بمجموعة من الأحكام بعضها له صفة الحكم الشرعى الثابت كتحريم ماذبح على النصب ومالم يذكر اسم الله عليه . .

وبعضها احتاج إلى تفصيل أو اكمال بعض أجزائه حسب نمو الجماعة الإسلامية مثل الصلاة والزكاة والصوم فهى أحكام شرعية واجب على المكلف أن يفعلها غير أن عدد الصلاة فى اليوم والليلة وعدد ركعات كل صلاة يحتاج إلى تفصيل يأتى فيما بعد والزكاة والصوم كذلك هى أحكام واجبة ، غير أن أنواع الزكاة ومقدارها وأيام الصوم الواجبة لما تحدد بعد ، وتلك سنة الله فى تربية الجماعة الإسلامية وبنائها وإعدادها . .

كذلك حرم الزنا ماظهر منه وما بطن ، أما الآثار المترتبة عليه مما يحتاج إلى سلطة حكومية لم توجد بعد فى فترة العهد المكى فقد انتظرت مناسبتها هناك فى المدينة المنورة أما الحكم فهو هو الزنا حرام البتة . .

وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق حكم شرعى ثابت مستقر وبقى مايستتبعه هذا التشريع من آثار عند مايوجد المجتمع الذى يحتاج إلى مايستتبعه هذا الحكم من تفصيل أو عقوبات . .

وحرم الله مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن وهو نفس الحكم الذى فصلته سورة النساء فالحكم بحرمة التصرف فى أموال اليتامى بغير حق ثابت والتصرف فيها بالحق قررته سورة النساء :

(وابْتَلُوا اليَتَامَى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فإنْ آنَسْتُم مِّنهُم رُشْداً فَادْفَعُوا إلَيْهِمْ أمْوَالَهُم ولاَ تَأْكُلُوهآ إسْرَافًا وَبِدارًا أن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إلَيْهِم أمْوَالَهُم فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِم وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً [1]) .

وهذا شرح وتفصيل لقوله تعالى فى سورة الإسراء : (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيم إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) . .

فالتصرف بالتى هى أحسن مأذون فيه وذلك ماوضحته سورة النساء وحتى يبلغ أشده تبيان للمرحلة التى لاينبغى أن يسلط الولى يده فى التصرف على أموال اليتامى ، وذلك ماقررته الآيات فى العهد المكى .

---

(١) الآية رقم : ٦ من سورة النساء .

والوفاء بالعهد . وإقامة العدل أحكام قررها الإسلام فى العهد المكى واستقرت على ماهى عليه فى العهد المدنى . .

وكذلك رعاية الأسرة والأبناء له مثل هذا المستوى والتفصيل فى سورة النور الذى يتعلق بالعورة ومخالطة الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بالوالدين ...الخ إنما استلزمته الحياة الإسلامية فى المدينة حيث استقرت الأسرة الإسلامية فى كنف الدولة الإسلامية التى قامت واستقرت بعد فتح مكة حيث زال الشرك نهائياً ولم يبق إلا تأمين الحدود على الدولة الشابة ثم الإنطلاق لتبليغ الرسالة إلى الأمم المجاورة . .

والمسئولية التى قررها العهد المكى هى هى كما جاءت فى العهد المدنى وكذلك التوبة بجانبيها : توبة من الذنب . وتوبة للطاعة : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)[1] .

قال الإمام الشاطبى :

المشروعات المكية وهى الأولية كانت فى غالب الأحوال مطلقة غير مقيدة وجارية على ماتقتضيه مجارى العادات عند أرباب العقول وعلى ماتحكمه قضايا مكارم الأخلاق من التلبس من كل ماهو معروف عن كل ماهو منكر فى محاسن العادات فيما سوى ما العقل معزول عن تقريره جملة من حدود الصلاة وما أشبهها فكان أكثر ذلك موكولا إلى أنظار المكلفين فى تلك العبادات ومصروفا إلى اجتهادهم

(١) الآية رقم : ٢٢٢ من سورة البقرة .

ليأخذ كل بمالاق به وما قدر عليه من تلك المحاسن الكليات ، وما استطاع من تلك المكارم فى التوجه بها للواحد المعبود من إقامة الصلوات فرضها ونفلها حسبما بينه الكتاب والسنة ، وإنفاق الأموال فى إعانة المحتاجين ومواساة الفقراء والمساكين من غير تقدير مقرر فى الشريعة ، وصلة الأرحام قربت أوبعدت على حسب ماتستحسنه العقول السليمة فى ذلك الترتيب ومراعاة حقوق الجوار وحقوق الملة الجامعة بين الأقارب والأجانب وإصلاح ذات البين بالنسبة إلى جميع الخلق والدفع بالتى هى أحسن ، وماأشبه ذلك من المشروعات التى لم ينص على تقييدها بعد ، وكذلك الأمر فيما نهى عنه من المنكرات والفواحش على مراتبها فى القبح فإنهم كانوا مثابرين على مجانبتها مثابرتهم على التلبس بالمحاسن ، فكان المسلمون فى تلك الأحيان آخذين فيها بأقصى مجهودهم وعاملين على مقتضاها بغاية موجودهم وهكذا بعد ماهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . .

إلا أن خطة الإسلام اتسعت ودخل الناس فى دين الله أفواجا ر؛ وقعت بينهم مشاحنات فى المعاملات ومطالبات بأقصى ما يحق لهم فى مقطع الحق ، أو عرضت لهم خصوصيات ضرورات تقتضى أحكاما خاصة أو بدت من بعضهم فلتات فى مخالفة المشروعات وارتكاب الممنوعات ، فاحتاجوا عند ذلك إلى حدود تقتضيها العوارض الطارئة ، ومشروعات تكمل لهم تلك المقدمات ، وتقييدات تفصل لهم بين الواجبات والمندوبات والمحرمات والمكروهات ، إذا كان أكثرها جزئيات (يعنى إضافية) لا تستقل بإدراكها العقول السليمة فضلا عن غيرها

فأنزل الله تعالى ما بين لهم كل ما احتاجوا إليه بغاية البيان تارة بالقرآن وتارة بالسنة فتفصلت تلك المجملات المكية وتبينت تلك المحتملات وقيدت تلك المطلقات : ليكون ذلك الباقى المحكم قانوناً مطرداً واصلا مستناً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وليكون ذلك تماما لتلك الكليات المقدمة وبناء على تلك الأصول المحكمة فضلا من الله ونعمة . فالأصول الأولى باقية لم تتبدل ولم تنسخ لأنها فى عامة الأمور كليات ضروريات وما لحق بها وإنما وقع النسخ أو البيان على وجوهه عند الأمور المتنازع فيها من الجزئيات لا الكليات وهذا كله ظاهر لمن نظر فى الأحكام المكية مبينة على الاتصاف من النفس وبذل الجهد فى الامتثال بالنسبة إلى حق الله أو حقوق الآدميين ، وأما الأحكام المدنية فمنزلة فى الغالب على وقائع لم تكن فيما تقدم من بعض المنازعات والمشاحات والرخص والتخفيفات وتقرير العقوبات فى الجزئيات لا الكليات فإن الكليات كانت مقررة محكمة بمكة وما أشبه ذلك مع بقاء الكليات المكية على حالها ولذلك يؤتى بها فى السور المدنية تقريرا وتأكيدا فكملت جملة الشريعة والحمد لله بالأمرين وتمت واسطتها بالطرفين[1] .

هكذا يقرر الشاطبى أن الأحكام فى مكة كانت كلية . فالصلاة حكم شرعى كلى ، والصوم حكم شرعى كلى ، والزكاة حكم شرعى كلى ، بمعنى أنه يحتاج فى المستقبل إلى تفصيل غير أنه يؤخذ على تعبيرات الشاطبى أنه ذكر أن تنفيذ هذه الأحكام كان موكولا إلى اجتهادهم

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى ج : ٤ ص : ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

وهذا لا يتفق مع غاية التشريع فى العهد المكى الذى رفض أن يكون للبشر سلطة تشريعية والأليق أنه كان يقول : ومصروف ذلك إلى طاقتهم ليأخذ كل بما لاق به ، إذ أن هذه الطاقة التى تربى عليها سيدنا أبو بكر وعمر وعثمان قد دربتهم على التبرع السخى فى سبيل الله حتى بعد فرض الزكاة فسيدنا أبو بكر رضى الله عنه تبرع بكل ماله فى غزوة العسرة وعمر تبرع بنصف ماله وعثمان جهز ثلث الجيش[1] فغاية العهد المكى من تشريع الزكاة هى تدريب الطاقة المؤمنة فى نفس الفرد المسلم على مثل هذا التصرف عندما تحل الدولة المسلمة أزمة يجد المسلم طاقته فوق تنفيذ الحكم الشرعى الذى لا يسعفه الدولة أو المجتمع فى ظروف الحرج والضيق والشدة . .

كذلك فإنى لا أوافق على تعبير الإمام الشاطبى : « على حسب ما تستحسنه العقول السليمة فى ذلك الترتيب إذ ليس للعقل فى مجال الشرع استحسان أو استقباح وإنما مجاله التنفيذ والخضوع » .

وهذا هو مراد الإمام الشاطبى : أن الأحكام التى شرعت مطلقة فى العهد المكى ترك تنفيذها لدى الجهد لفرد المسلم وخضوع عقله للنص الشرعى وهذا ما شرحه بعد إذ يقول :

« وإذا نظرت إلى أوصاف النبى – صلى الله عليه وسلم – وأفعاله تبين لك فرق القسمين وبين ما بين المنزلتين وكذلك ما يؤثر من شيم الصحابة وانصافهم بمقتضى تلك الأصول وعلى هذا القسم

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (رضا) ص : ٣٣٦ ، ٣٣٧ وراجع عبارة الدرر ص : ٢٥٣ راجع الكامل فى التاريخ لابن الاثير ج : ٢ ص : ٢٧٧ .

عول من شهر من أهل التصوف وبذلك سادوا غيرهم عمن لم يبلغ مبالغهم فى الاتصاف بأوصاف الرسول وأصحابه ، وأما غيرهم ممن حاز من الدنيا نصيباً فافتقر إلى النظر فى هذه الجزئيات ، والوقائع الدائرة بين الناس فى المعاملات والمناكحات فأجروها . بالأصول الأولى على حسب ما استطاعوا وأجروها بالفروع الثوانى حين اضطروا إلى ذلك فعاملوا ربهم فى الجميع ولا يقدر على ذلك إلا الموفق الفذ[1] » .

ويمضى الإمام الشاطبى فى بيان استمساك الصحابة بتنفيذ هذه المبادىء الكلية كأحكام شرعية مقررة فيقول :

« كان المسلمون قبل الهجرة آخذين بمقتضى التنزيل المكى على ما أداهم إليه احتياطهم فسبقوا غاية السبق حتى سمعوا السابقين بإطلاق ، ثم لما هاجروا إلى المدينة ، لم تزحزحهم الرخص المدنيات عن الأخذ بالعزائم الكليات ولا صدهم عن بذل المجهود فى طاعة الله ما منعوا به من الأخذ بحظوظهم وهم منها فى سعة (والله يختص برحمته من يشاء) فعلى تقرير هذا الأصل من أخذ بالأصل الأول واستقام فيه كما استقاموا فطوبى له ومن أخذ بالأصل الثانى فبها ونعمت ، وعلى الأول جرى الصوفية الأول ، وعلى الثانى جرى من عداهم ، ومن هنا يفهم شأن المنقطعين إلى الله فيما امتازوا به من نحلتهم المعروفة . .

فإن الذى يظهر لبادىء الرأى منهم أنهم التزموا أمورا لا توجد عند العامة ، ولا هى مما يلزمهم شرعا فيظن الظن أنهم شددوا على أنفسهم

---

(١) الموافقات ج : ٤ ص : ٢٣٨ .

وتكلفوا ما لم يكلفوا ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة . وحاشا لله ما كانوا ليفعلوا ذلك ، وقد بنوا نحلتهم على اتباع السنة ، وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة . لكن إذا فهمت حالة المسلمين فى التكليف أول الإسلام ونصوص التنزيل المكى الذى لم ينسخ . وتنزيل أعمالهم عليه تبين لك أن تلك الطريق هى التى سلك هؤلاء وباتباعها عنوا على وجه لا يضاد المدنى المفسر فإذا سمعت مثلا أن بعضهم سئل عما يجب من الزكاة فى مائتى درهم فقال : أما على مذهبنا فالكل لله وأما على مذهبكم فخمسة دراهم . وما أشبه ذاك علمت أن هذا يستمد مما تقدم فإن التنزيل المكى أمر فيه بمطلق إنفاق المال فى طاعة الله ولم يبين فيه الواجب من غيره[1] . .

أقول على هامش الموضوع ومن هنا كانت دعوة أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ومن هنا تأثر أبو ذر بالعهد المكى فقال بوجوب إنفاق الفائض فى سبيل الله ، وليس دون ذلك مؤثر أو دافع له على دعوته . .

هكذا شاء الله جل شأنه أن تكون أغلب الأحكام الشرعية فى هذا الطور المكى كلية عامة لتربى الجماعة الإسلامية على أبعد مدى يفهم من الحكم الكلى ، ولتدخر هذه الطاقة التى دربوا عليها لمستقبل الأمة يوم نحتاج إلى ذلك . .

وبهذا يسبق الإسلام جميع نظريات علم الاجتماع والقانون البشرى التى تتحدث عن السلطة فى المجتمع فلم يشاء الله تعالى أن ينزل التشريع الإسلامى مفصلا ، ليختزنه المسلمون حتى يطبق مرة واحدة بمجرد النقلة

---

(١) الموافقات ج : ٤ ص : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

إلى المدينة وقيام الدولة الإسلامية فى طابة فإن هذا المسلك ليس منهاجا للقرآن ولا للإسلام فإن الإسلام لا يفترض المشكلات افتراضاً ثم يقدم لها الحلول . .

ولكنه يواجه الواقع حين يكون ويهذب الأمة فى المجتمع حين يوجد المجتمع ويتكون من اللبنات الصالحة التى يربيها على الأكمل والأمثل من الخلق والفهم والإدراك والعقيدة الصافية ، وبناء المجتمع الإسلامى لايقوم بصيحة أو بتكوين سياسى إنما يقوم صرحه على العقيدة والأخلاق فمتى استقرت لا إله إلا الله محمد رسول الله فى الأعماق الغائرة استقر بها فى نفس المؤمن النظام الذى تتمثل فيه هذه العقيدة وتغذيه بنظامها الذى ترتضيه النفوس وتستلم له حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلات هذا النظام ، فالمطلوب أولا هو الاستسلام لله ، وبمقتضى هذا الاستسلام بالرضى والقبول والإنشراح لاتجد صدور المسلمين حرجا فيما فرض الله عليهم بعد ذلك ، ولا تتلكأ الجماعة الإسلامية فى تنفيذ ما حلل لها أوحرم عليها فيما بعد . .

وهكذا نجح الإسلام فى العهد المكى بخلق هذا الاستسلام يغرس لا إله إلا الله محمد رسول الله كأساس للحياة يتقبل معه المسلمون كل مايشرعه الله من حلال أوحرام . .

وهكذا كان هذا العهد المكى عاملا مساعدا فى بناء المجتمع الإسلامى فيما بعد بالمدينة . ونجاحه فى إلغاء الخمر والربا والميسر والرق والتقاليد الجاهلية كلها ، دون مضاعفات تهز المجتمع أو ثورات تشوشر على التشريع أو تكره الناس فى القانون نفسه . .

لقد نجح الإسلام فى المدينة فى محاربة هذه الأمراض دون كثير من الجهد والسلطة والاعلام كما تفعل الحكومات الأرضية الحديثة ذلك لأن ثلاثة عشر عاما كانت تجاهد فيها الدعوة الإسلامية لخلق إيمان فى صدور الجماعة الإسلامية يملك على المسلمين كل شىء فى صدورهم وجوارحهم ويستسلمون لله رب العالمين . وهم راغبون إلى الله مؤتنسون برضوانه : وقد تدربوا على سمو كامل من الخلق والأحكام التى تقبلوها بكلياتها فربت فيهم الطاعة إلى غير ماحد مادام ذلك يرضى الله ورسوله وجماعة المسلمين . .

ومن هنا فان الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ينبغى أن ترجع إلى هذا المنهج حيث تعمل على إيجاد (لا إله إلا الله) فى الصدور كتنور يجذب الوجدان والأعضاء إلى خضوع كامل للسلطان الإلهى ، ورغبة جياشة فى الخضوع لتشريع الله وحده وانكار كل سلطان بشرى ونظام أرضى يريد أن يفتن الناس عن هذا الصراط المستقيم . .

إن القلوب يجب أن تخلص لله أولا وتعلن عبوديتها لجلاله وحده وتقبل عن حب ورغبة فى قبولها شرعه على مايريده ويشاؤه وترفض أى شرع آخر غيره من ناحية المبدإ والموضوع والغاية : فاذا ما اكتمل لهذا التصور أبعاده فى القلب والسلوك قامت الجماعة الإسلامية[1] التى تخاطب بتفصيلات ذلك الشرع لتنفذه برغبتها المنبثقة من إخلاصها فى العبودية لله وحده ، والتحرر من ربقة السلطان البشرى ، وذلك ماينبغى أن تتوجه إليه الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث لاسيما فى

---

(١) راجع حول هذا فى ظلال القرآن ج : ٧ ص : ٨٥ — ٩٣ .

جنوب شرق آسيا حيث توجد مع النعرة الإسلامية الدائبة فى الصباح جحافل الأصنام التى تعبد من دون الله ، دون أن تسمع ـ صيحة واحدة (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وكسروا الأصنام واعبدوا الله ربكم وحده لاشريك له . .

إنها صيحات خرساء مشوبة بعواطف ممزوجة بكثير من الطيش ، (نريد دولة إسلامية) والأكثرية هنا بوذية رسمية يحميها القانون والمجتمع الذى يعبدها من دون الله . .

ما أحوج الأمة الإسلامية إلى العودة إلى هذا المنهاج حتى تستعيد من جديد ذاتيتها : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله[1])

وليت شعرى لو أنصف المتحمسون للدعوة الإسلامية هنا فى جنوب شرق آسيا ، فأخذوا أنفسهم بعهد مكة الجليل فكسروا الأصنام ، وربوا جماعة الإيثار ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم وصبروا حتى تعلو كلمة الله ،وتنظف الشوارع والحدائق والبساتين والحقول من قصور الأصنام ، ويسمع الوجود كله نداءً خاشعا تستجيب له القلوب والعقول . .

إنه لا إله إلا أنا فاعبدون ، فذلك أنفع للإسلام من الخبط السياسى المشبوه .

(جـ) بدء التدرج فى أحكام تتعلق بنظام المجتمع الإسلامى مستقبلا : على طبيعة المنهاج القرآنى فى التربية والبناء حيث يأخذ النفوس

---

(١) رواه الشيخان راجع اللؤلؤ والمرجان ج : ١ ص : ٥ كتاب الإيمان .

بالهوينى ، ويربت عليها بالحنان ، ويقودها إلى السعادة فى رفق يخطو بها واحدة واحدة ، ويسير معها رويدا رويدا لايفاجئها ولايكرهها ، ولكنه يمهد ويقدم ويخطو ثم يعلو بها قليلا قليلا حتى تكتمل الدوحة ، ويزهر البستان ، وينتج الثمر المبارك ، وتؤتى الحديقة أكلها بإذن ربها ، تلك هى طبيعة المنهاج القرآنى فى البناء والتأسيس وتبليغ الدعوة وبناء الجماعة ، وقد شاء الله تعالى أن يمهد للتشريع منذ العهد المكى . يمهد للتشريع الذى يعالج قضايا المجتمع فان معنى الدخول فى الإسلام هو قبول التقاليد والعادات الإسلامية التى سيبدل الله بها تقاليد وعادات الصناعة البشرية التى قامت على تصورات ليس لله فيها نصيب . .

والدخول فى الإسلام هو دخول فى نظامه ورضا بكل ما جاء به وقبول لكل ما ينهى عنه وفى المستقبل سوف يقوم مجتمع ربانى تبنى لبناته فى مكة ، وسوف يحتاج هذا المجتمع إلى تغيير فى التقاليد الموروثة عن الجاهلية التى زعمت أن لها حقا فى التشريع للأخلاق والعبادة ، وكان من أمس ما يحتاجه المجتمع مستقبلا القضاء على ثلاثة أمراض اجتماعية وهى :

الخمر ، والربا ، والرق . .

وكان لا بد للجماعة الإسلامية فى مكة أن تتهيأ منذ حياتها الأولى هى قوية التمسك بالعقيدة ، وهى شديدة التمسك بشهادة التوحيد وهى عزيزة قوية فى صبرها على مجابهة المبغضين للربانية التى حققوها بالخضوع للمنهاج الإسلامى ، كان لا بد وأن تعطى صورة ما عن

مستقبل هذه الأمراض الثلاثة فجاءت الآيات القرآنية فى مكة تمهد لذلك وتهيء العقول لخطوات تترى فيما بعد . .

الخمـر :

أما فيما يتعلق بالخمر يقول الله تعالى :

(ومن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[1]) . .

فيلقى ظلالا ذات معنى رفيع على الثمرات المنبثقة عن الحياة التى وهبها الله بالماء الذى أنزله من السماء ، ثم يتخذ الناس منه سكرا ورزقاً حسناً فيلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليس لها نصيب من الاتصاف بالرزق الحسن ، والعربى يفهم أن فى المعاريض مندوحة عن التصريح فيلحظ من خلال تفيؤ ظلال هذا المعنى أن هذه توطئة لحكم سيأتى ، ويرشح لهذه التوطئة لفظ (تتخذون) فالسكر من الثمرات الطيبات فيه تدخل إرادة الإنسان وهو مشاهد معروف ؛ وعجز الآية (لقوم يعقلون) مرشح ثان يفيد أن هذه التوطئة للحكم القادم إنما يلحظها ويدركها العاقلون الذين يدركون أن الله الذى صنع لهم هذا الرزق ووهبهم أسباب الحياة هو الذى يستحق العبودية لجلاله وحده[2] .

يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

ذلك أن القرآن فى معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف والمفاجأة بل يتلطف فى السير على مراحل مترتبة متصاعدة . .

---

(١) الآية رقم : ٦٧ من سورة النحل .

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج : ١٤ ص : ٧٨ .

كلنا نعرف ما كان منه فى شأن الخمر ، وأنه لم يبطله بجرة قلم بل لم يحرمه تحريماً كليا إلا فى المرحلة الرابعة من الوحى ، أما المرحلة الأولى التى نزلت فى مكة فإنها رسمت الوجهة التى سيسير فيها التشريع ، وأما المراحل الثلاث (التى نزلت بالمدينة) فكانت أشبه بسلم أولى درجاته بيان لآثار الخمر ، وأن إثمه أكبر من نفعه . . . الخ[1] . .

والعقلية الإسلامية وهى فى حرارة العقيدة تتحمس لقانون الله تدرك أن السكر فى أقل درجاته لا يستحق أن يوصف بالرزق الحسن إنه إنتاج صناعة بشرية تدخلت فيه إرادة البشر فمنعته من هذا الوصف الجميل وقد أنشأ الإسلام مزاجا ومذاقاً خاصاً عند الجماعة الإسلامية فى مكة جعلها تتأفف من كل شىء لا يذكر اسم الله عليه : فهى عندما تسمع هذه المقابلة قد يتهيج مزاجها فتأفف من السكر لأنه ليس رزقاً حسناً ، وتبقى المسألة هكذا فى الحسن والتذوق والمزاج حتى تثرى بعد ذلك الخطوات التالية فى العهد المدنى الحازم . .

الربا :

كان من عادة الجاهلية تنمية أموالهم عن طريق الربا وهذا الربا به نوعان[2] : ربا البيع ، وربا الهدية . . فكان بعضهم يهدى جزءًا من ماله إلى الأغنياء الأثرياء طمعاً فى أن ترد له الهدية مضاعفة ، نوع من أساليب تنمية المال فى الجاهلية ولفظ الربا عام يشمل أنواعه كلها وهو عمل ممقوت أخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا لأنه يجعل الحياة جيفة

---

(١) راجع رسالة الربا فى نظر القانون الاسلامى ج : ١ الأزهر ١٩٥١ م .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ح : ٣ ص : ٤٣٤ .

يتقاسمها المتصارعان عليها من أرباب الملكية وعمال الصناعة أو من الغنى المرابى والفقير المضطر ، إنه نظام عقيم لا يلد ، وهو نظام لا يحترم أخوة ولا عطفاً ولا إنسانية ، فهو نظام فاسد من كل وجه قل أو كثر ، إنه عقيم ردىء لا بركة فيه ولا خير . .

ومنذ العهد المكى والقرآن يحاول بطريقته الهادئة الرقيقة أن يحس الناس بأن طريق الربا طريق فاشل غير مرغوب فيه دينيا من الله سبحانه وتعالى ، كأسلوب تتعامل به الجماعة الإسلامية وجاءت آية الروم تنفى فى صراحة أن الربا مرضى عنه من الله تعالى ، يقول الله تعالى :

(وَمَا آتَيْتُم مِّن رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ الناس فلا يَرْبُو عِندَ اللهِ ، وما آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُون [1]) . .

فنفت الآية الكريمة أسلوب التعامل الربوى كنظام لتنمية المال ووضعت بديلا مباركا هو الزكاة فإن العقيدة التى ما زالت حارة فى نفوس القوم تحملهم على إدراك أبعاد (وجه الله) إنه غايتهم القصوى وأمنيتهم العزيزة ورجاؤهم الفريد وما دامت الزكاة هى التى ستقربهم من غايتهم وأملهم ورجائهم فكم تكون فرحتهم وكم يكون تسارعهم إلى الامتثال ؟ . .

وكذلك كم يكون بغضهم للربا وكرههم للمرابين ؟ . .

وبذلك تتهيأ النفوس المؤمنة الصادقة لاستقبال خطوات الحكم الحازم الأخير فى الربا وهى مستسلمة راضية قريرة العين مطمئنة الفؤاد ، قوية الاعتقاد والثقة والطمأنينة بالله العلى العظيم . .

---

(١) الآية رقم : ٣٩ من سورة الروم .

الرق :

(فلا اقْتَحَم الْعَقَبَةَ . وما أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةَ . فَكُّ رَقَبَة[1]) . .

لقد كان الرق عاما فى الجزيرة العربية وفى العالم كله وحياة الأرقاء كانت تعانى من قسوة الأسياد الجبابرة ، والدعوة الإسلامية دعوة أعلنت تكريم الإنسان (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم فى البِرِّ والْبَحْر وَرَزَقْنَاهُم مِن الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقْنَا تفْضِيلاً[2]) . .

ولكن الرق مشكلة عالمية إنه مشكلة اجتماعية ومشكلة أخلاقية كذلك وسوف يلغيه الإسلام فى المستقبل ، سوف لا يسمح به الإسلام فى دولته ومجتمعه القادم فأعلن منذ العهد المكى أن العقبة التى تحول بين المؤمن والجنة هى فك الرقبة . .

وقد سبق سيدنا أبو بكر إلى اقتحام هذه العقبة فاعتق الذين أسلموا من موالى الطغاة . .

لقد كان رضى الله عنه الأول دائماً فى اقتحام العقبات . ولقد كانت الملابسات الحاضرة فى البيئة تجعل من هذا العمل قاعدة لوثبات اقتحام العقبة فى سبيل الله .

أما الأحكام المتعلقة بالعتق والآثار المترتبة عليه وروافد القضاء عليه والتخلص منه فتلك مكملات سوف يتعهد بها العهد المدنى ويومها لن يجد المسلمون خصاصة ولا حرجاً ولا ضيقاً به انهم سوف يتسابقون على اقتحام العقبة وفك الرقبة حسبة وابتغاء وجه الله الكريم .

---

(١) الآيات من رقم : ١١ — ١٣ من سورة البلد .

(٢) الآية رقم : ٧٠ من سورة الإسراء .

ثانيا : فى الجماعة الاسلامية

بدأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى تكوين الجماعة الإسلامية بمكة لتكون النواة والأساس والركيزة للمجتمع الإسلامى فى المستقبل ، وحين بدأ الرسول الأمين الخاتم عليه الصلاة والسلام تربية هذه الجماعة كان يعلم أن مدى رسالته وهدفها هو القضاء على الجاهلية فى كل اتجاهاتها وفى كل أمكنتها وأزمنتها ومن ثم فقد أعد هذه الجماعة على مفهوم عالمية هذا الدين لقد رباهم بالقرآن الكريم على وحدة الدين ووحدة الرسالة ووحدة المؤمنين فى كل زمان ومكان :

(شَرَعَ لَكُم مِّن الدِّين ما وصَّى به نوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إبراهيمَ وَموسَى وعيسَى أن أَقِيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه كَبُرَ عَلى الْمشركِينَ ما تدْعوهم إِلَيْهِ الله يَجْتَبى إِلَيْهِ منْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ من ينِيب[1] . .)

وكانت التربية على هذه الوحدة من العمق والاستجابة بحيث كانت الجماعة الإسلامية تحس بالحب لجميع أهل الكتاب :

(غُلِبَتَ الرُّوم فى أَدْنَى الأَرْضِ وهم مِّن بَعْدِ غَلَبِهم سَيغْلِبُون . فى بِضْعِ سِنِين لِلهِ الأَمْرَ مِنْ قَبْل ومن بَعْد ويومَئِذٍ يَفْرَح الْمؤمِنونَ . بنَصْر اللهِ يَنْصُرُ من يَشَاءُ وهو الْعَزِيزُ الرَّحِيم[2]) .

---

(١) الآية رقم : ١٣ من سورة الشورى .

(٢) الآيات من رقم : ٢ — ٥ من سورة الروم .

وبهذه العالمية قضى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على العصبية الجاهلية فى نفوس المؤمنين وجعل آصرة العلاقة ورباط الود (لا إله إلا الله محمد رسول الله) مهما اختلفت اللغات والأوطان والجنسيات ..

وهذه التربية على مفهوم العالمية للجماعة الإسلامية هى الأساس الأصيل الذى تقوم عليه دعامة المجتمع الإسلامى فى المستقبل ، حيث بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - للأبيض والأسود والأحمر والأصفر والناس كافة لقد بعث محمد - صلى الله عليه وسلمَ - ليحى كرامة الإنسان . .

ولقد كانت التربية على عالمية مفهوم الدعوة أساسها أن المجتمع لا يقوم على قاعدة واحدة وهى : قاعدة العبودية لله وحده فى كل أموره وشئونه . .

وهذه العبودية تتمثل فى التصور الاعتقادى وفى الشعائر التعبدية وفى التشريع والقانون . .

وقد قرر الوحى الأمين أن التصور الاعتقادى :

(. . . إِنَّمَا إِلَٰهُكُم إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . . [1]) . .

(وقال اللهُ :

لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ [2]) . .

---

(١) من الآية رقم : ١٠٨ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة النحل .

وليس عبد الله ألبتة من لم يجعل حياته كلها لله وحده :

(قُل إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِين ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبذَلِكَ أُمِرْت وأنا أول الْمُسْلِمين [١]) . .

(اتَّبعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُم ولا تَتَّبِعُوا من دُونِه أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تذَكَّرُون [٢]) . .

ولا تصح العبودية مطلقاً ما دام الفرد يتلقى القوانين التي تنظم حياته من غير القرآن الكريم .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّن الدِّين ما لَم يَأْذَن بِهِ الله ... [٣])

هذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ولكن المجتمع الإسلامي لا يقوم على هذه القاعدة في يوم وليلة أو بصيحة وحماسة ، بل لا بد من نواة وجماعة من الناس تنشأ ولو صغيرة ، تنشأ محققة هذه القاعدة فتقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله . .

إنها لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادة والشعائر ، ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع ، ثم تأخذ في تنظيم حياتها عملياً على أساس هذه العبودية الخالصة لوجه الله ، فتنقي قلبها من الاعتقاد الزائف ، وتنقي

---

(١) الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية رقم : ٣ من سورة الأعراف .

(٣) من الآية رقم : ٢١ من سورة الشورى .

شعائرها من التوجه لغير جناب الله الأجل ، وتنقى شرائعها من الخضوع لما سوى الله عندئذ تكون النواة قد صلحت ليبنى بها المجتمع الإسلامى .

ولهذا كانت مهمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مركزة حول بناء هذه الجماعة فآخى بين أفرادها منذ العمل المكى على المواساة وإقامة الحق والعبودية لله الأحد[١] . .

وقد أرسى القرآن الكريم قواعد هذه العبودية فعمق فى شعور الرعيل الأول أن كل شىء فى الوجود مرتبط بمشيئة الله وتحت سلطانه وتصرفه وقدرته :

(إنما أمره إذَا أَرَادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون [٢]) . .

وإن الله وحده هو الذى يهب الرزق والعمر والولد .

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيم[٣]) . .

(. . . يهب لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ .

أو يُزَوِّجُهُم ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ من يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[٤]) . .

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون [٥]) .

---

(١) المحبر ص : ٧٠ .

(٢) الآية رقم : ٨٢ من سورة يس .

(٣) الآية رقم : ١٢ من سورة الشورى .

(٤) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

(٥) من الآية رقم : ٣٤ من سورة الأعراف و ٦١ من سورة النحل .

وقد بسط الله لهذه الجماعة فى الفهم والذكاء ونورانية القلب والمشاعر مما جعلهم يفهمون حقيقة الدنيا حتى ولو كانت فى أوج عظمتها وكبريائها ، فإنها متاع الغرور وهى ظل زائل وعرض تافه قصير العمر خفيف الوزن معدوم المعنى . .

(إنمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ الناسُ والأَنْعَامُ حتى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَتَفَكَّرُون[1]) . .

فبات فى ضمير الجماعة وفى عقلها أن هذه الحياة الدنيا لا أمن فيها ولا اطمئنان إليها ولا ثبات ولا استقرار على وجهها ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً .

هذه هى الحياة الدنيا وفى الصفحة الباقية الخالدة :

(واللهُ يَدْعُو إلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِى من يَشَاءُ إلَى صِرَاط مُسْتَقِيمٍ[2])..

فيالبعد الشقة بين دار تطمس فى لحظة مثل طرفة عين ودار للسلام باقية خالدة يهدى إليها الله من يشاء من عباده المخلصين . .

وبهذا فقد نقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصيرة ومشاعر وعقلية نواة المجتمع الإسلامى من كل غرض دنيوى ، لقد طهرهم من

---

(١) الآية رقم : ٢٤ من سورة يونس .

(٢) الآية رقم : ٢٥ من سورة يونس .

فكرة التبعية لغير الله وأكد أن آجالهم وأرزاقهم وأولادهم نعمة من منح الله جل شأنه وأن دار السلام الخالدة تستقبل المخلصين وأن الدنيا عمر هباء وزينتها زخرف براق والمغرور بها فارغ الحجر وصفر اليدين من زاد ينجيه يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومها لله الواحد القهار . .

وكان على هذه الجماعة التى تعد لتكون مصدر ترعرع المجتمع الإسلامى فى المستقبل كان عليها أن تقدم الدليل على هذه العبودية المجردة لله وأنها بدعوتها إلى دار السلام لا تكره ولا تحب إلا فى الله فألزمها القرآن الكريم بالعفو عن ظلم الذين لا يرجون أيام الله . .

يقول الله تعالى :

(قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون . من عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ومن أساء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُون[1]) . .

فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله تسامح المغفرة والعفو وتسامح القوى والاستعلاء وتسامح الارتفاع والترفع عن مهاترات الماجنين المشركين . .

والواقع أن القرآن الكريم هنا يلفت نظر الجماعة الإسلامية إلى أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين ضعاف العقل والبصيرة . ولهذا فهم يستحقون العطف أحياناً لأنهم حرموا من رحيق النبع الفياض

---

(١) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة الجاثية .

الذى يزخر بالنداوة والرحمة والأنس والقوة والعزة والثراء ، نبع الإيمان بالله والطمأنينة إليه والتوكل عليه والاحتماء بركنه الشديد ، واللجوء إلى مدده فى ساعات الضيق والكربة ، ومن جانب آخر فهو توجيه إلى الجماعة الإسلامية لتترك الأمر كله لله يتولى القضاء والفصل فيه ، وبذلك يهون تحمل المساءات والنزوات الحمقاء من المطموسين عن النبع الإيمانى السلسبيل المؤنس . .

وتمضى الجماعة الإسلامية فى غير ما ضيق ولا ثقل وهى تحمل المشعل الهادى وتسير تدعو إلى الله على بصيرة وهى تستعذب هذه الرحلة فى سبيل الله وقد جاءتها النداءات الربانية تملؤها يقيناً وثباتاً . .

(ومن أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِين . ولا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ ولا السيِّئَةُ ادْفَعْ بالتِى هِىَ أَحْسَن فَإِذَا الذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَه عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيم[1]) . .

فتدرك الجماعة الإسلامية أن النهوض بواجب الدعوة إلى الله فى مواجهة الجاهلية التى تعتز بقوميتها وثقافتها وعنصريتها واستكبارها على الحق أمر شاق ولكن شأنه عند الله عظيم ، فما أحسنها من كلمة وما أعظمها من رسالة . .

(ممن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِين) . .

---

(١) الآيات من رقم : ٣٣ — ٣٥ من سورة فصلت . .

فكلمة الدعوة هى أحسن كلمة تقال على وجه الأرض وتصعد إلى الله فى مقدمة الكلم الطيب ولكن شرط ذلك العمل الصالح الذى يصدق الكلمة ويكون لها دليلا ثم استسلامًا تتوارى معه الذات والأمانى حتى تصبح الدعوة وحدها خالصة لله ليس للداعية فيها شئ غير التبليغ ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض أو بسوء الأدب أو بالإنكار فهو إنما يتقدم بالحسنة ويضيء الطريق ويحنوا على المحجوبين المطموسين ، ويعطف عليهم . ويود لهم رحيقاً سلسبيلا يروى ظمأ قلوبهم ، ويجلو صدأ نفوسهم ، ويرجعهم إلى الله . فهو إذن فى المقام الرفيع فلا تستوى حسنته إذن بسيئات العميان ولذا فقد علم القرآن هذه الجماعة ألا ترد على سيئات القوم إلا بحسنات الأبرار . .

وهذه الجماعة الأولى التى تعهدها القرآن الكريم والرسول العظيم بهذه التربية كانت لها سمات وخصائص قيادية تدربت عليها وتعلمتها حتى إذا انتقلت إلى طور آخر من أطوار الجهاد فى تبليغ الدعوة لم تحتج إلى تنظيم فقد كانت مرحلة مكة مرحلة الإعداد والتربية ، وكان من مقدمات هذه الخصائص قوله تعالى :

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يتَوكَّلُون . والَّذِين يَجْتَنِبُون كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ وإِذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون . وَالَّذِينَ إِذَ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) .

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [1]) . .

لقد كانت البشرية فى حاجة إلى قيادة راشدة تنقذ الناس من الجاهلية العمياء التى كانت تخوضها لا سيما بعد أن تفرق الذين أوتوا الكتاب واختلفوا لاعن جهل بما أنزل الله إليهم بل عن معرفة ويقين ، ولكنهما اختلفوا بغيا بينهم وحسدا فضلوا وأضلوا فاحتاجت البشرية إلى قيادة جديدة راشدة ، تأخذ بيدها إلى العروة الوثقى إلى الصراط المستقيم . وتقود ركب الحياة إلى طريق السعادة ورضوان الله ورحمته وكانت الجماعة الإسلامية فى مكة هى القافلة التى أعدت وربيت وجهزت لتحمل هذا الشرف وجاءت هذه الآيات المكية فى سورة الشورى تصور خصائص هذه الجماعة التى ولاها الله سبحانه وتعالى مهمة هذا الإصلاح ، ومع أن هذه الآيات مكية نزلت قبل قيام الدولة لكننا نجد أن مميزات الجماعة هنا تحمل خصائص المجتمع الذى ستبنيه هى : ستبنيه بما لديها من أخلاق ومعرفة وسلوك وتطبيق أبرزت به العبودية الخالصة لله وأعلنت به سمات المجتمع الذى سيولد فى المستقبل إن شاء الله . .

نجد فى هذه الآيات المكية (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) مما يوحى أن وضع الشورى فى حياة الجماعة الإسلامية أعمق من مجرد كونها فكرة سياسية ، فالشورى طابع أساسى للجماعة الإسلامية كلها .

---

(١) الآيات من رقم : ٣٦ — ٤٠ من سورة الشورى .

يقوم عليها أمر المسلمين ، ولا ينبغى لمسلم ولا لجماعة مسلمة أن تخرج على هذا المبدأ ..

فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة أحد نزل على مشورة الشباب المتحمس يوم مناقشة خطة الدفاع عن المدينة ولما لبس لأمة الحرب وأحس الشباب أنهم مارسوا أسلوبا قاسيا فى مناقشة الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا استكرهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلنرد الأمر إليه فلما خرج إليهم متقلدا سيفه ندم الطالبون لخروجه على ماصنعوا وقالوا ما كان ينبغى لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت فقال : عليه الصلاة والسلام ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه [١] ..

يقول الآلوسى عن على كرم الله وجهه قال : قلت يارسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شىء ؟ ، قال : اجمعوا له العابد من أمتى واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأى واحد [٢] ، ومن ثم كانت الجماعة الإسلامية فى مكة تحمل من خصائصها الذاتية مبدأ الشورى كطابع أصيل للجماعة فوق أنه نظام سياسى للدولة فيما بعد . .

ونجد فى هذه الآيات المكية (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُم يَنْتَصِرُونَ) . .

---

(١) محمد رسول الله ، لرضا ، ص : ١٩٢ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ١٥٠ الدرر ص : ١٥٤ .

(٢) روح المعانى ج : ٢٥ ص : ٤٦ .

وقد كانوا فى مكة مأمورين بالصبر فى مواجهة الأذى وكف الله أيديهم عن الظالمين تخليصا لعقيدتهم من الاتهام بالفوضى ، وفرصة للمعاندين أن يثوبوا إلى رشدهم فما يتحمل هؤلاء العذاب وهم قادرون على رد العدوان بمثله إلا لأنهم لا يبتغون من وراء عقيدتهم شيئا إلا تحقيق العبودية لله وحده . ولكن الآية هنا فى مكة تبرز صفة الجماعة الإسلامية بأنهم إذا بغى عليهم ينتصرون ، وفيه يلمح المسلم اليقظ أن انتصار المسلمين فى مكة على بغى الكافرين قد بدأ بالصبر وتحمل الأذى وأن طبيعة الدعوة الإسلامية دائما أن ترد الاعتداء ولا تعتدى أبدا حتى فى العهد المدنى ما كان القتال وهو صورة من صور الجهاد إلا ردا على اعتداء الكافرين : وتثبت القاعدة (ولاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ المُعْتَدِين [1]) . .

فقاعدة الجهاد فى مكة (والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْى هُمْ يَنْتَصِرُونَ) وقاعدة الجهاد فى المدينة (ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ) ..

والجهاد بصورتيه الماضيتين : فى مكة والمدينة أساسه تحقيق العبودية لله من جميع البشر ليس وراء ذلك طمع فى مال أوشرف أوجاه أو سمعة . .

وتقع هاتان الصفتان وسط صفات أساسية حققوها فأصبحوا فى حظيرة العبودية لله واعترفوا بسلطانه الجليل فأطاعوه طاعة عمياء مطلقة ، وأعطوه من أنفسهم القيادة واستسلموا لحكمه وجعلوا أهواءهم

---

(١) من الآية رقم : ١٩٠ من سورة البقرة .

فيما يريده منهم حتى أصبحوا له عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا ما إلا برضاه ، فهم لا يحاربون ولا يصالحون إلا لله وبإذنه ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون إلا من أجله وفى سبيله ولا يصلون ولا يقطعون شيئا إلا إذا وافق أمره ، هذا هو الإيمان الذى تشير إليه الآيات المكية .وتجعله صفة أساسية للجماعة التى رباها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واختارها الله جل شأنه لقيادة البشر . .

فهم : على ربهم يتوكلون . .

فتوكلهم فى كل ضرب من ضروب الحياة مقصور على ربهم الذى اختارهم ورباهم ورضى عنهم ورضوا عنه فهم مستيقنون أن لا أحد فى الوجود يفعل فعلا ما إلا بمشيئته ولا يمكن أن يقع شىء ما فى ملكه إلا إذا أراده :

(ومَا تَشَاءُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ ، إنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيماً[1]) . .

(ومَا تَشَاءُون إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِين[2]) . .

وهذا الشعور ملازم لمعنى لا إله إلا الله ثم هو ضرورى لكل أحد يتصدى للعمل فى الدعوة الإسلامية عليه أن يقف رافع الرأس لا يحنيها إلا فى ركوع أو سجود لله وهو مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا سوى الله . .

---

(١) الآية رقم : ٣٠ من سورة الانسان .

(٢) الآية رقم : ٢٩ من سورة التكوير .

وهم : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ) إنهم أطهار القلب نظفاء السلوك ، وذلك أثر طبيعي للإيمان ؛ وضرورة أساسية من ضروريات القيادة الراشدة . وقد حققت الجماعة الأولى هذه الصفات فارتفعت بالإيمان المرهف فوق كل بريق الحياة حتى بلغت مستواها القيادى وحققت معنى العبودية لله واكتمل لها الإيمان الصافى والتوكل الثابت واجتناب الفواحش وحققت المغفرة عند الغضب والاستجابة لله ؛ وإقامة الصلاة والشورى والانفاق والانتصار والعفو والاصلاح والصبر . .

ومما رزقناهم ينفقون : فالجهاد فى كل مرحلة يحتاج إلى بذل وإنفاق ولا بد منه تطهيرا للقلب من الشح . وتنظيفا له من هواية عده وجمعه واستعلاء على حبه وتملكه وتوكلا على الله وثقة فيما عنده (مَا عِنْدَكُم يَنْفَدُ ومَا عِندَ اللهِ بَاقٍ) . .

وهذه صفة لازمة للجماعة التى ستتولى القيادة الراشدة لتحقيق العبودية .

إن البذل فى سبيل الدعوة له مهمتان :

١ ـ إقامة التكافل الاجتماعى بين أفراد الدعوة . .

٢ ـ تمرين النفس على التخلص من شهوة المال والتوكل على الله والثقة فيما عنده حتى تطهر النفس من كل علائق الدنيا التى تشوب الجهاد أو تعوقه أو تضعف العزم عليه . .

وهكذا تؤسس الجماعة الإسلامية الأولى التى نيط بها الجهاد المقدس لبناء المجتمع ، الإسلامى فى المدينة المنورة . .

لقد تحلت بكل صفات القيادة الراشدة حتى إذا ما تحركت فيما بعد لتحقيق العبودية لله ما كان يمكن أن يتوجه إليها اتهام من عاقل . .

فهى جماعة حققت فى ذاتها الخضوع الأمثل للسلطان الإلهى .

وهى الجماعة التى طهرها الله من كل ذنب وإثم ونقاها من كل سوء وعيب . .

وهى الجماعة التى غفرت سيئات المعتدين . .

وهى الجماعة التى أقامت الصلاة لذكر الله وحده ..

وهى الجماعة التى تدربت على الشورى فى كل أمر يحز بها ، فهى بعيدة عن الغوغائية والثورية والتهريجية . .

وهى الجماعة التى طهرت قلبها من الشح وحب المال وأنفقت ماعندها ابتغاء مرضات الله . .

وهى الجماعة التى إذا أصابها البغى انتصرت بالصبر على جحافل أذى المشركين لأنها وحدها التى تعرف كرامة الإنسانية . .

وهى الجماعة التى غضت بصرها عن سيئات المحجوبين عن نور الحقيقة لأنها تحقق العبودية لله . .

إنها أخلصت حياتها كلها لله : وطهرت قلبها من كل وسوسة تحجبه عن نور الحق ، وارتفعت بإيمانها فوق مغريات المشركين ، واستجابت لله فى نفسها ومالها وكل شئون حياتها . وصبرت على أذى

المعتدين حسبة لله ، وقد كانت تستطيع أن تقاوم وأن ترد الكيل بالكيل والصاع بالصاع . ولكنها خضعت لسلطان ربها ، فهى لم تؤذن بَعْدُ بالقتال كأسلوب للجهاد ، لقد جاهدت مجاهدة شاقة وجابهت قسوة الاعتداء باليقين الثابت ، وحققت لا إله إلا الله منهجا سلوكيا . فأبرزت خصائص هذه الدعوة كما شاءها الله فيهم فأعلنوا بسلوك عملى :

(إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم أَجْرًا كَبِيراً [(١)]) . .

ولكن المجتمع الجاهلى كان لا يريدها وآثر ما كان يعبده آباؤه فصارت المحاولة عسيرة لإيجاد مجتمع إسلامى من عناصر هؤلاء القوم فلم يبق إلا نقلة إلى مجتمع خصب تؤدى فيه الجماعة الإسلامية دورها فى قيادة رشيدة : لتحقيق العبودية لله على وجه الأرض كلها ومن هنا انتظر المسلمون الأوائل مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الإذن لهم بالهجرة إلى وطن [(٢)] جديد ليستعدوا للموقف الفاصل . .

قطعت الدعوة الإسلامية فى مكة عقدا كاملا جاهدت فيه جهادا قاسيا لتعلم الناس وظيفتهم التى خلقوا لها . وأكدت الدعوة فى هذه الحقبة أنها تريد أن يحقق الناس عبوديتهم لله وحده .

عبودية العقيدة والتوحيد . .

---

(١) الآية رقم : ٩ من سورة الإسراء .

(٢) من مراجع هذا البحث الجهاد فى الإسلام ص : ٥٢ ، ٧٨ فى ظلال القرآن ج : ٢٥ ص : ٣٩ — ٥٠ .

عبودية التحليل والتحريم . .

عبودية التقاليد والعادات . .

عبودية القلب والجوارح . .

اعترافا منهم بالجميل للخالق الأعظم الذى بيده مقاليد السموات والأرض وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وتكريما لذواتهم وارتقاء بكرامتهم . .

وأعلنت الدعوة طول هذا العقد من الزمن أنها للناس كافة إنها ربانية ، إنها قانون الله لكل من على الأرض إلى يوم القيامة ، ورفضت الدعوة أن تنضوى تحت لواء قبلى عنصرى قومى . ومع أن القوم كانوا على معرفة بحقيقتها وصدقها وربانيتها ، إلا أنهم جابهوها حسداً وعلواً وظلماً وعتواً وبغياً واستعلاء وما تركوا نوعا ما من أساليب الاضطهاد والتنكيل والتعويق إلا مارسوه . .

لقد مارسوا التعذيب البدنى والأدبى . .

ومارسوا الحصار الاقتصادى . .

وما ازداد الداعية منهم قربا إلا فروا منه فرارا ، ولم يَشَأْ الله جل شأنه أن يشرع الجهاد بالسيف فى هذه الآونة والله أعلم حيث يشرع — ولا يملك عالم أن يجزم بما أراده الله من حكمة فى عدم تشريع القتال للجماعة الإسلامية فى مكة ما دام القرآن الكريم لم يكشف لنا عن أسرار تلك الحكمة . .

والاحتمال الذي يمكن أن يدرك مع الاستغفار من الخوض فى ذكر هذه الاحتمالات أنه :

١ ـ يا ربما كانت الجماعة الإسلامية فى هذه الفترة لو شرع لها القتال لانسابت فى غرائزها الأولى فقامت حرب جاهلية مثل حرب داحس والغبراء . .

ومهمة الدعوة فى هذا العهد المكى تربية قيادة تصبر على مالايصبر عليه عادة من الضيم حتى يخلص المسلم من دوافع ذاته ويتجرد من شخصه فلا تعود ذاته ولا دوافع نفسه هى محور :الحياة فى نظره فإن محور الحياة الجديدة هو العقيدة فلا يندفع ولا يتهيج إلا إذا مست العقيدة ، أما هو فلا يتأثر بشىء كما كانت طبيعته من قبل ؛ ويؤثر هذا فى تكوين الجماعة فيما بعد حيث يتمرن كل فرد على ضبط أعصابه واحترام انتسابه للجماعة فلا يتحرك إلا بعد إذن من القيادة التى يجب أن يرجع إليها فى كل أمر من شئون حياته . .

٢ ـ وربما كان ذلك لأن حرية التحرك للداعية وتبليغ الدعوة مازالت مباحة والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحميه سيوف بنى هاشم ، وتجواله وتحركه إلى الطائف ومواسم الحج ومقابلة الأفراد مازال طليقا وتشريع الحرب فى هذه الآونة يثير فوضى تشوه الدعوة وأهدافها ..

٣ ـ وربما كان للبيت العتيق من الحرمة ما لا يجوز معه تشريع قتال تستباح فيه حرمة الكعبة وتدور رحى الحرب فى كنفها شهورا

وسنوات وقد حبس الله عنها الفيل من قبل ، وما أُحلت لنبى من قبل اللهم إلا ساعة من نهار يوم فتحها . .

٤ ـ وياربما كانت قلة المسلمين يوم ذاك لا تسعف السياسة العسكرية اللهم إلا إذا عاد المسلمون من الحبشة وانضم عدد المسلمين فى البطحاء فينكمش المسلمون فى رقعة وياربما انتهت الجماعة الإسلامية يومها فلم يقم على الأرض للإسلام فيما بعد دولة . .

هذه الاحتمالات التى لا يمكن أن يقطع بها عالم مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله ومقاصد شرعه هى فى نظرى ـ والله أعلم ـ من الأسباب التى جعلت الجماعة الإسلامية فى مكة تكف يدها عن القتال وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتصبر على ما يقدم لها من الأذى ولا تستعجل[1] . .

والدعوة الإسلامية فى هذا العهد المكى كانت قد نجحت فى إعداد قيادات انتشرت فى رحاب الأرض تنتظر يوم اللقاء :

لقد كان النجاشى فى الحبشة وعنده كتيبة من كتائب الله يؤمنون بالإسلام وهى قاعدة أمينة آمنة مستقرة . .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسى وأهله وذووه دعاة لدين الله فى شرقى الجزيرة على شاطىء خليج عمان . .

وكان أبو ذر الغفارى فى غفار (كنانة) مسلما داعيا متحمسا مجاهدًا مجاهرا يقدر على قطع طريق تجارة قريش لو شاء ؟ . .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج : ٩ ص : ١٧٦ ، ١٧٨ الجهاد فى الإسلام ص : ٧٤ .

وكان ضماد من أزد شنوءة يعلن فى قومه مبايعته رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . .

وهناك عمر بن عبسة فى عبس بالشمال . .

وكان الناس فى نجران قد أسلموا وقالوها صريحة : سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين . .

إذن هناك صفحتان متقابلتان متضادتان :

صفحة الوجود الإسلامى فى مكة حيث أفسد الناس صدورهم . .

وصفحة الكواكب المضيئة المنتشرة فى ربوع البلاد[1] تنتظر يوم اللقاء بالقيادات الراشدة . .

وإذن فلا بد من قاعدة ومهجر . .

كان الحال فى مكة قد بلغ غايته فى القسوة والانحراف لقد مات أبو طالب وهو سند كبير للدعوة وماتت السيدة خديجة رضى الله عنها وهى الأنس للداعية ، والممول للعمل الإسلامى ، وأول الناس على الاطلاق تصديقا وإيمانا وإسلاما وكان لموتهما عند المشركين فرحة ، فقد غاب عمودان أساسيان من أعمدة التحرك الإسلامى فزاد القوم فى التنكيل بالداعية وأصحابه وكان حادث الطائف فى قسوته وصفاقته وعمهه ، فأصبحت حياة الدعوة فى مكة كشجرة طيبة فى أرض جدباء وإذن فلا بد من نقلة بعيدة عن هذا الجو ، لا بد من جو خالص من

(١) فى دوس وبنى عبد القيس شرقا ، وفى الحبشة غربا وفى آزد ونجران جنوبا وفى الأوس والخزرج شمالا وفى الوسط غفار واسلم وراجع الخريطة المرفقة . .

الخضوع للإبليسية لا بد من جو صاف هادئ أناسه أبرياء من أمراض أهل مكة عسى أن تقدم الدعوة به دليلا عمليا على اتساقها وانسجامها مع طبيعة البشر كأصل أصيل لسعادة الناس فى الدنيا والآخرة ..

ولهذا جاءت آيات مكية ترشح لهذه النقلة إذ يأذن الله لرسوله الكريم يقول الله تعالى :

١ ـ (... فَإِنْ يَكْفُر بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِين[1]) . .

يعنى المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة[2] . .

قال الآلوسى : والمراد بهم على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وعبد بن حميد عن سعد بن المسيب : أهل المدينة من الأنصار[3] وفى الطبرى عن ابن عباس :

(فإن يكفر بها هؤلاء) يعنى أهل مكة ، يقول : إن يكفروا بالقرآن (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) : يعنى أهل المدينة والأنصار[4] . .

٢ ـ (يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إن أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون[5]) .

قال ابن كثير : هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة

---

(١) من الآية رقم : ٨٩ من سورة الأنعام .
(٢) تفسير ابن كثير ج : ٢ ص : ١٥٥ .
(٣) تفسير الطبرى ج : ٧ ص : ٢١٦ .
(٤) تفسير الطبرى ج : ٧ ص : ٢٦٤ .
(٥) الآية رقم : ٥٦ من سورة العنكبوت .

حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم وعبارات الآية الكريمة تمسح هاجس الأسى عن نفوس المسلمين فى مفارقة الوطن وحشة ومن هنا تمس ألفاظ الآية الكريمة قلوب الجماعة الإسلامية بهذا النداء الحبيب (ياعبادى الذين آمنوا) ثم تمليها مرة أخرى بهذا الأمل المشرق (إن أرضى واسعة) ومادامت كلها أرض الله فإن أحب بقعة منها إلى نفس المؤمن هى البقعة التى يجد فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه[2] . .

٣ ـ (قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُم لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ[3]) . .

قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . .

قال الطبرى : يقول الله تعالى جل ذكره : وأرض الله فسيحة واسعة فهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام ، ثم روى عن مجاهد قوله : فهاجروا واعتزلوا الأوثان[4] . .

فبات فى ذهن الجماعة الإسلامية أنها بعد اكتمال فترتها التدريبية فى مكة سوف تنتقل إلى أرض واسعة فسيحة تحقق فيها العبودية

---

(١) تفسير ابن كثير ج : ٣ ص : ٤١٩ .
(٢) فى ظلال القرآن ج : ٢١ ص : ١٤ .
(٣) الآية رقم : ١٠ من سورة الزمر .
(٤) تفسير الطبرى ج : ٢٣ ص : ٢٠٣ .

الكاملة لله رب العالمين وإذن فليتجهز القوم إلى نقله سيؤذن لهم بها إن شاء الله . .

وقد اتخذت مرحلة التجهيز إلى هذه النقلة خطوتين رئيسيتين :

الخطوة الأولى : ربانية أعدها الله وجهزها لتصفية الجماعة الإسلامية حتى تتحمل بصدق وإخلاص القيادة الراشدة لبناء المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة وهى الإسراء والمعراج . .

الخطوة الثانية : نبوية من تحرك الداعية نفسه وهى لقاءُ العقبة مع نواة المجتمع الإسلامى من أهل المدينة الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبل يحبون من هاجر إليهم من رحاب البيت العتيق ، ثم لايجدون فى صدورهم حاجة نحو ضيافة كتيبة الله التى صبرت على جهاد مرير زهاء ثلاثة عشر عاما ، ويؤثرون على أنفسهم فى المال والأرض والأهل ، إرضاءً وحسبةً وحبا فى الله العلى العظيم . .

والذى أود أن أذكره بسرعة هنا أن العنصرية التى كانت تشكل الجو الاجتماعى فى مكة من ثلاث مجموعات :

١ ـ مجموعة بنى هاشم وأحلافهم . .

٢ ـ ومجموعة بنى عبد شمس وأحلافهم . .

٣ ـ ومجموعة بنى مخزوم وأحلافهم [1] . .

---

(١) دراسات فى العصر الجاهلى ص : ١٠٠

وقد اندحرت كلها واستطاعت حركة الجهاد الإسلامى بالثبات والصبر على تبليغ مبادىء الدعوة أن تلغى هذه المجموعات وأن تستعلى عليها بعالمية الدعوة الإسلامية وسمو رسالتها[1] فكان من كل مجموعة قيادة ورعيل مسلم مؤمن موحد بالله يحمل مشعل الإسلام وينتظر لحظة الانضمام إلى الكتائب التى تحشد أجنادها وتستعد للموقف الفاصل يوم يهزم الجمع ويولون الدبر .

---

(١) راجع أسماء من هاجروا من بنى مخزوم وغيرهم فى رواية ابن هشام ج : ١ ص : ٤٦٨ وما بعدها ، راجع هذا الدين ص : ٧٨ — ٨٠ .

الفصل الثالث

خاتمة العهد المكى

التجهيز للهجرة

أولا : الاسراء والمعراج

(سُبْحانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]) . .

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى[2]) . .

(. . . ومَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ... [3]) . .

وظيفة الدعوة الأولى هى أن تنشىء نظاما يتبع المنهاج الاسلامى الذى اختاره الله وهذا النظام يحتاج فى انشائه إلى أمة تمثله وتقوم عليه . .

وغاية المنهاج الإسلامى هى عبودية الناس لربهم وحده وهذا يستلزم القضاء على الجاهلية ، والجاهلية فى أى عصر هى عبودية

---

(١) أول سورة الإسراء .

(٢) الآيات من رقم : ١٠ — ١٢ من سورة النجم .

(٣) من الآية رقم : ٦٠ من سورة الإسراء .

الناس للناس ، وأساس العبودية فى كلتا الحالتين هو : الخضوع والتشريع . .

وعبودية الناس جميعا لله وحده تكون بتلقيهم منه وحده العقيدة والشريعة والأخلاق وموازين التعاشر الاجتماعى . . .

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، ولا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ . إِنَّهمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بعضٍ واللهُ وَلِى المُتَّقِينَ[(١)]) . .

والإسلام بهذا المفهوم هو تكريم للانسان وتحرير له من سلطة الإنسان المتجبر ، والدعوة الإسلامية فى مكة قد حوصرت وسد فى وجهها الطريق فكان لابد من بحث عن قاعدة جديدة تنتقل اليها الجماعة التى حققت العبودية لله ، وكان لابد من التاكد من سلامة كل أفراد الجماعة وصلاحيتهم لهذه النقلة التى ستنشئ منهاجا جديدا فى مواجهة أعداء الله حتى تنفذ مراحل الدعوة مستقبلا فى جو مأمون من الاضطراب بعيد عن التهم منزه عن المطاعن ، فكان لابد من اختيار المسلمين عامة فى مكة من أجل انتخاب القيادة الراشدة التى ستنقل مع النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة المنورة ، وكانت مادة الامتحان من نوع غريب يقصد إلى إبراز مدى إيمان الفرد المسلم ومقدار تمسكه بدينه ، لقد كانت غاية هذا الامتحان هى التعرف على مدى استسلام الوجه لله من كل فرد ، واختبار عقله ووجدانه إلى أى مدى يستجيب للنص المعصوم فكان حادث الإسراء والمعراج

---

(١) الآيتان رقم : ١٨ و ١٩ من سورة الجاثية .

هو مادة الامتحان ، وإلى ذلك أشار الامام القشيرى رضى الله عنه فى رسالته بجملة قصيرة قال : فجعل ذلك بالليل امتحانا للخلق[1]

يقول فضيلة مولانا الدكتور عبد الحليم محمود :

ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ ، انفصال ضعاف النفوس والشاكين والمترددين ، انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة . .

لقد كفر - عند سماع النبأ - من كفر بعد إسلامه ، وارتد من ارتد بعد إيمانه وما كان هؤلاء - لو بقوا - إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة ، إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا وصبروا على الحوادث القاسية ، على التعذيب وعلى الآلام وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها . .

إن هؤلاء المكيين الذين صبروا ، وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فاصبحت خالصة لله وحده .إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقديرالله سبحانه وتعالى أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصعدوا لكل مايمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكيين يجب أن يصفوا تصفية كاملة ومن وسائل هذه التصفية اعلان نبأ الاسراء والمعراج لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى عن بصيرة وبينة وعن ايمان لا يتزعزع مهما كانت

---

(١) كتاب المعراج ص : ٧٢

الحوادث ، إيمان بصدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى كل مايأتى به ، يصدقه بمجرد انبائه ، والمثل الأعلى فى كل ذلك إنما هو سيدنا أبو بكر — رضى الله تعالى عنه — حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

لئن كان قاله فلقد صدق ؟ فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الارض فى ساعة من ليل أونهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه[1] . .

لقد كان حادث الاسراء والمعراج محور تمحيص للصادقين فى إيمانهم والسطحيين فى تصورهم لحقيقة الايمان ، فان من صدق بنبوة سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد آمن باتصاله بالوحى ، والقرآن يأتى من عند الله يحمله الوحى ، والنبى — صلى الله عليه وسلم — يتلوه على الناس ويخبرهم بأن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى والذين آمنوا يصدقون ذلك مع أنهم لايرون وحيا ينزل ويصعد ، ولكنهم يرون آثاره على النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو يتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ويسمعون بعد ذلك قرآنا تنجذب إليه نفوسهم وتقشعر له جلودهم وتلين له قلوبهم ، ومقتضى هذا إذن الإيمان بالنبوة وبالوحى وهذا يستلزم الاعتقاد بأن هناك صلة عليا خارقة للعادة بين النبى — صلى الله عليه وسلم — وبين ربه جل وعلا ، وإذن

---

(١) راجع الإسراء والمعراج سلسلة البحوث الإسلامية ص: ١٣٣ ، ١٣٤ الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية سلسلة البحوث الإسلامية ص : ١٢٢ ، ١٢٣ ، راجع تفسير البيضاوى ج : ٤ ص : ٣ .

فلاضير أبدا أن تنقلب صورة اللقاء بالوحى وتتبدل الحركة من عل إلى أسفل فتصيرمن أسفل إلى عل . .

الحركة الأولى يحمل فيها جبريل قرآنا إلى النبى والحركة الثانية جاء ليحمل فيها محمدا صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى . .

فإن كلا من الحركتين فى التصور الايمانى السليم متعادلتان . .

وحركة الوحى مطلقا نزولا أو صعودا من ضمنيات الايمان بالوحى الذى يأتى إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرارا وتكرارا ، وهى من غير شك حركة فوق تصور العقل حتى ولو تقدمتالأ بحاث التكنولوجية لأنه لايمكن للبشر أن يحدد مبدأ حركة الوحى من عل ومبدأ صعوده مرة أخرى ، إن تحديد نقطة تحرك الوحى ذهابا وإيابا فوق جميع المستويات العلمية والعقلية فهى سمعية لاتحتاج إلى دليل . .

والمؤمن الصحيح يتصوركم من بلايين المسافات والأجواء والأجرام قد قطعها سيدنا جبريل عليه السلام فى أقل من لمحة بصر وهو يسعى إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه وحيا من عند الله فاذا ماقيل لهذا المؤمن الصحيح أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صعد فى مثل هذه اللحظة إلى السموات العلا لم يجد فى ذلك غرابة ، وقد قرب

سيدنا أبو بكر هذه الحقيقة إلى الناس : إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه[1] . .

فهو أمر لايخرج عن حقيقة ماوعاه القلب الصادق من معنى الايمان ومداه ومن هنا كانت نقطة الاختبار والامتحان لمن كان له إيمان ثابت ويقين مستقر وإذعان مستسلم فأمن وصدق ورضى ، وكانت نقطة الاختبار والامتحان كذلك لمن فكر وقدر وعبس ويسر وزين له سوء عمله فرآه حسنا ، فاستبعد واستكبر وحول هذا يقول ابن هشام : وكان مسراه وماذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل فى قدرته وسلطانه ،فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ماأراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها مايريد[2] . .

لقد كان حادث الاسراء والمعراج امتحانا وابتلاء لغربلة الجماعة الإسلامية وتهذيبا لها من ضعاف البصيرة واليقين استعدادا للهجرة ومنهجًا جديدا يستعد فيه الحق للموقف الفاصل . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٩٩ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٥٦ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٩٦ — ٣٩٨ .

وهذه قاعدة ينبغى أن تلاحظ دائما فى تنظيمات الجماعات الّتى تدعى لنفسها أنها تتصدى لتبليغ دعوة الله ، فكم من منافق يندس ليخرب وكم من ماجن يتسرب ليفسد ، وكم من واهى العقيدة يفرق ، وكم من دنيوى يسعد أن يبيع آخرته ودعوته ودينه بعرض بخس زهيد . .

وعلى هامش حادث الاسراء والمعراج ممايتصل بمرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية فإن الميثاق الذى أخذه الله على الأنبياء ليؤمنن بمحمد ولينصرنه قد هيأه الله له فرصة يعلن فيها الأنبياء جميعا إيمانهم بالنبى الخاتم ويأتمون به من صلاة تعلن وحدة الرسالة ووحدة الهدف الذى سعى به هذا الموكب الجايل .

يقول ابن هشام :

(فمضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى بهم [١] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٣٩٨ المواهب ج : ٥ ص : ٤٩ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٩٦ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٥٢ راجع تفسير الطبرى ج : ١٥ ص : ٣ ، ٤ .

وفى الحلبية :

« ولما أقيمت الصلاة ببيت المقدس قاموا صفوفا ينتظرون من يؤمهم فأخذ جبريل بيده — صلى الله عليه وسلم — فقدمه فصلى بهم ركعتين[1] . .

(سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِه) . .

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) . .

لقد حقق سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — مدلول العبودية لله وقابل كل موجات الاعتداء بالصبر الجميل والثبات المكين فهو الربانى الكامل والعبد الكامل فى ربانيته وعبوديته لله رب العالمين ، فما جزاءُ المحقق للعبودية وقد غاب عنه حبيباه : عمه وزوجه وتكالبت عليه الأعادى ، لقد كانت آخر موجة الغضب الجاهلى صبية من بنى ثقيف من الطائف ترميه بالحجارة حتى دمت قدماه الشريفتان ، وسامحهم ودعا لهم بالهدى ، أفلا يستحق هذا العبد الذى وصف وحده : بهذا النعت (عبده) : عبده فى الإسراء وعبده عند سدرة المنتهى فلم يخرج محمد — صلى الله عليه وسلم — عن العبودية لله وحده . أفلا يستحق دون سائر البشر جميعا أن تحمله الملائكة على البراق ليصلى إماما بكل الأنبياء ؟ . .

ولم يخرج محمد — صلى الله عليه سلم — من العبودية لله وحده ، أفلا يستحق أن تقف له الأنبياء والملائكة وأهل السموات جميعًا

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٤١٣

ينتظرون مقدمه عن سدرة المنتهى ، حيث يكون هو وحده « عبد الله » ، حيث يكون (عبده) لقد حقق هذا النبي العظيم العبودية لله : حققها قلبا وروحا . .

حققها رأفة وسكينة . .

حققها صفحا ودعاء . .

حققها صبرا ورضا . .

فما جزاءُ هذا عند ربه الكريم ؟ . .

أما الإمام القشيرى رضى الله عنه فقد أشرق بالجواب إشراقة العارفين يقول :

إن الملك العظيم إذا أراد تخصيص أحدٍ من عباده وولى من أوليائه أشهده من أملاكه وخزائنه ما أخفاه عن غيره ليدل بذلك على تخصيصه. كذلك الحق سبحانه وتعالى لما أراد إكرام المصطفى – صلى الله عليه وسلم – اطلعه على كثير من المخلوقات مالم يشهده غيره تخصيصا له وتشريفا ومن ذلك : أنه لما طوى الأرض فأراه مشارقها ومغاربها ، كذلك أراه : الملكوت والسموات والجنة والنار وما أراه تلك الليلة ليزداد به اعتبارا على اعتبار واستبصارا على استبصار[١] . .

إن مسألة المعراج فى جوهرها عند ما نلاحظ العلاقة بين الله وبين نبيه هى كما قالها الأستاذ أبوعلى الدقاق رضى الله عنه :

ليعرفه أنه لارتبة لأحد فوق رتبته فيكون أبلغ فى باب كرامته[٢] ..

---

(١) المعراج للقشيرى ص : ٦٩

(٢) المعراج للقشيرى ص : ٧٠

ولايعد الإسراء والمعراج كحدثين بمضيا فى التاريخ القديم ولكنهما كانا كمنهج حياة فى العقيدة والأخلاق من جانب ثم يكونان دائما من دلائل النبوة الخاتمة للنبى محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد أخبر عن أحداث ستقع فى مستقبل هذه الأمة ، رآها بعينه فى الجنة وفى النار فأخبر عنها ليتقيها الورعون ، وليصلحها المصلحون ، ولينتهى عنها الآثمون وليفقهها الداعون لينذروا قومهم لعلهم يحذرون[1] .

أما النعمة العظمى والتجلى الإلهى الأكبر فى ليلة الإسراء والمعراج فإنه الصلاة ، إن الصلاة هى الشرف الأسمى للإنسان فهى تصله بالله سبحانه ، وهى الوسيلة إلى رضوانه ، وباب الفتوح والقبول ، وهى المعراج الروحى الذى تتصل فيه أرواح العباد الأطهار بخالقهم جل وعلا . .

إنها لحظة المناجاة التى لاتحتاج إلى وسيط ولا شفيع : إنها القربى إلى الله جل شأنه يأنس فيها القلب بربه وتصل فيها الروح ببارئها وتستريح من وعثاء السفر فى الحياة ، وتهدأ من صخب الشهوات ، وتنجو من وسواس الشيطان . .

---

(١) لمولانا فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود كتاب جليل عن :
الإسراء والمعراج ، نشر فى سلسلة البحوث الإسلامية « الكتاب الثانى والعشرون » من السنة الثانية وهو بحث دائر حول «نبحية الإسراء والمعراج للعقيدة ، والأخلاق » ، ولقد سعدت كثيرا بالحياة فى جو هذا الكتاب مرارا عندطبعه وتصحيحه ثم تدبره بعد نشره ، فقد كان الله عز وجل منحنى شرف التكليف بإنشاء هذه السلسلة فى ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ . والإشراف عليها وكان هذا آخر كتاب أشرفت على نشره قبل سفرى إلى ماليزيا فى عام ١٩٧٠ م .

وقد شاء الله تعالى أن يشرع تنظيم الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة من عند سدرة المنتهى[1] لأنها فقط العبادة التى تصعد إلى الله مع الملائكة الذين يتعاقبون فى الليل والنهار وهى وحدها ، الصلاة التى تحقق العبودية لله ؛ تسجد الجباه والأيدى والركب والأقدام ويسجد القلب والعقل والفؤاد إجلالا وتعظيما وتمجيدا لله رب العالمين ، ومنزلة الصلاة رفيعة تهبط شرعيتها من منزلة تساويها من عند سدرة المنتهى . .

إن الصلاة حبل واصل بين الطائعين فى الأرض وخالقهم الأعلى والحبل الذى يصل بين الله وعباده هو الذى يرتضيه لهم ونوع الصلاة التى يتعبد بها المسلم لايملك أن يقترحها إنما تلقى إليه كما يشاءُ الله . ولهذا انتدب الله عز وجل حبيبه محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى ليلة الإسراء والمعراج ليوحى إليه تنظيم الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة[2] ، إعلانا بما للصلاة من منزلة عند الله ومالها من منزلة عند الطائعين ومالها من حقوق يجب أن تراعى ، وهى الفرض الوحيد الذى لايسقط عن الصحيح والمريض والمسافر والمجاهد[3] ، ولهذا كانت عماد الدين ،من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى الفاصل بين المسلم والكافر ، وهى النور الذى يملأُ القلب والمسجد والبيت ، وهى بركة العمر والرزق والعافية والعلم . .

يقول شيخنا العارف بالله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود :

« والصلاة لأهميتها لم تفرض بالطريق العادى لقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحى مبلغا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قواعد

(١) راجع الحلبية ج : ١ ص : ٢٩٨ ، ٣٠٢ السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٤٣ .
(٢) المواهب ج : ١ ص : ٣٠٧ (٣) العبادات ج : ١ ص : ١٩١

التشريع ومبادىء الأخلاق وأصول العقيدة ومسائلها ، فلما حان فرض الصلاة ، عدل الله سبحانه وتعالى عن هذا إلى دعوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليكون بنفسه فى الحضرة الإلهية ليبلغه الله سبحانه وتعالى ، بطريق مباشر ، أمر الصلاة وكان ذلك ، إعلانا عن أهمية الصلاة إنها لم تفرض بالطريق العادى تكريماً لها وتشريفا[1] . .

لقد كانت غاية الحدث الجليل : الإسراء . والمعراج تصفية الجماعة الإسلامية التى ستتولى القيادة الراشدة قريبا تجهيزا لنقله بالهجرة من مكة إلى طابة حيث تهاجر العناصر القوية الصادقة التى نجحت بامتياز فى هذا الاختبار الدقيق لأنها وحدها يوم أن ينضم إلى منهج التبليغ حد السيف تستطيع أن تبرهن على أن الجهاد بالسيف ليس وراءه طمع مادى ولا شهوة فى شهرة ولارغبة فى اكتساب أرض أو استعمار قطر ، وإنما فقط لتكون كلمة الله هى العليا . ولتكون العبودية وظيفة البشر : قد وجدت لها مناخا يحقق فيه الناس عبادتهم لله الواحد القهار . .

وكان قدر الله مفعولا واستعدت الجماعة فى العام الحادى عشر من البعثة لنقلة تنتظر الاذن من السماء . .

---

(١) العبادات ج : ١ ص : ١٨٩ ، ١٩٠ ، لم أشأ أن أطرق بحث ، هل كان المعراج بالروح والجسد لأنه لايتعلق بموضوع الدعوة من حيث المناهج والغايات وأن الحديث فيه قد انتهى دون جديد اللهم إلا أن المعارضين إنما يلحظون فى البحث حدود هم البشرية وأنا من ذلك برئ والحمد لله .

ثانيا : النشاط النبوى

معاهدات العقبة

يشق النور حجب الظلام حتى ولو كانت ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض ، فطبيعة النور مشرقة متحركة ، وطبيعة الظلام كئيبة راكدة ، ولقد كانت الدعوة الإسلامية نورًا مشرقًا يبدد حجب الظلمات الجاهلية التى كانت تصنعها قريش فى معامل الشيطان والنكاية ، والتهريج والحصار الاقتصادى والتشهير والفتن ، لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلتقى بالوفود فى مواسم الحجيج والعمرة وفى سلسلة هذه اللقاءات النبوية بأهل النسك التقى عليه الصلاة والسلام بوفد من الأنصار يروى ابن هشام هذا اللقاء بسنده فيقول :

لما لقيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أظل

زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض ياقوم تعلموا والله أنه للنبي الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك . .

فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا . .

وكان عدة هؤلاء النفر ستة من الخزرج ، فلما قدموا المدينة ذكروا حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودعوا الناس إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم [1] . .

فلما كان العام القادم — وأهل المدينة قد تهيئوا — لقبول الدعوة لقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اثنى عشر رجلا فبايعوه البيعة

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٢٨ ، ٤٣٠ راجع تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ٢ ص : ٢١٩ يلاحظ أن ابن عبد البر جعل هذا اللقاء العقبة الأولى فجعلها ثلاث عقبات ص : ٧٠ ، ٧١ ، وابن الأثير فى الكامل جعلها مقدمة للعقبة الأولى ج : ٢ ص : ٩٥ ، ٩٦ وكذلك الطبرى ج : ٢ ص ٣٥٥ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٨ .

المشهورة ببيعة النساء وقد ذكرها ابن سعد فى الطبقات قال : فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء :

على ألا نشرك بالله شيئا . .

ولا نسرق . .

ولا نزنى .

ولا نقتل أولادنا . .

ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولانعصيه فى معروف .

قال : فإن وفيتم لكم الجنة ومن غشى من ذلك شيئا كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . .

قال ابن سعد : ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام . .

ثم بعث لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيدنا مصعب ابن عمير (٢) بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يُقْرِئَهُمْ القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقهم فى الدين . .

ولم تقف مهمته عند هذا الحد فهو مدرك لأبعاد الرسالة فجعل يدعو إلى الإسلام من لم يشرفه الله بعد ويشرح صدره للإسلام : قال ا ن عبد البر : فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ٢ ص : ٢٢٠ راجع السيرة لابن هشام ج : ٢ ص : ٣٣؛ راجع تاريخ الطبرى ج : : ٢ ص : ٣٥٦ .

(٢) ذكر فى زاد المعاد أن رسول الله أرسل عبد الله بن أم مكتوم مع مصعب بن عمير ج : : ٢ ص : ٥١ وصاحب الحلبية ذكر هذا ثم ضعفه ج : ٢ ص : ٩ .

وأسلم فى جماعتهم ، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وأسلم بإسلامهما جمع بنى عبد الأشهل فى يوم واحد ، الرجال والنساء لم يبق منهم أحد إلا أسلم[1] . .

قال الطبرى : فلما وقف سعد عليهم بعد إسلامه قال : يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال فوالله ماأمسى فى دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة[2] . .

وبهذا تبدو أهمية القيادة التى أعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن الأرقم ، تبدو أهمية مرحلة الدور السرى كما يسميه العلماء ، تبدو هذه الأهمية كأسلوب وواحدة من قواعد المنهاج الذى ينبغى أن يستخدم فى العمل مع الجماعة عند تبليغ دعوة الله . .

لقد كانت هذه الجماعات التى دخلت فى دين الله أفواجا بالمدينة آثارًا من بركة العمل السياسى الذى زاوله الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى لقائه بالعقبة الأولى على نحو ما هو مشهور عند العلماء . .

فى العام القابل يرجع مصعب بن عمير إلى مكة مع وفود من المسلمين إلى موسم الحج ومعهم زمرة حجاج قومهم من أهل الشرك . قال ابن اسحق حدثنى معبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب

---

(١) المصدر ص ٧٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٩ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٧ .

حدثه أن أباه كعب بن مالك حدثه قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بالعقبة من أوسط أيام التشريق قال : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبوجابر سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : ياأبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إيانا العقبة قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحلنا لميعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا :

نسيبة بنت كعب أم عمارة ؛

إحدى نساء بنى مازن بن النجار

وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى

إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ـ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان

أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، ثم تكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر . .

قال : فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبوالهيثم بن التيهان ، فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ . .

قال : فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال :

بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . .

قال كعب بن مالك : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم[1] . .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا :

تسعة من الخزرج .

وثلاثة من الأوس . .

---

(١) راجع الروض الأنف ج : ٤ ص : ١٢٤ ففيه أن ذلك كان بتوجيه من عند الله عز وجل .

قال ابن اسحق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى يعنى المسلمين . قالوا : نعم . .

ويؤكد وثيقة البيعة العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف فيقول :

يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ..

قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم لهو خزى الدنيا والآخرة

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خيرالدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل النفس الأشراف فمالنابذلك يارسول الله إن نحن وفينا (بذلك) ؟ قال : « الجنة » . .

قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه[2] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ٢ ص : ٤٣٨ — ٤٤٧ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ١٩٢ ، ٢٠٣ ، دلائل النبوة للبيهقى ص : ١٨١ — ١٩٤ الطبقات الكبرى ج : ٢ ص : ٢٢١ — ٢٢٣ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٨ — ١٠١ ، المواهب ج : ١ ص : ٣١٥ — ٣١٨ الحلبية ج : ٢ ص : ١٦ — ١٨ .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص ٤٤٦ ، تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٦٤ ، الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ٩٩ ، الطبقات الكبرى ج : ٢ ص : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

وكان أسعد بن زرارة من شباب الخزرج المتوهج المتقد حماسا واخلاصا الممتلىء إيماناً الفياض باليقين يريد أن يحدد الأمر إلى ابعاده البعيدة فقال :

رويدا يا أهل يثرب إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل الا ونحن نعلم أنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأن اخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم . .

وان تعضكم السيوف فاما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله تعالى وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل ؟ . .

فقالوا ياسعد أمط عنا يدك فوالله لانذر هذه البيعة ولانستقيلها فقمنا إليه رجلا رجلا فبايعناه . .

يقول ابن الأثير :

وكانت البيعة فى هذه العقبة على غير الشروط فى العقبة الأولى فإن الأولى كانت بيعة النساء وهذه البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود . .

أما نص الأولى : فبايعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على بيعة النساء على ألا نشرك بالله شيئا ولانسرق ولانزنى ولا نقتل أولادنا ولانأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولانعصيه فى معروف . إن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا

---

(١) الحلبية ج : ٢ ص : ١٨ فقه سيرة ص : ١٥٧ .

فهو كفارة له وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم[1] . .

إنها بيعة فضيلة وأخلاق وخير وبر على العمل بالمثل العليا ونشرها والدعوة إليها، لقد قيد الوثيقة «ولا نعصيه فى معروف» إنها تقرر منذ هذا الفجر الأول للتنظيم الإسلامى أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فهى بذلك وثيقة إلهية .

وأما الوثيقة الثانية فقد حدد أبعادها العباس بن فضلة وسعد بن زرارة . .

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود[2] .

لقد كان الأنصار رضوان الله عليهم يعلمون عن يقين واضح تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا لا مالا ولا جاها ولا ملكا ولا وزارة حتى ولا النصر والغلبة إنما وعدوا عليها «الجنة» وهكذا اختار الله ورسوله السابقين من المهاجرين والأنصار معا اختاروهم من العناصر الفريدة النادرة ليكونوا القاعدة الصلبة لانطلاق هذا الدين من عقاله فى مكة إلى رحابه العالمية فى المدينة المنورة . .

ولقد دلت هذه البيعة على أن عنصر المبايعين أصيل فى طبيعته المتكافئة مع سمو تعاليم هذا الدين لقد قال عبد الله بن رواحة ليلة العقبة :

---

(١) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٥٦ ظن بعض الكاتبين أن هناك علاقة بين هذه التسمية وتسمية بيعة النساء فى سورة الممتحنة لما بينهما من تشابه ولكن التسمية هنا ليس لها ارتباط بالأخيرة لأنها بيعة على فضائل الأخلاق مطلقا راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٦٣ .

اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك . قال : الجنة قالوا ربح البيع ولانقيل ولانستقيل . . .

لقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصفى من العذب الرائق نقاء من أدنى رغبة دنيوية وماكان لهم من مأرب إلا الجنة ويوثقون هذا البيع الرابح كثيرا بأنهم لايقبلون الرجوع فيه أبدا ولايسعدون إذا رجع فيه رسول الله ، وقد كانوا على يقين أنهم سيناوئون العرب كلها ، وسوف يقتل أشرافهم وتنكه أموالهم ، وأنهم لن يروا هدوءا ولا راحة فسوف يستمرون فى قتال الجاهلية الضاربة من حولهم حتى يحققوا العبودية لله وحتى يحققها البشر جميعا ومع هذا فقد قالوها : ربح البيع لانقيل ولانستقيل . .

وبهذا تجهزت الدعوة الإسلامية لنقلة جديدة ومنهج جديد ووطن جديد تملأ من منارته آذان الدنيا بالنداء الجليل حي على الفلاح . .

الى طابة

لقد اكتملت الترتيبات إلهيا ونبويا النقلة الكتيبة التى حشدها ربها وأعدها نبيها لتحتمل شرف البناء العالمى للدولة الإسلامية التى تقوم على أساس (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كمنهاج للحياة العقلية والأخلاقية والتشريعية والاجتماعية والعلمية . .

---

(١) فى ظلال القرآن ج : ١٠ ص : ٩٢ ، ٩٣ .

فقد انتشر للإسلام فى كل بقاع الجزيرة العربية وخارجها صوت يدوى وقائد يدعو .

كان فى الحبشة على الشاطىء الغربى للجزيرة العربية المهاجرون فيهم من كبار رجال قريش عثمان بن عفان وجعفر بن أبى طالب .

وكان فى الطرف الشرقى للجزيرة عمرو بن الطفيل الدوسى .

وكان فى وسطها أبوذر الغفارى وعمرو بن عبسة فى الشمال تقريبا لقد كانت هناك قيادات تخشاها قريش كما جاء فى البخارى ، فى حديث إسلام أبوذر الغفارى : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام[1] ؟ . .

قال ابن حجر وغفار هذه من بنى كنانة . .

وكان فى جنوب الجزيرة العربية « نجران » وفد النصارى الذين أسلموا فانتشرت كواكب الإيمان فى بقاع الجزيرة تنير الوجود الإنسانى[2] ثم صارت يثرب على أهبة كاملة لاستقبال تلك الجماعة برسالتها فلم يبق إلا الاذن من القيادة التى تتحرك بوحى السماء وجاء الوحى بأذن للجماعة الإسلامية فقط بأن تهاجر[3] . .

يقول ابن هشام :

أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ،

(١) فتح البارى ج : ٨ ص : ١٧٥ .

(٢) انظر الخريطة المرفقة التى تبين مستوى انتشار الاسلام فى ظل العهد المكى فى داخل الجزيرة وخارجها .

(٣) ابن هشام ج : ١ ص : ٤٦٨ وما بعدها .

والنحوق باخوانهم من الأنصار وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة[1] . .

وكان قد انطلق أبوسلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . مهاجرا إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة ثم عاد إلى مكة فآذته قريش فكان أول من نفذ أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالهجرة إلى المدينة ، ثم هاجر عامر بن ربيعة خليف بن عدى ومعه امرأته ليلى ابنة أبى حشمة قال ابن سعد : فهى أول ظعينة قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أرسالا فنزلوا على الأنصار فى دورهم وآووهم وآسوهم[2] .

لقد سلمت الكتيبة الأولى وانتقلت من جو الجاهلية المتعجرفة إلى جو الأخوة الفسيحة صدرا وكرما وإيمانا وحبا وإيثارا : إلى جو الذين يحبون من هاجر إليهم ويؤثرون على أنفسهم إخوانهم ولو كان بهم خصاصة وخلت مكة الا من القيادة التى تنتظر الاذن لها بالرحيل ففى البخارى :

وتجهز أبوبكر قبل المدينة فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى ؟ فقال أبوبكر : وهل ترجو

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٦٨ ، راجع المواهب ج : ١ ص : ٣١٨ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢١٥ الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢٢٦ .

(٢) السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢١٥ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ١٠١ الطبقات ج : ١ ص : ٢٢٦ السيرة لابن هشام ج : ١ ص ٤٦٨ – ٤٧٠ الدرر ص : ٨١ .

ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال : نعم فحبس أبوبكر نفسه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده[1] . .

فالداعية إذن لايتحرك إلا بالوحى إنه لاينطق عن الهوى ولايتحرك عن داعية نفسه إنما هو وحى يوحى . .

وانتظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أصفياؤه الذين سيتولون مسئولية إنهاء الأعمال والأمانات ويصفوا كل العلاقات مع المجتمع الجاهلى .

كان فى مكة « على » لرسالة خطيرة هى رسالة التضحية والوكالة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبيت فى السرير المشرف الزكى العبق الطاهر المقدس ليواجه فى حداثة سنه جلبة الشباب الطائش الأحمق ، ويالها من شجاعة وقوة وعزيمة : واحد من شباب الإسلام فى سنه الصغيرة يجابه بثبات مكين وإرادة حادة جموع الشباب من قبائله الكثيرة التى عزمت فى إصرار على أن تقتل المرتدى هذه البردة الزكية الخضراء ومن خلفهم رأى عام يساعد ويساند ويجيش الفتن ويفرح بيوم النصر . .

وكان فى مكة الصديق الذى جهز أهله وماله كله من أجل صحبة حبيبه فاضت لها عيناه فرحا يوم أنبىء بها ويأتى الاذن للنبى الكريم بالهجرة ولنستمع للسيدة عائشة رضى الله عنها وهى تروى للتاريخ أعظم حدث غير وجه الحياة من البريق الجاهلى إلى الحق الإسلامى اللذى صان كرامة الإنسان وعزه وربطه بالعبودية لله وحده . .

---

(١) فتح البارى ج : ٢ ص : ٢٣٤ ، ٢٣٥ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٣٤ .

قالت عائشة[1] : فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبوبكر فداء له أبى وأمى والله ماجاء به فى هذه الساعة إلا أمر ، قالت : فجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – لأبى بكر : أخرج من عندك ؟ فقال أبوبكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يارسول الله . قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج . فقال أبوبكر : الصحبة بأبى أنت وأمى يارسول الله ، قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : نعم :

قال أبوبكر فخذ بأبى أنت يارسول الله احدى راحلتى هاتين قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالثمن[2] .

ومع مافى النص من آداب اجتماعية كثيرة تحدد تقاليد الزيارة ومواعيدها ، وآداب الدخول والاستئذان . والحيطة فى الحديث ذى الشأن فان النص يدل صراحة على أن الهجرة كانت أمرا إلهيا انتظره الرسول – صلى الله عليه وسلم – لتتم نقلة القيادة إلى طيبة حتى تكتمل للجماعة الاسلامية التى سبقت بالرحيل كل إمكانيات العمل فى المرحلة الجديدة . .

---

(١) راجع الروض الأنف ج : ٤ ص : ٢٠٢ ومابعدها السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٤ الحلبية ج : ٢ ص : ٣١ .

(٢) فتح البارى ج : ٨ ص : ٢٣٦ راجع المواهب ج : ١ ص : ٣٢٦ ، ٣٢٧ راجع زاد المعاد ج : ٢ ص : ٥٢ .

وفى رواية ابن اسحق والمواهب : فقال أبوبكر الصحبة يارسول الله ؟ قال الصحبة ، قالت ـ عائشة ـ فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبابكر يبكى يومئذ[1] . .

كان جبريل صاحب الوحى وصاحب البراق قد استعد وتهيأت جنود السموات والأرض لحماية الموكب الوحيد فى عمر الدنيا الذى ينتقل من المجتمع الظالم إلى إخوانهم فى الله أصحاب الميمنة السابقين بالإيمان والفضل والمؤازرة وكانت قريش سادرة فى غيها عابثة بأحلامها مغرورة بأمانيها فاجتمعت فى « البرلمان الجاهلى » فى دار الندوة وهى كما قال فى الحلبية : كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة فى أمورها ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين ، ولازالت هذه الدار فى يد بنى عبد الدار حتى كان حكيم بن حزام فباعها فى الاسلام بمائة ألف درهم فلامه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وقال أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم فقال حكيم رضى الله عنه ذهبت المكارم الا التقوى والله لقد اشتريتها فى الجاهلية « بزق خمر » وقد بعتها بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله تعالى فأينا المغبون[2] . .

فى هذا البرلمان الجاهلى الذى اشترى بزق خمر اجتمعت رءوس الجاهلية بجاذبيتها وعنفوانها تناقش الاثار التى تستتبع هجرة المسلمين

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٥ المواهب ج : ١ ص : ٣٢٧ راجع الفصل السابع فى الهجرة من كتاب النبوة والرسالة فى التاج الجامع للأصول ج : ٣ : ٢٦٣ ، ٢٦٩ .

(٢) الحلبية ج : ١ ص : ١٧ المواهب ج : ١ ص : ٣٢١ راجع الروض الأنف ج : ٤ ص : ١٩٨ وما بعدها . .

من مكة فقد أدركوا أن للمسلمين اليوم دارا ومنعة : وعرفوا أنهم الآن أجمع لحربهم فاجتمعوا فى دار الندوة أو اجتمعوا فى « زق الخمر » يتشاورون مايصنعون فى أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين خافوه[١] ؟ ولقد كانوا عميا وحمقى وأغبياء فالذى اجتمعوا له اليوم قد قاله لهم من قبل كبيرهم عقبة « يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس[٢] ولكنهم يومها قالوا له : سحرك والله يا أباالوليد وقالها أكثم بن صيفى :

إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فان يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه[٣] . .

جدول الأعمال

لقد كان ينبغى أن يكون جدول المشاورة أو جدول الأعمال حاويا لكل الأحداث التى مضت . .

كان ينبغى أن يكون حاويا :

مقالة عقبة ، (فأمسكت بفيه فأنشدته الرحم أن يكف وقد علمت أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — إذا قال شيئا لم يكذب[٤] . .

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٠ .
(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٢٩٤ .
(٣) راجع الباب الأول الفصل الأول نموذج الحكماء .
(٤) الحلبية ج : ١ ص : ٣٤٠ .

ومقالة « أبي جهل » : والله إني لأعلم أن مايقول حق ولكن يمنعني شيْ إن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة فقلنا نعم . ثم قالوا : فينا اللواء فقلنا : نعم ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل[1] » . .

وكان عليهم أن يتفهموا ماعرضه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر: « يابني عبد المطلب إني والله ماأعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة[2] ، إني لرسول الله إليكم خاصة والناس كافة[3] » . .

وكان عليهم كذلك أن يتدبروا ماقاله لهم يوم أن آذوه وأهانوا أصحابه والمجاهدين بالصبر والثبات معه :

« أتسمعون يامعشر قريش ؟ » أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح » . .

وأخذت هذه الكلمة يومها من القوم مأخذها حتى مامنهم من رجل الا وكأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وضاءة قبل ذلك ليرفأه باحسن مايجد من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما أنت بجهول[4] . .

---

(١) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٥٠٧ .
(٢) السيرة لابن كثير ج : ١ ص : ٤٥٩ .
(٣) الحلبية ج : ١ ص : ٣٢١ .
(٤) الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٣٦٠ الحلبية ج : ١ ص : ٣٣٠ .

وكان عليهم كذلك أن يضعوا فى قائمة المشاورة قول الله تعالى :
(سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّون الدُّبُر [(١)]) . .

ولكن الحمق والضلالة والتهريج والعمه الذى ران على قلوبهم وأفئدتهم والوقر الذى أصم آذانهم دوخهم فغلى دم الحقد والبغضاء فى عقولهم فحاصوا حيصة إبليسية زكاها الشيطان بوسواسه اللعين وحضرها بشبحه الكاذب ودخل معهم فى « زق الخمر » وكان فى المجلس عتبة بن ربيعة ، وأبوسفيان والنضر بن الحارث ، وأبوجهل ابن هشام وأمية بن خلف ، لقد اجتمع الزعماء والقادة الذين يمثلون النظام الأرضى بكل طينيته وإبليسيته وكانت المحادثات تدور حول : « ماناًمن على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا » . .

وطالت صياحاتهم وهياجهم وصخبهم ثم قال لهم الشيخ الإبليسى قال أبوجهل الذى يمثل الجهالة الجاهلية فى كل عصر وحين : « نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فتيا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا [(٢)] » . .

---

(١) الآية رقم : ٤٥ من سورة القمر .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨١ ، ٤٨٢ المواهب ج : ١ ص : ٣٢١ ، ٣٢٢ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ١٠٢ الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢٢٧ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢٢٩ الحلبية ج : ٢ ص : ٢٨ الدرر ص : ٨٥ تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، الروض الأنف ج : ٤ ص : ٢٠١ .

ورضى القوم وبارك إبليس المعية أبوجهل وتفرق القوم وهم على ذلك مجمعون ، والله أعلم بما يبيتون ، لقد أحكم الجاهليون خطتهم : أحكموها متجاهلين ما توعدوا به أنفسهم من قبل ، أحكموها فى غفلة من ضميرهم الذى يثق أن محمدا لرسول الله أحكموها وهم فى غفلة مما عقلوها سالفا ، انه قد جاءهم بالذبح ، لقد أحكموا الخطة والله من ورائهم محيط وجاء سيدنا جبريل وقال : « لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى تبيت عليه » وفى عتمة الليل اجتمعت الثورة الجاهلية على الباب يرصدون متى ينام ؟ فيثبون عليه ، إنهم لايقدرون على مواجهته يقظا وظنوا أنهم يقدرون على مواجهته نائما فهم لهذا يرصدون متى ينام ونام « على » فى وسط هذا الجو الذى يملأ مكة رعبا ، وتسجى ببردى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الاخضر[1] الحضرمى لقد تسجى بالحماية والستر والرعاية والأمان وهو فى طمأنينة مستقرة وفؤاد أجل استقرارا من الطود العظيم . .

لقد نام « على » وهو يتدثر الإيمان فى قلبه ويتسجى ببردى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والشباب محيط بالدار يتدثر قلبه بالغيظ والحنق والكراهية ويتوثب بالسيف الصارم وفى هذا الجو ينفتح الباب ويخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يتلو :

(يسٓ والقُرْآنِ الحكِيمِ . إنَّكَ لِمَنَ المُرْسَلِين . عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم . تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَاأُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُم غَافِلُون . لَقَد حَقَّ

---

(١) من رواية ابن الأثير ج : ٢ ص : ١٠٣ وفى الطبقات : الأحمر ج : ١ ص : ٢٢٨ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٢٨ ، ٢٩ .

الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُم لايُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِىَ إِلى الْأَذْقَانِ فَهُم مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بيْنِ أَيْدِيهِم سداً وَمِنْ خَلْفِهِم سَداً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُم لَايُبْصِرُونَ [1]) . .

وحصبهم بالتراب فلم يبق فيهم رجل جليد نسيب وسيط فى قوم أبي جهل وأتباعه إلا وضع على رأسه تراباً وناموا أوداخوا أوشلوا أومسخوا . .

لقد سحبت قوتهم وعميت عيونهم حتى جاءهم آت ممن لم يكن معهم فقال لهم ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدا ، قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته [2] . .

هذه هى نتيجة القرار البرلمانى الأرضى الذى يستمد نظامه من الطين حبات حصى نثرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على رءوس الجيش الفنى الذى جاء لينفذ قرار التنظيم الأرضى . .

ويسلم « على » من المؤامرة ويبقى فى مكة ليصفى بقيات العلاقات ويؤدى الأمانات التى كان يحفظها الجاهليون عند محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليقينهم أنه وحده الأمين الصادق [3] . .

---

(١) راجع السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٢ ، ٤٨٣ والآيات من رقم : ١ – ٩ من سورة يس .

(٢) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٣ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٢٩ ، ٣٠ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢٣٠ الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢٢٨ المواهب ج : ١ ص : ٣٢٣ تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٧٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ج : ٢ ص : ٣٨٢ الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ١٠٣ .

وينطلق الركب النبوى ومعه الصديق الوفى إلى غارثور أوجبل ثور ، وتبقى سرية المخابرات الإسلامية فى مكة : عبدالله بن أبى بكر يتسمع رَمّا يقول الناس فيها نهارا ليبلغ الأخبار إليهما ليلا وعامر بن فهيرة يرعى الغنم نهارا ثم يريحها عليهما فى الغار عند المساء ، وأسماء بنت أبى بكر تجهز الزاد وتذهب به فى ثياب الليل الأسمر . .

ولم يكن أبو بكر رفيقا مؤنسا فقط بل كان فدائيا حبيبا إليه أن تكون روحه فداء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لقد دخل الغار أولا لينظر ما فيه من حشرات وينظف منزل النبى — صلى الله عليه وسلم ، ثم هو يترقب الحركة والهمسة والصوت ووقع القدم وخلجات المتجسسين بينما النبى — صلى الله عليه وسلم — يصلى [1] . .

وجاءت قريش ومعها الخبراء فى اقتفاء الآثار ، كرزين علقمة وسراقة بن جعشم وحكمت فلسفتهما وعبقريتهما أن آثار الأقدام انتهت إلى غار ثور ولكنه بعد ذلك لا يدرى أيمينا أم يسارا اتجه الركب ، أم صعد الجبل [2] . .

يقول ابن كثير :

اقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه [3] . .

---

(١) الحلية ج : ٢ ص : ٣٨ .

(٢) المواهب ج : ١ ص : ٣٣٠ .

(٣) السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢٣٩ راجع المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٣٣٢ .

كان فتيان قريش من كل بطن يحيطون الغار بعصيهم وهراواتهم وسيوفهم وحماسهم وكراهيتهم ومرارة هزيمتهم البارحة . وقال لهم حكماؤهم وفلاسفتهم ووجهاء القوم عندهم : « إلى باب الغار انتهى وقع الأقدام » فلماذا لم يدخلوا الغار ؟

لقد اقترح بعضهم أن يقتحم الغار ويفتشه ؛ ولكن الذكى الألمعى الرائد الفيلسوف العظيم أمية بن خلف قال لهم : وما اربكم إلى الغار إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد[1] . .

لماذا لم يفترض الفيلسوف الماهر أن تلك الراءة والشجرة والحمامتان الوحشيتان سحر من سحر محمد ، فيسمح للجيش الجرار المتحمس لتنفيذ قرار برلمان زق الخمر بتفتيش الغار فياربما وجدوا اربتهم ..

لقد كانوا من الحمق بحيث لا يعقلون ما يريدون ولا يفهمون ما يودون ألم يقل لهم فى مكة « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »[2] فلماذا لم يقدروا على إزالتها وتفتيش ما بداخل الغار ؟ لقد أضلهم الله على علم وختم على سمعهم وأبصارهم فمن يهدهم من بعد الله ؟ . .

وعادت قريش :

عاد أعضاء البرلمان الجاهلى الأرضى العبقرى وعادت حفالة الشباب الجليد النسيب الفتى ، وعادت فلاسفة القيافة والأثر بخيبة أمل لا مثيل لها فى التاريخ ، ولكن الكفر لا تهدأ ثورة دمه فإذا ما غلى

---

(١) الحلبية ج : ٢ ص : ٤٠ . (٢) العنكبوت : ٤١

حقده فلا يهدأ حتى ينسكب على الأرض هدرا فأعلنوا جائزة مالية كبرى لمن يأتى بالركب أسيرا أو قتيلا [1] ، وتظهر عندئذ الأنانية وحب الذات ، وتضيع قيمة الرأى العام وتتلاشى قيمة القرار البرلمانى الذى اتفق عليه فى « زق الخمر » فلم يكن المهم الآن هو تنفيذ القرار ولكن المهم الأسمى هو الحصول على المنحة « مائة ناقة » رأسمال كبير فى صحراء قاحلة فيالها من صفقة يسيل لها لعاب الماديين ويأتى رجل يقول : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا ، انى لآراهم محمدا وأصحابه ولكن سراقة يريد أن يحظى وحده بالمنحة الكبيرة فيرمىء بعينيه للمتكلم : « أن اسكت » ، ويوهم على القوم وينعت الذين قالهم الرجل بأوصاف أخرى ثم يمكث قليلا مع القوم ويمتطى جواده ويريد أن يلحق بالركب الذى تحفه رعاية الله وتحرسه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة وتسخر له جنودالسموات والأرض ليكون فى الأمن والطمأنينة والأنس بالله . .

وعلى بركة الله وعلى نور منه وهدى وصراط مستقيم ينطلق الركب النبوى المهاجر إلى الله . .

النبى الرسول الخاتم رحمة الله للعالمين جميعا . .

والصديق الصِّدِّيق السابق . .

وعامر بن فهيرة الحادى للركب الأمين . .

---

(١) راجع التاج الجامع ج : ٣ ص : ٢٦٧ .

وعلى رمال الطريق السوى يتهادى أجل موكب : ناقتان تحملان أعظم رجل فى الوجود الانسانى كله . .

جاء يعلم الناس كرامتهم ويرد إليهم انسانيتهم ويدلهم على الصراط المستقيم ويضمن لهم سعادة الدنيا وسعادة الآخرة لا يريد منهم جزاء ولا شكورا ولا يكون فيهم ملكا ولا جبارا ولكنه بالمؤمنين رؤوف رحيم . .

وينطلق سراقة تدفعه شهوة المال وظمأ الثروة ويجرى وهو يلهث ، والركب النبوى تحوطه الرعاية الإلهية حتى يصل الركب إلى دار أم معبد عاتكة[1] بنت خالد الخزاعية فيقيل عندها يوم الثلاثاء ويطلبون منها لبنا أو لحما يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا وقالت لهم : والله لو كان عندنا شىء ما أعوزناكم القرى فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى شاة فى كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم فسألها ـ صلى الله عليه وسلم : هل بها من لبن ؟ . فقالت : هى أجهد من ذلك فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ فقالت : نعم بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبا فأحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها وسمى الله فتفاجت ودرت ودعا بإناء يربض الرهط ـ أى يشبع الجماعة حتى يربضوا ـ فحلب فيه ثجا ـ حلبا قويا وسقى القوم بعد أن سقى أم معبد حتى رويت ورووا ثم شرب ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخرهم وقال : ساقى القوم آخرهم شربا ـ ثم حلب فيه مرة أخرى فشربوا عللا بعد نهل ثم حلب فيه أخرى وغادره عندها

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج : ١ ص : ٢٣٢ .

وذهبوا فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها فلما رأى اللبن عجب وقال : ما هذا يا أم معبد ؟ أنى لك هذا والشاة عازب حيال ولا حلوب بالبيت ؟ لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، رأيت رجلا ظاهر الوضاءة حسن الخلق وسيم قسيم فى عينيه دعج وفى صوته صحل أحور أكحل أزج أقرن حلو المنطق [1] : فقال هذا والله صاحب قريش لو رأيته لا تبعته ولأجتهدن أن أفعل . .

قال ابن كثير : قال عبد الملك : بلغنى أن أم معبد هاجرت وأسلمت ولحقت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [2] . .

هكذا يستدل الأصفياء على صدق النبوة بحال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنى اللحظة التى كان يتسابق فيها سراقة مع هواه ويسرع من أجل أمنيته كانت أم معبد وزوجها فى بحبوحة من الاخلاص والصدق وصفاء من القلب ونظافة من وسوسة الشيطان ، لقد أحسا ببركة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنطقا بهذه البركة واستدلا بها على صدق نبوته فاسلما وهاجرا . .

أما سراقة فقد أخلد إلى الارض واتبع ما وجد عليه آباءه واستمر بفرسه يجرى حتى لحق بالركب النبوى الكريم . .

ومرة أخرى تلتقى ثورة الارض بجنود السماء وطغيان العقل ببركة الوحى . وينادى سراقه بن مالك بن جعشم أصحاب الركب

---

(١) راجع معانى هذه الأوصاف كتاب الشفاء ج : ١ ص : ٣٢٨ شرحى : على القارى ونسيم الرياض .

(٢) السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢٦٣ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٥٣ .

ليردهم بزعمه ، ولكن جنود الأرض التى أخلد إليها تعيبه وتؤدبه وتهزمه وتهزأ به . :

يقول ابن هشام :

فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالاعصار قال : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر قال ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه : قال : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأبى بكر قل له : وما تبتغى منا ؟ . .

قال : فقال ذلك أبو بكر . .

قال : قلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك . .

قال : اكتب له يا أبا بكر [1] . .

وباء سراقة بمثل ما رجعت به قريش من قبل ، بيد أن كرم النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو أجود من الريح المرسلة كان أوسع من وعود قريش وأعظم عفوا عن المسىء فرد سيئات سراقة ووعود قريش الواهية بقرار نبوى صادق تهتز له جوانح سراقة فرحا ويتيه بها على الزمان فخرا قال ابن الأثير :

---

(١) السيرة لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٩ ، ٤٩٠ راجع الطبقات ج : ١ ص : ٢٢٢ المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٣٤٦ ومابعدها .

فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف بك ياسراقة إذا سورت بسوارى كسرى ؟ . .

قال : كسرى بن هرمز ؟ . .

قال : نعم . .

فعاد سراقة فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال : كفيتم ما ها هنا ولا يلقى أحدا إلا رده [1] . .

و يمضى الركب النبوى فى أمان الله وعنايته تنتظره الجماعة الإسلامية الراشدة ويطول سفر الركب وتطول فترات الانتظار والقلوب متشوقة والعواطف منجذبة والعيون تطيل شعاعها إلى آفاق الحرة ...ألخ

ولأصاحب بروحى موكب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشرف بمتابعة وعثاء ركبه بعد أن قال يوم الثلاثاء فى قديد ، وعاد سراقة بسوارى كسرى وانطلق الركب النبوى إلى طابة تنتظره الوفود الوفية وهى تنشد لحن الوفاء :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع [2]
جئت شرفت المدينة مرحبا ياخير داع

---

(١) الكامل فى التاريخ ج : ٢ ص : ١٠٧ المواهب ج : ١ ص : ٣٤٧ راجع الحلبية ج : ٢ ص : ٤٨ .

(٢) المواهب اللدنية ج : ١ ص : ٣٥٩ الحلبية ج : ٢ ص : ٥٨ .

ويمضى الركب الظافر ليقود الحياة إلى :

عبودية مطلقة لله وحده . .

عبودية العقيدة والإيمان . .

عبودية التشريع والقانون . .

عبودية الأخلاق والعادات . .

عبودية القلب والعقل . .

عبودية الفرد والأسرة . .

عبودية الدولة والمجتمع . .

عبودية الحكم فيها لله رب العالمين . .

ويمضى الركب الظافر ليحشد للحق أجناده ويعتد للموقف الفاصل حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وتخفق الراية الربانية على وجه الأرض كلها :

لا إله إلا الله محمد رسول الله [1] . .

---

(١) من مراجع هذا الفصل السيرة النبوية لابن هشام ج : ١ ص : ٤٨٠ ، ٤٩٠ المواهب ج : ١ ص : ٣١٨ ، ٣٤٩ فتح البارى ج : ٨ ص : ٢٣١ ، ٢٤٢ ، الطبقات الكبرى ج : ١ ص : ٢٢٧ ، ٢٣٢ الخصائص الكبرى ج : ١ ص : ٤٦٧ الدرر ص : ٨٠ - ٨٨ السيرة لابن كثير ج : ٢ ص : ٢٣٣ - ٢٤٩ الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية ص : ١٣٧ - ١٣٩ الوفاء ج : ١ ص : ٢٣٥ - ٢٤٥ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ج : ١ ص : ٤٩٤ ، ٥١٥ .

الخاتمة

يتصل عمر هذه الدراسة بأمد طويل من حياتى فقد أكرمنى الله عز وجل منذ طفولتى الواعية وأنا مندرج فى سلك الحياة الإسلامية حتى نضجت فيها عملا وتدريبا وعاصرت زعماء الفكرة الإسلامية على مستواها : الاجتماعى والأكاديمى فى كلية أصول الدين بالأزهر الشريف وفى لقاءات بالدعاة إلى الله فى العالم الخارجى وخاصة علماء الحركة الإسلامية فى أندونيسيا وماليزيا وبرونى Brunei قطر « فى الشاطىء الشرقى لماليزيا » .

وقد كنت حريصا فى تجوالى مع زعماء هذه الحركة على أن أربط نجاحها أو فشلها بالمنهاج الإسلامى الذى سنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – فلم يكن هذا البحث وليد مذاكرة فى الكتب الأمهات فقط ، ولا كان مجرد اقتراحات أو افتراضات أو نتائج لقراءات أكاديمية فحسب ، بل ان الله تعالى منح هذا البحث عدة هدايا :

الهدية الأولى : أننى عشت حياة الدعوة عماليا واجتماعيا . .

الهدية الثانية : أن الله وهبنى صحبة كبار رجال الفكر الإسلامى .

الهدية الثالثة : أننى منحت شرف العمل للدعوة الإسلامية فى كلية أصول الدين بسومطرة الجنوبية Palembang .

ومارستها كمدرس فى الكلية وكداعية وسط المجتمع ومنظمات الشباب ثم كانت نعمة الله الكبرى أن شرفنى الأزهر الشريف

بالاضطلاع بالعمل الإسلامى فى ماليزيا ووجهت إلى المجلس الماليزى الأعلى للشئون الإسلامية لتأسيس مركز للبحوث الاسلامية تكون مهمته بعث الثقافة الأصيلة وتنقيتها من الشوائب والهوى والفضول على أساس من عمل السلف الصالح . . ، وتقعيد منهج للدعوة الإسلامية لاعداد الشباب المسلم ليحتمل نشر رسالة الإسلام وسط الجاليات الصينية والهندية التى تشكل نسبته أكثر من نصف المجتمع الماليزى[1] ٥٣٪ فهيأ الله جل شأنه بهذه النعم لى ولهذه الدراسة أن تعيش فى الجو الأكاديمى والجو الاجتماعى الذى يكسبها فاعلية وواقعية ويمنحها قوة وتمثيلا لما كان عليه المجتمع الماضى وما يحتاجه المجتمع الحاضر من منهج مثيل . .

وقد قدمت الأبحاث فى هذه الدراسة عدة حقائق علمية أهمها بايجاز أن الدعوة الإسلامية :

هى نقل الأمة من محيط العبودية للبشر إلى العبودية لله وحده . .

لم تفاجىء الدعوة الإسلامية المجتمع الانسانى بل تقدمتها تهيئة وارهاصات شاعها الله تعالى وأخبرنا أهل الكتاب وتعرف عليها الحزاءون . .

ولم يكن المجتمع العربى فيا قبل الرسالة منحرفا غارقا فى الظلمات بل كان على مستوى من الأخلاق والتنظيم مما سمح له بأن يكون هو

---

(١) راجع كتاب أسس العمل الاقتصادى فى الاسلام باللغة الملاوية (جداول الاحصائيات) ط سنة ١٩٧٢ م ماليزيا . .

وحده أنسب مجتمع يستقبل الدعوة ويكون التفاعل فيه عاديا يسمح لها بالبقاء والتحرك .

كانت الدعوة الإسلامية ضرورة حتى ولو كان المجتمع فاضلا فإن العبودية لله فى العقيدة والقانون والعادات لاتتحقق إلا عن طريق الوحى ..

رسول الله — صلى الله عليه وسلم مذ كان آدم منجدلا فى طينته وهو فى كنف الله ورعايته ينتقل من طهر إلى طهر تربى وتأدب بتربية الله وآدابه : (فإنك بأعيننا) . .

لم تكن بشرية الرسول — صلى الله عليه وسلم — منذ وجد منفصله عن « بشر يوحى إليه » وعلى هذا فكل مقاييس علم النفس والتربية وموازين البطولة والزعامة لا مجال لها فى الجو النبوى فكل ذلك دونه بكثير جدا (وانك لعلى خلق عظيم) . .

لا ينبغى علميا ولا أخلاقيا ولا شرعيا أن يفصل عند دراسة شخصية الرسول — صلى الله عليه وسلم — بين بشريته والوحى إليه (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) ..

لم يكن تحنث سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جريا على قاعدة من عادات قريش بل كان وحيا حبب إليه وسعى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى التحنث وهو نبى « بالرؤيا الصادقة »(ورؤيا الأنبياء وحى) . .

ليس صحيحا من الناحية العلمية ما أدرجه العلماء فى الحديث أو قيل عنه أنه من البلاغات أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلما أوفى بذروة جبل كاد يلقى بنفسه . .

دلائل النبوة حقيقة ثابته نطق بها أحبار اليهود والنصارى وورقة ابن نوفل وكان للعرب معرفة بها وكان أمية بن الصلت يجاهد بحثا وتنقيبا ليتعرف على أوصافها فى نفسه وقد كان من آثار هذه الدلائل : اسلام ورقة واستعجاله الوحى للنبى -[1] صلى الله عليه وسلم - وإسلام خديجة وسعيها للزاوج من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واعتراف هرقل بالرسالة لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - . .

استدلت السيدة خديجة رضى الله عنها على صدق نبوة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأخلاقه وأحواله ولم تسأله دليلا ولا حجة فافتتحت بذلك أصل مناهج البحث الدينى القائم على الحيدة بعيدا عن التعصب والقومية والهوى الشخصى والعقل الصلف . .

وأكدت تصديقها عن طريق حاله بأسلوب دعوته فسألت أهل الذكر ممن يعرفون أساليب الوحى عن جبريل ، فقيل لها قدوس قدوس ما بال جبريل يذكر هنا أنه أمين الله بينه وبين النبيين . .

ولقد أعطت السيدة خديجة المثل الطبيعى لما ينبغى أن تكون عليه أسرة الداعية الذى يتصدى لتبليغ دعوة الله من الأخلاق والإيمان والذكاء والتضحية فى الحلبية . وكان لا يسمع شيئًا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به . .

من بركة آثار التهيئة الإلهية التى سبقت الدعوة اسلام النجاشى عندما عرض عليه سيدنا جعفر بن أبى طالب دعوة الإسلام قال : هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، فدلل على أن

---

(١) الحلبية ج : ١ ص : ٣٠٢ .

مرحلة التمهيد للدعوة كانت منحة ربانية أرادها الله ليوعى بها المجتمع حتى يستقبل الرسالة على بصيرة . ومثل النجاشى نسطورا وبحيرا . وعبدالله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، مما لا يدع مجالا لصلف العقل أن ينكر هذه المرحلة المهمة ودلل بذلك على وحدة الدين الذى حمله موكب الأنبياء . .

المنكرون للنبوة مع معرفتهم دلائلها وأعلامها دفعهم إلى ذلك مرض الأنانية والعصبية القبلية والحسد والجحود ظلما وعلوا ، مثل أمية بن أبى الصلت وهرقل وأبو جهل والنضر بن الحارث ، وعتبه بن ربيعة ... ألخ . وذلك هو داء العصر الحديث حتى فى الجامعات العلمية حيث تظهر فكرة القومية كعنصر مضاد للإسلام . .

سبقت الدعوة الإسلامية منذ عهدها المكى جميع نظريات الاصلاح الفكرى والاجتماعى بما وضعته من مناهج فى التفكير والعمل مع الجماعة مؤسسا على احترام مستوى كل فرد ، وظروف كل جماعة دون قسر أوخداع أو ارهاب أو تضليل بل بالحق والعدل والاقناع والإرادة ولهذا فالدعوة الإسلامية لا توافق على نشرها بطريق العنف والثورة . .

لم يحاول القرآن أن يثبت وجود الله لأن هذه القضية لم تكن مثار جدل أو إنكار بين الناس فهم يعبدون الأصنام زلفى إلى الله ، ولكن القرآن أقام أدلة على التوحيد وأفراد العبودية لله فى الحكم والتشريع والاعتقاد والأخلاق والمعاملات . .

دعا الإسلام منذ القرون الوسطى إلى استخدام السمع والبصر والفؤاد فى البحث العلمى ، ونهى عن اتباع الشك والظن فانها لا تغنى

من الحق شيئا . وبذلك سبق الإسلام العلم الحديث فى اتخاذه الحواس الخمس فقط كأدوات للبحث المادى وتركه الفؤاد كأداة للبحث العلمى الروحى . .

لقد زاوج الإسلام بين العلمين المادى والروحى ومنح الانسان كلا الوسيلتين لكلا العلمين . .

فلتنزوى حضارة السمع والبصر فان نهايتها حثالة يتأفف منها القائمون على شأن النظافة فى المدن الحديثة ، ولتسمو علوم الروح فإنها كلم طيب يصعد إلى الله مع الملائكة . .

والعلم المادى فى الإسلام تركة يورثها المسلم للمجتمع لتكون له فى صحائف أعماله حسنات طيبات يوم القيامة . .

العمل مع الجماعة له قانون يبدأ من ثقة الداعية بنفسه وينتهى إلى تحمل مشاق العمل فى سبيل توصيل المبادئ للمجتمع بالحسنى والحكمة والجدل المهذب وتقديم عون الضعفاء والمساكين . وترقيق قلوب أعضاء الجماعة : والوصول بهم إلى أخوة فى الله يستعدون معها لبذل الروح والمال والأهل من أجل اعلاء كلمة الله . ولقد سبق الإسلام جميع النظريات التى تعمل مع الجماعة فى إيجاد هذا النموذج الذى حقق العبودية لله وفتح لله فى أرضه ملكا واسعا يقوم على (لا إله إلا الله محمدا رسول الله) ليس وراءها طمع فى مال أوجاه أودنيا . .

وما أحوج مجمع البحوث الاسلامية فى العصر الحديث ليربى قيادات تعمل بهذا المنهج لتنهى دولة الأصنام فى جنوب شرقى آسيا التى تضغط

ثقافة الأصنام فيها على الوجود الاسلامى ، وتحاول الأمة الاسلامية هنا فى ماليزيا وأندونيسيا والفيلبين وسيام أن تتحرك بعقيدتها لتنقذ عباد هذه الأحجار من نار يوم القيامة ، ولكن يعوزها العالم الأزهرى الذى يحقق هذا المنهج الذى قدمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحقق به نفعا جليلا واستجاب به بلال وسمية وعمار وسعيد ببركته وسنا ضوئه المبارك . .

لابد من اعداد منهج تربوى للبعثات الأزهرية التى تتشرف ، بالاضطلاع بالعمل الإسلامى بحيث يشمل هذا المنهج اللغة والتقاليد والعادات والمشاكل الخاصة بالمنطقة التى سيبعث إليها العالم الأزهرى . .

فى فجر الدعوة وفى فكر علماء النصارى فى مرحلة التمهيد وعند ورقة بن نوفل ليس هناك فرق بين الرسول والنبى وإنما ذلك صنعه علم الكلام ولايجوز إطلاقا بحث اكتساب النبوة بالرياضة لأن تكاليف العبادة الشاقة فى سورة المزمل جاءت بعد الاصطفاء والنبوة . .

اتخذت الدعوة لها عدة مراحل وهو تسلسل طبيعى ولكنها أعلنت منذ اللحظة الأولى بالنص والغاية انها دعوة عالمية للناس جميعاً .

ان النصوص فى القرآن الكريم تفيد مسألتين فيما يتعلق بعالمية الدعوة . .

المسألة الأولى : ان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مازال فى مكة أمر بتبليغ الدعوة عالميا . .

المسألة الثانية : ان القرآن نص فى آيات عدة على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعالمين نذيرا .

اتخذت الدعوة وسائل خاصة لتبليغ الدعوة المقابلة الشخصية : المؤتمر المؤقت والمؤتمرات الدورية والجماعة الثنائية .. الخ . أو المناظرة فسبقت بهذا جميع نظريات علم خدمة الجماعة فى العصر الحديث فلم يبق لعلماء هذه الدراسات فخر يزهون به على علماء الدين . .

اتخذت الدعوة أسلوبا خاصا فى استخدام وسائل التبليغ حسب معادن الناس أوحسب ظروف الشخص الواحد وهى :

الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن . .

فعمدت بذلك إلى تربية جميع مشاعر الفرد وشملت نواحيه الفكرية والوجدانية كما أصابت فى استخدام بعض هذه الأساليب فى مخاطبة بعض الناس ، حسب درجاتهم ومعادنهم فكرا ووجدانا فكانت أول دعوة تحترم كرامة الانسان وتقدر فيه أنواع مستوياته . .

أظهرت مراحل تبليغ الدعوة أن الكفار جابهوها لأسباب قومية وشخصية مع اعترافهم بالرسالة والنبوة فدل ذلك على أن الدعوة حق فى ذاتها وان طلبهم المعجزات تعنت واسراف فى الجدل العابث . .

ولهذا لم يوافق القرآن الكريم على الاستجابة لما طلبه الكافرون من معجزات مادية كتعلة للدخول فى الإسلام لأنهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم . .

اتخذت المجابهة للدعوة جميع أصناف التنكيل والتعذيب ومع هذا فقد اتخذت الدعوة سبيلها إلى الحبشة وإلى أسلم ، وغفار ، ودوس ونجران ثم إلى يثرب (طيبة) . .

فدل ذلك على أن الدعوة إذا اتخذت المنهج الطبيعى لها كتب الله لها البقاء والنصر ، ولهذا قدم القرآن الكريم فى مكة عدة نماذج تاريخية تجابه بها الدعوة دائماً منها :

١ ـ التسلط البشرى أو الحكم . .

٢ ـ الضغط الاقتصادى . .

٣ ـ الأذى البدنى والأدبى . .

٤ ـ ثم حدد أبعاد المعركة بين الداعية وخصومه . .

وأن النهاية هناك يوم يكون الملك لله الواحد القهار حيث يكون النصر للداعية ومن الثمار والغايات التى أنتجتها الدعوة فى العهد المكى :

اثبات وحدانية الله والغاء جميع ألوان الشرك بالدليل . .

اثبات القرآن والنبوة وإبطال جميع مزاعم الكافرين . .

اثبات البعث بالمشاهدة والدليل والسلطان الإلهى . .

افراد السلطة التشريعية لله وحده . .

تفويض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تبيين مانزل للناس من الوحى . .

فرض الصلاة والصيام والزكاة دون تحديد لعددها ومقدارها وذلك لاعطاء . . فرصة . لانطلاق الطاقة فى الفرد المسلم لينفذها بقدر مايستطيع .

كذلك حرم الله أكل ماذبح على النصب لأنه دم يتحول بعد إلى الجسم والقلب ويتجافى وجوده مع الإيمان فى القلب المؤمن . .

وحرم الله قتل النفس الزكية . .

وقتل الأولاد . وحرم الفواحش . .

وأمر بالعدل ، والإحسان ، والوفاء بالوعد . .

وكانت مهمة هذه الأحكام تربية قيادة تقوم على قاعدة منهج كامل أساسه : (لا إله إلا الله) لتتولى بناء المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة . .

وأكد القرآن المكى احترام الوالدين وأوصى بهما خيرا إلى غير ماحد . .

ووضع القرآن المكى نظام النفقة ورعاية اليتامى ، وتحديد المسئولية والتوبة . وبقيت هذه الأحكام على عموميتها لانسخ فيها لأنها جدول تربية للجماعة الاسلامية التى يمكن أن يناط بها مستقبلا إعادة بناء المجتمع الإسلامى إذا فرض أنه أصيب بخال أوتفكك . كما هو الوضع الحالى للأمة الإسلامية فى الشرق والغرب . .

وفى العهد المكى ابتدأ غرس بذور بعض قوانين يحتاج إليها التنظيم الاجتماعى مستقبلا تمهيدا لإكمالها رويدا رويدا حسب طبيعة المنهج القرآنى وكان من هذه القوانين :

البدء فى قانون : الخمر ، والربا ، والرق . .

الدين هو منهج إلهى ربانى لحياة الناس جميعا يتم تحقيقه فى حياة البشر عن طريق الجهد الانسانى نفسه فى حدود لايكلف الله نفسا إلا وسعها وغاية هذا المنهج هو تحقيق العبودية لله فى العقيدة والأخلاق

والتشريع والعادات والتقاليد وجميع تحرك الإنسان على وجه الأرض تنفيذا للعهد الذى أوثق به الانسان نفسه ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى . .

وعناصر الدين أربعة :

مصدر هو الله الحق . .

ونبى هو الرسول النبى المصطفى . .

ووحى هو الملك الموكل بالاتصال بالأنبياء . .

وكتاب هو دستور الله للبشر . .

ومن ثمار العهد المكى بناء الجماعة الاسلامية وتحديد خصائصها التى تملك بها القيادة الراشدة لبناء المجتمع الاسلامى مستقبلا ، وكانت الشورى والعفو عن الجاهلين والانتصار للحق ، وتحقيق العبودية لله فى كل شى ، هى قواعد هذه الخصائص التى امتلكتها وتمثلتها وحققتها الجماعة التى نيط بها بناء المجتمع الاسلامى فى المدينة المنورة ، وقد خلصت من كل شوائب الحياة الدنيا ، فعمرها ورزقها وولدها منح من عند الله تعالى وهى فى الكون تسير معه بقانونها الربانى الذى جاء به الوحى الأمين ، ولاتملك إلا السمع والطاعة والدعاء الرخى الندى :

(ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) . .

فدل ذلك على إعادة بناء المجتمع الإسلامى إنما يجب أن تبدأ من هذه المرحلة . .

لقد أصبح المجتمع المكى فاسد الهواء سبخ الوجدان فكان لابد من نقلة تسمح للدعوة أن تعبر فيها عن صلاحيتها ومواءمتها واصالتها

والتقائها مع الطبع الإنسانى الذى يحيا بها فى رخاء وسعادة وأمن ويحقق بها العبودية لله فتنزل عليه السكينة وتغشاه الرحمة وتحل عليه البركات ، ولكن هذه النقلة تحتاج إلى تصفية للجماعة حتى تنتقل وهى كلها جيدة المعدن عميقة الإيمان فكان الاسراء والمعراج كغربلة وتصفية نهائية تمهيدا للنقلة إلى طابة لتبدأ الدعوة بأسلوب جديد فى العمل والبناء . .

ولقد ادعى الكافرون زهاء ثلاثة عشر عاما أن محمدا ساحر ، ووقفوا عند الغار أمام العنكبوت الذى ضلل الله به عقولهم وسفه أحلامهم وحقر عقولهم فقال أمية بن خلف « إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد » فشهد على نفسه أنه كان كاذبا يوم أن قال ان محمدا ساحر . .

ولا ينتهى الركب إلى « قديد » فى يوم الثلاثاء فى العقد الأول من شهر الهجرة حتى تبدو علامات النبوة وقد در الضرع الجهيد باللبن مرات ثلاث ، وتغور قوائم فرس سراقة ويطلب الغوث ويكتب له الأمان ثم يهبه رسول الله وهو مازال فى الطريق إلى طابة هدية ماكان يحلم بها طوال حياته قط « سوارى كسرى » وتبقى دلائل النبوة إلى يوم القيامة تؤكد أن محمدا رسول الله حقا ، وأنه لا خلاص لهذه الدنيا من حيرتها وفسادها وآلامها وضيقها إلا بالعودة إلى دعوة الاسلام والدستور الحكيم « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »

هذا ، وبالله التوفيق . .

متولى يوسف حسن شلبى
الشهير : رءوف شلبى

ثبت باهم المراجع

اولا : القرآن الكريم وعلومه

* القرآن الكريم

* ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي – المتوفى سنة ٧٧٤هـ .
  تفسير القرآن العظيم
  دار إحياء الكتب العربية
  عيسى الحلبي وشركاه .

* الآلوسي : العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي . البغدادي – المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ .
  روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .
  إدارة الطباعة المنيرية .

* البيضاوي : ناصر الدين أبو سعيد عبدالله ابن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى ٦٩٢ هـ .
  تفسير البيضاوي
  أنوار التنزيل وأسرار التأويل
  الطبعة الاولى ١٣٢٠ هـ :
  المطبعة العامرة .

* الخازن : علاءالدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادي – المتوفى سنة ٧٢٥هـ
  لباب التأويل في معاني التنزيل
  وعليه تفسير البغوى المعروف بمعالم التنزيل الطبيعة الثانية ١٣٧٥ هـ
  ١٩٥٥ م

(وعلى هامش تفسير البغوى) . مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده .

* الزرقانى : مناهل العرفان فى علوم القرآن
الأستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الطبعة الثالثة
الزرقانى مطبعة الحلبى وشركاه .

* السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن
جلال الدين عبد الرحمن السيوطى طبع فى ١٣٨٧ هـ
المتوفى سنة ٩١١ هـ تحقيق : ١٩٦٧ م مطبعة المشهد الحسينى
محمد أبو الفضل ابراهيم . بالقاهرة .

* الصاوى : : الصاوى على الجلالين
الشيخ أحمد الصاوى المالكى . عيسى الحلبى وشركاه

* الطبرى : جامع البيان عن تاويل آى
أبو جعفر محمد بن جرير القرآن الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ
الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ١٩٥٤م مطبعة م الحلبى
وأولاده .

* الفندى : من الآيات الكونية فى القرآن
الدكتور محمد جمال الدين الكريم طبع فى ١٣٨٠ هـ ١٩٦١م
الفندى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وزارة الاوقاف .

• القرطبي : الجامع لأحكام القرآن .
أبو عبدالله القرطبي مطابع الشعب .

• المراغي : تفسير المراغي
الاستاذ أحمد مصطفى المراغي الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م
مطبعة الحلبي وأولاده .

• النيسابوري : أسباب نزول القرآن للواحدي
أبو الحسن علي بن أحمد الطبعة الأولى ١٣٨٩ ١٩٦٩م .
الواحدي النيسابوري المتوفى سنة ٤٦٨
تحقيق الاستاذ أحمد السيد صقر

• دراز : النبا العظيم ، طبع ١٣٨٩ هـ ،
الدكتور محمد عبدالله دراز ١٩٦٩م مطبعة السعادة .

• دروزة : التفسير الحديث طبع ١٣٨١ هـ ،
الاستاذ محمد عزه دروزة . ١٩٦٢م .داراحياءالكتب العربية

• شاهين :
الاستاذ عبد الرحمن شاهين اعجاز القرآن والاكتشافات
المهندس الحديثة الطبعة الثانية ١٣٦٨هـ
١٩٤٩م ، مطابع ومكاتب زيتون
شبرا القاهرة .

* عبدالباقى :
الاستاذ محمد فؤاد عبدالباقى. — المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم طبع ١٣٧٨ه ؛ مطابع الشعب .

* عرجون :
الشيخ محمد الصادق عرجون — القرآن العظيم هدايته واعجازه فى أقوال المفسرين : طبع١٣٩٦ه ١٩٦٦م ، دار الاتحاد العربى للطباعة .

* قطب :
الاستاذ سيد قطب . — فى ظلال القرآن ، الطبعة الثالثة دار احياء التراث العربى — بيروت .

* منير :
الاستاذ محمد منير الدمشقى — إرشاد الراغبين فى الكشف عن آى القرآن الكريم الطبعة الأولى ١٣٤٦إدارة الطباعة المنيرية .

* محمود :
الدكتور عفيفى محمود. — علم الأجنة فى القرآن طبع١٣٧٩ ه ، ١٩٦٠م .مطبوعات إدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر .

* نووى :
الشيخ محمد نووى الجاوى — التفسير لعالم التنزيل :الطبعة الثالثة ١٣٧٤ه ، ١٩٥٥م ، مطبعة م الحلبى وأولاده .

ثانيا : الحديث وعلومه

- الذهبى : أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ تحقيق على محمد البجاوى . — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال طبع ١٣٨٢ هـ : ١٩٦٣ م ، مطبعة عيسى الحلبى وشركاه .

- السيوطى : الجلال السيوطى المتوفى ٩١١ هـ . — الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير : طبع :١٨ أغسطس ١٩٣٢م ، ١٦ ربيع الثانى ١٣٥١ هـ : مطبعة : دار الكتب العربية الكبرى مصطفى الحلبى وأولاده .

- الشرقاوى : الشيخ عبدالله بن حجازى ابن ابراهيم الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ ، تحقيق : الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد — فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى الطبعة الاولى ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤م ، مطبعة السعادة بمصر

- العزيزى : شرح الشيخ على بن أحمد بن — السراج المنير على الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير .

محمد العزيزى الشافعى المتوفى سنة ١٠٧٠ م . — الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ ،١٩٥٧م مطبعة م ـ الحلبى وأولاده

* العسقلانى : الحافظ شهاب الدين أبى الفضل العسقلانى (ابن حجر) . — فتح البارى بشرح البخارى ، طبع ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩م ، مطبعة م ـ الحلبى وأولاده .

* القسطلانى : شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلانى — ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى الطبعة السابعة ١٣٢٣هـ المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق

* المناوى : محمد المدعو عبد الرءوف المناوى — فيض القدير بشرح الجامع الصغير الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ ، ١٩٣٨م ، مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

* النووى : الإمام الحافظ محى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مشرى الخزامى الحواربى الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ . — صحيح مسلم بشرح النووى المطبعة المصرية ومكتبتها .

* عبد الباقى : المرحوم الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . — اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان مطبعة عيسى الحلبى وشركاه .

* ناصف :

الشيخ منصور على ناصف . التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ ١٩٦٢م ،) دار احياء الكتب العربية ع . الحلبي وشركاه

ثالثا : كتب السيرة النبوية

* ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ . طبع فى ١٣٦٩هـ ، ١٩٥٠ م مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده

* ابن سعد : الطبقات الكبرى

محمد بن سعدبن منيع البصرى الزهرى ولد فى ١٦٨ بالبصرة وتوفى عام ٢٣٠ هـ ببغداد ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧م ، دارصادر — دار بيروت للطباعة والنشر .

* ابن عبدالبر : الدرر فى اختصار المغازى والسير

الحافظ يوسف بن عبد البر النمر المتوفى ٤٦٣ هـ ، ١٣٨٦هـ١٩٦٦ م ،دار التحرير للطبع والنشر

• ابن كثير : السيرة النبوية ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م
الإمام أبو الفداء اسماعيل بن كثير
تحقيق : مصطفى عبد الواحد (دكتور) مطبعة ع الحلبي وشركاه

• ابن هشام : السيرة النبوية ،الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ١٩٥٥م . مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده (مع تحقيق آخر لفضيلة الشيخ محمد محيى الدين) .
أبو محمد عبد الملك بن هشام
ابن أيوب الحميرى
المتوفى سنة ٢١٣ هـ أو ٢١٨ هـ
تحقيق مصطفى السقا ،إبراهيم
الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى .

• أبو شهبة : السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة
الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ١٣٩٠هـ . ١٩٧٠ م .دار الطباعة المحمدية .

• أبو نعم : دلائل النبوة ، ١٣٢٠هـ ،دائرة المعارف النظامية بالهند .
أحمد بن عبد الله بن أحمد
ابن اسحاق بن موسى بن مهران .
المشهور بالأصبهانى المتوفى ٤٣٠ هـ

• البيهقى : أبو بكر أحمد بن الحسين بن على عبد الله بن موسى البيهقى المتوفى ٤٥٨ هـ ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان .
دلائل النبوة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م . مطابع دار النصر .

• التونى : الاستاذ المحامى محمد شوكت التونى .
محمد فى طفولته وصباه (دار القلم) .

• الجوزى : الامام أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى : المتوفى ٥٩٧م تحقيق : مصطفى عبد الواحد (دكتور) .
الوفاء بأحوال المصطفى الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ . ١٩٦٦ م . مطبعة السعادة بمصر .

• الحلبى : العلامة على بن برهان الدين الحلبى الشافعى
وعلى الهامش : السيرة النبوية والآثار المحمدية للشيخ دحلان
السيرة الحلبية . انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون .
الطبعة الثالثة ١٣٥١هـ . ١٩٣٢م
المطبعة الأزهرية .

* السبكى :
الشيخ عبد اللطيف السبكى
الوحى إلى الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

* السهيلى :
عبد الرحمن السهيلى المتوفى ٥٨١هـ ، تحقيق : عبد الرحمن الوكيل .
الروض الآنف فى شرح السيرة النبوية (لابن هشام) ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م مطابع دار النصر .

* السيوطى :
الحافظ جلال الدين عبدالرحمن أبو بكر السيوطى المتوفى ٩١١هـ تحقيق : الدكتور محمد خليل الهراس .
الخصائص الكبرى ، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧ م مطبعة المدنى .

* الفاسى :
الحافظ أبو الطيب الفاسى .
وفاء الغرام فى أخبار البلدالحرام

* القسطلانى :
شهاب الدين أحمد بن محمد
المواهب اللدنية وبها مشها : زاد المعاد فى هدى خير العباد للإمام شمس الدين عبد الله .

الخطيب القسطلانى — الدمشقى الحنبلى المعروف (بابن القيم)
شرح الامام : محمدبنعبدالباقى الزرقانى المالكى — طبعة أولى ١٣٢٦ هالمطبعة الازهرية المصرية .

• الكاندهلوى : حياة الصحابة رضى الله عنهم
الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي — ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، مطابع دار النصر .

• الماوردى : أعلام النبوة
أبو الحسن على بن محمدالماوردى

• المولى :
الاستاذ جاد المولى . — محمد المثل الكامل

• الهمذانى : تثبيت دلائل النبوة
عبد الجبار بن أحمد الهمذانى المتوفى ٤١٥ هـ ، تحقيق :الدكتور عبد الكريم عثمان — ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٩م ، دار العربية بيروت لبنان

• دروزه : سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — الطبعة الثانية ١٣٨٤
الأستاذ محمدعزه دروزه — ١٩٦٥م ، مطبعة عيسى الحلبى وشركاه .

• دينية : محمد رسول الله

الفونس اتين دينيه ١٩٦٦ م .

وسليمان بن ابراهيم مطابع دار المعارف .

ترجمة : الدكتور عبدالحليم محمود

الدكتور محمد عبد الحليم محمود

• رضا : محمد رسول الله ـ صلى الله عليه

محمد رضا وسلم الطبعة الخامسة ، ١٣٨٥ﻫ

١٩٦٦م ،مطبعة يحيى الحلبي

وشركاه .

• عياض : شرحا الشفاء الطبعة الاولى ١٣٢٥ﻫ

القاضي عياض بن موسى بن المطبعة الازهرية المصرية .

عياض بن عمر بن موسى بن عياض

اليحصبي الغرناطي (أحمد شهاب

الدين الخفاجي المصري)

(وعلى القاري) .

• محمود : الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

الدكتور عبد الحليم محمود لمحات من حياته ونفحات من

هديه ١٣٩٠ ﻫ ، ١٩٧٠ م ،

مطبعة الازهر (سلسلة البحوث

الإسلامية) .

• مؤمن : الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجى — نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار . الطبعة الأخيرة عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م : مصطفى الحلبى وأولاده .

رابعا : كتب الدعوة

• ابن نبى : مالك بن نبى ، ترحمة : عبد الصبور شاهين (دكتور) . — الظاهرة القرآنية الطبعة الاولى ١٩٥٨م ، مطبعة دار الجهاد .

• الخولى : الأستاذ البهى الخولى . — تذكرة الدعاة ، رمضان ١٣٦٣هـ مطبعة الاعتماد بمصر .

• الدهلوى : الإمام أحمد المعروف بشاه ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى ، تحقيق : فضيلة الشيخ سيد سابق . — حجة الله البالغة ، مطبعة دار الكتب الحديثة .

• الراوى : الأستاذ محمد الراوى . — الدعوة الإسلامية دعوة عالمية سلسلة من الشرق والغرب ١٩٦٥ الدار القومية للطباعة والنشر .

* الغزالى : فقه السيرة الطبعة الرابعة
الشيخ محمد الغزالى . ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م مطبعة السعادة بمصر .

* المودودى : المصطلحات الاربعة فى القرآن
الشيخ أبو الأعلى المودودى الطبعة الخامسة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م
دار القلم بالكويت .

* الندوى : النبوة والانبياء فى ضوء القرآن
الاستاذ أبو الحسن على الحسنى ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م ، المجمع
الندوى الإسلامى العلمى ندوة العلماء
لكهنو (الهند) .

* الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط
الاستاذ أبو الحسن على الحسينى المسلمين الطبعة الخامسة ١٣٨٤هـ
الندوى ١٩٦٤ م ، دار الطباعة الحديثة

* الندوى : الطريق إلى المدينة ١٣٨٥ هـ
الاستاذ أبو الحسن على الحسينى المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
الندوى الرسالة المحمدية ، المطبعة
السلفية .

* حسين : رسائل الإصلاح مكتبة القدس
الإمام الاكبر الشيخ محمد الخضر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩ م .
حسين .

• شديد : الجهاد فى الاسلام مطبعة العالم
الاستاذ محمد شديد العربى

• محفوظ : هداية المرشدين
الشيخ على محفوظ .

• محمود : القرآن والنبى ١٣٨٧ هـ دار
الدكتور عبد الحليم محمود الكتب الحديثة

• محمود : الإسراء والمعراج
الدكتور عبد الحليم محمود ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م مطابع دار النصر
(سلسلة البحوث الإسلامية)

• محمود : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية
الاستاذ على عبد الحليم محمود ١٣٨٩هـ ١٩٦٩ م المجلس الاعلى
للشئون الإسلامية .

خامسا : كتب فى التصوف

• الغزالى : القصور العوالى فى رسائل الإمام
أبو حامد محمد بن محمد بن الغزالى شركة الطباعة الفنية
محمد الغزالى المتوفى فى ٥٠٥ هـ المتحدة
اخراج الشيخ محمد مصطفى
أبو العلا .

* القشيرى : كتاب المعراج
أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى ، المتوفى ٤٦٥ هـ
تحقيق : الدكتور على حسن عبد القادر .
الطبعة الاولى ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م
مطبعة السعادة .

* المناوى : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية
الشيخ عبد الرءوف المناوى
١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م
مطبعة الانوار .

* محمود : الإسلام والعقل
الدكتور عبد الحليم محمود
١٩٦٦م دار الكتب الحديثة
مطبعة مخيمر .

* محمود : المنقذ من الضلال لحجة الإسلام
الدكتور عبد الحليم محمود
الطبعة السادسة ١٣٨٨هـ١٩٦٨م
مطابع دار النصر

* محمود : الإسلام والإيمان الطبعة الثانية
الدكتور عبد الحليم محمود
١٩٦٨ م مطابع دار النصر .

* محمود : المدرسة الشاذلية ١٩٦٨ دار الكتب الحديثة .
الدكتور عبد الحليم محمود

سادسا : كتب فى الفقه واصوله وتاريخ التشريع

* ابن السبكى : الإمام تاج الدين بن عبد الوهاب — حاشية العلامة البنانى على جامع الجوامع مطبعة ع ، الحلبى وشركاه .

ابن السبكى :

* الخضرى : الشيخ محمد الخضرى بك — تاريخ التشريع الطبعة الثامنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م المكتبة التجارية الكبرى .

* السايس : فضيلة الشيخ محمد على السايس «وآخرون» — تاريخ التشريع الإسلامى الطبعة الثانية ١٣٥٧هـ ١٩٣٩ م مطبعة الشرق الإسلامية .

* الشاطبى : أبو اسحاق الشاطبى ابراهيم ابن موسى اللخمى الغرناطى المالك المتوفى ٧٩٠ هـ تحقيق وتعليق الشيخ عبدالله دراز . — الموافقات فى أصول الشريعة المطبعة الرحمانية ـ بمصر .

* محمود : الدكتور عبد الحليم محمود — العبادة أحكام وأسرار الجزء الأول ربيع الأول ١٣٨٨هـ يونية ١٩٦٨ م دار النصر للطباعة

سابعا : كتب فى التاريخ الاسلامى

* ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٣٨٥هـ
عز الدين أبو الحسن على بن أبى ١٩٦٥م دار صادر ـ دار بيروت
الكرم محمد بن محمد بن عبد للطباعة والنشر .
الكريم بن عبد الواحد الشيبانى
المشهور بابن الاثير

* الازرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
أبو الوليد محمد بن عبدالله الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م ،
ابن أحمد الازرقى تحقيق : دار الثقافة مكة المكرمة .
الأستاذ رشدى الصالح ملحس

* الاهل : من حضارة الإسلام
الأستاذ عبدالعزيز سيد الاهل ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

* الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية
المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك الطبعة الثامنة ١٣٨٢ هـ المكتبة
التجارية الكبرى .

* السباعى : تاريخ مكة الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ
الأستاذ أحمد السباعى دار قريش للطباعة بمكة المكرمة .

* السكرى : المحبر ، المكتب التجارى
أبو جعفر محمد بن حبيب بن للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت

أمين بن عمر الهاشمى البغدادى
المتوفى ٢٤٥ هـ .
رواية : أبو سعيد الحسن بن
الحسين السكرى .تحقيق :
الدكتورة اليزه لختن شبتر .

• الطبرى : تاريخ الطبرى ـ تاريخ الرسل
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى والملوك ١٩٦١ م دار المعارف
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم بمصر .

• المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر
أبو الحسن على بن الحسين بن ١٢٨٣ هـ ، مطابع بولاق .
على المعروف ـ بالمسعودى
المتوفى ٣٤٦ هـ

• أورنولد : الدعوة إلى الإسلام الطبعة الثانية
سيرتوماس ـ و ـ اورنولد ١٩٥٧م لجنة البيان العربى .
ترجمة : الدكتور حسن ابراهيم
حسن ، الدكتور عبد المجيد
عابدين ، اسماعيل النحراوى .

• حسن : تاريخ الإسلام ، السياسى
الدكتور حسن ابراهيم حسن والدينى والثقافى والاجتماعى
الطبعة السادسة ١٩٦١م مطبعة
النهضة المصرية .

• حسن :
الدكتور على ابراهيم حسن . التاريخ الإسلامى العام الطبعة الثالثة ١٩٦٣م ، مطبعة النهضة المصرية .

• دروزه :
الأستاذ محمد عزه دروزه تاريخ الجنس العربى فى مختلف الأطوار والأدوار والاقطار الطبعة الاولى ١٣٨١ هـ ١٩٦٢م المطبعة العصرية صيدا لبنان.

• شحاته :
الدكتور عبد الفتاح شحاته تاريخ العرب وعصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ط أولى ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م.

• غنيم :
الاستاذ محمد بك غنيم خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام

• ماجد :
الدكتور عبد المنعم ماجد . الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧م مطبعة دار الفكر العربى

• هونكه :
الدكتور مزيجريد هونكه شمس الله على الغرب أوفضل العرب على أوربا
ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على الطبعة الثانية ١٩٦٩م مطابع دار المعارف بمصر

• هيكل : حياة محمد الطبعة الرابعة ١٩٤٧م
الدكتور محمد حسنين هيكل مطبعة مصر – شركة مساهمة
مصرية

ثامنا : كتب فى التاريخ العام

• مصطفى : تاريخ العرب قبل الإسلام
الشيخ محمد مصطفى

• مؤنس : الامبراطورية البيزنطية .
ترجمة حسنين مونس

تاسعا : كتب فى الفلسفة والدراسات الاجتماعية والنفسية

• ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون الطبعة الاولى
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون
تحقيق : الدكتور على عبد الواحد ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ،مطبعة
وافى . لجنة البيان العربى .

• أبو حنيفة : الفقه الأكبر ، مطبعة دار الكتب
أبو حنيفة النعمان بن ثابت العربية الكبرى .
الكوفى .

* أحمد :
دكتور محمد شمس الدين أحمد
فن خدمة الجماعة فى محيط الخدمة الاجتماعية الطبعة الثانية ١٩٦٣م ،مطبعة لجنة البيان العربى .

* أحمد :
دكتور أحمد كمال أحمد وعدلى سليمان .
الخدمة الاجتماعية والمجتمع ١٩٦٣م دار الحمامى للطباعة

* البزدوى :
جمعه الشيخ القاضى الإمام أبو اليسر محمد بن محمد ابن عبد الكريم البزدوى
حققه : الدكتور هانزبيترلنس
أصول الدين ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م
دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبى وشركاه

* البطريق :
الاستاذ محمد كامل البطريق
الخدمة الاجتماعية مهنة ذات علم وفن ، الطبعة الثانية ١٩٦٢م مطبعة لجنة البيان العربى

* البهى :
الدكتور فؤاد البهى .
علم النفس الاجتماعى .

* الجسر :
الشيخ نديم الجسر – مفتى طرابلس .
قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن الطبعة الثالثة ١٣٨٩، هـ . ١٩٦٩ م مطابع المكتب الإسلامى

• الشهرستانى : الملل والنحل ١٩٥٦م
أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
ابن أحمد الشهرستانى المتوفى ٥٤٨ هـ
تحقيق : الدكتور محمد بن فتح الله
بدران

• العقاد : الله : كتاب فى نشأة العقيدة
الاستاذ عباس محمود العقاد الإلهية الطبعة الرابعة ١٩٦٤م
مطابع دار المعارف بمصر

• العقاد : التفكير فريضة إسلامية
الطبعة الاولى ١٩٦٤ م مطابع دار
القلم (المؤتمر الإسلامى) .

• العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
الاستاذ عباس محمود العقاد الطبعة الثالثة ١٩٦٦م ،مطابع
دار القلم .

• الغزالى : فيصل التفرقة بين الإسلام
الإمام أبو حامد محمد بن محمد والزندقة الطبعة الاولى ١٣٨١هـ
ابن محمد الغزالى المتوفى ٥٠٥ هـ ١٩٦١ م ، دار احياء الكتب
تحقيق : الدكتور سليمان دنيا الكتب العربية .

• النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام
الدكتور على سامى النشار طبعة رابعة .

• بدران : الفلسفة الحديثة فى الميزان
الدكتور محمد بن فتح الله بدران وتأسيس القواعد من القرآن
الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م
مطبعة مخيمر

• بيل : القيادة وديناميكية الجماعات
جورج - م - بيل
جوم - بوهلن ابريل ١٩٦٩ م ، مؤسسة فرانكلين
ج نيل روادا باو ترجمة : للطباعة والنشر - القاهرة -
الدكتور محمد على العريان نيويورك
الدكتور ابراهيم خليل شهاب

• حب الله : الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية
الدكتور محمود فتح الله حب الله ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م مطبعة عيسى
الحلبى وشركاه .

• حسانين : دراسات فى تنظيم المجتمع
دكتور سيد أبو بكر حسانين الطبعة الأولى ١٩٦٩ م المطبعة
الفنية الحديثة .

• حسن : أصول البحث الاجتماعى
دكتور عبد الباسط محمد حسن الطبعة الثانية ١٩٦٦ م مطبعة
لجنة البيان العربى .

• شلبى : الشيخ متولى يوسف شلبى
أضواء على المسيحية الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م الدار الكونية للطباعة والنشر

• شهاب : الدكتور ابراهيم شهاب
أساسيات التربية

• شوقى : دكتور عبد المنعم شوقى
مبادىء تنمية وتنظيم المجتمع مطابع دار الكتب العربى – بمصر

• عبد الرازق :
• الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م لجنة التأليف والترجمة والنشر

• فروخ : الدكتور عمر فروخ
تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون الطبعة الاولى ١٣٨٢هـ ١٩٦٢ م مطابع دار الكتب – بيروت

• فهمى : الدكتور مصطفى فهمى
سيكولوجية الطفولة والمراهقة

• محمود : الدكتور عبد الحليم محمود
التفكير الفلسفى فى الإسلام الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨م مطابع دار النصر .

• موريسون : العلم يدعو للإيمان
كريس موريسون ١٩٥٤ م مؤسسة فرانكلين
ترجمة : الاستاذ صالح الفلكى للطباعة والنشر نيويورك — القاهرة

عاشرا : كتب الأدب

• أبو الفضل : دراسات فى العصر الجاهلى
الاستاذ أحمد أبو الفضل ١٣٨٥هـ- ١٩٦٩م .
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

• الأصفهانى : الأغانى .
على بن الحسين بن محمد بن
أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن
بن مروان بن عبدالله بن مروان
أبى الفرج بن محمد الأصفهانى
المتوفى ٣٥٦هـ .

• الآلوسى : بلوغ الأرب
أبى الفضل شهاب الدين السيد
محمود الآلوسى البغدادى
المتوفى ١٢٧٠هـ .

• الشنقيطى : المعلقات العشر

• العقاد : عبقرية محمد
عباس محمود العقاد

• الميدانى : مجمع الأمثال
أحمد بن محمد بن أحمد بن
ابراهيم ، المعروف بالميدانى مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ
النيسابورى ١٩٥٥ م .
المتوفى ٥١٨ هـ .
تحقيق : الشيخ محمد محى الدين
عبد الحميد

• الهاشمى : جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء
المرحوم السيد أحمد الهاشمى لغة العرب الطبعة الثانية
والعشرون ١٣٨٧ هـ مطبعة
الاستقامة بالقاهرة

حادى عشر (ب) : كتب اللغة

• ابن منظور : لسان العرب ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م
أبو الفضل جمال الدين محمد مطابع بيروت .
ابن مكرم بن منظور الافريقى
المصرى .

• الزمخشرى : أساس البلاغة ١٣٨٥ هـ١٩٦٥ م

جادالله أبو القاسم محمود بن عمر دار صادر داربيروت – للطباعة

الزمخشرى والنشر .

• الفيروزابادى : القاموس المحيط

محى الدين محمد بن يعقوب الطبعة الثانية ١٣٧١هـ١٩٥٢م

الفيروزابادى : مطبعة م- الحلبى وأولاده.

• الياس : القاموس العربى الانجليزى .

الياس انطون الياس (القاموس العصرى)

أدوار – إلياس . الطبعة التاسعة ١٩٥٤ م المطبعة

العصرية .

• نوح : القاموس الأندونيسى

عبدالله بن نوح حاكرتا أندونيسيا

• ياقوت : معجم البلدان ١٣٨٨ هـ١٩٦٨ م

شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت مطابع بيروت

ابن عبدالله الحموى الرومى

البغدادى .

ثانى عشر : الكتب الملاوية

1. **Dr. Hamka.** Sejarah Umat Islam 1965 — K.L Pustaka Antara

تاريخ الأمة الإسلامية   دكتور الحاج عبد المالك كريم أمر الله .

2. **H. Zainal Arifin Abbas:** Sejarah dan Perjuangan Nabi Muhammad. 1968 — K.L. Pustaka Antara.

زين العارفين عباس

تاريخ وجهاد النبى محمد —

صلى الله عليه وسلم — .

3. **H. Zainal Abbas.** Peri Hidup Muhamad Rasulullah S.A.W . 1964 — Maju - Medan.

حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم

4. **H. Munawar — Khalil.** Kelengkapan Tarikh Nabi Muhammad S. Aw. Ketiga 1966 — Djakarta.

التاريخ الكامل للنبي — صلى الله عليه وسلم — .

حاج منوار خليل .

الفهرست

الباب الأول

مناهج الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى

الفصل الأول

منهج إثبات وحدانية الله تعالى

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الثانى

منهج العمل مع الجماعة

الموضـــــوع الصفحة

الفصل الثالث

مراحل الدعوة

الموضـــــــــوع الصفحة

الفصل الرابع

معالم فى طريق الدعوة

الموضــــوع — الصفحة

الباب الثانى

الغايــــات

ثمار العهد المكــــى وخاتمته

الفصل الأول

فى العقيدة الإسلامية

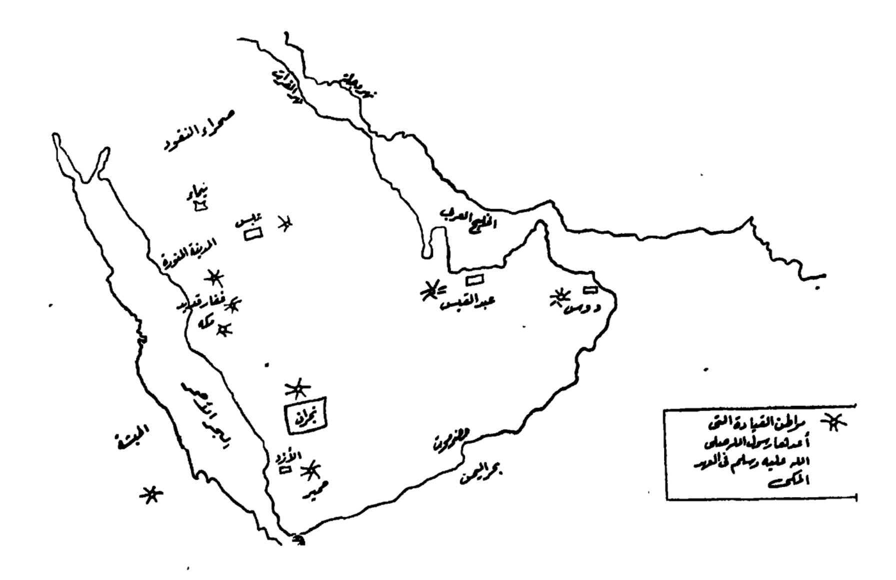
الموضــــــــــــوع | الصفحة

الفصل الثانى

فى التشريع والأخلاق والجماعة الإسلامية

الفصل الثالث

خاتمة العهـــد المكـــى


صحراء النفود
تيماء
المدينة المنورة
غفار قريش
مكة
البحر الأحمر
الحبشة
نجران
الأزد
حمير
بحر اليمن
الخليج العربي
عبد القيس
الفرات
مواطن القيادة التي أعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العهد المكي

